الفيصل

مجلة ثقافية شهرية ، العدد ٢٦٧ ، رمضان ١٤١٩ هـ - ديسمبر ١٩٩٨م / يناير ١٩٩٩ م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 267 - DEC 1998 / JAN 1999

طلع البدر علينا...



المدينة المنورة



٩

أدب الطبيب

لإسحاق بن علي الرهاوي

المتوفى في الربع الأول من القرن الرابع الهجري تقديراً

تحقيق

الدكتور مريزن سعيد مريزن عسيري

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

يطلب من مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. ص.ب: (٥١٠٤٦) الرياض - ١١٥٤٣ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ٤٦٥٢٢٥٥ ناسوخ: ٤٦٥٩٩٩٣



الفيصل
مجلة ثقافية شهرية ـ السنة ٢٣ـ العدد ٢٦٧ ـ رمضان ١٤١٩هـ ـ ديسمبر١٩٩٨م/ يناير ١٩٩٩م
ALFAISAL MAGAZINE - No267 - DEC 1998/JAN.1999

المحتويات



المدينة المنورة

للمدينة المنورة مكانة خاصة في قلوب المسلمين، فقد انطلقت منها الدعوة الإسلامية، ووضعت فيها اللبنات الأولى للدولة الإسلامية الراشدة، فهي طَيْبة الطيِّبة، مُهاجَر الرسول صلى الله عليه وسلم ومدفنه ومبعثه.

أعدت «الفيصل» استطلاعًا مدعومًا بالصور يتناول لمحات من تاريخها وجغرافيتها مع التركيز على ما شهده المسجد النبوي من تطور عبر التاريخ.



المصاحف المبكرة وأهميتها

كتبت المصاحف المبكرة على الرَّقّ ثم على اللِّخاف والعظام والعُسُب وغيرها، ولكن ما المرحلة التي تتوسط هاتين المرحلتين؟ وهل كان الرَّقّ على شكل سجل يطوى؟ وكيف تطور تجليد المصاحف؟



حسين سرحان: سيرة وقلم

حسين سرحان أديب أغنى الساحة الثقافية بكتاباته التي جمعت بين السخرية والعمق، وأثارت مناوشاته ومناقشاته قضايا ساخنة، إلا أن ما كتب عنه لم يكشف كثيرًا من جوانب شخصيته. في هذا العدد أضواء على سيرته الذاتية ومسيرته مع القلم.



فن عمارة المساجد في الجزائر

يمثل المسجد محور أي مدينة إسلامية، مما يجعله يعكس التطور المعماري فيها. عن فن عمارة المساجد في الجزائر، استطلاع مصور يتتبع زخرفتها وأهم عناصرها المعمارية، وما تعرضت له من تأثيرات في عهود التاريخ المختلفة.



البحث عن إكسير السعادة المفقود

النفس الإنسانية في حالة نشاط دائم، لا تستقر مثل موج البحر، وسعيها إلى السعادة يقودها إلى مناح شتى، ولكن أين السعادة الدائمة التي لا تنفد، والكاملة التي لا تنحصر؟



أطباق من الميكروبات!

مع أن تقانة الغذاء تشهد تطورًا كبيرًا، إلا أن التسمم الغذائي لا يزال يهدد صحة الإنسان؛ لتلوث الغذاء بجراثيم قديمة وحديثة وفيروسات تتنقل من مكان إلى آخر بسرعة شديدة، حتى إن السلطات الصحية في هونغ كونغ أبادت أكثر من مليون ونصف المليون من الدجاج المشكوك في إصابته بفيروس أنفلونزا الدجاج خوفًا من انتشار الفيروس في أنحاء أخرى من العالم، فكيف السبيل إلى الوقاية من أطباق الميكروبات؟



النظام المركزي الشمسي بين ابن الشاطر وكوبرنيكوس

وضعت فكرة مركزية الشمس أو دوران الأرض والكواكب السيارة حول الشمس حدًا فاصلاً بين عصرين فلكيين، وكان للفلكي العربي ابن الشاطر إسهام واضح في هذا المجال. فكيف تخلص من إشكالات النظرية الفلكية القديمة؟

هل يمكن تعليم الترجمة؟



الترجمة ليست عملاً آليًا، وإنما تشبه عملية التأليف والإبداع، فنقل التعبير الفكري من لغة إلى أخرى ليس بالمهمة الهينة.. فهل يمكن تعليم الترجمة؟ وكيف؟



التأثيرات الاجتماعية لثورة المعلومات

أدى تطور وسائل الاتصال إلى اختزال المسافات بين شعوب العالم، إلا أنه أدى في الوقت نفسه إلى تضاؤل حجم الاتصال المباشر بين الناس، حتى أصبح التعبير عن العواطف الإنسانية بين الجيران يتم من خلال البريد الإلكتروني، فما أبعاد التأثيرات الاجتماعية لثورة المعلومات؟



الفلكلور في العصر العباسي

اهتم الخلفاء العباسيون بنقل علوم الشعوب الأخرى لإغناء الحضارة الإسلامية، ولم يغب عن بالهم الفلكلور، بل عشقوه، وترجموا أساطير غيرهم إلى اللغة العربية، حتى أصبحت جزءًا من النسيج الثقافي العربي.



خيارنا في عصر طغيان السرعة!!

اللهاث من أجل اللحاق بركب العصر أصبح طابعًا عامًا في البلدان التي توصف بالنامية، وهو ما اصطلح على تعريفه بـ «خرق المراحل»، ولكن ما خيارها إزاء طغيان السرعة في تحولات العصر؟ سؤال ينبغي أن نجيب عنه نحن العرب والمسلمين.



أطفالنا ومخاطر الدواء

جعل الله لكل داء دواء، ولكن إذا أسيء استخدامه فإنه يكون أشد فتكًا من المرض، وبخاصة للأطفال. فما الأضرار الدوائية الناجمة عن الاستعمال غير الصحيح للأدوية؟ وكيف يمكن تفاديها؟



قصة السفود بين العقاد والرافعي

في كتاب «على السفود»، لم يدع مصطفى صادق الرافعي منقصة إلا رمى بها عباس العقاد، ومع ذلك نجده يصرح للأديب أحمد حسن الزيات أنه يحترم العقاد، ويكرهه في الوقت نفسه. فما قصة السفود وتداعياتها؟

الفيصل

الناشر: دار الفيصل الثقافية

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ١٥٠ جنيه ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: **يحيى محمود بن جنيد**

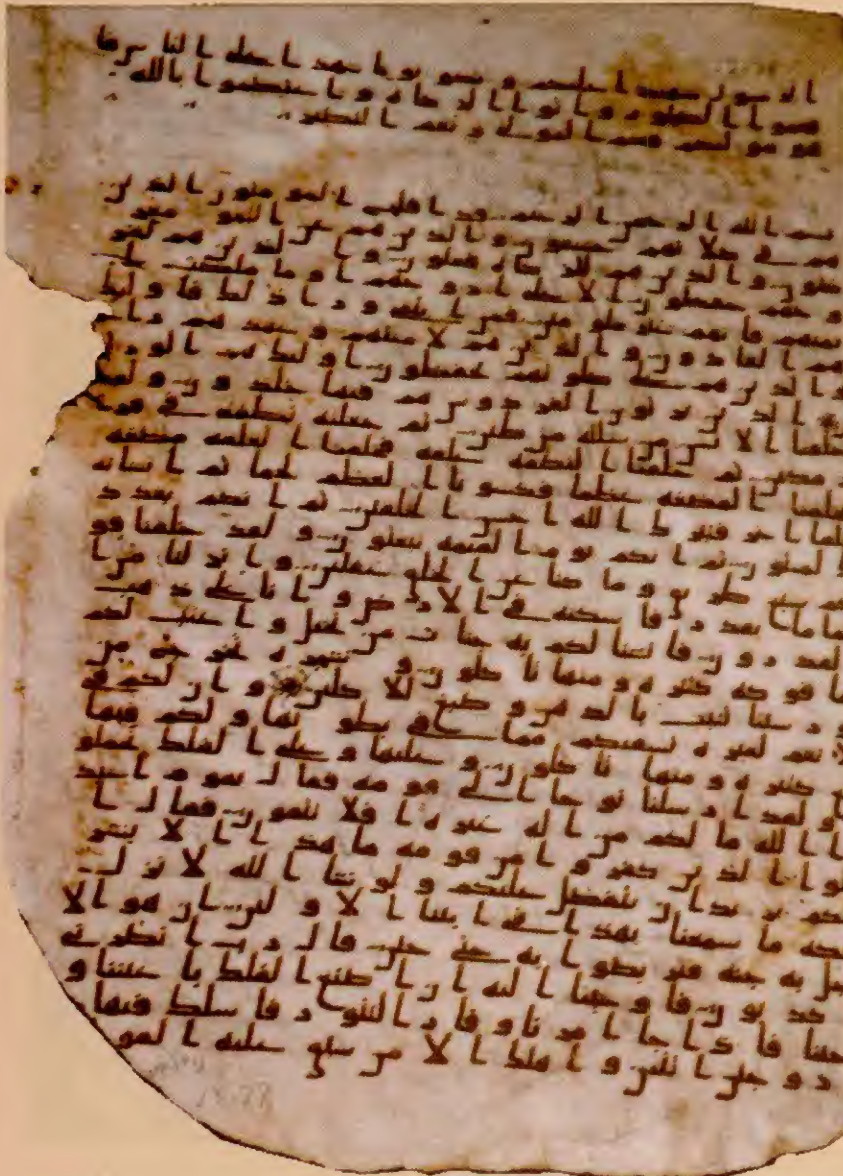
مدير التحرير: **عبدالله يوسف الكويليت**

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

المصاحف المبكرة وأهميتها

عبدالله محمد المنيف



فواصل السور والآيات، ونقط الإعجام

تعد نسخ المصاحف الأولى المكتوبة على الرّق من أندر المصاحف الموجودة اليوم؛ لأنها من المصاحف القديمة التي جنى عليها تقادم الزمن، ففقدناها، وصرنا لا نجد منها إلا أجزاء، ويندر أن نجد منها مصحفًا كاملاً.

وقبل الخوض في أشكال المصاحف، لابد من التعرض إلى أسباب تسمية القرآن بالمصحف، وأصل ذلك.

تذكر الروايات التاريخية أنه لما أراد أبو بكر رضي الله عنه جمع القرآن اختلف في تسميته، فمنهم من قال: سموه إنجيلاً، فكرهوا هذه التسمية، ومنهم من قال: سموه: سِفرًا، فلم يتفق على ذلك، إلى أن قال لهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: رأيت بالحبشة كتابًا يدعونه بالمُصحف، فسمُّوه به. وفي رواية أخرى عن الجاحظ تؤكد أن أصل تسمية القرآن بالمصحف إنما قدمت من الأحباش، على أن تسمية المصحف عرفها العرب، ووردت في شعر لامرئ القيس إذ يقول:

أتت حجَج بعدي عليها فأصبحت

كخطِّ زَبُور في مصاحف رُهْبان

وجاء في لسان العرب (مادة صحف) قوله: والمُصحف: الجامع للصُّحُف المكتوبة بين الدَّفتين، كأنه: أُصحف... قال الأزهري: وإنما

سمي المصحف مصحفًا لأنه أُصحف: أي جُعل جامعًا للصحف المكتوبة بين الدفتين... وعن الفرّاء: وقوله: مُصحَف من أُصْحِفَ، أي جُمعَت فيه الصُّحُف.

أشكال المصاحف المعروفة حتى اليوم

إن الحديث عن شكل المصحف العام، واختلاف أشكاله بين أفقي، وعمودي، (مستطيل) ومربع، أو على هيئة سجل، ومن حيث تجليده إما بلوحين، أو دفتين، يحتاج إلى تقصٍ جاد؛ لأن الباحثين فيه اختلفت آراؤهم تبعًا للاكتشافات المستمرة للمصاحف في أنحاء العالم الإسلامي وغيره. كما أن المعاجم اللغوية لم تسعفنا بما يحقق لنا تعرف أنواع تلك المصاحف؛ ولا تلك الطرائق التي كان يصنع بها المصحف في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة.. أمام هذا القصور المعرفي لشكل المصحف ذهب الدكتور محمد مرزوق في كتابه «المصحف الشريف» إلى أن شكل المصحف في أول الأمر اتخذ الشكل الأفقي، أي إن عرض الصفحة يزيد على طولها، ثم الشكل العمودي (المستطيل) الذي هو شكل الكتب الآن، مع العلم أن النماذج المبكرة من المصاحف التي تنتسب إلى القرن الأول الهجري كانت تتخذ الشكل العمودي، والمكتوبة بما يعرف بالخط الحجازي المائل، وإن كان الغالب في المكتشفات الحديثة للمصاحف هو الشكل الأفقي، إلا أن الاكتشافات التي تمت بجامع صنعاء الكبير قد أثبتت للباحثين أسبقية الشكل العمودي على الشكل الأفقي.

ثم ألا يحق لنا أن نتساءل عن المرحلة الوسطى بين كتابة القرآن على اللِّخاف(١) والعظام والعُسُب (٢) وغيرها، وكتابته على الرَّقّ في أول الأمر؟ وهل كان هذا الرَّق على شكل سجل طويل يُطوى، أم كان هناك من رأى أن يتخذ له قطعًا من الرَّق متساوية المقاس تكون الكتابة فيها إما أفقية وإما عمودية؟ وكيف اتخذت هذه الطريقة في الكتب؟.

من المعلوم أن القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم دُوّن على مواد شتى، ثم جمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه في صحف، ولا نعلم شكل تلك الصحف، ولم تسعفنا كتب السنة ولا المصادر التاريخية أو اللغوية بما يوضّح شكل مادة الجمع. هل كان في مصحف، أم كان في شكل سجّل يشبه كتب اليهود والنصارى؟ فقد علمنا أن اليهود كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة النبوية، ولعل لهذا التساؤل ما يسوّغه في كتاب الله العزيز إذ يقول جلّ وعلا: *يومَ نَطوي السَّماء كطيِّ السجلِّ للكتب*. **الأنبياء**:١٠٤.

إذ كيف يكون طيّ السجل؟ هل يكون بوضع ورقة على أخرى، أم طيه على شكل لفافة يُلفّ بعضها على بعض، ويؤيد هذا ما تم العثور عليه في الجامع الأموي من وجود مصاحف على شكل سجلات مختلفة الأطوال تتخذ شكل اللفافة.

وفي ضوء ما سبق من قولنا بوجود بعض النماذج للمصاحف المبكرة، والمكتوبة فيما يشبه السجل أو اللفافة، فقد تشتمل هذه اللفافة أو السجل أو الصحيفة على سورة واحدة طويلة، أو على أكثر من سورة، إذا كانت سورًا قصارًا. وهذه الطريقة في كتابة المصاحف في أول الأمر تشابه إلى حد ما طريقة كتابة التوراة، وللقراءة فيها لابد من نشرها، وقد قال تعالى: *بل يُريدُ كلُّ امرئٍ منهم أن يُؤتى صُحُفًا مُنشَّرة*. **المدثر**:٥٢.، إذ إن النشر لا يكون إلا لشيء مطويّ، ويدل على ذلك أيضًا ما ورد في سنن أبي داود في الحديث الذي ذكر فيه آية الرجم عند اليهود: «... فقال لهم صلى الله عليه وسلم: ما تجدون في التوراة في



الخط الحجازي المائل

شأن الزنا؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلَدون، فقال عبدالله بن سَلاّم: كذبتم إن فيها الرجم، فأْتوا بالتوراة فنشروها، فجعل أحدهم يده على آية الرجم..»

ويستدل على ذلك أن التوراة نشرت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كذلك حديث الرؤيا التي رآها عثمان رضي الله عنه، ليلة مقتله، وهي قوله: «.. قالوا لي - يعني أبا بكر وعمر - اصبر فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه، فقتل وهو بين يديه». وعلى هذا، فالذي يظهر أن المصحف في فترة الخلفاء الراشدين كان على هيئة سجل، ثم تطور وأخذ الشكل الأفقي، أو العمودي في فترة لاحقة، ربما كانت في العصر الأموي.

تجليد المصاحف القديمة

أما تطور دَفَّتي المصحف، فقد ذُكر في المصادر أن الصحف المكتوبة كانت توضع بين لوحين كما في حديث عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه: «أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر فإنه أول من جمع بين اللوحين».

ولعل هذا الحديث يؤيد ما ذهبنا إليه من كون المصحف في أول الأمر كان يكتب على هيئة سجل، ويوضع بين لوحين أحدهما في الطرف الأيمن، والآخر في الطرف الأيسر، ثم يطويان حتى يلتقيا، ثم يربطان لكي لا تنفلت اللفّة.

وقد يكون المقصود باللوحين أن يكون المصحف مجلدًا بلوحين خشبيين كما هو متبع في تجليد (أو تلويح) المصاحف المغربية حتى منتصف القرن السابع الهجري. أو ما هو متبع إلى عهد قريب في المخطوطات الحبشية الأمهرية.

كما قد ترد لفظة دَفَّتي المصحف بمعنى غلافه؛ إذ ورد في حديث المرأة التي سألت ابن مسعود - رضي الله عنه - عن حكم الواصلة، ونهيه لها، فقالت: «والله لقد تصفحت ما بين دَفّتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول...»

على أن هناك كثيرًا من الباحثين اعتقدوا أن التجليد الإسلامي متلقى من الحضارات السابقة للإسلام، كالأقباط في مصر، أو الأحباش. إلا أن كون القرآن عربيّ النشأة فقد فكر العرب بالضرورة في عملية تجليده وتغليفه، لعنايتهم به، ولخوفهم عليه. ولما كان العرب في الحجاز أهل تجارة، وتجارتهم هذه تستوجب عليهم حفظها في سجلات، وهذه السجلات ليست ورقة واحدة، بل عدة ورقات، ولعدة أشخاص، فلربما كانت هذه السجلات تجلّد بأشكال متباينة، وبسيطة.

وقد اختلفت أشكال جلود المصاحف باختلاف الشكل الخارجي للمصاحف، فمنها الشبيه بالمربع، ومنها ما هو أفقي، ومنها ما هو عمودي، أو رأسي، ومنها ما يشبه الصندوق.

ولعل أقدم النماذج المعروفة من الأغلفة يعود تاريخها إلى عام ٢٧٠هـ - ٨٨٣م، وهي جزء من غلاف مصحف على هيئة صندوق.

الخطّ الذي كتبت به المصاحف المبكرة

تعدّ مسألة استعمال الخطوط ومسمياتها، والتدوين وبداياته من الأمور التي أشكل فهمها على الباحثين في العصر الحديث، لقصور المعلومات التي اعتُمد فيها على الرواية الشفوية، واشتمال تلك الروايات على قليل من الوصف دون إثبات الأمثلة والأشكال.

وإن كان إيراد تلك الأشكال والأمثلة لا يغني عن الأصل؛ لأن الناقل قد تعوزه المهارة والقدرة على محاكاة الشكل الأصلي، وأدى اختلاف الروايات إلى كثير من اللبس، والتشويش عند بعض الدارسين لها بعدهم، عند اعتماد المتأخرين على الموازنة وإظهار الفروق.

ويعد ابن النديم (ت: ٤٣٨هـ/١٠٤٧م) في فهرسته أول من أمدّنا بأسماء الخطوط التي استخدمت في بداية الإسلام، وإن كان حديثه عن الخط وأنواعه في بداية الإسلام يُحدث من وجهة نظرنا، لبساً؛ لأنه يصنف، الخطوط بحسب المناطق كما هي عادة العرب في التمييز بين الأشياء، فيقول: «فأول الخطوط العربية الخط المكّي، وبعده المدني، ثم البصري، ثم الكوفي».

وعلى هذا فلابد أن يكون الخط الذي كتب به القرآن في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، في مكة هو الخط المكّي، وابن النديم في وصفه للخطين المكي والمدني يقول: «ففي ألفاته تعويج إلى يمنة اليد وأعلى الأصابع، وفي شكله انضجاع يسير».

وقد استمرت فيما يظهر كتابة المصحف الشريف بالخط المكي في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، ثم بالخط المدني في عهد أبي بكر، ثم في عهد عمر، رضي الله عنهما، إلى أن تم جمع القرآن الجمع الأخير في عهد عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

أما شيوع مصطلح كتابة المصحف في القرون المبكرة باسم الخط الكوفي فيظهر لنا بعد القراءة الكثيرة للمصادر التاريخية المبكرة، التي كتبت في القرن الثالث الهجري مثل كتاب «الكتاب وصفة الدواة والقلم وتصريفها» للبغدادي، وكتاب «الكتّاب» لابن درستويه ت:٣٤٧هـ بالإضافة إلى ابن النديم، وإن كان متأخراً بعض الشيء عن القرون الثلاثة الأولى، يظهر لنا أنها لم تشر إليه بهذا الاسم الذي نعتقد أنه أطلق على الخطوط الموزونة والذي يظهر منها - فيما نعتقد - خط المصاحف الذي شاع في الشام والعراق؛ وربما أطلق عليه بما عُرف بمسمى الخط الكوفي فيما بعد. وذلك نتيجة اهتزاز الصورة الواقعية التي يمكن أن يعتمد عليها عند المتأخرين. على أن أول ورود لمصطلح - الخط الكوفي - كان عند أبي حيان التوحيدي في رسالته في علم الكتابة، في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس الهجري. بوصفه مصطلحاً لمجموعة خطوط.

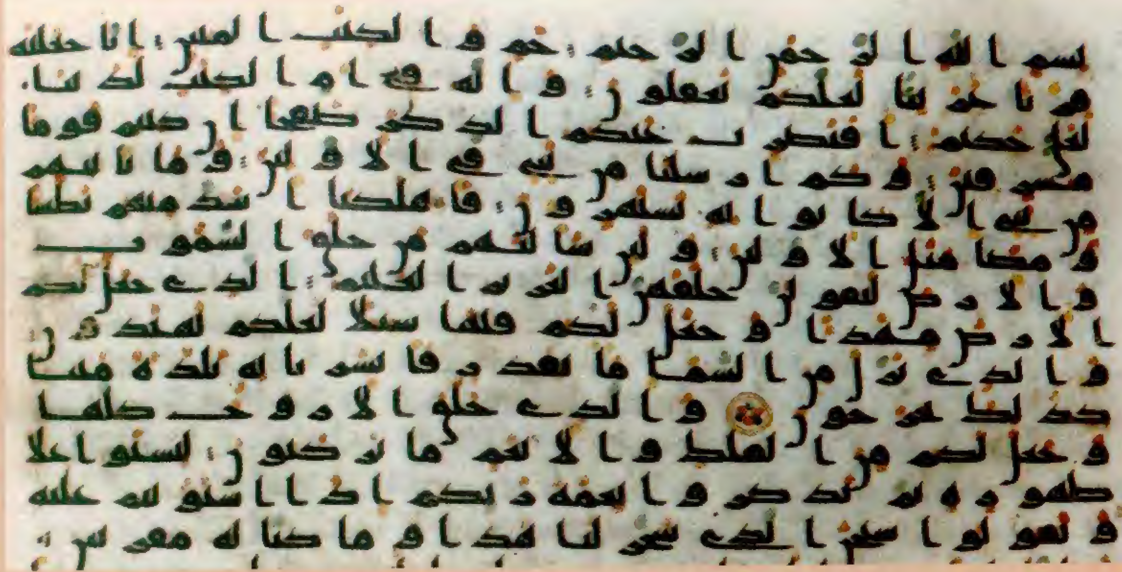
الفواصل بين السور والآيات وتطورها في المصاحف المبكرة

بالنظر إلى النماذج المبكرة للمصاحف المكتوبة بالخط الحجازي المائل، يبدو أنها لم تزخرف ولم يُعتن بها في بداية الأمر، وذلك لحرص المسلمين على تدوين المصحف، وخشيتهم من فقد آياته أو ضياع شيء منها، وتركيزهم فقط على تمكين المسلم من التلاوة فيه من دون الحاجة إلى تزويقه، وزخرفته، وذلك لوجود المعارضة الشديدة في أول الأمر، ولعدم معرفة ما تؤديه تلك الأنواع من الزخرفة في تسهيل القراءة في القرآن الكريم بالنسبة إلى النشء من المسلمين، وإلى الداخلين الجدد في الإسلام، فكانت المعارضة شديدةً في أول الأمر، تبدو فيما ينقله السجستاني عن أبيّ بن كعب من قوله: «إذا حلّيتم مصاحفكم، وزوّقتم مساجدكم، فعليكم بالدّثار»، وعن أبي الدرداء أيضاً قال: «إذا زخرفتم مساجدكم، وحلّيتم مصاحفكم فعليكم بالدّثار». وعن أبي بكر السراج قال: «قلت لأبي رزين: أأكتب سورة كذا وكذا؟ قال: إني أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفون، فيظنون أنه من القرآن».

ويبدو أن هذه المعارضة في الصدر الأول من الإسلام، وكراهيتهم لزخرفة المصحف، وإدخال ما ليس فيه قد ضعفت، من ذلك ما نجده عند الدّاني (ت: ٤٤٤هـ) في المقنع أن بعض المصاحف في الفترة المبكرة كانت محلاة بالفضة، وعند الإمام مالك نفسه، إذ يقول عبدالله بن حكيم: «وأخرج إلينا مالك مصحفاً محلىً بالفضة، ورأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة في طول السطر. قال: ورأيته معجوم الآي بالحبر، وذكر أنه لجدّه، وأنه كتبه إذ كتب عثمان



استخدام مواد الذهب في الفواصل بين السور. ونقط الشكل ذي اللون الأحمر



مصحف بالخط الجليل (الكوفي) به فواصل الآيات ونقط الشكل بالأحمر ـ فتحة، ضمة، كسرة، أما الأصفر فللهمزات، وأما الأخضر فللكسرات

المصاحف».

لهذا كانت المصاحف المبكرة ليس بها زخارف بين السُّوَر، بل كل الموجود في أول الأمر هو فراغ أكبر حجمًا من الفراغ بين الأسطر، تمييزًا من فراغ الأسطر، وفراغ السور. ثم أخذ هذا الفراغ يُملأ بشريط زخرفي نباتي أو هندسي، الغرض منه الجمال الفني فقط، ثم تلا هذه المرحلة من العناية بفواصل السور تضمين ذلك الشريط الزخرفي اسم السورة وعدد آياتها ومكية هي أم مدنية.

أما فواصل الآيات فقد مرت بما مرت به فواصل السور، إذ كانت أول الأمر فراغًا بين كل آية والتي تليها أوسع قليلاً من الفراغ الذي عادة ما يترك بين كل كلمة وأخرى.

وقد وجدت وسائل متعددة لإظهار فواصل الآيات في المصاحف المبكرة مثل وضع خطوط صغيرة بعضها فوق بعض، تراوح بين خط واحد إلى ستة خطوط، ثم سعى النساخ إلى تأطير هذه الخطوط، وإحاطتها بدوائر. على أنه لم تكن هناك قاعدة معينة لما يجب أن تكون عليه فواصل الآيات، إذ ربما نجدها كما أسلفنا خطوطًا صغيرة متراكبة بعضها فوق بعض، وقد نجد نقطًا على هيئة مثلث، في كل ضلع من أضلاعه ثلاث نقط، وقد تكون على هيئة مربع. وقد تكون فراغًا ليس به شيء، وربما لا يترك الناسخ أي مكان أو فراغ بين الآيات.

ويبدو أنه في المصاحف المبكرة لم تكن عناية النساخ في بيان فواصل الآيات بقدر ما كانت عنايتهم في وضع علامات عند كل خمس آيات، وهو ما يسمى بالتخميسة، أو عند كل عشر آيات وهو ما يسمى بالتعشيرة. وقد يضاف بداخل هذه الدائرة حرف الهاء، أو حرف الخاء من أول كلمة خمس. وقد ترسم كلمة عشر كاملة في التعشيرة، وربما يكتب رأس حرف العين لأنها أول حرف في كلمة عشر. ثم تطورت هذه الفواصل، وأصبحت على هيئة دوائر زخرفية نجمية الشكل في وسطها أحيانًا رقم الآية.

أشكال وألوان نقط الشكل والإعجام في المصاحف المبكرة

لقد كانت حاجة العرب في بداية الإسلام وفي المصاحف على وجه التحديد إلى نقط الشكل (الحركات) أكثر من حاجتهم إلى نقط الإعجام؛ وذلك خشية الالتباس والتصحيف في القراءة.

فنقط الشكل الذي يعرف أيضًا بالنقط مجردًا، هو نقط الحركات من فتحة وضمة وكسرة، ويختلف هذا الشكل باختلاف الحركة المراد رسمها على الحرف، علمًا أن لفظ الشكل أول ما عرف كان في عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي. وسمي بالشكل أو شكل الشعر، وكانت طريقة رسمه في الكتابة هي ما اتبعه أبو الأسود الدؤلي في رسم نقط الشكل كما أوردها الداّني في كتابه المقنع: «أرى أن أبتدئ بإعراب القرآن أولاً، فأحضر من يمسك المصحف، وأحضر صبغًا يخالف لون المداد، وقال للذي يمسك المصحف عليه: إذا فتحت فاي فاجعل نقطة فوق الحرف، وإذا كسرت فاي فاجعل نقطة تحت الحرف، وإذا ضممت فاي فاجعل نقطة أمام الحرف، فإن أتبعتُ شيئًا من هذه الحركات غنة، يعني تنوينًا، فاجعل نقطتين؛ ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف. أي إن أبا الأسود استخدم لونًا واحدًا، واشترط أن يكون مخالفًا للون مداد المصحف الذي كتبت به الحروف، وذلك خشية أن يدخل في المصحف ما ليس فيه. علمًا أن الروايات التي نقلت لنا نقط أبي الأسود لم تذكر لنا لون مداده حين طلب من كاتبه أن يأتي بلون يخالف لون مداد المصحف، وهل كان لونه أحمر أم غيره؟ إلا أن الذي اشتهر فيما بعد هو استعمال اللون الأحمر في النقط، حيث استخدم اللون الأحمر لبيان الحركات من فتح، وكسر، وضم، وسكون، وتشديد، وتخفيف. أما الهمزة فقد اختصت باللون الأصفر. إلا أننا نجد أن النقط المدورة التي وضعها أبو الأسود الدؤلي لم يكن فيها ما يختص بالهمزة، ولعل هذا يدلل لنا أن طريقةَ نقط الهمزة، وَخَصَّها بنقط معين لم يظهر بعد، وقد كانت الهمزة تأخذ نقطة مدورة، مثل نقط الحركات، إما بالحمرة، أو بالصفرة، أو بالخضرة على اختلاف طرائق من كان ينقط من أهل المدينة

وغيرهم. وقد أشار الداني في المقنع أن مذهب أهل المدينة في نقط الهمزة هو الأصفر. أما أهل العراق فكانوا ينقطون الهمزة بالحمرة كباقي الحركات.

كما تباين استخدام المداد الأخضر في المصاحف المبكرة، فقد يكون مرة لبيان رسم الهمزة، أو قد يكون لبيان رسم الحروف المشدّدة في مصاحف أخرى. كما وجد في بعض المصاحف أن المداد الأصفر كان للحرف المشدد. ولعل اختلاف استخدام أنواع المداد يدل على اختلاف نسخ المصاحف في الأقاليم الإسلامية، حيث يمكن، من خلال لون مداد النقط أو نقط الشكل، أن يحدد الإقليم الذي نسخ فيه المصحف؛ لأن نُسَّاخ المدينة أو الحجاز يختلفون عن نساخ العراق، وعن نساخ الأندلس والمغرب وهكذا.

ويلاحظ أن طريقة الشكل بالنقط ربما استمرت في بعض المصاحف إلى نهاية القرن الرابع الهجري، وربما إلى منتصف الخامس الهجري، ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من النسَّاخ كانوا يتحرَّجون من إدخال الطريقة التي ابتدعها الخليل بن أحمد الفراهيدي في الشكل، وهي المستخدمة حتى الآن.

ولعلنا نلاحظ هذا الحرج فيما يعبر عنه الداني في المحكم بقوله: «وترك استعمال شكل الشعر، وهو الشكل الذي في الكتب والذي اخترعه الخليل في المصاحف الجامعة من الأمهات، وغيرها أولى وأحقّ، اقتداءً بمن ابتدأ النقط من التابعين، واتباعًا للأئمة السالفين».

نقط الإعجام

لم يكن العمل الذي قام به أبو الأسود الدؤلي كافيًا. ونقطه للمصحف نقط الشكل، وإن بدا هذا النقط في زمن أبي الأسود غاية ما أراد أن يجنب قارئ القرآن اللحن عند قراءته، وذلك أن العرب، ومن دخل الإسلام من العجم كانوا أكثر من غيرهم حاجة إلى أن يفك لهم لغز الحروف العربية المتشابهة، والتي لو لم تنقط لما عرفت الباء من التاء، وغيرها من الحروف المتشابهة في رسمها؛ لذا كان الإعجام في معناه البسيط هو تمييز الحروف المتشابهة في رسمها بنقطها إما بنقطة، أو اثنتين، أو ثلاث نقط على ألاّ يتجاوز النقط ثلاث نقط بأي حال، أو بعبارة أخرى: إن الحرف المعجَم يعني الحرف المنقوط، وضده الحرف المهمَل. ولم يحدث هذا النقط إلاّ بعد حدوث التصحيف في لغة العرب؛ وذلك لمخالطتهم غير جنسهم.

ولقد تعددت أشكال نقط الإعجام بين نقط مجردة، أو خطوط صغيرة مائلة. أما النقط فهو المشهور، وهو يشبه نقط الإعراب، أو الشكل، أي: نقط مدورة من الداخل، أو مجوفة في أحيان أخرى، ولعل هذا النقط المدور هو ما نجده في كثير من النماذج المؤرخة مثل بردية اهناسيا. وقد انتشرت ظاهرة الإعجام بالخطوط الصغيرة المائلة في كثير من المصاحف المبكرة، مثال ذلك ما نجده في مصاحف صنعاء. وتتكرر هذه الخطوط المائلة على الحروف بحسب نقطه. فخط واحد تحت حرف الباء، وخطان مائلان على حرف التاء، وثلاثة على حرف الثاء، وكذا على الحروف كلها.

وقد اتخذت هذه الخطوط المائلة لون مداد المصحف نفسه أي مداد الحروف، وبخط رفيع. وهناك من اعتقد أنها استخدمت بهذه الطريقة خشية اللبس بينها، وبين نقط الشكل مع أن نقط الشكل كانت تتخذ لونًا يخالف لون المداد، وعلى هيئة نقطة مدورة.

الهوامش

١ـ اللُّخاف بوزن كتاب، حجارة بيض رقاق، واحدها: لَخْفة.

٢ـ العُسُب: جمع عسيب، وهو جريدة النخل المستقيمة يُكشط خوصها.



مصحف بالخط الجليل (الكوفي) تظهر فيها التعشيرة، فواصل السور، ونقط الشكل والإعجام

البحث عن إكسير السعادة المفقود!!

خالص جلبي

السواد الأعظم من الناس لا يعرف السعادة ولا يمارسها، وإن تمتع بها لحظات معدودة. ويظن معظم الناس أنهم سيحققونها من خلال تكديس الثروة، والارتفاع في البنيان وتكويم الأحجار، أو في التمتع بالملذات الحسية من دون حدود؛ فيأكلون إلى ما فوق الشبع، ويشربون إلى حد الانفجار، ويسفحون ماء الحياة إلى حد النضوب والنفاد، ولكنهم يكتشفون أنه لا بالثروة، ولا بالملذات الحسية، ولا بالجاه، وصلوا إلى نعيم السعادة، وشاطئ الأمن، وحديقة النفس المطمئنة.

لم يشمُّوا ريح الجنة بعد، ولا عرفوا هذا العالم الجديد الذي يصل إليه القليلون، ويدخله النادرون، ويتمتع به الخواص. أين السعادة الدائمة التي لا تنفد، والكاملة التي لا تنحصر؟!

هذا هو السؤال الذي أقض مضاجع الفلاسفة والمفكرين، وعلماء النفس والمربين، وهو السؤال الذي افتتح به الفيلسوف الهولندي(١) (إسبينوزا) في القرن السابع عشر الميلادي كتابه القيم «رسالة في تحسين الفهم».

لقد حاول من تعاطوا المخدرات والمسكرات الولوج إلى هذا العالم. فضاعوا وضلوا الطريق، فلم يصلوا إلى نعيم السعادة الحقيقي المتكامل والدائم، المستمر والنامي، ولا رجعوا إلى دنياهم العادية الأولى، بل أصبحوا هباءً منثوراً، ووجدوا سراباً خادعًا، وتحولوا إلى حطام فوق الحطام.

يتمنى الإنسان ـ لو كان بالإمكان ـ أن يحقق السعادة بتناول قرص دواء، أو يصل إلى حالة النفس المطمئنة بجرعة شراب، أو أن تشع منه الحكمة بدهنة مرهم، أو أن يتسم بالعدل بإبرة في الوريد، أو أن يلجم الشهوة بقناع أكسجيني على أنفه، أو أن يتحرر من الغضب باستنشاق الرذاذ التنفسي الذي يعالج به الربو الصدري. ولكن هيهات هيهات لما يوعدون!!.

إن فيض السعادة هو نور داخلي قبل كل شيء، وتحصيل ذاتي، ومعاناة خاصة، وعتبة يصل إليها من مارس الكَبَد، وقاسى التعب، وذاق لوعة البحث، وصعَّد الجهد من دون حدود في صقل مرآة روحه الداخلية لتتلقى الإشعاع الكوني العظيم.

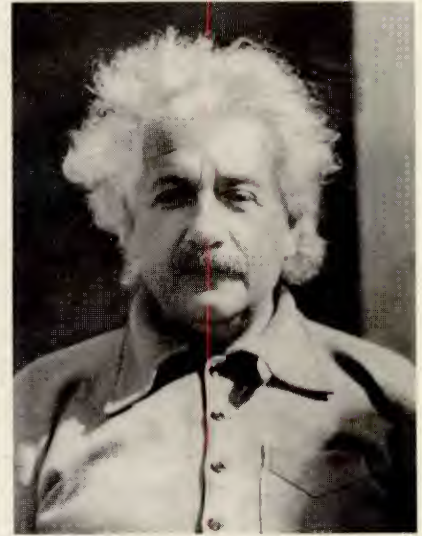
كان آينيشتاين يقول: إن اكتشاف الحقيقة مرة واحدة لا يكفي. على العكس يجب المحافظة عليها وتجديدها باستمرار، إنها تشبه تمثال الرخام الذي يقف في الصحراء، وهو في حالة خطر دائم من أن يدفن في الرمال. الأيدي الفعالة والنشيطة وحدها التي لا تعرف التعب والملل، والتي تنظفه باستمرار هي التي تحافظ عليه يتألق تحت ضوء الشمس(٢).

وكذلك هي رحلة البحث عن أعظم كنز في هذا الوجود، غارق في عمق بحر مجهول.

عند منتصف الليل في إحدى مناوباتي المرهقة في أثناء فترة إقامتي الطويلة فيما كان يعرف سابقًا بألمانيا الغربية.

وضعت رأسي لأتنفس الصعداء ولو لحظات، إلا أن جرس الهاتف لم يمهلني، حيث يبدأ موكب السكارى وحوادثهم بالتدفق في مثل هذا الوقت، أي في نهاية حفلة (الكيف) التي تتحول في خاتمة المطاف إلى مشاجرات وجروح علينا معالجتها. هذه المرة كان النداء مستعجلاً وملحًا وخطرًا، فانطلقت كالعاصفة لا ألوي على شيء، أكاد لا أبصر طريقي أمامي، وهناك في قاعة الإسعاف وقع نظري على فتاة في مقتبل العمر، قد غرقت في دمائها، مذبوحة من الوريد إلى الوريد، في الرمق الأخير.

بدأنا، ونحن لا نكاد نلتقط أنفاسنا، في محاولة سريعة لإنقاذ حياة هذه الصبية، أعصابنا متوترة، ووجوهنا يعلوها الإرهاق وسهر الليالي، المريضة تغتسل في دمها، ونحن نستحم في عرقنا!! هكذا هي حياة الجراحين - الجنود المجهولين - الذين ينامون على عملية، ويستيقظون على اختلاط، صديقهم الليل والمشرط، وخليلهم الدم والقيح، وأنيسهم خراج يُشق، وورم يُستأصل، نزهاتهم في قاعات العمليات، وسميرهم المرضى وأروقة المستشفيات، قد شابوا قبل المشيب، واستُهلكوا قبل الأوان، قد واصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم. والويل لهم إن فقدوا مريضًا!.


آينشتاين

عندما أدخلت يدي المغطاة بالقفاز المعقم في عمق العنق تنفست الصعداء، حيث أدركت أن الشرايين السباتية سليمة(٣) وشيئًا فشيئًا استطعنا السيطرة على النزف، وإنقاذ حياة المريضة، قلت في نفسي بعد انتهاء العملية الجراحية: كانت ليلة مرعبة بحق، ولكن تفاؤلي كان مبكرًا؛ لأنه كان عليَّ أن أتابع الرحلة مع هذه الواقعة وذيولها حتى شعاع الفجر الأول. رنَّ الهاتف مع ساعة السحر مرة أخرى، هذه المرة صوت ذكوري أجش خافت يطلب معلومات عن حالة المريضة التي أدخلت المستشفى، ويرفض الإفصاح عن هويته، كان جوابنا: إننا لا نعطي معلومات عن طريق الهاتف، ولمجهول. وتفاءلت بالنوم من دون جدوى، هذه المرة كانت الشرطة تطلب أخذ عينة من دم (جثة)، وهو نظام معمول به في الغرب لكثرة شاربي الخمور الذين يقودون السيارات، ويتسببون في حوادث الطرقات. نزلنا إلى المستودع البارد حيث وقع نظري على شاب طويل راقد جثة لا حراك بها!!. عندها اكتملت صورة تلك الليلة المرعبة، كان هذا الشاب هو الذي ذبح الفتاة، وعندما طاردته الشرطة أطلق النار عليهم، ثم ختم المطاردة بإطلاق النار على نفسه منتحرًا، وكان هو صاحب الصوت المجهول الذي كان يسأل عن صحة الفتاة المذبوحة!!!.

هذه القصة التي قفزت إلى ذاكرتي الآن، ونظائرها كثيرة من يوميات الجراحين، وهذه قد تحدث في ألمانيا وغيرها، ولكنها مُشعِر ينبئ بفقدان مسوّغ الاستمرار في الحياة، والاستقالة منها.

هذه الحياة الرائعة، ونورها البهيج ومتعتها من دون حدود، هذا الوجود الذي أكرمنا الله به؛ كيف يمكن لمشاعر الإنسان فيه أن تصل إلى هذا القدر من الكآبة والإحباط واليأس، إلى درجة إنهاء الحياة ذاتها؟!!.

كنت في ألمانيا أتعجب من التناقض الرهيب بين الرفاهية والوجوه الكالحة، بين السيارات الفخمة والقسمات الجامدة، بين الفرش الوثير وعبوس الوجه، بين ورد ذي منظر بهيج ولكن من دون رائحة، بين بشر يعملون من دون ابتسامة عذبة وضحكة على السجية، بين نظام دقيق ونفوس بائسة.

متلازمة الأحد

كان ظهر يوم الجمعة المشير إلى قرب انتهاء دوام الأسبوع رائعًا، حيث يجرعون الأنواع المنوعة من الخمور فتحمر وجوههم وأعناقهم، ويلين مزاجهم، وتنفرج أساريرهم ووجوههم، وتبدأ الملامح الإنسانية المخبأة في الأعماق بالظهور والطفو فوق عالم الحياة والأنس. أما يوم الأحد. وخاصة بعد الظهر فكان أسود كئيبًا مقيتًا، حتى عرف بمتلازمة(٤) (SYNDROM) يوم الأحد كنت أتعجب من هذا، ولا أعرف سره، وكنت أسأل: إذا كانوا يبدعون في الحياة، ويحبون الدقة في العمل، والانتظام في الوقت، فما الإشكال ماداموا يستقبلون يوم الإثنين يوم العمل الذي هو مصدر رزقهم واقتصادهم، ووجودهم ورفاهتهم؟؟

كان السر أعمق، واللغز أكبر.......

كما أن الباكتيريا هي الوحدة العضوية لنقل المرض، كذلك فإن الفكرة هي الوحدة النفسية لنقل المرض الروحي. إنني أعترف أنني بدأت أصاب بالعدوى في سنوات مكثي الأخيرة في ألمانيا، فكنت أشعر برتابة نهاية يوم الأحد وثقلها وبؤسها، هذا الشعور لم أتخلص منه إلا حين مغادرتي البيئة الألمانية.

إن متلازمة يوم الأحد لم تكن في الواقع لأنهم سوف يستقبلون يوم الإثنين، يوم العمل والواجب الثقيل، بل كان الموضوع أعمق من هذا!! إن التوقف عن العمل هو بكلمة ثانية توقف النفس عن الانشغال الخارجي والتعامل معه، للرجوع إلى الذات. إن يوم العطلة هو يوم مواجهة النفس، هو الانكفاء الداخلي والاعتكاف، هو اكتشاف عالم

إذا كان إنذار المرض العضوي الرئيس هو الألم، فإن ألم المرض النفسي هو الخوف والحزن

الذات. وكأن الإنسان الألماني يشعر بالألم العظيم حين يواجه عالم الذات الفقير الخاوي الهزيل، ذلك العالم الذي يشبه الشجرة المفرغة الداخل، كان يستشعر أن اللهو الخارجي للنفس قد توقف. هذه المواجهة المدمرة للذات كانت محطة العذاب، ونقطة البؤس والجحيم. وقد انتبه لهذه الأزمة الروحية قديمًا الفيلسوف الفرنسي باسكال، فكتب يقول في كتابه «الخواطر»: كلما حاولت البحث في أفعال الإنسان المختلفة، وجدت أن شقاء الناس كله راجع إلى أمر واحد هو عجزهم عن الاعتكاف، ومن هنا جاء ولع الناس بالضوضاء والجلبة، ومن هنا كان السجن عذابًا مروّعًا، ولذة الوحدة أمرًا يستعصي فهمه. في الإنسان غريزة خفية تحمله على اللهو والانشغال في الخارج، مصدرها شعور مرير ببؤسه المتصل»(٥). وعلماء النفس عندهم يعرفون هذه الظاهرة جيدًا، ويشعرون أنها تعبير خطير عن مرض حضاري يهدد بنيته الأساسية، إنها بدء تيبس مفاصل الحضارة، وتصلب شرايينها وتخشبها، وبكلمة أخرى بداية النهاية، وأول المطر، وفاتحة الطوفان، وانطلاق تفاعل الانحطاط. هذا ما انتبه له فلاسفة كثيرون، ومؤرخون وسياسيون سجلوا هذه الظاهرة كما هو الحال مع الفيلسوف الألماني أوسفالد إشبينجلر الذي وضع سفره الضخم «أفول الغرب»(٦)، والمؤرخ الأمريكي باول كينيدي في كتابه «صعود وسقوط القوى العظمى»(٧)، أو السياسي الفرنسي جاك أتانييه في كتابه «آفاق المستقبل»(٨)، وشهد شاهد من أهلها.

إذا كانت الكائنات، ومنها الإنسان، قد اختزلت في الجينات، فإن الكون أيضًا قد اختزل في النفس البشرية، وأشار إلى هذه الفكرة الفيلسوف الغزالي قديمًا في كتابه «إحياء علوم الدين»(٩)، وبذا وضع القرآن يده على مفتاح تغيير العالم من خلال تغيير ما بالنفوس: إنّ اللهَ لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يُغيرُوا ما بأنفسهمْ.الرعد:١١.

هذا الحَقل هو الذي يجب أن يتم فيه البحث والسبر والحفر، لأن كنز السعادة مدفون داخله، مخبأ في أعماقه.

رحلة السعادة

إن الرحلة باتّجاه القلب السليم والنفس المطمئنة تبدأ من هنا. إن السعادة هي حالة ووضع النفس الإنسانية عندما تصل إلى مرحلة النفس المطمئنة، كما أنها نشاط القلب الذي لا يعاني من العلل، وهو ما وصف القرآن به إبراهيم: *إذ جاءَ ربَّهُ بقلبٍ سليم*. **الصافات**:٨٤.

الرحلة الإبراهيمية من (القلبِ السقيم)(١٠)إلى (القلب السليم) هي رحلة الخلاص، كي يصبح الإنسان مرشحًا لدخول الجنة قبل دخولها، فهناك جنة خاصة في الأرض يشعر بها الصالحون قبل أن يدخلوا جنة الخلد، وهي من المبشرات على الاقتراب من نهاية الرحلة.

النفس الإنسانية في حالة نشاط دائم، لا تستقر مثل موج البحر، ففي اللحظة الواحدة قد تنتكس وتمرض وتهبط إلى أسفل

هذه الحالة النفسية، هذا الهدوء والتجلي الروحي، هذا الفيض من السعادة والحبور، أشار إليه كل من ولج هذا العالم، وكان شعورهم غريبًا، وصفوه أنه لحظات كانت تأتي في بدايتها فترة قصيرة، وبشكل متباعد، فيشعرون أنهم دخلوا عالمًا آخر يفيض بالسعادة سرعان ما ينحسر عنهم، ثم تقاربت الفترات، وازدادت مدتها حتى دخلوا هذا العالم بالكامل.

إذا كان إنذار المرض العضوي الرئيس هو الألم، فإن ألم المرض النفسي اثنان هما الخوف والحزن، وهما المرضان اللذان يعاني منهما معظم الناس، ويشكلان التحدي والعقبة التي على الإنسان اختراقها وتجاوزها. لذا انصب اهتمام القرآن في المعالجة النفسية بشكل رئيس على تحرير الإنسان من هاتين العقدتين. *تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا*.(١١) من خلال النظافة الأخلاقية، والتطهير الروحي.

الخوف مما سيأتي، والحزن هو مما مضى وانقضى. وليس هناك من شعور عميق ومهم مثل شعور الخوف أو الحزن، وحتى تمضي النفس في مرحلة الصعود الأخلاقية تنتقل عبر محطات تتزود فيها بالطاقة الروحية لتصعد إلى مرحلة أكثر تقدمًا، فهي تصعد من مرحلة (النفس الأمارة بالسوء) وهي تلك المرحلة المشوشة والفوضوية التي تنفعل فيها للوسط المحيط بها، حيث تتعطل إرادة البناء الأخلاقية، فإذا بدت في رحلة البناء من خلال عملية المراجعة والمحاسبة والنقد الذاتي، تبدأ في الدخول في مرحلة (النفس اللوّامة)، فإذا اكتملت هذه المرحلة أصبحت مكانًا كريمًا يستحق أن يقسم الله بها: *لا أقسمُ بيومِ القيامة ولا أقسمُ بالنفس اللّوّامة*. **القيامة**:١-٢.

فرانسوا ميتران

وعلى أرضية هذه المرحلة يمكن الانطلاق إلى المرحلة الثالثة مثل إرسال الصواريخ والأقمار الصناعية، حيث تحمل كل مرحلة المرحلة التي بعدها، وتكمل رحلة الصعود لاختراق جاذبية الشبهات والشهوات، عندما تصل النفس الإنسانية إلى مرحلة النفس المطمئنة، وبها تكون النفس قد اغتسلت من الخطايا تمامًا، وتحررت من الأمراض النفسية، عندها يبدأ الشعور بالأمن الذي هو مقابل الخوف: *أولئك لهم الأمن وهم مهتدون*(١٢)، ويبدأ الشعوربالسعادة التي هي مقابل الحزن. *الحمدُ لله الذي أذهَبَ عنا الحَزَن إنّ ربنا لغَفُور شكُور*. **فاطر**:٣٤. وإذا أردنا ربط هذه الأفكار أي المراحل الثلاث ما بين النفس الأمارة بالسوء عبر النفس اللوامة إلى النفس المطمئنة، فإنها تشكل ثلاث حلقات مترابطة متداخلة في رحلة صعودية، مع قابلية للنكس إلى الخلف عند كسل طاقة التطهير والتسامي الأخلاقية.

ملاحظات ست

ومع نظام الحلقات الثلاث هذه هناك ست من الملاحظات ينبغي لنا أن نسجلها:

الأولى: علينا أن نلاحظ أن النفس الإنسانية في حالة نشاط دائم (ديناميكية) لا تستقر مثل موج البحر، وفي اللحظة الواحدة قد تنتكس النفس وتمرض وتهبط، بل تتدحرج إلى أسفل، وهذا يحتاج إلى عملية تطهيرٍ لا تقف، وهو معروف في العضوية، حيث إن حالة الصحة التي يتمتع بها الجسد هي ذلك التوازن بين الهجوم الجرثومي الدائم ودفاع الجهاز المناعي الذي لا يكف عن الدفاع، مثل عملية الاستقلاب في الجسم تمامًا، ففي اللحظة الواحدة تنهدم ملايين الخلايا وتنشأ الملايين، تتكسر حلقات من التفاعلات الكيماوية لتقوم محلها حلقات جديدة، وهكذا، بل إن الجسم البشري برمته هو في حالة توازن بين الموت والحياة. وإذا كان الجسم من خلال خلاياه يموت ويحيا، فإن نسيج الحياة للجنس البشري هو على الشاكلة نفسها، فمع شروق شمس كل يوم تدفع الأرحام ٢٧٠ ألف إنسان جديد إلى الحياة، ومع غروب كل يوم تبلع القبور ١٤٠ ألف إنسان، وتبقى الزيادة في حدود ١٣٠ ألف إنسان شاهدة على تفوق الحياة على الموت، لأنها من الحي الذي لا يموت(١٣).

عملية تطهير النفس لها وسائل، ويمثل الصوم أحد أهم الوسائل في الاعتكاف الداخلي والمراجعة الذاتية وتنمية الإرادة

الثانية: وكما أن هبوط الإنسان لا حدّ له، كذلك فإن صعوده باتّجاه رحلة التكامل النفسي لا سقف له.

الثالثة: أن الهبوط لا يحتاج إلى طاقة، في حين أن الصعود يحتاج إلى طاقة، وهذا يذكرنا بقانون آينشتاين الذي ذكرناه في مطلع المقالة، وهو ضمن المصطلح القرآني (الجهاد)، فالجهاد أي بذل الجهد المكافئ لرفع حالة النفس باتجاه تحقيق الذات وتصعيدها، وتنشيط المثل الأعلى، وضبط الغرائز في الاتجاه الصحيح، كما تضبط أي طاقة.

الرابعة: إذا كانت النفس المطمئنة قد استكملت شروطها لدخول عالم السعادة والجنة، كما يحدث في المتقدمين لملء أي وظيفة شاغرة، فإن استكمال الشروط لا يعني دخول الجنة بصورة حتمية، بل لابد لها من رحمة الله تعالى، وهذا يحمل المعنى الضمني من الأخلاقية الجديدة في التواضع.

الخامسة: أن عملية التطهير هذه لها وسائلها التي يمثل (الصوم) أحد أهم الوسائل في الاعتكاف الداخلي، وفي المراجعة الذاتية، وفي تنمية الإرادة، وفي السيطرة على الغرائز، وفي ترويض الشهوة، وقمع الغضب والأخيرتان من أشد الغرائز استحكامًا بالنفس الإنسانية.

السادسة: أن الصوم يمثل هذه الصورة العامة (البانوراما) في شحذ المثل الأعلى. يقول عالم النفس (هادفيلد): إن المثل الأعلى هو أقوى عامل في تقرير خلق الإنسان؛ لأنه وحده الذي يستطيع تنبيه الإرادة، وتنظيم جميع الغرائز في كلٍّ واحد متناغم متوافق، ومن دونه يصبح الإنسان تحت سلطان التأثيرات المشوشة التي تحدثها الغرائز المتصارعة، وبه تلتحم الشخصية بعضها مع بعض، وتتماسك متجهة إلى غرض واحد مشترك. إن المثل الأعلى هو الذي يحدث بلوغه الاكتمال وتحقق الذات(١٤).

المراجع:

١ـ تعدّ كتابات إسبينوزا إحدى أهم المحطات العقلية في مسار إنجازات العقل الإنساني، ولم يكتب في حياته القصيرة سوى أربعة كتب، ويا للأسف لم أعثر على ترجمة كاملة لأعماله في اللغة العربية، والفقرة التي أستشهد بها هي من الأصل الألماني ABHANDLUNG UEBER DIE VERBESSERUNG DES VERSTANDES). راجع موسوعة أعماله الكاملة التي نشرتها FELIX MEINER VERLAG ص(٤).

٢ـ قال آينشتاين: جاء في الكتاب الألماني الذي تصدره مؤسسة RORO عن الشخصيات العالمية، تأليف: جوهانز ويكرت JOHANNES WICKERT ص(٧).

٣ـ الشرايين السباتية تعرف باللغة الإنجليزي CAROTID ARTERY، وهي شريانان ثخينان على جانبي العنق في العمق، يعدّان مواسير الدم الرئيسة التي تغذي الدماغ، يضاف إليهما شريانان آخران من الخلف يصعدان لتروية الأقسام الخلفية من الدماغ، فيكون المجموع أربعة، تلتقي جميعها لتشكل حلقة دموية شريانية سباعية الأطراف في قاعدة الجمجمة، وهي المعروفة بمسبع ويليس الشرياني، وبذا يمكن إمداد الدم لأي منطقة مهددة بانقطاع الدم عنها.
هذا الحاسوب الرهيب داخل جمجمتنا يحترق بانقطاع الأكسجين عنه مدة خمس دقائق فقط، ويعطّب بشكل نهائي لا عودة فيها حتى لو استمر القلب وبقية أعضاء البدن الرئيسة في العمل، وهو المعروف طبيًا بموت الدماغ.

٤ـ المتلازمة SYNDROM هي مجموعة من العلامات الطبية السريرية التي تشكل صورة واضحة واسمة لمرض بعينه.

٥ـ مقولة باسكال راجع كتاب باسكال سلسلة «نوابغ الفكر الغربي» ـ بقلم الدكتور نجيب بلدي ـ ص(١٩٠ ـ ١٩٢).

٦ـ كتاب أوسفالد إشبنجلر «سقوط الحضارة» ترجمة أحمد الشيباني، راجع الجزء الأول في تفسيره لظاهرة الاستعمار الغربي ـ الفقرة (١٣) ص(٩٧): أقول: إن الاستعمار هو الرمز المميز لاحتضار المدنية الغربية وموتها. في هذا الشكل الظاهري للاستعمار قد بُتَّ الآن بمصير الغرب بتًا لا عودة عنه أو تعديل.

٧ـ كتاب باول كينيدي ـ فيلسوف ومؤرخ أمريكي يتنبأ في كتابه المشهور «صعود وسقوط القوى العظمى» بنهاية أمريكا، وتقوم تحليلاته على دراسة كل القوى العظمى التي برزت خلال القرون الخمسة الماضية، ومنها القوة العثمانية. وصدر له من قريب كتاب مهم عن «التحضير للقرن الواحد والعشرين».

٨ـ جاك أتاليه يعد من أقرب السياسيين ذوي الأدمغة النابهة الذين كان يستشيرهم الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران، وكتابه «آفاق المستقبل» مثير جدًا، ويتنبأ فيه بانحسار قوة الولايات المتحدة الأمريكية، وبروز قوى العرق الأصفر أي دول الشرق الأقصى، وخاصة اليابان.

٩ـ كتاب «إحياء علوم الدين»، الجزء الثالث، راجع فصل بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته ص(٢٠).

١٠ـ الآية عن القلب السليم راجع سورة الصافات: فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم الصافات: (٨٩).

١١ـ الآية: إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقامُوا تتنزّل عليهمُ الملائكةُ ألاّ تخافُوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعَدون. فصلت: ٣٠.

١٢ـ الآية: الذينَ آمنوا ولم يلبسُوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمنُ وهمْ مهتَدون. الأنعام: ٨٢.

١٣ـ راجع كتاب «المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة»، نشر سلسلة عالم المعرفة الكويتية، تأليف د. رمزي زكي ـ ص(٥): «يتزايد سكان العالم بمعدلات سريعة، حيث يولد يوميًا ما يقرب من ٢٧٠,٠٠٠ طفل رضيع، في حين تبلغ الوفيات يوميًا حوالي ١٤٠,٠٠٠، أي بزيادة صافية مقدارها ١٣٠,٠٠٠ طفل رضيع في اليوم الواحد، ومعنى هذا ببساطة شديدة، أن سكان العالم يتزايدون بمقدار ثلاثة أطفال في كل ثانيتين، وبنحو ٩٠ طفلاً في كل دقيقة. وتأسيسًا على ذلك يعلو صراخ ما يقرب من مليون طفل جديد كل أسبوع طلبًا للغذاء، وفي تقديرات أخرى كل خمسة أيام».

١٤ـ كتاب «علم النفس والأخلاق: تحليل نفسي للخلق» ـ تأليف ج.أ. هادفيلد ـ ترجمة محمد عبدالحميد أبو العزم ـ الناشر مكتبة مصر. ص(٢١١)، (والكتاب قديم لم يُعَدْ نشره).

الإسلام
والتطور المعاصر لمفهوم حقوق الإنسان

محمد إبراهيم إمام

بعد مضي خمسة وأربعين عامًا على صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة بقرارها رقم ٢١٧ بتاريخ ١٠ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٤٨م، يثور السؤال التالي: أكان مفهوم حقوق الإنسان يعني حق كل أقلية عرقية في تقرير مصيرها، أم أن هناك قيودًا وضوابط لذلك، وما هي؟ وإلى أيّ مدى ينطبق مفهوم حقوق الإنسان على الشعوب في جنوب إفريقية وفي فلسطين وفي البوسنة والهرسك؟ وهل رفع مؤتمر فيينا لحقوق الإنسان في اجتماعه الذي انعقد في حزيران/ يونيو ١٩٩٣م لواء قضية سامية، أم إنه مجرد صورة متكررة من اجتماعات عديدة ملأى بالشعارات واختلاف الآراء وتناقض المواقف؟(١)

ونحن عندما نعرض لهذا الموضوع نجد أن سؤالاً آخر يطرح نفسه: هل أتت الأمم المتحدة بجديد؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال - بموضوعية - لابد من الإجابة عن سؤال آخر: ماذا تحوي هذه الوثيقة؟

- تتناول المادتان الأولى والثانية من الوثيقة مفهوم أن البشر جميعًا يولدون أحرارًا، وأنهم متساوون في الكرامة والحقوق، وأن لهم جميعًا حق التمتع بجميع الحريات المعلنة في ميثاق الأمم المتحدة دون التمييز بينهم بسبب لون أو عرق أو دين أو رأي سياسي أو ثروة أو نسب أو غير ذلك من الأسباب.

- وتتناول المواد من الثالثة إلى الثالثة والعشرين الحقوق المدنية والسياسية في المعاملات والمراسلات والتملك والتنقل وحرية الإنسان في حياته الخاصة، وحرية الفكر والرأي والعقيدة، وحقه في تكوين الأحزاب وحكم بلده، وفي تقلد الوظائف المتاحة لقدراته كافة.

- والمواد من الثالثة والعشرين إلى الثلاثين تتناول الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كحق الفرد في معيشة كريمة، والضمان الاجتماعي والصحة والتعليم، وكذلك تناولت المواد مسؤوليات الفرد في المجتمع(٢).

هذه نظرة عامة في محتويات وثيقة حقوق الإنسان الصادرة عام ١٩٤٨م. وقد تم التوصل بعد ذلك التاريخ إلى أكثر من ٢٤ اتفاقية دولية تتناول جوانب مختلفة من حقوق الإنسان، وتُعدّ تطويراً للمبادئ الرئيسة التي ورد ذكرها في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

مؤتمر فيينا والتطور المعاصر

يقول دكتور محمد نعمان جلال(٣) :

«قامت الدول الغربية بحملة مكثفة في العقد الأخير من القرن العشرين ساعية لجعل التفسير الغربي هو التفسير الوحيد لمفهومات حقوق الإنسان، وساعدتها بصدد هذا الأمر عدة عوامل»:

الأول: انهيار المعسكر الاشتراكي مما عكس إخفاق فلسفته الأيديولوجية، وأدى إلى هرولة دول ذلك المعسكر، وبخاصة في أوربا، لاعتناق الفكر الغربي.

الثاني: ظهور عجز كثير من النظم السياسية في الدول النامية عن الوفاء بحاجات مواطنيها الاقتصادية، وفي الوقت نفسه اتبعت فيه بعض تلك النظم أساليب الحكم الفردي، وما نتج عنه من قمع الحريات، وانتهاك أبسط مبادئ حقوق الإنسان.

الثالث: النشاط المكثف الذي تقوم به المنظمات والجماعات غير الحكومية في مجال رصد انتهاكات حقوق الإنسان في الكثير من الدول، وتسليط الضوء المركز عليها، وفي تقديم المساعدات الغوثية الإنسانية للدول النامية التي تعاني من كوارث المجاعات، والتي هي في معظمها من وضع الإنسان، والربط بين تقديم تلك المساعدات وحرية الفكر للمنظمات غير الحكومية، وقد ترك هذا أثره في خلخلة القيم والفكر في الدول النامية.

الرابع: سعي المنظمات الدولية الإنمائية للربط بين مساعدات التنمية لدول العالم الثالث، وإحداث تغييرات هيكلية ليس في المجال الاقتصادي فقط، بل في المجال السياسي والاجتماعي أيضًا.

وفي غمار هذا كله جاءت الدعوة لعقد المؤتمر العالمي الثاني لحقوق الإنسان، الذي انعقد في فيينا من ١٤ - ٢٥ حزيران/ يونيو ١٩٩٣م، وسيطر عليه صراع بين الاتجاهات المختلفة، ومن محصلة التفاعل فيما بينها يمكن القول: إن أربع قضايا رئيسة دار حولها النقاش الحاد في مؤتمر فيينا، وهي:

الأولى: العمومية والنسبية، أي هل حقوق الإنسان ذات طابع عام أم هي نسبية؟ ولقد كان منطق الدول النامية أقرب إلى الصدق مع النفس.. إذ دافعت عن النسبية في التطبيق، وإن كان بعضها يتخفّى وراء الشعار للإبقاء على النظم غير الديمقراطية.. بينما الدول الغربية دافعت عن العمومية، وكان في موقفها كل الصدق من الناحية القانونية النظرية، ولكن كلما دُعيت تلك الدول لوضع هذه المبادئ النظرية موضع التطبيق الفعلي كانت

تراجع، فالحرية، وحقوق الإنسان، والديمقراطية لا وجود لها إذا طرحت قضية البوسنة والهرسك، وعليها محاذير عندما يطرح الوضع الفلسطيني في الأراضي المحتلة، وعليها قيود عندما يجري بحث الوضع في جنوب إفريقية في السابق، وتنسى أو تتناسى الدول الغربية دفاعها عن حقوق الإنسان في هذه الحالات، وتدعو للأخذ في الحسبان مبادئ الواقعية السياسية والأمور السياسية، ونحو ذلك من الدفوع غير المقنعة.

الثانية: قضية الحضارة الإنسانية الواحدة أم الحضارات المتعددة، وهذه القضية ترتبط جزئيًا بالقضية السابقة ولكن لها استقلاليتها، فالأخذ بمفهوم الحضارة الواحدة المسيطرة أو المهيمنة يلغي مبدأ تنوع الحضارات وتعددها، وهو المبدأ الواقعي القائم فعليًا.

فالحضارة الغربية الراهنة هي نتاج الفكر اليوناني والمسيحي والنهضة الصناعية، وهي تختلف عن الحضارة الإسلامية أو الحضارة الصينية التي تستند إلى أسس ثقافية، وقيم وممارسات مختلفة، ولا شك أن النظرة السليمة تقتضي الأخذ بمبدأ التوازن والتفاعل المتبادل بين الحضارات، وليس سيطرة إحداها على الأخرى، وبخاصة إذا نظرنا إلى الجانب الثقافي من الحضارة، وليس إلى جانبها المادي المرتبط بالتطور الصناعي، وبعبارة أدق بأدوات الإنتاج، فالآلة واحدة في كل المجتمعات، ولكن الإنسان الذي يستخدم هذه الآلة ويتعامل أو يتفاعل معها يختلف من مجتمع إلى آخر، ومن ثم فإن نتيجة هذا التفاعل مختلفة.

لا عصبية أو عنصرية في الإسلام، الذي كفل للناس جميعًا حرية العقيدة، والحرية الشخصية، وجعل الأمر شورى في المجتمع المسلم

الثالثة: قضية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وبخاصة الحق في التنمية، ولقد نظرت الدول النامية، والدول الاشتراكية السابقة إليها على أنها حقوق، في حين جعلتها الدول الرأسمالية مظاهر للنشاط الاقتصادي.

الرابعة: قضية الرقابة والمتابعة المتصلة بمبادئ حقوق الإنسان.. هل هذه الرقابة مسئولية المجتمع الدولي، أم مسئولية الدولة ذات السيادة؟ وإذا كانت من مسئولية المجتمع الدولي فهل الأجهزة الحالية كافية أم هناك حاجة إلى جهاز أعلى يسمى المفوض السامي لحقوق الإنسان، يكون المنسق العام والرقيب العام على مدى التزام الدول احترام حقوق الإنسان وتطبيقها لما تضمنته الصكوك الدولية في هذا الشأن؟

ولقد انبثق عن التطورات السياسية والاجتماعية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين بروز ظواهر جديدة يمكن القول بأن لها اتصالاً مباشراً أو غير مباشر بما يسمى بالنظام الدولي الجديد الذي هو قيد التبلور والتشكل، ومن هذه الظواهر:

ظاهرة الحروب الدينية والعرقية:

ولقد برزت في أسوأ صورها في أحداث البوسنة والهرسك حيث مورست عملية التطهير العرقي والديني في أبشع صورها من المذابح الجماعية واغتصاب النساء، وقتل المدنيين والاعتداء على مواكب دفن الموتى وعلى المستشفيات، وفرض الحصار الاقتصادي على مدن بأكملها، وتدمير الآثار التاريخية في سراييفو وغيرها من مدن البوسنة والهرسك.

ظاهرة العنصرية الجديدة:

التي تجلّت فيما عرف بمعاداة الأجانب والاعتداء عليهم كما حدث في ألمانيا وفرنسا.

ظاهرة التطرف الديني:

وظهرت في عدد من المجتمعات التي تنتمي إلى ديانات مختلفة، فظهرت بين الهندوس في الهند ضد المسلمين، وفي بعض البلاد الغربية ضد المسلمين وضد غير المسلمين على السواء، وفي إسرائيل من اليهود المتطرفين ضد الفلسطينيين، وهكذا.

وشهد مؤتمر فيينا مداولات اتسمت بالحدة، لإصرار الدول الغربية على عدم التعرض لما يحدث من انتهاك لحقوق الإنسان في بعض الدول، مثل ما كان يحدث في البوسنة والهرسك، لادعاء تلك الدول أنها تريد التركيز على مبادئ عامة من غير الإشارة إلى مشكلات تتعلق بحقوق الإنسان في دول بعينها، بينما أصرت الدول الإسلامية على ضرورة إصدار إعلان عن انتهاكات حقوق الإنسان في البوسنة، ولم تعارض الدول الإفريقية هذا الاقتراح، وإن تحفظ بعضها، وانتهى المؤتمر بإعلان عن البوسنة، وبعد أن حظي بتأييد ٨٨ دولة، بينما امتنعت ٥٥ دولة عن التصويت، ولم تعترض عليه غير روسيا.

أما الإعلان الخاص بأنجولا فقد اعتمد بتوافق الآراء، وكان أكثر قوة في صياغته من إعلان البوسنة، على الرغم من الفارق الواضح في حجم الفظائع وانتهاك حقوق الإنسان في الحالتين. وكان موقف المجموعة الأوربية هو الاكتفاء في شرح موقفها بأنه لو كان طرح على التصويت فإن هذه الدول كانت ستمتنع استناداً إلى مبدأ عدم معالجة حالات فردية معينة لحقوق الإنسان.

وقد كان الوفد الفلسطيني أكثر معقولية في موقفه.. فبعد أن ناور قليلاً بفكرة طرح مشروع قرار، أو المطالبة بإعلان عن الوضع في الأراضي المحتلة، آثر عدم الإصرار على الفكرة حتى يتيح الفرصة لإعلان البوسنة من ناحية، وتقديراً للمنهج الواقعي من ناحية أخرى، إذ إنه كان سيواجَه بمعارضة أكثر شدة مما حدث مع البوسنة، وربما لو طرح مشروعه للتصويت فلن يحظى إلاّ بأغلبية ضئيلة، إذا قُدّر له أن ينجح على الإطلاق، واكتفى وفد فلسطين بتضمين الإعلان النهائي للمؤتمر فقرة حول حق تقرير المصير والاحتلال الأجنبي؛ لكونه عائقاً من عوائق ممارسة حقوق الإنسان.

أما بالنسبة إلى منصب المفوض السامي لحقوق الإنسان، فقد بذلت الدول الغربية عامة والولايات المتحدة خاصة ضغوطًا مكثفة للموافقة عليه.

وفيما عدا هذه القضايا الخلافية .. فإن مؤتمر فيينا قد كرر كثيراً من المواقف ذات الطبيعة العامة والمتعلقة بحقوق الإنسان، وأمكن تضمين إعلانه فقرات تدعو إلى المساعدة في تخفيف الديون الخارجية، وضرورة القضاء على التفرقة العنصرية، ودعوة لضرورة تشجيع إنشاء اللجان القومية لحقوق الإنسان ونحو ذلك.

ونحن مع تقديرنا الكامل لتلك المحاولات منذ صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨م حتى مؤتمر فيينا سنة ١٩٩٣م والتي لو خرجت من حيز النظرية إلى حيز التطبيق لعمّ الخير والسلام، ونعم البشر جميعًا بالأمن والطمأنينة، ولكن هيهات ... فإن الأمم المتحدة لم تأتِ بجديد.

فإن حقوق الإنسان الواردة في مواثيق الأمم المتحدة جعلها الإسلام ضرورات إنسانية لا سبيل لحياة الإنسان من دونها، ومن ثم فإن الحفاظ عليها لا يقتصر على كونه حقًا فقط يمكن التنازل عنه، بل هو واجب يأثم من يفرط فيه فرداً أو جماعة.

فقبل إعلان الأمم المتحدة بنحو أربعة عشر قرناً من الزمان ظهر الإسلام، وجاء نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، حاملاً دستوراً سماويًا يمنح الفرد الحياة الكريمة، ويهب المجتمع السمو والرقي، دستوراً كاملاً لا حوب فيه ولا اعوجاج، ولم لا وهو صادر عن رب العزة سبحانه وتعالى؟!

لهذا أكد الفقهاء أن غاية الشريعة الإسلامية أن تحفظ على الناس خمسة أمور سُميت بالضرورات الخمس، وهي: حفظ النفس والعقل والنسل والدين والمال.

كما قرروا أن إصلاح أمر الدين موقوف ومترتب على صلاح أمر الدنيا، قال الإمام الغزالي:

«إن نظام الدين لا يحصل إلاّ بنظام الدنيا، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلاّ بصحة البدن وبقاء الحياة وسلامة تلك الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات والأمن، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية!!»(٥)

وفي هذا قال الدبلوماسي الألماني هوفمان: «إن الشريعة الإسلامية قد تضمنت قوانين مختلفة تكفل توافر الحقوق، وبخاصة حق الحياة، وسلامة الجسد والحرية والمساواة في المعاملة وحق الملكية الخاصة، والزواج وحرية الضمير، وبراءة المتهم حتى تثبت إدانته، وحق الحماية من التعذيب، ولا عقاب من دون سابق إنذار، وحق اللجوء، وكذلك عدم الحكم إلاّ بعد سماع أقوال الطرفين، وهذه الحقوق قد كفلها الإسلام منذ ألف وأربعمئة عام».

كما يقول «هوفمان»(٥): «إن الصياغة التي تناولت حقوق الإنسان التقليدية في القرون المنصرمة في أوربا، إنما كانت بالدرجة الأولى للحدّ من سلطة الدولة، فليس للدولة دون مبرر أن تفرض الضرائب، أو تعتقل إنسانًا، أو تنتزع ملكيته، أو أن تحكم عليه بالإعدام».

الحقوق في الإسلام:

ركز القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة على الحقوق التي كانت مهدرة في الأمم الأخرى، والنصوص والوثائق في ذلك لا تكاد تحصى لكثرتها، ونكتفي هنا بلمحات عنها:

أولاً: المساواة:

أورد القرآن الكريم نحو مئة وخمسين آية عن الخلق والخلائق وعن المساواة في الخلقة وفي ذلك نذكر:

قول الله تعالى: *يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائلَ لتعارفُوا إن أكرمكم عندَ الله أتقاكم*. **الحجرات**:١٣.

ويقول عز وجل: *ومَنْ يعملْ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمونَ نقيرًا*. **النساء**:١٢٤.

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الناس كلهم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب» رواه الترمذي(٦).

ويقول: «لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى» رواه البخاري(٧).

ويقول: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى» رواه البخاري(٧).

وهكذا يقرر الإسلام واحداً من أهم المبادئ التي أقام عليها مجتمعه: المساواة لا فرق بين عربي وأعجمي، لا فرق بين أبيض وأسود، لا عنصرية ولا عصبية، المفاضلة هنا بالعمل، العمل وحده هو المعيار: فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرة يره. الزلزلة: (٧، ٨).

هذا هو التقدير، وهكذا تكون المفاضلة دون محاباة أو ظلم، دقة ووضوح.. فهل نرى هذه المساواة الحقيقية في المجتمعات الأخرى؟ وإذا كانت موجودة فلماذا ينادون بها بعد ظهور الإسلام بأربعة عشر قرنًا من الزمان؟

ثانيًا: الحرية:

وردت نحو أربعين آية في القرآن الكريم عن الإكراه والكراهية، منها أكثر من عشر آيات تنهى عن الإكراه، وذلك لضمان حرية الفكر والاعتقاد وحرية الضمير، أي إن باب الحريات في الإسلام باب واسع عريض، وعلى رأس هذا الباب تأتي حرية العقيدة، وهي الحرية الأم في الإسلام.

ـ حرية العقيدة:

يقول عز وجل: *لا إكراهَ في الدين قد تبيّن الرُّشد من الغَيّ*. **البقرة**:٢٥٦.

ويقول: *وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فَلْيؤمن ومن شاء فَلْيكفرْ*. **الكهف**:٢٩.

ويقول مخاطبًا نبيه ورسوله الخاتم في استفهام غرضه النفي والإنكار:

ولو شاء ربُّكَ لآمنَ من في الأرض كلُّهم جميعًا أفأنت تُكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنينَ. **يونس**:٩٩.

وبهذه النصوص السماوية يقرر الإسلام أن حرية العقيدة مكفولة للبشر جميعًا، الاختيار للفرد دون تدخل من أي عامل خارجي أو إجبار، وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لطفيل بن عمرو الدوسي عندما سأله أن يرسل معه قوة تحمل قومه على الدخول في الإسلام: «عُد إلى قومك فادعهم وارفق بهم».

ـ حرية الذات:

كفل الإسلام العدل والعدالة ورفع الظلم، لا فرق في ذلك بين الرجال والنساء، ولا بين المسلم وغير المسلم، أو بين الكبير والصغير، وأمر بحفظ الحياة وتوفير أسباب الحياة للإنسان، وحسبنا أن القرآن الكريم قد تعرض للظلم والظالمين في نحو ثلاثمئة وعشرين آية، وأمر بالعدل في أربع وخمسين آية، وأورد نحو ثمانين آية عن الحياة، ونحو سبعين آية عن القتل والقتال، نذكر منها:

قول الله تعالى: *يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدَينِ والأقربين*. **النساء**:١٣٥.

وقوله تعالى: *مَنْ قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعا*. **المائدة**:٣٢.

ويقول سبحانه وتعالى: *وما كانَ لمؤمن أن يقتُلَ مؤمنًا إلاّ خطأً، ومن قتل مؤمنًا خطأً فتحريرُ رَقَبة مؤمنة*. **النساء**:٩٢.

وفي هذا المعنى يقول الإمام النسفي في تفسيره لهذه الآية: إنه ـ أي القاتل ـ لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء، ألزم أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار، لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات»(٨)

وقد بلغت درجة السمو الإسلامي المرتبة العليا عندما حث على عدم مناداة الخدم بألفاظ مثل عبد أو أمة. فالعبودية لا تكون إلاّ لله وحده، ويقول صلوات الله وسلامه عليه: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي. وليقل فتاي وفتاتي» رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن حنبل.

الحرية الشخصية:

كفل الإسلام للفرد حرية التصرف في بيته، وتسيير دفّة أسرته وفقًا لإمكاناته، وطبقًا لأوامر الله عز وجل ونواهيه.. فقال المولى تبارك وتعالى: *يأيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غيرَ بيوتكم حتى تستأنسُوا وتُسلّموا على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلكم تذكّرون، فإن لم تجدوا فيها أحدًا فلا تدخلوها حتى يُؤذَنَ لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم*. **النور**: (٢٧، ٢٨).

ويقول صلى الله عليه وسلم: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فلينصرف» رواه البخاري(٧).

كما فرض الإسلام على الآخرين احترام هذه الحرية وتقديرها حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن امرأ اطّلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جُناح» متفق عليه(٧-٩).

ثالثًا: العدل:

والعدل في المجتمع الإسلامي مكفول للجميع. وكما ذكرنا فإن القرآن الكريم قد تعرض للظلم وللظالمين في نحو ثلاثمئة وعشرين آية، وأمر بالعدل في أربع وخمسين آية، ذكرنا منها قوله تعالى: *يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين*. **النساء**:١٣٥.

فلا فرق بين حاكم ومحكوم، أو بين قوي وضعيف، لا محاباة. الجميع سواسية ينعمون بمظلة واحدة، وقمة العدل في الإسلام القصاص، فحق القصاص يمثل حجر الزاوية في العدل الإسلامي، فالنفس بالنفس، والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن، من قَتَلَ يُقْتَلْ، ومن ضَرَبَ يُضرَبْ، ويقول المولى عز وجل: *وكتَبْنا عليهم فيها أن النفسَ بالنفسِ والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنف والأُذُنَ بالأُذُنِ والسنَّ بالسنِّ والجروحَ قصَاص*. **المائدة**:٤٥.



انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان في البوسنة والهرسك

ويقول: *وإذَا حكمتُم بين الناس أن تحكُموا بالعدل*. **النساء**:٥٨.

ويقول: *وقلْ آمنتُ بما أنزَل الله من كتاب، وأُمرتُ لأعدل بينكم*. **الشورى**:١٥.

ويقول رب العزة في حديثه القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» رواه مسلم(٩).

ويقول صلوات الله وسلامه عليه: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن» رواه مسلم والنسائي(٩).

ويقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم القيامة وهو غاشٌ لرعيته إلاّ حرّم الله عليه الجنة» رواه الدارمي.

ويقول: «والذي نفسُ محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» متفق عليه(٧-٩).

ولعلّ قولة عمر بن الخطاب «اضرب ابن الأكرمين» ما زال يتردد صداها عبر التاريخ! فهل يحدث مثل هذا في غير مدنية الإسلام؟

رابعًا: حقوق المرأة:

حظيت المرأة في الإسلام بما لم تحظ به المرأة في القوانين الأوربية.. تلك القوانين الموروثة عن القانون الروماني، فنرى التمييز الصارخ بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات حيث تنص القوانين الأوربية على: استحقاق المرأة نصف أجر الرجل عن العمل ذاته، تمنع المرأة من التصرف في أموالها الخاصة، تمنع المرأة من الاحتفاظ باسم عائلتها عند الزواج بل تنتسب إلى عائلة زوجها.

والشريعة الإسلامية لا تُقر التفرقة بين الرجل والمرأة في الأجر عن العمل ولا تُقر حرمان المتزوجة من التصرف في أموالها، ولا تقر فقدان المرأة اسم عائلتها عند الزواج.

الشريعة الإسلامية لا تقر التفرقة بين الرجل والمرأة في الأجر عن العمل، أو حرمان المتزوجة من التصرف في أموالها، أو فقدان المرأة اسم عائلتها عند الزواج

ولكن الجدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية توجب بعض الفوارق بين الرجل والمرأة وهي ترجع في أغلبها إلى الفوارق الطبيعية بينهما في الخلقة والتكوين وفي الأعباء والالتزامات، ومن ثم توجد فوارق في الميراث وفي الزواج حيث يُحرم الإسلام الزواج من المشركات، ويُجيز الزواج من الكتابيات، أي بنات النصارى واليهود، ولا يُجيز زواج المسلمة بغير المسلم.

ويقول المولى عز وجل: *ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهن درجة*. **البقرة**:٢٢٨.

وقال صلى الله عليه وسلم: «*إنما النساء شقائق الرجال*»، والدرجة التي للرجال هي القوامة في الأسرة.

خامسًا: الشورى:

يقول رب العزة: *وأمرُهم شورى بينهم*. **الشورى**:٣٨، ويقول: *وشاورْهم في الأمر*. **آل عمران**:١٥٩.

هذه هي الشورى في الإسلام، تمنح الفرد حرية الرأي، وحرية التعبير، وحرية الكلمة، وهذه هي مدنية الإسلام، أو الديمقراطية كما يحلو للمدنيات الأخرى تسميتها.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سنام الأمة، كان القدوة والمثل في مشاورة أصحابه ما دامت الشورى في أمر دنيوي لم يرد فيه نص إلهي قاطع. يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه الترمذي(٦).

ونرى المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو يقرر في سماحة وسعة أفق لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب: «لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتُكما» رواه ابن حنبل(١٠).

أي إنه لا ديكتاتورية في الإسلام ولا تعنّت، وكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه، سار خلفاؤه الراشدون على الطريق نفسها، وأيضًا من تبعهم من قادة التاريخ الإسلامي.

سادسًا: التكافل الاجتماعي:

يقول سبحانه وتعالى: *خذ من أموالهم صدقةً تُطهِّرهم وتزكِّيهم بها*. **التوبة**:١٠٣.

ويقول: *والذين في أموالهم حقٌّ معلوم، للسائل والمحروم*. **المعارج**:(٢٤، ٢٥).

ويقول صلى الله عليه وسلم «من كان معه فضلُ ظهر فلْيَعُد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضلُ زاد فلْيعُد به على من لا زادَ له» رواه البخاري(٧).

ويقول: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» رواه مسلم(٩).

هذا هو التكافل بحق، فلا فقير معدمًا ولا غنيَّ مستغلاً، لا طبقات، ولا صراع، فالفقير في الإسلام له حق حقيقي مكفول بالقوة، وليس مجرد إحسان اختياري كما قد يظن بعضهم، وذلك لقوله تعالى «حق معلوم».

سابعًا: حق التعليم:

يقول المولى عز وجل: *يرفع اللّه الذينَ آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجات*. **المجادلة**:١١.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «إن العلماء ورثة الأنبياء» رواه مسلم(١٠).

ويقول: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» رواه الترمذي(٦).

ويقول: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة» رواه مسلم(٩).

والإسلام عندما جاء للإنسان بحق العلم، إنما جاء ليفرضه، فكانت «اقرأ» أول كلمة نزلت من الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي صيغة أمر تحمل معنى الفرضية، وكذلك قرر الرسول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه مسلم(٩).

ثامنًا: حقوق الإنسان في الحروب:

بلغت الحقوق الإنسانية في الحروب الإسلامية من الرقي والتقدم ما يلزم أن تتضمنه قوانين حقوق الإنسان اليوم، وقد أجمل الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذه الحقوق في وصيته لجيوش المسلمين عندما قال: «لا تخونوا، ولا تغدرو، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا، صغيراً، ولا شيخًا كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرًا، إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

أما عن آداب ما بعد الحرب، فقد ضرب قادة الجيوش الإسلامية أروع المثل في الكرم والرحمة الإنسانية، ها هو ذا صلاح الدين الأيوبي في حروبه مع الصليبيين، إذ استطاع أن يأسر منهم الكثير، ولما لم يجد مأوى مناسبًا يؤويهم فيه، ولا مطعمًا كافيًا أمر بإطلاقهم جميعًا، ثم انقلبوا من بعد قوة ضده، ولما سئل في ذلك قال: «خيرٌ لي أن أقابلهم في الميدان من أن أميتهم جوعًا».

هذا هو الإسلام الذي جاءليبعث الحياة في الموت، ولم يأت ليبعث الموت في الحياة، وهذه مجرد قطوف من دستور الإسلام العظيم أوجزنا منها باختصار شديد مواثيق الإسلام التي نظمت حياة الإنسان، وأوضحت لكل فرد ما له من حقوق وما عليه من واجبات.

ونحن هنا لا نوازن بين المواثيق الإسلامية ووثيقة الأمم المتحدة، لأنه لا مجال للموازنة بين تشريع الخالق سبحانه وتعالى واجتهاد المخلوق.

الخلاصة:

وخلاصة القول أن حقوق الإنسان التي ينادون بها مجرد شعار أجوف لا قيمة له ولا معنى، وأن الله تعالى ينعى على أصحاب تلك الدعاوى والشعارات كَذِبَهم بقوله عز وجل: *كَبُر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون*. **الصف**:٣.

هذا ويجب على المسلمين إعادة النظر في أمورهم الحياتية، لأن الاكتفاء بمجرد الشجب والإدانة هو استسلام للظلم الذي يتعرض له المسلمون في معظم بلدان العالم، وعليهم العودة إلى الله عز وجل، واللجوء إليه، وسيذكر كل من ينجو بإيمانه الحق من أمم العالم الرسالة الإلهية التي تُفتتح باسم الله الرحمن الرحيم وتختتم بالحمد لله رب العالمين.

الهوامش والمراجع:

١- محمد نعمان جلال: حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق، كراسات الأهرام الاستراتيجية، يوليو ١٩٩٣م، ص٥.
٢- ميثاق الأمم المتحدة.
٣- محمد نعمان جلال: المرجع السابق، ص٩-١٢.
٤- أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، القاهرة، طبعة صبيح.
٥- د. مراد هوفمان: الإسلام كبديل، مؤسسة بافاريا بألمانيا الموحدة.
٦- صحيح الترمذي، مطبعة الصاوي، القاهر، ١٣٥٢هـ.
٧- صحيح البخاري، بشرح ابن حجر، الطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٤٨هـ.
٨- الإمام النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج١.
٩- صحيح مسلم، بشرح النووي، المطبعة المصرية، الأزهر، ١٣٤٧هـ.
١٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل.

مراجع أخرى:
١- الإمام محمد أبو زهرة: الشريعة الإسلامية محاضرة مكتوبة.
٢- باسيل يوسف: في سبيل حقوق الإنسان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨م.
٣- د. بطرس بطرس غالي: حقوق الإنسان بين الديمقراطية والتنمية، تقرير عن أعمال المنظمة، سبتمبر ١٩٩٣م، مجلة السياسة الدولية عدد ١١٤، أكتوبر ١٩٩٣م.
٤- تقارير لجنة حقوق الإنسان.
٥- سالم البهنساوي: الإسلام وحقوق الإنسان، مقال بمجلة العربي، الكويت عدد ٤٢٠.
٦- القرطبي، جامع أحكام القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، ١٣٥٤هـ.
٧- محمد حسن الجلبي: مبادئ الأمم المتحدة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٠م.
٨- محمد خلف الله أحمد، حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق، من بحوث مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية لعام ١٣٩٢هـ.
٩- د. محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان، عالم المعرفة، الكويت.
١٠- محمود شريف بسيوني: حقوق الإنسان، الوثائق العالمية والإقليمية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م.

هل يمكن تعليم الترجمة؟

محمد نبيل النحاس الحمصي

هل الترجمة عملية ممكنة؟ سؤال طرحه كثيرون خاضوا في هذا المجال، وازداد طرحه في النصف الثاني من القرن الحالي بعد أن أصبحت الترجمة علماً قائماً بذاته. كان الجواب وسيكون دائماً إيجابياً. إن عملية الترجمة تتضمن مراحل ثلاثًا هي فهم النص، واستيعابه استيعابًا جيدًا، ثم تعرف معانيه وأفكاره من خلال الرموز اللفظية والتراكيب، وإيجاد مقابلات دلالية وأسلوبية لها، وأخيرًا إعادة صياغته باللغة الهدف.

والعملية تقوم في نهاية المطاف على نقل المعنى نقلاً أمينًا من لغة إلى أخرى، وإن كان مفهوم الأمانة يحتاج في الحقيقة إلى بحث مستقل، أي إنها نقل لمضمون دلالي قد يأخذ شكلاً مختلفًا في اللغتين، ولكنه يبقى عملية ممكنة على الرغم من تعقيدها. إذن فالترجمة ممكنة. ثم إنها قديمة قدم التاريخ، وجدت منذ بدأ الناس يتحدثون بلغات مختلفة.

أعتقد أن هناك سؤالاً آخر يستحق الطرح وهو: هل يمكن تعليم الترجمة كما نعلم المواد العلمية الأخرى؟ للإجابة عن هذا السؤال، أسوق ترجمة عن اللغة الفرنسية لمقال كتبه رونيه فالتز Rene Waltz في متفرقات ج سونييه، Melanges J. Saunier، ١٩٤٤م.

وأريد، قبل أن أترك الكلام لرونيه فالتز، أن أوضح نقطة لا تخفى على القارئ وهي أن ما ينطبق على اللغتين الفرنسية واللاتينية اللتين يستند إليهما المقال ينطبق بالطبع على كل اللغات الأخرى. ما أريد قوله في الحقيقة هو أن أهمية المقال، على الرغم من قدمه النسبي، تكمن في أنه حصيلة خبرة طويلة في مجال تدريس الترجمة، وفي الملاحظات والمرئيات التي يطرحها، لا سيما أنها تتسم بطابع العمومية والشمولية بحيث يمكن أن يفيد منها القارئ المهتم أيًا كانت اللغتان اللتان ينقل من إحداهما إلى الأخرى، خصوصاً إذا كانتا لا تنتميان إلى أسرة لغوية واحدة، كاللغة العربية من جهة والفرنسية والإنجليزية من جهة أخرى، على سبيل المثال.

لقد طرحت هذا السؤال على نفسي غير مرة منذ أن بدأت بتدريس الترجمة، وفي كل مرة كان جوابي «نعم» و «لا».

تلعثم وتعثر

يمكن بالطبع تعليم بعض المبادئ والأساليب، ونقل بعض العادات في عملية الترجمة، وإعطاء بعض التوصيات والحلول والحيل المفيدة. ولكن الترجمة تمرين وممارسة تستلزم حسن الأداء أكثر من النظريات، وتتطلب الذوق والفن والحدس والمهارة أكثر من المنهجية. إن النصائح التي يمكن إسداؤها للطالب تأخذ في غالبيتها صيغة الأمر أو النهي: تجنب هذا الخطأ أو ذاك، لا تترجم ترجمة حرفية بلغة عامية بحجة الأمانة العلمية والوفاء للنص، تقيد بالمعنى أولاً وليس بالشكل، لا تلجأ إلى الحرفية بل أوّل وفسّر. وباختصار نقول لطالبنا تفاد كل ما يجعلك تكتب لغتك الأم باللغة المصدر، تجنب كل تعبير غير مألوف يتوه فيه القارئ، ولا يراعي حسّه وذوقه، ابتعد عن الألغاز والأحاجي، نقاط كثيرة ينبغي التركيز عليها لكثرة ما نرى من أخطاء حتى في ترجمات أكثر الطلاب جدية وذكاء وفطنة، أولئك الذين لا يجدون صعوبة في فهم النص المطروح، والدخول إلى أعماقه، واستيعابه خير استيعاب، ولكن تراهم على الرغم من ذلك، يتلعثمون ويتعثرون في نقل أفكار النص وحركته وطابعه ولهجته إلى لغتهم الأم.

يتحدث كثيرون عما يسمونه تقنيات الترجمة، ويؤلفون الكتب في هذا المجال، بعضها جيد وبعضها الآخر أقل جودة، ولكن هل يعني ذلك أن

الطالب الذي يغوص في الجيد منها، ويستوعب كل ما تحتويه من تقنية الترجمة يصبح قادراً على القيام بترجمات جيدة؟ لا شك في أنه سيصبح أكثر قدرة على تجنب بعض العثرات والهنات، وعلى تركيز انتباهه على عدد من النقاط الصعبة التي ينبغي أن يعالجها بحذر، وسيكون أقل تبعية لمعجمه إن صح القول، وهذا شيء جيد نصبو إليه جميعاً. سيعرف كيف يتصرف، ويخرج من بعض المواقف الصعبة؟ ولكن هل سيجيد الترجمة إذا أمسك القلم؟ وما الذي سينقصه إذن؟ الممارسة والدربة واليد الواثقة والفكر الواضح النير، وهي أمور لا يستطيع أحد مهما بلغ من مهارة وحسن أداء، أن يلقنها للدارس الذي ينبغي أن يكتسبها بنفسه تدريجيًا. لا يتقن إنسان الترجمة إلا بقدر ما يترجم، ولا يصبح مترجمًا ناجحًا إلا إذا اشتد على نفسه في الانتقاد، وتدارك أخطاءه دون كلل أو ملل.

ولما كانت الترجمة فنًا صعبًا، كما قلت، فإنه يحتاج إلى حس وذوق، وهاأنذا أذهب أبعد من ذلك فأقول: إنه يحتاج إلى مهارة وبراعة شخصية لا يمكن الاستغناء عنهما، ثم إن الفن والتقنية لا ينفي أحدهما الآخر، فكل فن يحتاج إلى تقنية، ولكن التقنية ليست سوى وسيلة أو مجموعة وسائل منهجية تظل عقيمة إن لم ترفدها موهبة فطرية لا يمكن نقلها من إنسان إلى آخر، والتقنية بحد ذاتها تبقى عقيمة دون الموهبة الطبيعية التي تغذيها وتغنيها.

لا يتقن إنسان الترجمة إلا بقدر ما يترجم، وبشدته على نفسه في الانتقاد، وبتداركه أخطائه دون كلل أو ملل

ليس هناك وصفة لإتقان الترجمة والنجاح فيها، شأنها في ذلك شأن الشعر والرسم والنحت، وخير دليل على ذلك أن أصحاب نظريات الترجمة أنفسهم يصابون بالارتباك عندما ينتقلون إلى تطبيق مبادئهم، وهم يقرون بذلك دون غضاضة، ولا يعد هذا انتقاصاً من شأنهم.

مشكلة ثانوية

لا بد لنا في هذا المقام أن نقر بفضل ماروزو Marouzeau الذي وضع حداً لتقليد ظاهره براق، وباطنه كثير الضرر، وهو أنهم كانوا يلقنون الدارسين أن اللغة اللاتينية لغة ذات تركيب حر، وأن ترتيب الكلمات في الجملة يحدده ترتيب الأفكار، لذلك يجب احترام هذه التركيبة عند الترجمة من اللاتينية إلى الفرنسية، مما كان يؤدي إلى أخطاء لا حصر لها، وإلى ركاكة أسلوبية غريبة. والسبب في ذلك إنما يرجع إلى خرق قواعد اللغة الفرنسية وتناقضات في المعاني(١).

لقد أضافوا إلى مشكلة الترجمة التي تتمثل في إيجاد الكلمات والعبارات المتكافئة، مشكلة أخرى ثانوية بحد ذاتها، ولكنها كفيلة بعرقلة حل المشكلة الأولى نظراً للأهمية التي يولونها إياها. وقد ندد ماروزو بهذا الحكم الخاطئ الذي ساد في الحقيقة نتيجة الأبحاث التي قام بها فيل H. Weil(٢)، وأسيء فهمها، ولاحظ بحق أن الأفكار والكلمات لا يمكن أن تخضع في اللغة الفرنسية إلى الترتيب نفسه الذي تأتي عليه في اللغة اللاتينية، وأن عرض الفكرة يختلف كثيراً من لغة إلى أخرى. وقد خالف ماروزو هذه القاعدة التي سادت أكثر من قرن قائلاً: إن المترجم الجيد يصب اهتمامه على التقيد بمتطلبات لغته الأم ومراعاتها، ولا يتردد في إدخال تعديل جذري على ترتيب الكلمات والأفكار بدلاً من الحرص على محاكاة بنية الجملة اللاتينية محاكاة ضيقة، وأوصى المترجم ألا يجزّئ الجملة اللاتينية الطويلة في غالب الأحيان، والغنية بالجمل الملحقة والمستقلة والمتجاورة، وألا يستبدل بها مجموعة من الجمل القصيرة المستقلة، لاشك أن الحل مريح، ويغري المترجمين المبتدئين الذين لا يستطيعون مقاومته، ولكن من شأن هذا الحل أن يغير المعنى، ويفسد الرابطة بين الأفكار، فضلاً عما فيه من خيانة لأسلوب الكاتب. ويمكن القول عمومًا: إن الترجمة الجيدة ينبغي أن تحافظ على مسار النص الأصلي، وتحاكيه جملة جملة دون اجتزاء لها، أو تداخل بينها. مهما بلغت الجمل طولاً أو قصراً(٣) وتنطبق هذه الملاحظة أو النصيحة على الاتجاه المعاكس في الترجمة، أي من الفرنسية إلى اللاتينية.

الحس اللغوي ضرورة

وأخيرًا لا يمكن إيجاز النصائح التي تضمنها كتاب ماروزو بعبارة مقتضبة، ينبغي أن تكون شعاراً لكل من يخوض في الترجمة، وأن تبقى حاضرة في ذهنه على الدوام، وهي أن على المترجم أن «يعيد صياغة أفكار الكاتب اللاتيني باللغة الفرنسية المعاصرة، وأن يحكم على ترجمته كما لو كان يقرأ نصاً أصليًا، ويسأل نفسه عن الانطباع الذي ستتركه لدى القارئ الذي يجهل اللاتينية»(٤) وليس هناك في نهاية المطاف، معيار آخر أكثر دقة.

إن كتباً مثل كتاب ماروزو(٥) يمكن أن ترسم للدارس الطريق السليم الذي يجب عليه أن يسلكه، وتأخذ بيده، وتوجهه، وتجنبه العثرات، ولكنها لا يمكن أن تولد لديه الحس اللغوي الذي يفتقر إليه في لغته الأم، ولا حتى الحد الأدنى من المهارة التي تتطلبها الترجمة، إذا ما تجاوز الدارس مرحلة الترجمة الحرفية. وهذه المهارة تُكتسب اكتسابًا، وتنمو تدريجيًا، ولا يستطيع أحد تلقينها أو تلقيها.

ينبغي على كل من ينوي الخوض في مجال الترجمة أن يكون عارفًا بثغراته ونواقصه، ومدركًا لها، وأن يختار لنفسه نماذج جيدة يحاكيها ببصيرة وفطنة. يجب أن يكون المترجم قاسيًا على نفسه، وأن يتحلى بالأناة والصبر.

نوعان يتداخلان

هناك في الحقيقة نوعان من الترجمة يختلفان بينهما اختلافًا كبيرًا، وينبغي عدم الخلط بينهما. كتب باتو abbe Batteux في معرض حديثه عنهما يقول: «النوع الأول يرتقي فيه المترجم إلى ضرب من الكمال؛ إذ يمكن أن يحل نصه محل النص الأصلي، كما تحل اللوحة الفنية المنسوخة بيد ماهرة محل اللوحة الأصلية، أما النوع الثاني فيبتعد عن الأصل، ويكتفي بتمهيد الطريق إلى فهمه، وهو أشبه بالرشم»(٦)، ويرى باتو كلتا الطريقتين مشروعتين من حيث المبدأ، وإن كانتا لا تخضعان لتقنية واحدة، فضلاً عن اختلافهما في الغاية. فترجمات النوع الأول ذات طابع أدبي واضح بما أنها تسعى إلى أن تحل محل النص الأصل؛ أما الترجمات الثانية التي تقصد إلى تسهيل قراءة الأصل وفهمه فليست كذلك، ولايمكن أن تكون سوى وسيلة تربوية مساعدة.

والمهم في الأمر أن كلا النوعين موجود لغرض معين، وأنه لا شيء أسوأ من الخلط بينهما كما يحدث كثيرًا. ما الذي ننتظره من الدارس الذي نطرح عليه نصًا لينقله من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف؟ أن «يمهد الطريق لفهم النص» بترجمة حرفية، كلمة كلمة؟ أم أن يحرر صفحة بلغته الأم تعطي فكرة واضحة وأمينة عن النص؟ إن السؤال نفسه لا يقدم إجابة. ولكن كثيراً ما يقرأ الدارس ترجمات حرفية من النوع التربوي، ولا يميزها من الأخريات، وينتهي به الأمر إلى أن يأخذها مرجعًا له، خاصة إذا ما كتبت بأقلام معروفة،

لأنه يحاول عادة بذل أقل ما يمكن من جهد.

وقد اعتدنا رؤية النوعين من الترجمة في ترجمات الطلاب، متداخلين فيما بينهما على حساب الدقة والوضوح. كذلك فإن الحيطة الواهية التي يولدها الخوف من الابتعاد عن المعنى بالابتعاد عن حرفية النص تؤدي إلى النتيجة ذاتها.

إن الطالب شأنه شأن المترجم، أسير لواجبين اثنين متباينين ظاهريًا على الأقل، وتكمن الصعوبة الأساسية في التوفيق بينهما، فإذا نجح في هذه المهمة يكون قد أدى مهمته على أكمل وجه. غني عن القول أن الصفة الأولى للترجمة، مهما كان نوعها هي الدقة. يبقى أن نضيف إليها صفة ثانية لا تتوافق معها أول وهلة، بل تقف حجر عثرة في وجهها، وهي ما يطلق عليه بتعبير غير مناسب الأناقة أو الانسيابية. ولكن دعونا نعرِّف هاتين الكلمتين اللتين شاع استخدامهما في مجال الترجمة. لا تعني الدقة خضوعًا شكليًا وسلبيًا لحرفية النص، ولا يمكن، بل لا يجوز أن تكون الترجمة نسخة عن الأصل، فلو فعلنا ذلك لوقعنا في الخطأ الذي سبقت الإشارة إليه، وهو الكتابة باللغة الأم نصًا غريبًا عنها يستعصي على الفهم. يقول سانت بوف Sainte Beuve بصدد هذا الموضوع «يحدث أحيانًا في الترجمة الحرفية الكاملة التي نقدمها لنص أصلي أن نبقي أقرب إلى المصطلح الأجنبي منا إلى مصطلحنا، وعندئذ يحتاج النص المترجم إلى أن يترجم بدوره»(٧).

الدخول إلى العمق

إن الدقة لا تعني نقلاً للشكل، وإنما ترجمة للفكرة بكل جوانبها، ولكل ما أراد الكاتب التعبير عنه. من الواضح إذن أن الأمانة تقتضي من المترجم جهدًا يدخل فيه إلى عمق الفكرة، وهذا لا توفره قراءة سطحية للنص الأصل. عليه أن يؤوِّل وأن يعيد في ذهنه صياغة أفكار الكاتب الذي ينقله، ثم يعبر عنها كما كان الكاتب سيعبر عنها باللغة الهدف لو كان يجيدها، أما فيما يتعلق بالانسيابية فيجب أن تفهم بالتلقائية والوضوح والمرونة والرشاقة في الأسلوب بحيث لا يثير النص المترجم نفور القارئ، وليس هناك تعارض بين الدقة والانسيابية، بل إن الأخيرة متمم ضروري للأولى إن أردنا قراءة الترجمة صحيحة، وتشكل هاتان الصفتان الشرط الأساسي لكل ترجمة جديرة بهذا الاسم، وتكمن الصعوبة في التوفيق بينهما دون التضحية بواحدة على حساب الأخرى، فلو فعلنا ذلك لعرضنا أنفسنا للندامة التي عبر عنها مازون Mazon في مقدمة ترجمته للكاتب الإغريقي أخيل Eshyle، حيث أسف لما تضمنته ترجمته من ضعف وقسوة وثقل، معترفًا بأنه ضحى بالانسيابية غير مرة ليلزم الدقة. ويضيف مازون «أن الدقة المتناهية قد تجعل الترجمة غير مقروءة»، وأنه اضطر إلى إيجاد تسوية لن ترضي أولئك الذي سيقرؤون الترجمة لذاتها، ولا أولئك الذين يبحثون فيها عن عرض دقيق وأمين لليونانية لو كانت الترجمة أكثر حرية لكانت أكثر دقة، لأنها تثير حينئذ الإحساس بالجمالية الشاعرية للنص: «إنه اعتراف حزين لفنان قص جناحيه بيديه! ودرس مفيد لكل المترجمين، والمبتدئين منهم على وجه الخصوص.

مجمل القول، أن الترجمة ليست عملاً آليًا، بل هي قبل كل شيء تأويل يقوم على نقل التعبير الفكري من لغة إلى أخرى(٨)، إنها تشبه إلى حد كبير عملية التأليف والإبداع، ولست أرى سببًا يجعل الدارسين يفضلون الإنشاء الفرنسي على ترجمة نص من اللغة اللاتينية أو اليونانية إلى لغتهم الأم.

الترجمة الجيدة تحافظ على مسار النص الأصلي، وتحاكيه جملة جملة من دون اجتزاء لها أو تداخل بينها

إن الترجمة مناسبة يختبر فيها الدارسون حسهم الأدبي خارج نطاق الاهتمامات العلمية، وهي مدرسة للصبر. يقول باتو: «كل أولئك الذين يعرفون ما الترجمة؟ يقرون أنها عملية تستدعي الصبر، وتتم بالمسطرة والفرجار»(٩). ويضيف دوليفيه، وهو حجة أخرى في الترجمة: «لديَّ الشجاعة الكافية لأقول: إنها نوع من أنواع الكتابة لا يمكن أن يقدر صعوبته إلا أولئك القادرون على التغلب عليه»(١٠)، إنه لقول جميل بلا شك، ولكن يجب ألا يكون سببًا في ثنينا عن الوصول إلى الترجمة الجيدة».

أكتفي هنا بهذه الملاحظات وأختمها على الصعيد العملي والتجريبي لأقول بشيء من الحسرة: إنني لم أتمكن من تعليم الترجمة طوال حياتي المهنية الطويلة إلا لطالبين اثنين لا أكثر، وأود أن أوضح أن النتيجة الجيدة التي حققاها في مسابقة أهلية التعليم العالي AGREGATION خير دليل على ذلك، ولكن الفضل في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إليهما وإلى حرصهما الكبير على الترجمة بلغة سليمة، واهتمامهما الدؤوب بالتوفيق بين الأمانة والوفاء للنص الأصل، واحترام اللغة الهدف.

لذلك فإن جوابي عن السؤال الذي طرحه العنوان «هل يمكن تعليم الترجمة؟» هو لا ونعم في آن واحد.

الهوامش:

١- انظر ماروزو Marouzeau، الترجمة وترتيب الكلمات: الجملة اللاتينية والجملة الفرنسية، مجلة الدراسات اللاتينية، ١٩٢٤م، ص١٨٩وما يليها.

٢- فيل H.Weil ترتيب الكلام في اللغات القديمة ومقارنته باللغات الحديثة، باريس، ١٨٤٤م، انظر أيضًا هافيه Havet، بلوت لمستعار Pseudo _ Plaute، ضريبة الجهل Le prix des anes، مجموعة الجامعات الفرنسية المقدمة.

٣- انظر دليل Delile، ترجمة جيورجيك Georgiques الافتتاحية: «ينبغي على المترجم ألا يخفي في جمل طويلة سمات يجب أن تظهر بجلاء ووضوح، كا ينبغي ألا يجزئ الجمل الطويلة التي يجب أن تنساب بفخامة».

٤- ديدرو Diderot، ذكره ماروزو Marouzeau، تيراس: كوميديا Comedies: Terence، المقدمة، ص١٠٤، «هناك طريقة واحدة لنقل كاتب من لغة أجنبية إلى لغتنا نقلاً أمينًا هي أن يتشبع ذهن المترجم بالانطباعات التي تتولد عنده من قراءة النص الأصل، وألا يرضى عن ترجمته إلا عندما تثير في ذهن القارئ الانطباعات نفسها». ويقول مارسيل بريفوا Marcel Prevot في كتابه أوفيد هيرويد He-roides Ovide، المقدمة: لقد برأت ذمتي كمترجم: فقد وضعت القارئ الفرنسي أمام النص الفرنسي في الحالة نفسها التي كان فيها القارئ اللاتيني أمام النص اللاتيني.

٥- نذكر بكتاب قريب من كتاب ماروزو Maruouzeau عنوانه «الطريقة لترجمة نصوص اللغة اللاتينية» لمؤلفه جافيو Gaffiot منشورات كولان Colin، ولكن هذه الطريقة ترمي في الواقع إلى تعليم كيفية تحليل الجملة وفهمها أكثر من كيفية ترجمتها إلى اللغة الفرنسية.

٦- باتو Batteux، في بنية الخطابة، الرسالة السابعة: كيف نترجم الشعراء؟

٧- حديث الاثنين، الجزء١١، ص٢١٢، في ترجمة دانت، انظر بور روايال Royal - Port، المجلد الأول، الكتاب الثاني، الفصل ١٥: «إن الميزة الأساسية لترجمات القرنين السابع عشر والثامن عشر هي أن الجميع يقرؤونها وكأنهم يقرؤون الأصل، الأمر الذي اختفى تمامًا في الطريقة المتشنجة والصارمة السائدة في يومنا هذا».

٨- أورد في هذا السياق بعض الأفكار الصائبة التي تستحق إمعان النظر: «ولا يكفي أن يكون المترجم عارفًا بقواعد اللغة، أو قادرًا على القيام بترجمة حرفية صحيحة، ليدخل إلى عمق هذه اللغة، واستيعاب فكر أولئك الذين يتكلمونها ويكتبونها. يمكن أن نذهب أبعد من ذلك، ونقول: إنه كلما اقتربت الترجمة من الحرفية: كان هناك خطر الانزلاق نحو الخطأ وتشويه الأفكار، لأنه لا يوجد تكافؤ حقيقي بين مفردات لغتين مختلفتين، لا سيما إذا كانت اللغتان بعيدتين الواحدة عن الأخرى، ولا أقصد البعد على المستوى اللغوي بقدر ما أقصد التنوع في مفاهيم الشعوب التي تستخدمهما»، جينون Gue-non، مقدمة لدراسة المذاهب الهندوسية، باريس، ١٩٢١م، ذكره مارسيل جوس Macel Jousse، الأسلوب الشفوي، أرشيف الفلسفة، الجزء الثاني، الفصل الرابع، ص٩٣.

٩- باتو Batteux، المرجع السابق.

١٠- دوليفيه Dolivet، تمهيد لترجمة توسكولان Tusculanes.

خيارنا في عصر طغيان السرعة

خيرالدين عبدالرحمن

جرى إطلاق عدّة تسميات على عصرنا، في محاولات لاختزال أبرز سماته في وصف معبر تختصره كلمة أو كلمتان. لعل أبرز تلك التسميات، وأكثرها صوابًا ونجاحًا تسمية هذا العصر بعصر السرعة الطاغي، فهذا الوصف يعكس القيمة المتعاظمة لعنصر الزمن في الحياة البشرية الراهنة، بحيث بات اختصار الزمن اللازم لإنجاز أي عمل مقياسًا رئيسًا للنجاح، ترتبط به مسائل جوهرية مثل مضاعفة الإنتاج، ورفع مستوى المعيشة، وزيادة الرفاهية، وتعزيز التقدم العلمي، ومراكمة الأرباح.

أكثر من هذا صار الزمن قيمة استراتيجية كبرى في السلم والحرب، وباتت أجزاء من الثانية الواحدة كفيلة بانتصار الطرف الذي يحسن استثمارها أكثر من الآخر في المواجهات المسلحة التي تحسمها إلى حد بعيد تطبيقات استخدام الأشعة، سواء أكانت أشعة الليزر أم الأشعة تحت الحمراء.

سرعة تتزايد

كانت رحلة الإنسان طويلة في هذه المسيرة. نستعيد هنا الموازنة الشهيرة التي لاحظت كيف اجتاحت البشرية أربعة آلاف وخمسمئة سنة للانتقال من معرفة الكتابة، أي الكتابة باليد إلى مرحلة استخدام الطابعة عندما استخدمت المطبعة الآلية منذ خمسمئة سنة، بينما تسارعت مراحل التطور متلاحقة بكثافة في هذا المجال لتبلغ أوجها في الانتشار الهائل للحاسب الآلي، وتطبيقاته الكثيرة، وصولاً إلى قدرة من يشاء على الدخول متى شاء إلى المخزون المعلوماتي الهائل لشبكات مثل الإنترنت، بحيث يطلع خلال لحظة على ما يشاء.وعلى المنوال نفسه مرت ثلاثة آلاف سنة منذ أن اكتشف الإنسان العجلة، وتوسع في استخدام تطبيقاتها تدريجيًا لاختصار الزمن اللازم لإنجاز انتقال ما، أو عمل ما، كما مرت مئة سنة منذ اخترع الإنسان القاطرة البخارية فرفع سرعة انتقاله من ثلاثين كيلومترًا في الساعة إلى مئة كيلومتر في الساعة، ثم رفع هذه السرعة بعد ثلاثين سنة أخرى إلى سبعة آلاف كيلومتر في الساعة عندما اخترع الصواريخ الأولى، وقفز بهذه السرعة بعد ذلك إلى ١٤٢٠٠ كم في الساعة هي سرعة أول مركبة فضاء حطت على سطح القمر، ثم قفز بتلك السرعة مجددًا إلى ٢٤٦٠٠كم في الساعة لمركبات الفضاء الأكثر تطورًا. شهدت وسائط النقل والمواصلات تطويرًا مماثلاً على الأرض وفي الأجواء، فالمركبة (بودوايز روكيت) التي تم اختراعها وتسجيلها في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٩م، ليست سوى سيارة تنطلق على الأرض بسرعة ١١٩٠ كم في ساعة، وما تسميتها بالصاروخ إلا من باب الاستعارة المجازية. كما أن القطارات التي أدهشت الناس عندما راحت تنقلهم بسرعة مئة وعشرين كم في الساعة قبل عقود قليلة باتت شديدة التخلف، فاختفت إلا من بعض متاحف السكك الحديدية، وبعض البلدان ذات التطور السلحفائي، لتحل محلها قطارات فائقة السرعة. تضاعفت كذلك سرعة الطائرات، فبعدما جاءت الطائرة التي تنقل الركاب بسرعة ٤٠٠ كم في الساعة إنجازًا هائلاً، تطورالأمر في سنوات قليلة إلى سرعة الطائرات الروسية المطاردة من طراز ميج ٢٥٠ ما بعده التي تجاوزت٣٥٠٠ ميل في الساعة، أي ما بين ٢٠ و ٢٥ ماخ (الماخ هو سرعة الصوت) على نحو سعت بريطانيا إليه في مشروعها المسمى هوتول قبل أن تضطر إلى التخلي عنه، وعلى نحو ما تسعى ألمانيا في مشروع Saenger إلى إنتاج طائرة متعددة الأغراض ذات سرعة تفوق سرعة انتقال الصوت بخمس وعشرين مرة. ولن نتحدث عن تعاظم سرعة عمل آلات وأجهزة كثيرة، إذ يكفي أن نتذكر الحاسوب (الكمبيوتر) العملاق القادر على إنجاز ملايين العمليات في ثانية واحدة، بل في جزء من الثانية.

آلات محل البشر

لقد جرى تسريع متعاظم لتلاحق المخترعات والاشتباكات في سائر مجالات الحياة والعمل والعلاقة مع الطبيعة، وفيما بين البشر على الوتيرة نفسها، فقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين الآفل طفرة شاملة في شبكات الأنظمة والأجهزة والوسائط والوسائل التقنية التي طورها الإنسان، وبات هذا الإنسان بالتدريج أسيراً للروبتة (الآلية) التي جعلت الآلة تحل محل البشر في إنجاز الأعمال اليدوية، وأسيراً (للأتمتة) التي جعلت الأنظمة الآلية تحل محل البشر في إدارة العمل، وتنسيق وسائطه المختلفة، وتنظيم أدائها، وأسيراً للمعلوماتية التي جعلت من يتحكم بحيازة الكم الهائل من المعلومات المختزنة في الحواسيب الالكترونية المركزية وصياغته وانتقاله وتوزيعه قادراً على التحكم بحياة باقي البشر، إنتاجًا واستهلاكًا وسلوكًا وتفكيراً وأداءً . وهكذا راحت مسألة السيادة تتأرجح وتتذبذب بعنف هائل بين قدرة الإنسان على التحكم بما اخترعه أو اكتشفه من ناحية، وخضوعه المستسلم إلى حدّ العبودية لذاك الذي اخترعه، أو اكتشفه من ناحية ثانية. إن اضطرار الإنسان إلى تغيير أنماط الحياة والقيم والإنتاج والاستهلاك والعلاقات محكوم بالتشابك البالغ التعقيد الناجم عن الاضطرار الآخر إلى مواكبة السرعة الهائلة للإعصار التقاني (التكنولوجي) الشامل في تطوره وتجدده، والتفاعلات الناجمة عنه، مما قاد إلى توالد ما يشبه الفوضى الشاملة المتسلسلة مع اضمحلال الدور الإنساني وتضاؤله على صعيد القاعدة البشرية العريضة، بحيث استحال الإنسان عمومًا إلى أضعف حلقة في سلسلة العلاقات مع الطبيعة والأشياء، بعدما أطاحت الأنظمة التقنية والإلكترونية التي اخترعها بأنماط الحياة والعلاقات البشرية المستقرة منذ مئات السنين، وعصفت بتوازنها.

شكلت السرعة منذ القدم واحدة من مقومات السلطان، وضمانات استمراره، في إطار التحكم بالاتصالات ونقل المعلومات، بدا هذا واضحًا عندما استطاعت دولة البندقية القديمة - مثلاً - تأمين سلطتها وهيمنتها على حوض البحر المتوسط عبر استخدام شبكة لنقل المعلومات والتعليمات خلال أربع وعشرين ساعة فقط من أي مكان حول ذلك البحر إلى مركز السلطة في البندقية وبالعكس، اعتماداً على نقل الرسائل بحمام الزاجل. لكن نجاح هذا الاستخدام قد احتاج إلى التشديد الصارم على احتكار السلطة الحاكمة في البندقية لحمام الزاجل، بحيث كانت حيازته محظورة على العامة تحت طائلة تنفيذ حكم الإعدام بحق المخالفين، بل إن حكم الإعدام قد شمل من خالف قراراً آخر حظر حيازة الجياد السريعة على العامة أيضًا.

تطورت وسائل الاتصال، ونقل المعلومات بعد الثورة الصناعية في أوربا، فتلاحق استعمال الراديو والرادار، وكان لا بد لهذه الوسائل من مواكبة التحديات التي فرضها اختراق جدار الصوت في الأربعينيات من القرن العشرين، ثم اختراق جدار الحرارة مع ظهور الصواريخ، واختراق جدار الضوء أيضًا، بحيث انتشر استخدام الليزر، وسمحت وسائط الاتصالات الفائقة السرعة بتواصل فوري بين أي نقطتين على سطح الكرة الأرضية - صوتًا وصورة - عبر قمر صناعي في الفضاء، وتواصل بين الكرة الأرضية وكوكب آخر في الفضاء الخارجي. لكن كل واحدة من وسائل الاتصالات، ونقل المعلومات كانت تظل احتكاراً للجهة التي اخترعتها، بحيث لا يعم استخدامها إلا بعد التوصل إلى وسيلة أكثر كفاءة تجعل من سابقتها متقادمة.



ظلت السرعة دائمًا من مقومات السيطرة وضمانات استمرارها

اصطدام مع الطبيعة

ظل الإنسان من ناحية أخرى جزءاً من الطبيعة ينفعل بها، ويتكامل معها، على امتداد المرحلة الطويلة التي أطلق عليها اسم الحضارة الزراعية، لكن النتائج العميقة التي نجمت عن الثورة الصناعية التي فجرها الإنسان نفسه قد اضطرته إلى التخلي عن كثير من القيم والعلاقات السائدة، بل نسف معظمها، وإذا الإنسان يصطدم مع الطبيعة، ويستجيب لغواية دعوات إلى قهر الطبيعة وإخضاعها بدلاً من التكامل معها، والانتماء إليها! صارت الطبيعة موضوعًا لعلاقة، بعدما كانت طرفًا لعلاقة مع الإنسان، عندما فرضت الصناعة فلسفة جديدة افتعلت عداء للطبيعة، وإيغالاً في الاعتداء عليها. لم تقتصر نتائج هذا التغيير الجذري في سلوك الإنسان، وتعامله مع الطبيعة على ما تعانيه البشرية من آثار التلوث، والثقوب في غلاف الأوزون الذي يلف كوكب الأرض والاختلافات المناخية والبيئية، وإنما برزت أساسًا في اختلال العلاقات البشرية، وما إن بدا أن خصائص مجتمع الحضارة الصناعية من نمطية، ومركزية، وتركيز، وخضوع البشر للتقانة قد استقرت، حتى انبثق تغيير جذري جديد تمرد على تلك الخصائص، وأخذ يعصف بها. لقد تسارع التراكم الكمي الهائل للمعلومات بحيث فاق القدرة الاستيعابية المستخدمة للذاكرة البشرية، لا قدرتها الحقيقية، فالإنسان لا يستخدم سوى أجزاء قليلة من القدرات التي وهبها الخالق له بما فيها قدرة التذكر.

لقد تضاعفت المعلومات المتداولة في عالمنا مرة واحدة بين الأعوام (١٨٥٠ - ١٩٢٥م) أي خلال خمس وسبعين سنة، ثم تضاعفت مرة أخرى بين أعوام (١٩٢٥ - ١٩٥٠م) أي على مدى خمس وعشرين سنة، عندئذ صار المتعلم مهدداً بالتحول إلى نصف متعلم خلال سنوات قليلة ما لم يواكب مستجدات تخصصه من ناحية، ومستجدات ما تحتاج إليه الثقافة العامة من ناحية ثانية، ثم تضاعفت المعلومات من جديد بين أعوام ١٩٥٠ - ١٩٧٠م أي على مدى عشرين سنة فقط، ولم تلبث القفزة العريضة أن جاءت في السنوات العشرين التالية عندما تضاعفت المعلومات ثلاث مرات دفعة واحدة - لا مرة واحدة فقط - بين أعوام ١٩٧٠م-١٩٩٠م. ولعل قياس مرات تضاعف المعلومات منذ عام ١٩٩٨م حتى بعد سنتين أي في عام ٢٠٠٠م، سوف يشكل مفاجأة مذهلة في حينه، إن هذا التسارع الهائل يعني ببساطة أن إعصار التغيير يشتد قوة وعنفاً، وينذر المجتمعات التي تعجز عن التعامل معه وإزاءه بإزاحتها إلى هامش الهامش، وهكذا فإن ثورة المعلوماتية التي فرضت انتشار العقول الإلكترونية لاستيعاب الكم المتعاظم من المعلومات التي تعجز الذاكرة البشرية عن استيعابها، بدأت تفرض خصائص جديدة، وتغييرات جذرية فيما جرت تسميتها الموجة الحضارية الثالثة - بعد الحضارة الزراعية والصناعية - مولدة تناقضات شديدة الحدة أثناء تعاقبها وتغييرها أنماط الحياة والقيم والعلاقات والإنتاج والاستهلاك مجدداً.

لقد مثلت الزراعة أكثر من ثمانين في المئة من اقتصاديات عالم ما قبل القرن الثامن عشر الميلادي، ثم تضاءل نصيبها إلى خمسة في المئة فقط في اقتصاديات الدول المصنّعة إلى ما قبل سنوات قليلة لمصلحة طغيان نصيب القطاع الصناعي. أما عالم الغد القريب فسوف يشهد اتجاهاً ساحقاً نحو سيادة قطاع الخدمات.

نمط حياة جديد

إن ستين في المئة من سكان الولايات المتحدة الأمريكية يشتغلون اليوم بالخدمات، لا بالزراعة ولا بالصناعة. وسوف تستقر نسبة العاملين في الخدمات عند ثمانين في المئة من الأمريكيين خلال سنوات قليلة جداً. وهكذا من المنتظر ألا يزيد العاملون في قطاع الزراعة والصناعة على عشرين في المئة فقط من القوة العاملة، مما يترتب عليه تحولات جذرية في القيم والعلاقات والسلوك والاتجاهات التربوية والاجتماعية في ارتداد متسارع عن تلك التي سادت زمناً طويلاً. نشير مثلاً إلى أن الانتشار الواسع لاستعمال الحاسب الإلكتروني قد أدى إلى اضمحلال الفصل الصارم الذي فرضته الحضارة الصناعية بين موقع العمل وموقع السكن، في أعقاب تداخل الموقعين لآلاف السنين من استقرار قيم الحضارة الزراعية، وهكذا عاد جزء مهم من العمل ينجز في المنزل بمساعدة الحاسب الإلكتروني، يتضخم هذا الجزء بتسارع كبير سمح للخبراء بأن يتوقعوا عمل الناس من منازلهم لا من المكاتب في غضون السنوات الخمس القادمة. وهكذا، يضاف إلى الاستشعار عن بعد، وخوض الحرب عن بعد، مصطلح جديد هو العمل عن بعد، تعبيراً عن نمط حياة جديد يترسخ بالتدرج فارضاً تغييراً جوهرياً تاريخياً.

يعدّ التبادل التجاري عن بعد، أي: الشراء عن طريق الحاسب الإلكتروني من غير أن يتقابل طرفا التبادل، واحداً من العناصر البارزة لهذا التغيير، وهنا لابد من وقفة عند آثار هذا التغيير في النمط الاستهلاكي الطاغي الذي تعاظمت تأثيراته الهائلة في تفكير البشر وسلوكهم وحياتهم بأسرها، لقد قامت نظرية الاستهلاك السائدة أساساً على دفع المستهلكين إلى تفضيل ما هو أكثر على ما هو أقل، بغض النظر عن جوهر السلع والخدمات، وبغض النظر عن حاجتهم الحقيقية إليها. وهكذا قام الإنتاج العالمي الرأسمالي الراهن على أساس تضخم مستمر متصاعد للإنتاج يواكب الدفع المتواصل إلى مزيد من الاستهلاك - حجماً ونوعاً - عبر إغراء المستهلك، وإرغامه عملياً في معظم الأحيان، على طلب المزيد ليستهلكه. هكذا صار التركيز على الشكل طاغياً على حساب المضمون والجوهر والمنفعة الحقيقية، كما راح المنتجون يتعمدون تقصير العمر الاستهلاكي للسلعة إلى أقصى حد تنافسي ممكن لتسريع الهدر الاستهلاكي، وإدامته بما يضمن تواصل التوسع الكمي في الإنتاج. يشمل هذا السلوك الإنتاجي المتعمد تجديد السلعة ذاتها بتحسين أو تعديل شكلي جزئي، مما يغوي المستهلك باستبدال الجديد بها مع كل تعديل لمواكبة المستجدات التي يجري الترويج لها بحملات تعصف بتوازن الوعي لدى المستهلكين.

عالم الغد القريب سيشهد اتجاهاً ساحقاً نحو سيادة قطاع الخدمات

مزيد من الرفاهية.. مزيد من الاستهلاك

لقد كان جوهر فلسفة الحضارة الغربية، أو بالأحرى حضارة الشمال، في مرحلتي الصناعة وما بعد الصناعة، الرد المبسط التالي على سؤال رئيس هو (ماذا نريد؟): المزيد من الرفاهية عبر المزيد من الاستهلاك - كمّاً ونوعاً - ممّا يستدعي مزيداً من الربح بمزيد من الإنتاج، ومزيد من السيطرة على ثروات العالم، والتحكم بأسواقه، محور الرد هو المال ومزيد من المال. وهنا تدخلت القواعد والقوانين التي تفوح رائحة جذورها اليهودية، مثل مقولة (المال لا وطن له) التي تقود في النتيجة إلى وضع الوطن بأرضه ومجتمعه وقيمه في خدمة المال، بدلاً أن يكون المال في خدمة الوطن أرضاً ومجتمعاً.

المشكلة الكبرى لمجتمعات الجنوب، عندما بدأت تتململ تحت وطأة تحكّم الشمال بثرواتها وأسواقها وحياتها، كامنة في ردها على السؤال نفسه: (ماذا نريد؟) فقد أدى ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته عن (اقتداء المغلوب بالغالب) إلى أن يتلخص رد الجنوب على ذلك السؤال بالحرص على الوصول إلى مستوى التقدم الذي حققه الشمال.

أما كيف يتم ذلك فقد استسهل الجنوب - بغواية من المتغربين فيه - السعي إلى اقتفاء خطوات الشمال. كانت تلك بالضبط مأساة مجتمعات الجنوب المستعصية، فالجنوب غير قادر على إلغاء الفجوة الزمنية التي تفصل بين مستوى تطور الشمال والمستوى الذي توقف الجنوب عنده، بينما يتحكم الشمال بمعظم الوسائل والأدوات، وإذا كان الجنوب سوف يقتفي

الخطوات الشمالية نفسها بأدوات أقل فاعلية وأقل سرعة، فإن جوهر المعضلة كامن في اختلاف الجذور الفلسفية والفكرية والعقدية بين تجربة الشمال وتجربة الجنوب، ممّا يترتب عليه فقدان الجنوب جذوره عندما يلجأ إلى تقليد الشمال، واستنساخ شتات من تجربته، من دون أي أمل في أن يقترب من مستوى تقدمه.

استعمار هيكلي

حاول الجنوب - مثلاً التركيز على التصنيع لعله يلحق بالشمال، لكن هذا المسعى خضع لتحكم الشمال نفسه، ولقيوده الصارمة في إطار ما سمي بالنظام الاقتصادي العالمي، بحيث لم يسمح الشمال للجنوب سوى ببعض الفتات، أما الذي يتجاوز الفتات ظاهريًا فكان في حقيقته تصنيعًا لمصلحة الشمال أولاً وأخيرًا، ويختصر عبره المسافات التي كانت المواد الأولية تحتاج إليها للانتقال إلى أراضيه، ويستثمر عبره اليد العاملة الرخيصة في الجنوب، ويتخلص عبره من مزيد من التلوث البيئي، فيصدره إلى الجنوب، أما العائد الفعلي فيصب في خزائن الشمال. هذا ما عبّر عنه العالم البرازيلي جون جالبتونج حين وصف التصنيع في الجنوب باستعمار هيكلي يمارسه الشمال. وهكذا آل تقليد الجنوب الشمال، واقتفاء خطاه إلى الوقوع في مصيدة الخضوع للنمط الاستهلاكي الطاغي من غير إنتاج يتناسب مع تعاظم الاستهلاك، والاستنزاف الهائل الذي يمارسه، ناهيك عن خضوع أدهى وأشد خطرًا لقيم الشمال الفكرية والسلوكية التي راحت تنتشر بسرعة متزايدة.

أدت الاستعارة الانسلاخية التي جعلها الجنوب وسيلته لمحاكاة تطور الشمال وتقليده عبر تكرار تجربته إلى إخفاقات متلاحقة. فالشمال جعل إنتاجه محكومًا بنمط استهلاكي يستوعب ذلك الإنتاج، ويسمح بتوسعه المستمر لتلبية ما يفرضه من حاجة وطلب في أسواق يتحكم الشمال بها، مثلما يتحكم بالمواد الأولية، والخبرات التقنية، ولا يتورع عن خوض الحروب المدمرة لتثبيت هيمنته. كما أن القرون التي احتكر الشمال خلالها تطوره الصناعي لا يمكن للجنوب اجتيازها بمغامرات عابثة تفتقر إلى الأدوات والعناصر اللازمة، مثل تلك المغامرات التي أطبق عليها وصف (حرق المراحل)، والتي غفلت عن المواءمة بين الحاجات الفعلية لمجتمعاتها والقدرات الحقيقية المتوافرة، والآفاق الفعلية لحركتها التنموية في الداخل والخارج، أي باختصار: تحديد واع دقيق لما يحتاج إليه المجتمع في حاضره وغده، وما يستطيع إنجازه فعلاً عبر موازنة سليمة بين الإمكانات المتاحة والطموحات المرجوة، وإدراك الآثار الشاملة المترتبة على التغيير، بما يضمن تحاشي الانسلاخ عن الذات، أو الخضوع لهيمنة الآخر لا يتم هذا بغير وعي شامل ودقيق بالذات أولاً، ثم بالآخر ومقاصده، لا ذلك الوعي التجزيئي التكتيكي الذي يعزل الظواهر المتداخلة بعضها عن بعض عزلاً متعسفًا، أو يرد كل المشكلات المتراكمة إلى عامل واحد تستسهل الذرائعية المتغلغلة في النفوس ، التلذذ بجعله عاملاً خارجيًا صرفًا، تبرئة للذات، وتنصلاً من المسؤولية، ودغدغة لوهم احتكار الصواب، بينما الأصل البحث عن جذور المشكلة وأسبابها في الذات، والبدء بحلها من الذات وبها، بعد فهمها ونقدها من غير اختلال الثقة بهذه الذات، أو إدانتها أبدًا كنقيض لا يقل خطورة وتدميراً عن تبرئتها أبدًا.

هذا شرط رئيس لإعادة اكتشاف القوانين الملائمة للتطور الذاتي في سياق التطور الإنساني العام، فالمسؤولية الجمعية في التصويب والتصحيح والبناء، ومعالجة مكامن الخلل أساس لندية في التعامل مع الآخر لا ينقلب التطور معها إلى خضوع للآخر، ووقوع في متاهات مصالحه البحتة.

استعرضنا السرعة التي يتعاظم طغيانها شاملاً كل مناحي الحياة البشرية، بحيث بات اللهاث من أجل مستجدات خلفها طابع العصر، ويبرز سؤال متجدد لا يجوز أن نتركه يتحول إلى سؤال دائم: ما خيارنا إزاء طغيان السرعة في تحولات العصر؟ أنعتمد على موروثنا من باب (الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك)، و(لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد) أم نركن إلى موروثات أخرى من باب (العجلة من الشيطان)، و(في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة)؟ بداءة نقرر أنه ليس من تناقض بين هذه الموروثات إذا ما وضعنا كلاً منها في سياقه الصحيح، وفي موقعها السليم. ولا يجوز لمن يرفض التطور السلحفائي، والمسيرة البطيئة أن يدعو إلى إدارة الظهر لتلك الموروثات، بحيث يقتصر وعينا بقيمة الزمن على سرعة التقلبات الخاضعة لنزوات التقليد والانبهار بالآخر، بدلاً من سرعة اكتشاف الذات والآخر سبيلاً إلى سرعة التنمية الشاملة، والنهضة المأمولة.

الاستعارة الانسلاخية للجنوب أدت إلى إخفاقات متلاحقة لا انفكاك منها إلا بإرادة إبداع ذاتية

إن مقياس سلامة العلاقات في أي مجتمع هو تعبيرها عن سلّم القيم الذي يضبط الغرائز، والنزوات ويشكم جموحها، وفي مقدم تلك النزوات الاستلاب للآخر، وإحساس الدونية والعجز إزاء إنتاجه المادي بما يدفع إلى استيراد رؤاه وقيمه وقوانينه معلبة، مثلما تستورد منتجاته المادية.

إن السرعة المطلوبة هي في انعتاق إرادة الإبداع الذاتية الجمعية، محمية بممارسات صائبة جادة متوازنة تولّد تراكمات شاملة فاعلة.

إن التوافق الجمعي على الهدف، والاختيار السليم للأداة المناسبة في الوقت المناسب لتحقيقه، يستدعي قبل كل شيء احترام إنسانية الإنسان لتأمين الحماية الذاتية لإبداعه.

إن ما يستشري فينا من نزوع متزايد إلى مواكبة شوهاء لتسارع النشاط الإنساني في عصرنا من خلال حرص على الوصول بأي ثمن وعن أي طريق، وفي أقصر وقت، نشر الزيف، والفردية الأنانية، والنفاق والغش والرشوة، وخداع الذات وخداع الآخرين على نطاق واسع في الكثير من مجتمعاتنا، هو نقيض ما نحتاج إليه تمامًا، بل هو أسرع سبيل إلى الانهيار، بينما ما نحتاج إليه فعلاً هو سرعة وقف هذا الانهيار، عبر سرعة وقف انتشار هذه القيم، والممارسات المدمرة، ابتغاء تغيير يبدأ فرديًا بوعي الفرد ما هو واقع، وما يجب أن يكون، والطريق الصحيح إلى بلوغه، ثم لا يلبث هذا التغيير أن ينتقل من فرد إلى فرد ليصبح تغييراً جمعيًا، لا يغير الله ما بنا حتى نتجزه.

الإعلام والاتصال الرقمي

تطور جديد وآفاق غير محدودة

أحمد بيوض

الاتصال الرقمي تطور جديد اكتسح في السنوات الأخيرة ميدان الإعلام والاتصال، فهو يسمح بتحويل الإشارات الكهربائية المقدمة في شكل تماثلي إلى معطيات رقمية. كما يسمح من جهة أجرى بنقل المكالمات الهاتفية والبرامج الصوتية الإذاعية منها والتلفازية، وكذلك المعطيات المعلوماتية بشكل سريع واضح من دون تداخل في الأمواج الصوتية، إنه تطور نوعي هدفه البحث دائمًا عن الأفضل، فما الاتصال الرقمي؟ وما مجالات الاستفادة منه؟

الواقع أن التقديم التماثلي لوحدة فيزيائية هو عمومًا مضمون بواسطة إشارة كهربائية، أي بمعنى تيار يتغير حسب الزمن، وعلى غرار ذلك، يمكن تغيير هذه الإشارات المتواصلة بمجموعة من القياسات التي تحسب نتيجتها بالأرقام. هذه النتيجة الرقمية وجدت استعمالاً لها في عدة وسائل إعلامية، ومجالات اتصالية. وعليه، فإن التسجيل التماثلي المتواصل لحرارة إرصادية مثلا، لا يقدم فائدة، بل الأجدر والأكثر فائدة هو أن تختزن الأرقام التي تمثل قيمة البيانات المتتابعة. ويبقى العائق في هذه العملية متمثلاً في الموجة التي يتم بها أخذ هذه البيانات لمعرفة تطور سرعة الظاهرة.

في التلفزة

وفي التلفزة فإن العملية نفسها تقود إلى تعيين إشارة الفيديو ذات التواتر المتوازن، وقياس كل عينة للحصول على قيمة رقمية. وبما أن إشارة الفيديو تنتج من كسح الصورة، فإن كل عينة تمثل نقطة من الصورة. وتبقى العقبة الوحيدة هي السرعة القصوى الضرورية لذلك، حيث يوجد توحيد للقياسات يعتمد ٨٦٤ عينة للخط الواحد (نحو ٧٠٠ منها مرئية؛ لأن ١٨٪ من الزمن مخصصة لعودة كسح الخطوط التي تبلغ في التلفزة الكثيفة ١٢٥٠ خطا لكل لون من الألوان الثلاثة الرئيسة: الأحمر والأزرق والأخضر) أي إن موجة تعيينية تقدر بـ ١٣,٥ ميغاهيرتز (بمعنى عينة في كل ٧٤ و ١٠ ـ ٩ الثانية). والعينة تقاس ويعبر عن قيمتها بـ ٨ أرقام مؤلفة من وحدتين. والعملية كاملة يمكن أن تجري بواسطة دارة متكاملة CIRCUIT INTEGRE. وبما أن الإعلام الآلي يسمح باستخدام الأرقام، فإنه يمكن احتساب أن الصورة جدولٌ من الأرقام بحيث إن الانتقال من مدخل الآلة إلى مخرجها لا يحدث أي تأثير سلبي. مما يبين أن التقنيات التماثلية هي غير قادرة على ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقات المفروضة بين الفضاء والزمن تختفي بواسطة الكسح، حيث تصل العينات من اليمين إلى الشمال، ومن فوق إلى تحت، فيكون في الإمكان جمعها بأية طريقة. ثم إنه يمكن الاستفادة من الفضاء الجديد للتخلص من المساوئ المرتبطة بالمحاسبة بالأبيض والأسود للإشارات بنظامي N.T.S.C و PAL - SECAM. كما يمكن من جهة أخرى حساب الإضاءة منفصلة عن الإشارات الملونة في العينات وجمع كل الأرقام الناتجة من هذه أو تلك. وعلى هذا الأساس يمكن تشكيل الجداول الثلاثة دون ضياع أي معلومات. والعملية بهذا الشكل قابلة للانعكاس، حيث إن من الضروري لرؤية الصورة تحويلَ المنظومة الرقمية إلى إشارات فيديو تماثلية. هذه العملية هي أبسط من العملية المعكوسة، والدارات المتكاملة التي تقوم بها، وهي أيضًا أرخص منها بكثير؛ ولهذا تشهد هذه التقنية نموًا مطردًا، واستعمالاً ليس في التلفزة فحسب، بل في الإذاعة والسينما وغيرها من وسائل الإعلام والاتصال.

في الإذاعة

ـ أما في الإذاعة فإن الرقمية LA NUMER- ISATION ستحدث تغييرا عميقا تماما مثلما غيرت الألوان التلفزة عام ١٩٦٠م، فإن هذه الوسيلة الإعلامية ستشهد تحولاً يتمثل في دخولها نظام الاستماع الرقمي - DIGITAL AUDIO. BROADCASTING الذي ستمنحها إياه شبكة رقمية تقام خصوصًا لهذا الغرض.

وللإشارة، فإن نوعية الصوت هي التي ستستفيد من استماع جيد سواء داخل البيت أو في السيارة، حيث إن نظام الاستماع الرقمي

D.A.B سيمنح خدمات مكملة أخرى كإعطاء معلومات حول السير في الطرقات في شكل بطاقات يعاد بثها كل ١٠ إلى ٢٠ دقيقة، ولكن بمعلومات جديدة تظهر على شاشة ملونة تعمل بالبلورات السائلة ACRISTAUX - LIQUIDES إنه تطور إيجابي لفائدة السائق ـ المستمع الذي يفترض أنه سيقضي وقتا أطول في سيارته بفعل ارتفاع عدد السيارات، وازدياد الازدحام عبر الطرقات في كبريات المدن خلال السنوات القادمة.

والجدير بالذكر أن الصوت الإذاعي سيبث عبر الشبكة الآنفة الذكر بقوة ١,٥ جيغاهيرتز ولكن بصفة رقمية، وليست تماثلية كما كان الحال سابقا، وسيكون الصوت متغيراً تباعًا بالرقمية ١و٠ قبل إرساله، حيث تقوم الشبكة في مرحلة أولى ببث الصوت بنوعية عالية مثل التي تبث بها محطات نظام الـ: إف. إم F.M، بل إنها ستحل محل هذا النظام. كما يمكن القول: إن نظام الاستماع الرقمي هذا يسمح أيضا ببث حصص وبرامج تلفازية.

وقد شرع فعلاً في إقامة محطات إذاعية بقوة ١,٥ جيغاهيرتز في عدة مدن ألمانية وفرنسية، حيث تم في فرنسا استحداث بطاقات رقمية على لوحات قيادة السيارات تمكن السائق من حسن التوجه والوقوف، بل والتعرف بصفة دائمة على مكان وجوده على خارطة المواصلات، وشبكات الطرق داخل هذا البلد. كما تستعد عدة شركات أوربية لتنفيذ مشروع أوربي وحدودي كبير يوفر خدمات جليلة للمستمع في هذه البلدان، ومعلوم أن الكثير من المصاعب التقنية كانت قد طرحت لأجهزة (الراديو) الصغيرة الحجم، علاوة على أجهزة الراديو الخاصة بالسيارات نتيجة انعكاس أمواج الراديو على الحواجز مثل العمارات الشاهقة في المدن والجبال القريبة منها بالنسبة إلى المناطق المحاذية لها، حيث إن هذه الموجات كلما ارتدت، اختلطت بنظيرتها المرسلة من محطات أخرى، مما يحدث تشويشا في نظام الاستماع. هذه المساوئ ستجد نهاية لها مع تعميم نظام الاستماع الرقمي الذي يوفر نوعية عالية لالتقاط الصوت. وعلاوة على ذلك، ولخفض عدد المعطيات الضرورية لإبقاء الصوت قويًا، فإن الضغط الرقمي يتحقق على مستوى الإرسال، حيث تنقل المعطيات المفيدة للصوت التي يستقبلها المستمع فقط. أما باقي المعطيات فيخصص لنقل معلومات أخرى ملحقة تسمى «معلومات لتصحيح الأخطاء». إنها معلومات هدفها تعويض المعلومات الضائعة في أثناء عملية النقل. هذه المعلومات هي بحجم ٤٠٪ بالنسبة للمعلومات المفيدة والمقدرة بـ: ٦٠٪ التي تمنع ضياع المعلومات كليا حتى في أثناء التشويش. وعندما يكون هناك تداخل في الموجات، سيكون هناك ضياع لمعطيات التصحيح أو معطيات الصوت. ففي الحالة الأولى، لا يستقبل جهاز الاستقبال التداخلات؛ لأنه يحتوي على المعلومات الضرورية للإبقاء على الصوت. وفي الحالة الثانية، تجد الرقائق التي بجهاز الاستقبال المعلومات الضائعة بواسطة معطيات التصحيح، وفي كلتا الحالتين، تكون نوعية الصوت غير رديئة.

وفي النهاية، يحتوي جهاز الاستقبال على ذاكرة بواحد ميغابيتز يختزن فيها بشكل دائم بضع الثواني من الإرسال، وهي تحتوي بالطبع على المعطيات الخاصة بالصوت وتصحيح الأخطاء أيضًا. وفي حالة فقدان جهاز الاستقبال للصوت نهائيا، فإنه يضع هذا الاحتياط في الحسبان بالذاكرة لملء الفراغ الخاص بالنقل. وبعد عودة الصوت بصفة طبيعية، فإن الرقائق تقوم بالربط الجيد والمتواصل ما بين الصوت الآتي من الذاكرة والصوت الملتقط بصفة فعلية. هذا التجهيز هو من الفعالية بحيث يسمح حتى للموزعين من تصور نمط من شبكة الراديو الجديدة تمامًا.

في دار الخَيالة (السينما)

وفي ميدان (السينما)، إن إدخال تقنية «الرقمية» آت هو الآخر على ثورة جديدة في الفن السابع، حيث إنه يمكن مثلاً وضع ميكي ماوس في الإليزي، أو استحضار صوت أو صورة لشخصية تاريخية وتوظيفها في فيلم ما. وعلى هذا الأساس يعتقد بعض الناس أن عهد النجومية قد ولّى فاسحا المجال لعهد الحاسب الإليكتروني الذي فتح في ميدان السينما آفاقًا غير محدودة لاستغلال الإمكانات الكبيرة التي تمنحها الصورة الرقمية، فقد وجدت هذه الأخيرة استعمالات كثيرة لها في الكثير من الأفلام، إذ يمكن للمخرج الآن جمع شخصيات معروفة بأخرى خيالية مازجا بذلك صور الإعلام الآلي بصورة واقعية. هذه الأنظمة المستعملة في التصوير ليست وليدة الحاضر بل سبق أن تمت بتقنية عالية داخل استوديوهات أمريكية بواسطة حواسيب إليكترونية متطورة جدا. وقد تمكن واحد منها من جمع قطع لصور تختلف من حيث الأصول عن طريق استغلال الإمكانات الرقمية لكل صورة. وقد قام آخر بتغيير إحداها عن طريق تمديدها بالضغط أو التشويه بواسطة التقنية الرقمية دائمًا حيث يتحول وجه إنسان ما إلى وجه قرد مثلا. من هنا نستطيع القول: إن الحاسب الإليكتروني يستطيع إعادة تركيب صوت أو صورة ما كلما دعت إلى ذلك ضروراتُ الإخراج. ولم يتوقف مجال الإبداع أو جعل صورة ممثل ما تنوب منابه حيث لا يمثل سوى بعض اللقطات المهمة على «البلاتو» دون (ديكور) لتمكين الحاسب الإليكتروني من نقل صورته وصوته بل ولونه وكذا حركاته وأحاسيسه.. ثم بحساب بسيط، يقوم هذا الحاسب الإليكتروني بإعادة خلق صور مشاهد الممثّل نفسه، حيث إن هذه الصور المركبة طبق الأصل له، هي التي تظهر ضمن تركيب صور الفيلم.. إنها إمكانات لا حدود لها لاستغلال التقنية الرقمية بحيث تتداخل السينما الواقعية مع الخيالية.

ـ وتجدر الإشارة إلى أن هذه التقنية أخذت طريقها إلى الهاتف الذي أصبح رقميًا NU-MERIQUE وإلى الصورة الفوتوغرافية التي انتقلت بفضل هذه التقنية من ١,٥ إلى ٦ ملايين نقطة صورة من خلال نموذج صنعته شركة أمريكية لآلة تصوير سمتها DCS460. وعلى العموم، فإن تقنية الرقمية قدمت خدمات جليلة للإعلام والاتصال من سرعة ووضوح في الصوت والصورة.

المراجع

2- LA RECHERCHE : NO 133 ET 144
2- SCIENCE ET VIE: NO 911 - AOUT 1993.
3- SCIENCE ET VIE: NO 928 - JANVIER 1995.
4- SCIENCE ET VIE : NO 943 - AVRIL 1996.
5- SCIENCE ET VIE : NO 944 - MAI 1996.
6- SCIENCE ET VIE - EDITION SPECIALE - 1994.

التأثيرات الاجتماعية

عدنان عضيمة

بفضل التطور المستمر في قدرات الحاسوب والتلفاز أصبح الإنسان يتلقى المعلومات على شكل سيل لاينقطع من الصور والأصوات والنصوص العشرية، مما جعله يشعر بحالة الانبهار الدائم والدهشة المستمرة من هذا التطور الذي لايعرف الحدود، والذي يكاد يجعلنا مجرّد كائنات تسبح في بحر من المعلومات والبيانات.

ويبدو أن الإنسان قد بدأ يتجه نحو مصير غير معلوم، مادام من المستحيل معرفة إلى أين يمكن أن تقوده تكنولوجيا المعلومات؟ وقانون الجهل بعواقب الأشياء غالبًا مايحكم الثورات التكنولوجية كافة. ففي عام ١٤٣٨م أراد جوهانس غوتنبرغ Johannes Gutenberg أن يبتدع أرخص طريقة لطباعة الأناجيل التي كانت قبل ذلك تُكتب بالأيدي، فأدى ابتكاره للطباعة الآلية إلى نتائج مذهلة في زيادة المعارف العلمية، وذلك لدورها الرائد في نشر الكتب والبحوث العلمية على أوسع نطاق. ويعزو مؤرخو العلم السبب الأساسي لحدوث الثورة الصناعية في أوروبا إلى هذا التطور الكبير.

مجتمع أقل ألفة وأكثر انعزالا

وعلى الرغم من أنه ما من أحد يمكنه أن يتكهّن بالتأثيرات الكاملة لثورة المعلومات الراهنة في المجتمعات الإنسانية، إلا أننا نستطيع أن نلمس التغيّر الذي تحدثه في حياتنا اليومية. وغالباً ماتكون التغيّرات المرافقة للثورات المعلوماتية الجديدة على درجة من التعقيد والغموض بحيث يصعب علينا ملاحظتها. فقبل اختراع الكتابة كان الناس يعتمدون على ذاكراتهم ، وقبل اختراع الهاتف كانوا يتمتعون بكتابة الرسائل إلى أحبتهم وأصدقائهم، وقبل اختراع التلفاز والحاسوب كانوا يملكون حسّاً اجتماعياً أقوى، وارتباطاً أعمق بجيرانهم وعائلاتهم.

ولقد جعل التلفاز الناس يلتصقون ببيوتهم، وعزلهم عن باقي أبناء جنسهم، وجعل ربع الأمريكيين فقط يعرفون من هم الجيران الساكنون في البيوت المجاورة لأبواب بيوتهم. ومع تجذّر الآثار الاجتماعية المترتبة على ثورة المعلومات، بعد تزايد أهمية شبكة الإنترنت التي تعدّ نظاماً عالمياً يسمح للحواسيب باتصال بعضها ببعض، فإن من المؤكد أنها ستجعل المجتمعات البشرية أقل ألفة وحميمية وأكثر انعزالاً. ولاشك أن التطور المستمر الذي يشهده عصر المكوّن اللين سوف يؤدي إلى انتشار واسع النطاق للألعاب الإلكترونية، وسوف يعزز من الاتجاه العام نحو استغلال تقنيات إنجاز الخدمات البنكية من المنازل والتسوّق الإلكتروني وتحقيق نظام استحضار أفلام الفيديو والكثير من الخدمات الأخرى التي ستلغي حاجة البشر للالتقاء الشخصي بعضهم ببعض.

وأصبحت ظاهرة تناقص حاجة الإنسان للاتصال بالآخرين شائعة عبرالعالم أجمع؛ ففي الشرق الأوسط، اختفت حياة المقاهي التي كان الناس فيها يتسامرون برواية القصص والأحاديث في أثناء شرب القهوة، وأصبح معظم التجّار في باريس يغلقون دكاكينهم ومحلاتهم التجارية عند الساعة الثامنة مساءً بدلاً من منتصف الليل. فهل التقابل وجهاً لوجه أكثر فائدة من الاتصال إلكترونياً؟ حتى الآن لم يزل بعض الناس في مجتمعات الغرب يقفون مواقف إنسانية من المآسي التي تحل بأقربائهم أو جيرانهم، إلا أن معظمهم أصبح يفضل تقديم التعزية والمواساة عبر البريد الإلكتروني، حيث يتم إمرار الرسائل بين الحواسيب. ومهما كانت طريقة الاتصال بين الناس وأسلوب تعاطفهم بعضهم مع بعض، فإن من المؤكد أن الحواسيب تقوم بإعادة تشكيل مستقبلهم وطريقة حياتهم. ويبدو أن شبكة الإنترنيت غيّرت من نمط الحياة إلى الحد الذي فاق تخيّل الإنسان عندما تصوّر إمكان السفر عبر الزمن والفضاء. فبوساطتها يمكن للمرء أن يرحل إلى بقاع العالم كلها دون أن يغادر بيته. ويمكنه أيضاً أن يكسب أصدقاء جدداً، وأن يتصل بروّاد الفضاء في أثناء دورانهم حول الأرض، وأن يتبادل نتائج البحوث المخبرية مع رجال العلم عبر البحار، وأن يبقى

لثورة المعلومات



أصبح استخدام الحاسوب شأنًا مهمًا لأفراد الأسرة كلها إذا أرادت الإبقاء على اتصالها الفاعل بالمجتمع

خارج مكتبه وهو يدير أعماله بوساطة الحاسوب الذي أصبح يمثل مكتبه الحقيقي. ويرى الروائي وليام جيبسون William Gibson أن الاتصالات الإلكترونية وسعت المجال الإدراكي للجنس البشري عندما سمحت للناس بتعلّم عدد كبير من الأشياء في أثناء بقائهم جغرافيًا في أمكنتهم نفسها ، ولكنه لم ينس أن يحذّر من أن يقود هذا التطور إلى حلول الحاسوب محل الإنسان. ولقد عارض بشدّة ظاهرة الاتجاه نحو الاستغناء عن اللقاءات الشخصية عند اتصال الناس بعضهم ببعض.

زواج إلكتروني

وغالباً مايشعر الناس الذين يتراسلون مع الآخرين إلكترونياً بالحاجة إلى مثل هذه اللقاءات لأنها تعدّ ضرورة لايمكن التخلّي عنها لاستمرار الحياة الطبيعية بمفهومها الإنساني. وهناك الكثير من القصص التي تُبرز هذه الحقيقة، ففي عام ١٩٩١م، وفيما كانت كارين مايسنر Karen Meisner، الطالبة في جامعة كونيكتيكيت، تلعب لعبة حاسوبية عبر شبكة الإنترنت، «قابلَتْ» من خلال الشبكة بار فينتزيل Par Winzell الطالب في معهد لينكوبينج السويدي للتكنولوجيا. ولقد تعرّفها من خلال اسمها الرمزي فولفيت Volvet. وبدلاً من الاستمرار في اللعب راحا يتبادلان الرسائل الإلكترونية التي انطوت على إبداء الأفكار الشخصية حول قضايا وموضوعات مختلفة، واتسمت نقاشاتهما التي تمّت بهذه الطريقة الإلكترونية بشيء من التنظيم والعمق قلّما يتحققان في الحياة

الشباب الأمريكي يقضي أمام التلفاز وقتًا أطول من الذي يقضيه في غرفة الدراسة

التجانس الحضاري الذي تنشره الشاشات الإلكترونية يهدد بإلغاء خصوصية الثقافات المحلية وميزاتها المتفردة

الواقعية عندما تكون مثل هذه العلاقة في بدايتها. وتملّك كارين شعور الإعجاب بأفكار بار حتى بادرت بعد انتهاء «المقابلة» إلى توجيه رسالة إلكترونية إليه أخبرته فيها بعزمها على السفر إلى السويد لملاقاته في اليوم التالي. وسرعان ماتزوجا عقب هذا اللقاء.

وعلى الرغم من أن الحواسيب تعد أكثر إغراء من أجهزة التلفاز، إلا أن الإحصائيات بينت أن الشبان الأمريكيين يقضون أمام التلفاز وقتاً أطول من الذين يقضونه في غرفة الدرس. وأظهرت إحصائية أخرى أن ١,٨ مليون طفل أمريكي من الذين لم يتجاوزوا عامهم الثاني عشر يستمرون في مشاهدة التلفاز إلى مابعد منتصف الليل يوميًا. ويصل معدل عدد ساعات متابعة التلفاز بين البالغين في أمريكا إلى ٣٠ ساعة في الأسبوع.

ويمكن للمرء أن يقدّر مدى تأثير هذه الأدوات المعلوماتية في حياته لو تخيل حدوث انقطاع مفاجئ في توصيلات بيته الإلكترونية كلها، بحيث تتعطّل أجهزة الهاتف والتلفاز والحاسوب معاً. ليس ثمّة شك في أنه ما من أحد يستطيع أن يتحمل ذلك مدة أسبوع. ولقد أصبحت الصداقة مع الأجهزة الإلكترونية ضرورة ملحّة للصغار والكبار. فعندما يضغط الطفل الذي لايتجاوز عمره العامين على مفاتيح الحاسوب فإنه يشعر تلقائياً بتنامي شعوره بالحاجة إلى الأجهزة الإلكترونية. ولقد دأب الآباء على الشعور بالرضى والتفاؤل من تعلق أبنائهم بأجهزة العصر.

تكلفة أقل وانتشار أوسع

ومن المؤكد أن يزداد اعتماد الإنسان على الأجهزة الإلكترونية عندما يتمكن الخبراء من تحقيق الاتصال اللاسلكي ذي المدى البعيد لربط أجهزة الهاتف والحاسوب والفاكس والتلفاز في شبكة عالمية موحدة. ويُنتظر أن توفّر هذه الأجهزة المندمجة لمستخدميها المئات من قنوات الفيديو وقنوات النصوص والقنوات الصوتية. والآن تباع في الأسواق المستقبلات اليدوية التي تربط البريد الإلكتروني مع خدمات شبكة الإنترنت والاتصالات الفاكسية، إلا أنها لم تزل مرتفعة التكلفة بالنسبة لمعظم الناس. ولن يشيع استخدام مثل هذه الابتكارات التكنولوجية الجديدة في المجتمع إلا عندما يتمكن أكبر عدد من الناس من استعمالها وتحمّل الأعباء المالية المترتبة عليها. وعلى الرغم من أن اختراع جهاز الفاكس يعود إلى زمن طويل إلا أن استخدامه لم ينتشر على نطاق واسع إلا عندما سمحت التكنولوجيا بخفض تكاليف التشفير والبث.

اختراق الخصوصية

وأصبح علماء اجتماع الحضارات لايتوقفون عن التحذير من الخطر الخفي الذي تحمله الشاشات الإلكترونية العالمية من حيث دورها الفاعل في نشر الحضارة التكنولوجية عبر العالم أجمع. ولقد حذّر جورج شتاينر George Steiner أستاذ التاريخ في جامعة كامبريدج من أن هذه الحضارة سوف تؤدي تدريجياً إلى «التجانس الحضاري» الذي يهدد الثقافات المحلّية عن طريق إلغاء خصوصياتها وميزاتها المتفرّدة.

وتعدّ الوسائط الإعلامية المتعددة multimedia سبباً أساسياً من أسباب هذه الظاهرة. وبيّنت إحصائية نشرت مؤخراً، أن جملة المبيعات الأمريكية السنوية من أفلام السينما والبرامج التلفازية بلغت أكثر من خمسة مليارات من الدولارات. ولقد وصفت جريدة «نيودلهي» الهندية مثل هذه الوسائط الإعلامية الخطيرة بأنها «الأرَضات التي تلتهم ثقافاتنا وقيمنا العريقة».



مقراب التحكم عن بعد remote controlled telescope **سمح للعلماء باكتشاف الكثير من الظواهر الفلكية في النجوم والمجرّات البعيدة. ومن المتوقع أن يتمكن الأطباء قريباً من سبر أجسام مرضاهم باستخدام تكنولوجيا مشابهة**

ولكن الإنسان بطبيعته يميل إلى مقاومة «التجانس» الذي سببته تكنولوجيا الاتصالات. فأياً كان المكان الذي يعيش فيه فإنه لابد أن يزخر بالمعاني والقيم التاريخية التي لايزول تأثيرها من نفسه حتى وإن كان لايعيها تمام الوعي. وعندما يسمع بطروحات المدّعين باتجاه أهل الأرض نحو التجانس والتماثل فإنه سرعان مايبحث بطريقة غريزية عن جذوره الجغرافية أو تقاليده القَبَلية حتى يتلمّس سعادة الشعور بالانتماء. وقد تفسر هذه الظاهرة سبب تنامي الحسّ الوطني حتى بالنسبة إلى أولئك الذين ربطوا أنفسهم بالشاشات الإلكترونية.

الكتاب ذاكرة الأمم

ومنذ كتبت النصوص على البردي قبل ٤٠٠٠ عام حتى الآن، بقي الكتاب محتفظاً بدوره الاجتماعي الرائد بوصفه سجلاً لابديل له لذاكرة الشعوب وإبداعاتها وعمق انتمائها. وحتى بعد ظهور التحدي الإلكتروني الراهن، لم يزل الكتاب يمثل الوسيلة الرئيسة التي تتمسّك بها معظم الشعوب للتعبير عن وجودها وتسجيل ذاكرتها وإبراز ثقافتها وانتمائها. ولعل هذا هو السبب الذي جعل بيل جيتس Bill Gates، مدير شركة «مايكروسوفت» Microsoft الأمريكية الشهيرة لابتكار البرامج التطبيقية والمكوّنات اللينة ، يسجّل مآثره المتعددة في الاختراعات المتعلقة بثورة المعلومات بالطريقة القديمة، على الورق، وبين دفتي كتاب. ولقد أثبتت المشكلات التي ترتّبت على انفجار قنبلة المعلومات، كصعوبة فرض الالتزام بحقوق الملكية وبراءات الاختراع، وانتشار البرامج والعروض الإلكترونية البذيئة التي تتنافى مع التقاليد والأعراف الاجتماعية لمعظم شعوب الأرض عبر شبكة الإنترنت، أثبتت أن الكتاب سيبقى السجل الأكثر براءة ونظافة لنشر المعارف والثقافات والأفكار.

وقد تضاف إلى ذلك الإشارة المهمة إلى أن التلفاز والحاسوب ساهما في نشر الأمية عند الكثير من الناس الذين لايرغبون في قراءة أي شيء مؤطّر في مقاييس معينة، ويحتاج إلى التركيز وإجهاد الفكر. ولقد اتضح أن أغلبية الأفراد في مجتمعات الأرض كافة يفضلون متابعة الوسائط الإعلامية التي تتميّز عروضها بالإغراق في الإيجاز والسرعة في عرض الصور وطرح الموضوعات والقضايا التي لايتطلب فهمها إلا أقل درجة من التركيز والانتباه. ويعد مثل هذا العالم الغريب الذي خلقته ثورة المعلومات من أكبر خطايا الحضارة الحديثة.

جوانب إيجابية

وإذا كانت هذه الظواهر الخطيرة والمؤثرة لاتمثل إلا بعض العواقب السلبية لتكنولوجيا المعلومات، فإن لهذه التكنولوجيا من النتائج الإيجابية مالا يُعدّ أو يُحصى. وحتى في مجال نشر «النصوص و الكتب النظيفة»، ساهمت تكنولوجيا المعلومات مساهمة هائلة في تطوير أساليب الرقن والطباعة والإخراج وسرعة الإنجاز. والأكثر من هذا هو أن هذه التكنولوجيا نفسها شجّعت الميل للاعتماد على الكلمة المطبوعة. وأصبحت عشرات المليارات من الكلمات المطبوعة تضاف يومياً إلى شبكة الإنترنت. ولقد ترتّبت على هذا التطوّر الكبير الذي تحقق في مجال طباعة واستنساخ المعلومات بالطرق العشرية زيادة كبيرة في الاستهلاك العالمي من الورق حتى بلغ في عام ١٩٩٧م معدلات قياسية لم تكن متوقعة.



يتحدد «ذكاء» الحاسوب بحسب «ذكاء» مكوّنه اللّين software والتعليمات المفصلة الدقيقة أو البرامج التي «تخبره» ماذا يفعل وكيف؟ بعض البرامج تضبط وظائف التشغيل الأساسية كالمعالجة Processing وتخزين البيانات وكشف الأعطال، وبعضها يحقق للمستخدمين أغراضًا خاصة تتضمن التسلية بالألعاب الإلكترونية أو الاتصال بالحواسيب الأخرى أو معالجة النصوص أو رسم الصور والأشكال أو جَدْوَلة البيانات ومعالجتها أو تصميم الأجهزة والأدوات والآلات

وتتخذ الكتب الآن شكلاً جديداً اعتماداً على التطور التكنولوجي الذي جعل الكتاب العادي يبدو كأنه حصان يجر عربة قديمة. وغدا هذا الشكل يتفق مع التطلعات المتطورة للقرّاء. فكتب الوسائط الإعلامية المتعددة الفعّالة interactive multimedia books تنطوي على سلسلة من التأثيرات المترابطة لكل من الصوت والصورة والكلمة. فهي وسيلة لتعلّم اللغات والاستماع للّفظ المقروء للنصوص. وهي تعلّم الجبر والحساب، ويرى القارئ من

خلالها المعادلات الرياضية المتحركة على اللوح الإلكتروني. وإذا أراد القارئ أن يستزيد من المعلومات والاشتقاقات حول كلمة معيّنة في النص فما عليه إلا أن ينقر فوقها بعلامة الوميض حتى يجد هذه المعلومات تملأ شاشته.

ولقد فاقت المبيعات من الموسوعات الإلكترونية تلك التي تطبع على الورق. وسوف يزداد استئثار الطريقة الإلكترونية بأسواق القراءة أكثر عندما سيصبح «نظام شبكة الكتب» net- system books قيد التطبيق العملي، بحيث يحقق الاتصال اللاسلكي مع المكتبات. وعندئذ ستكون نقرة واحدة على لوحة مفاتيح الحاسوب كافية لاستحضار ماتريد قراءته من كتب أينما كنت. ولن يصبح نظام شبكة الكتب واسع الانتشار على المستوى الشعبي إلا بعد حدوث تطورات على تكنولوجيا الشاشات. ولم تزل القراءة على الشاشات الإلكترونية أبطأ وأكثر صعوبة بنحو ٢٠ إلى ٣٠ بالمئة من القراءة المطبوعة.

وإذا كان معظم القرّاء الجادّين مازالوا يميلون إلى قراءة الكتب المطبوعة على الورق، فإن من الضروري ألاّ يعدّوا ذلك موقفًا معارضًا متزمتًا ضدّ الأساليب التكنولوجية الجديدة. ولم يعد هناك ثمّة شك في أن كل من يرفض ممارسة هذه الأساليب لابد أن يكون قد حكم على نفسه بالتخلّف عن اللحاق بالركب الحضاري. وفي بداية القرن السادس عشر، بعد نحو قرن من ابتكار غوتنبرغ للطباعة المتحركة، بقي الكثير من الناس يعتقدون بأن القيم الفكرية والجمالية للكتب لايمكن أن تتجسّد إلا في المخطوطات اليدوية المكتوبة لما تزخر به من مسحات فنية لا يمكن أن تتوافر في الكتب المطبوعة. ولقد ذهب رائد النهضة الإيطالية فيديريكو دا مونتيفلترو Fed-erigo da Montefeltro، إلى حد التصريح العلني بأنه يخجل من اقتناء الكتاب المطبوع!. ولاشك في أنّ مثل هذه المواقف التي سجلت في بدايات عصر النهضة الأوروبية كانت سببًا في عزل الناس عن الأفكار الجديدة والمعلومات العلمية التي لم تكن متيسرة إلا في شكلها المطبوع.



معظم الناس يعرفون توماس إديسون وألكسندر غراهام بيل، ولكن القليلين يمكنهم أن يخبروك من الذي اخترع الحاسوب. ولعل الذين يعرفون أنه لم يزل حيًا ويعيش في ولاية ميريلاند في أمريكا هم أقل بكثير. إنه استاذ الفيزياء جون فينسينت أتاناسوف John Vincent Atanasoff الذي اخترع أول حاسوب إلكتروني عشري عام ١٩٣٩م. ويبدو أتاناسوف في الصورة التي التقطت عام ١٩٩١م

وليست التطورات التكنولوجية التي طرأت على عالم الكتاب إلا جزءًا من تطور أوسع مدىً مسّ مناحي الإبداع والإحساس الجمالي واتجاهاته كافة حتى أصبح الحاسوب فنانًا بارعًا يرسم اللوحات والأشكال والتصاميم الهندسية، ويضع الألحان والأنغام الموسيقية ببراعة فائقة وسرعة لاتصدّق.

حركة اقتصادية أوسع

وعلى الرغم من الاهتمام المتزايد الذي تستأثر به تكنولوجيا المعلومات فإنها لم تزل متأخرة جداً عن إمكانات الدماغ البشري. ويقدر الباحثون بأن دماغ الإنسان العادي يتضمن «كوادريليون» وصلة بين خلاياه العصبية (الكوادريليون quadrillion عدد يتألف من واحد وإلى يمينه ١٥ صفراً، ويُقرأ: مليون مليار)، ويفوق هذا العددُ العددَ الكلي للمكالمات الهاتفية التي تمت في الولايات المتحدة خلال السنوات العشر الماضية!. إلا أن الطاقة البشرية تميل تدريجياً إلى أن تصبح قليلة الفاعلية في التحكم بالطريقة التي تشكّل بها تكنولوجيا المعلومات حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وأصبحت أجزاء النموذج الواحد للسيارة تصنّع في أكثر من ستة بلدان مختلفة، وبهذا تصبح السيارة كأنها قطعة ملابس خيطت أجزاؤها في العديد من البلدان. والسبب في ذلك هو أن الطريقة الحديثة في إدارة التسيير يمكنها التحكم بنوعية الإنتاج وخصائصه دون النظر إلى الأمكنة أو المسافات بعد أن مكنت أساليب الاتصال اللاسلكي البعيد باستخدام الأقمار الصناعية وشاشات الفيديو من التبادل الفوري للأفكار والتصاميم بين جماعات المهندسين المنتشرين في مكاتبهم في شتى أصقاع الأرض. وبفضل التطور المذهل الذي طرأ على أنظمة البريد

على الرغم من التحدي الإلكتروني، لايزال الكتاب الوسيلة الرئيسة التي تتمسك بها معظم الشعوب للتعبير عن وجودها وتسجيل ذاكرتها

الإلكتروني والفاكس والهاتف وشبكة الإنترنت، أصبحت رؤوس الأموال تتحرك بسهولة أكبر وبسرعة الضوء بحيث يتم التعامل يومياً عبر أسواق العالم بما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من الأسهم والعملات والعقود التجارية، ويعادل هذا الرقم ضعف الميزانية السنوية للولايات المتحدة.

وقبل عقدين من الزمان كان المحللون السياسيون يقيسون العلاقات الاقتصادية الدولية بتقدير حجم حركة وسائل النقل بين البلدان. أما الآن فإنهم يقيسونها بمقدار الازدحام في شبكات الاتصالات اللاسلكية الدولية. ولقد توصلوا من ذلك إلى بعض النتائج التي لم يكن يتوقعها أحد. وبناء على دراسات وإحصاءات أنجزها جريجوري ستيبل Gregory Staple، الخبير القانوني الدولي بشؤون الاتصالات في واشنطون، تبيّن منها أن حجم الاتصالات اللاسلكية التي تمت بين كندا وهونغ كونغ في عام ١٩٩٣م فاقت تلك التي تمت بين كندا وفرنسا. وبيّنت دراسته أيضاً أن ثلث الاتصالات اللاسلكية وحركة النقل الدولي التي تتبادلها الهند مع العالم تتمّ مع البلدان العربية.

ولا يمكن أن يعزى هذا التطور في العلاقات الاقتصادية الدولية إلى سرعة بث المعلومات وحدها، بل إن الأهم من ذلك هو خفض تكاليفه، ودليل ذلك أن الاتصالات الدولية الفورية كانت متيسرة قبل نحو قرن كامل من الآن، فعندما كان فيلياس فوغ، بطل الروائي جول فيرن، يحاول أن يدور حول العالم في ٨٠ يوماً، أمكن لبرقية أرسلها رجل المباحث الذي كان يطارده أن تلفّ العالم في دقائق!. ولكن، ولفترة طويلة ، بقيت الأسلاك الدولية (كوابل الاتصالات) تستخدم فقط من قبل النخبة من رجال الاقتصاد والسياسة. فالكابل العابر للمحيط الأطلسي الذي يصل بين أمريكا وأوربا ، والذي أنشئ عام ١٩٦٥م، يمكنه أن يمرّر ١٣٠ مكالمة هاتفية في آن واحد. والآن يمكن لكابل الألياف الزجاجية أن يمرّر أكثر من نصف مليون اتصال في وقت واحد بالإضافة لخفض كبير في التكاليف.

وقد يكون أفضل دليل للتعبير عن تزايد أهمية صناعة المعلومات العدد المتزايد من العمّال العاملين في قطاعاتها المختلفة . ويقدّر الأمريكي بيتر دراكر Peter Drucker، خبير التسيير الذي يؤخذ بأفكاره وآرائه في كبريات الشركات العالمية، بأنه في العام ٢٠٠٠م سوف يمثل العمل في قطاع المعلومات الشغل الأساسي لأكثر من ثلث القوة العاملة في الولايات المتحدة.

ولقد عززت ثورة المعلومات من فرص استحداث شركات تجارية جديدة بإمكانات قليلة. وتقدر إحصاءات حديثة أن ثلثي الشركات الخاصة القائمة الآن في مدينة لوس أنجلوس الأمريكية لم تكن موجودة عام ١٩٧٠م. ولقد تمكن أحد تجّار المدينة من إنجاز صفقات لبيع معدّات إنتاج الغاز الطبيعي الأمريكية بلغ حجمها ٣٠ مليون دولار لشركة الغاز الروسية بعد أن قام بتقديم عروضه كلها من بيته عن طريق الفاكس والهاتف والبريد الإلكتروني ودون أن يشاهد أحداً من الذين تعامل معهم.

اختلال تدفق المعلومات

وحتى تضمن أية دولة في العالم القدرة على المنافسة في الاقتصاد العالمي، ينبغي لها أن تنفتح تماماً على المعلومات والأفكار. ولقد أثبتت الظروف بأن الحكومة التي تحاول مراقبة المعلومات - مثل رومانيا التي حاولت مرة منع استخدام الآلات الكاتبة - لابد أن تفشل، لا بسبب الضغوط الاقتصادية فقط، بل لأن التكنولوجيا تتحدى السلطات والحكومات باستمرار. فالأقمار الصناعية أغرقت إيران بأفلام «ملائكة شارلي» Charlie's Angels البذيئة بالإضافة إلى الكثير من البرامج الأخرى المحظورة. وتمكّن ثوّار الغابات من فلاحي ولاية شياباس المكسيكية بإمرار طروحاتهم ومطالبهم للرأي العام العالمي عبر شبكة الإنترنيت. وحظرت الحكومة الأندونيسية نشر القصص والروايات التي ألفها براموديا أناتا توير Pramoedya Anata Toer والتي وزّعت عبر العالم، إلا



يؤدي تطوير وسائل الاستظهار المرئي للمعلومات Information visual display دوراً أساسياً في تعميم الاستفادة من الحاسوب ونشر استخداماته

أن الأندونيسيين تمكنوا من طباعتها عن طريق الحاسوب.

وبعض الحكومات، وخاصة في دول العالم النامي، تحاول أن تجمع بين الانفتاح الاقتصادي والسياسة الاستبدادية. ويمكن لهذه الحكومات أن تحقق نجاحًا مؤقتًا. ولكن، على المدى البعيد، لابد أن يؤدي التدفق الحر للمعلومات إلى تعزيز ميل شعوبها نحو تحقيق الديموقراطية مثلما حدث في تايوان والشيلي وغيرهما. والسبب في ذلك هو أن قدرة المسؤولين الحكوميين وباقي القادة على احتكار المعلومات وتوظيفها لخدمة مصالحهم تقلّصت إلى حد بعيد، وأصبح الرأي العام يؤدي دوراً أكبر في صياغة السياسة العامة لهذه البلدان.



لا تنقل الشبكة المعلوماتية إلا ما تتسع له قناتها، وطاقة النقل، أو ما يدعى «عرض الشريط» bandwidth لقنوات النقل المتنوّعة تختلف بشكل كبير بحسب التقنية المستخدمة. فخط الهاتف المنزلي يتألف من سلكين نحاسيين مجدولين ويكون ذا عرض شريطي ضيّق (أعلى الصورة). ويُستخدم في التلفاز الكابلي cable TV الكابل المحوري coaxial cable وهو أنبوب من النواقل تفوق قدرته الناقلة خط الهاتف بمئة مرة. وتنتقل نبضات المكالمات الهاتفية البعيدة عبر كوابل الألياف الضوئية fiber - optic cables التي تفوق قدرتها الناقلة الخط النحاسي بعشرات ألوف المرات. وأما إشارات الأقمار الصناعية (أسفل الصورة) فإن ناقليتها أكبر من الكابل المحوري ولكنها أقل من الألياف الضوئية

وفي الكثير من الأحوال يكون لتوافر المعلومات تأثير مباشر في صحّة الإنسان وأمنه وسلامته. ففي الولايات المتحدة يمكن الاتصال بما يسمى بـ «شبكة حق المعرفة» Right - to-Know بضرب الرقم ٨٥٧٠ - ٢٣٤ - ٢٠٢ عن طريق شبكة الاتصال اللاسلكي للحاسوب ليتعرف المواطن بصفة فورية أيًا من أنواع المواد الكيماوية السامة التي يفوق عددها الثلاثمئة التي تنتشر في منطقة سكنه. وقبل حلول ثورة المعلومات كانت مثل هذه المعلومات خبيئة ضمن ركام التنظيمات البالية في ظلّ حكم المكاتب (البيروقراطية)، وأما الآن فقد غدت متيسرة لكل من يرغب في الاطلاع عليها بطرفة عين بما يسمح بتنبيه السلطات المعنية إلى اتخاذ الإجراءات الملموسة لحماية الناس من الأخطار التي تتهددهم. وحدث في مدينة سيداليا Sed-alia بولاية ميسوري الأمريكية أن سألت كاثي غراندفيلد هل كان المصنع الكيماوي القريب من مكان سكنها هو السبب في موت الطيور في مزرعتها وانتشار مرض الأنفلونزا على نطاق واسع في تلك المنطقة؟ واكتشفت عن طريق «شبكة حق المعرفة» أن ذلك المصنع يطلق بعض الغازات والمخلّفات الكيماوية التي تفسّر هذه الظواهر. واتفق المتضررون على تقديم طلب لمدير المصنع عن طريق السلطات المحلية لإجباره على تنظيف مصنعه وتحسين ظروف العمل فيه.

ساهمت تكنولوجيا المعلومات مساهمة هائلة في تطوير أساليب الرقن والطباعة والإخراج، وزاد الاستهلاك العالمي من الورق إلى معدلات قياسية

ولقد أدى ارتفاع تكاليف حيازة الأنظمة المعلوماتية المتكاملة إلى انقسام الناس بين «من يملك المعلومات» «ومن لايملكها» بما أصبح يهدد المبادئ الديموقراطية نفسها. وأصبحت الدول بدورها تعاني من مثل هذا التقسيم. فالغالبية العظمى من الناس في الدول النامية لايملكون الهواتف أو الحواسيب. وحتى لو امتلكوها فسوف تكون أجهزتهم بلا أية فائدة ما لم تسارع حكوماتهم إلى توظيف مليارات الدولارات في إنشاء البنى التحتية للاتصالات البعيدة (السلكية واللاسلكية)، وخاصة منها الكابلات والأقمار الصناعية وأجهزة البثّ والاستقبال. وحتى هذا لايكفي لسدّ الفجوة المتسعة بين الدول المتطورة والنامية، لأن ثلث الناس في الدول النامية لايعرفون حتى الآن القراءة أو الكتابة!!.

وما من شك في أن بعضنا سوف يتمكن من اجتياز النفق للمرور إلى العالم الجديد، وبعضنا الآخر سوف يبقى متخلفًا. وهؤلاء الذين عبروا لن يتوقفوا عند عتبات هذا العالم الجديد، بل إنهم سيزدادون تطوراً مع تطور التكنولوجيات نفسها. ولا أحد يعلم الآن مانوع الشبكات التي ستخلف الإنترنت، ولا الأمور التي ستصبح ممكنة مع زيادة طاقة الحواسيب، إلا أن من المؤكد أن عالم المعلومات سيزداد اتساعًا وأهمية حتى يحقق للإنسان الإحساس بزخم الحركة وهو قابع في مكانه.

إن التكنولوجيا العشرية تَعدُ بتوفير المعلومات أكثر فأكثر بجهود أقل فأقل. وعندما نسمع بهذه الوعود يكون علينا أن نحقق التوازن بين الإعجاب بالتكنولوجيا والإعجاب بأنفسنا. فالمعلومات مفيدة، ولقد أوجدها الإنسان لتيسير أعماله وتطوير حياته. ولكنّ الإنسان هو الأصل.. وسيبقى.

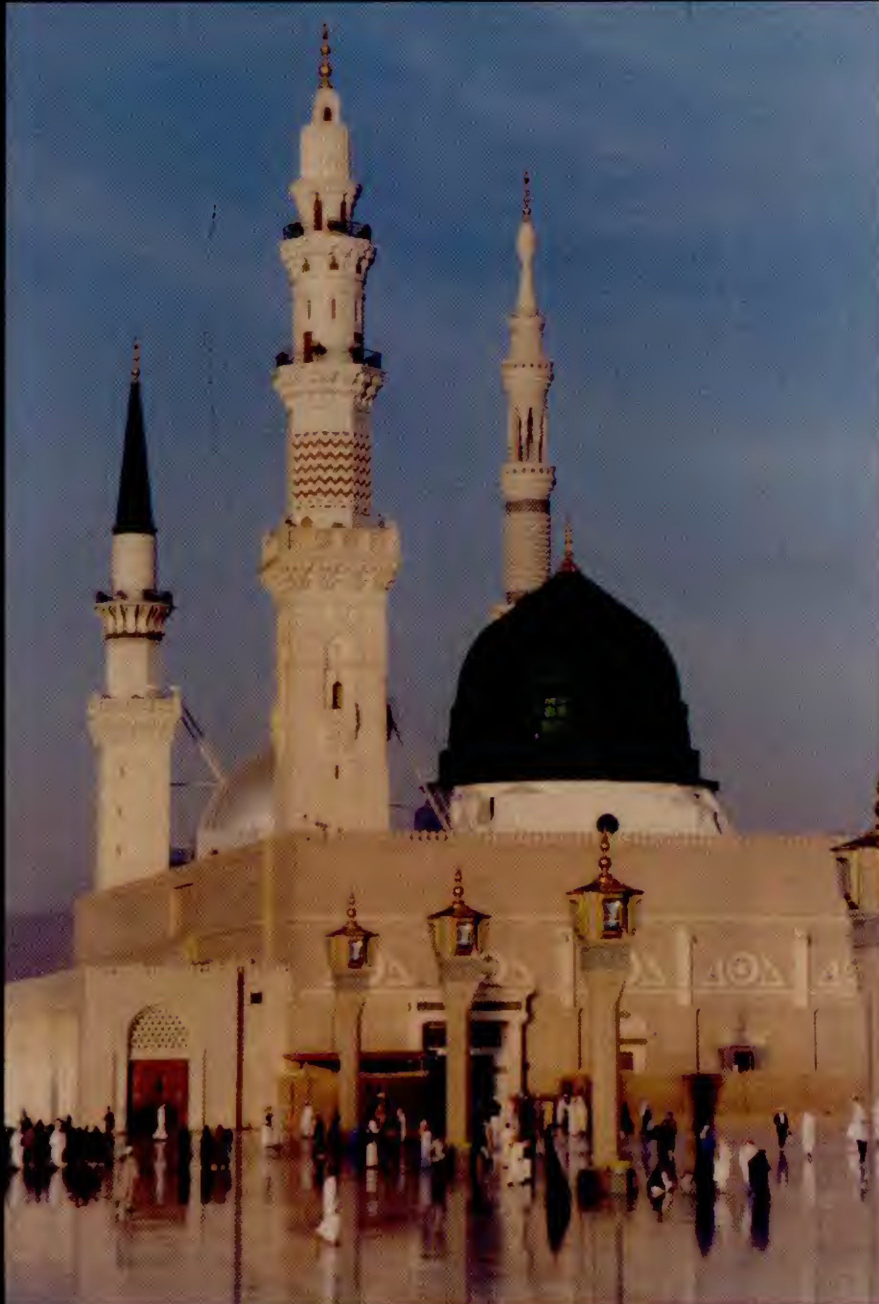
استطلاع

المدينة المنورة

«اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إليّ فأسكني في أحب البقاع إليك»

«حديث شريف»

هاشم الشريف ـ أحمد أمين مرشد




منظر للمسجد النبوي في إشراقة الصباح

تحظى المدينة المنورة بمكانة خاصة لدى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فالمدينة المنورة هي ثاني أعظم البلاد قدسية بعد مكة المكرمة حيث قبلة المسلمين، وأول بيت وضع للناس. ففي المدينة المنورة مسجد المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقبره الشريف. وهي البلد الذي انطلق منه الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم وصحابته الكرام رضي الله عنهم أجمعين لنشر الإسلام في جميع أرجاء شبه جزيرة العرب وما بعدها. وكانت بها أول دولة إسلامية منظمة.

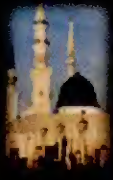
وقد سبق أن نشرت «الفيصل» استطلاعاً مصوراً عنها بعنوان «المدينة المنورة: مهاجر الرسول ومدفنه ومبعثه» في العدد السادس الصادر في ذي الحجة ١٣٩٧هـ ـ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٧م، وأعد الاستطلاع محمد العيد الخطراوي، وهذا الاستطلاع الذي تنشره المجلة في هذا العدد بمناسبة شهر رمضان المبارك، يتناول لمحات من تاريخ المدينة وجغرافيتها، مع التركيز على ما شهده المسجد النبوي من تطور عبر التاريخ.

من فضائل المدينة

لقد وردت أحاديث كثيرة في تبيان ما للمدينة من فضائل، نذكر منها قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تُشدَ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى». وقوله صلى الله عليه وسلم: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام». وقوله صلى


الروضة الشريفة

تصوير: علي كمال ووليد بوهاشم





الساحة الأمامية للمسجد النبوي

الله عليه وسلم، حينما خرج مهاجراً من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، مناجياً ربه: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع إليَّ فأسكني في أحب البقاع إليك». ووردت أحاديث كثيرة عن فضل السكنى في المدينة، والصبر على شدائدها، وحمايتها من الدجال والطاعون، وفضل الصلاة بالمسجد النبوي ومسجد قباء، وغير ذلك من الفضائل الجمة.

الموقع

تقع المدينة المنورة في الجزء الغربي من شبه جزيرة العرب ضمن إقليم الحجاز على خط طول ٣٦ ٣٩ درجة شرقاً وخط عرض ٢٨ ٢٤ شمالاً، وتبعد عن مكة المكرمة نحو ٤٢٠ كم إلى الشمال، وعن البحر الأحمر نحو ١٥٠كم إلى الشرق. وترتفع عن مستوى البحر نحو ٦٠٠م. أما مساحتها فتتجاوز ٦٠٠كم٢.

المناخ والطقس

يُعدّ مناخ المدينة المنورة حاراً وجافاً على وجه العموم، وتراوح درجات الحرارة فيها في الصيف بين ٢٨ - ٤٢ْ وفي الشتاء بين ١١-٢٤ْ. أما الرطوبة فهي منخفضة على مدار العام باستثناء فترات هطول الأمطار، ويبلغ متوسط الرطوبة نحو ٢٢٪. أما الأمطار فهي موسمية معدلها السنوي ٤ملم فقط.

وهي تقع في واحة خصبة، وبها عدد من الوديان، أشهرها بطحان والعقيق وقناة ومهزور ومذينيب ورانوناء، وكانت تحفل بالعيون والآبار من مثل بئر عين الأزرق التي أجراها الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان - رضي اله عنه - على يدي عامله على المدينة مروان بن الحكم،



المنطقة التجارية قرب الحرم

وتعرف حاليًا بالعين الزرقاء، أما عين النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان اسمها العيينة، ونسبت إليه صلى الله عليه وسلم لأنه كان يتوضأ منها أيام الخندق، وهناك بئر أريس، وبئر عروة، وبئر أنس بن مالك، وبئر الشهداء، وغيرها.

نشأة المدينة المنورة

تعد يثرب ـ وهو اسم المدينة قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها ـ منطقة استيطان قديمة ، ويذهب بعض المؤرخين إلى القول: إن تأسيس يثرب قد سبق الهجرة النبوية الشريفة بما يزيد على ١٥٠٠ عام، وهناك من المؤرخين من يعتقد أن العماليق كانوا أول من استوطنها من الأقدمين.

وشهدت يثرب في تاريخها السابق للإسلام عدة حروب بين الأوس والخزرج الذين استوطنوها بعد سيل العرم، وتهدم سد مأرب، وسميت هذه الحروب بحروب بُعاث، كان أولها حرب سمير، وأما آخرها فكانت موقعة الفجار الثانية.

وكانت تنتشر فيها الوثنية، واليهودية. أما على المستوى السياسي فكانت مستقلة بذاتها حينًا، وتابعة لإحدى الممالك سواء الشمالية منها أم الجنوبية حينًا آخر.


منظر جوي لمدخل المدينة الواقع على طريق تبوك

وكان اقتصاد يثرب يقوم في أساسه على الزراعة، التي كانت تنتشر فيها، بخاصة زراعة النخيل والحبوب كالقمح والشعير والذرة.

وكانت بها حركة تجارية نشيطة لوقوعها على طريق القوافل المتجهة من الشمال إلى الجنوب أو العكس. وأدت هذه الحركة التجارية إلى قيام بعض الأسواق التجارية بها وحولها مثل سوق الجرف وسوق وادي بطحا، وسوق العصبة.

أما الصناعات التي عرفتها يثرب فكانت صناعة السيوف والرماح والفؤوس والمساحي وأدوات الطعام،


محطة التكييف


نفق التكييف الخاص بالحرم


منظر عام للمناطق المحيطة بالمسجد النبوي


مسجد بلال

وصناعات الحلي، وصناعات خشبية كالأبواب والشبابيك وغيرها.

تسميتها بـ (المدينة المنورة)

بعد أن بايع أهل يثرب الرسول صلى الله عليه وسلم بين مكة ومنى عرضوا عليه أن ينتقل إليهم بسبب ما كان يلاقيه من كفار قريش، وسوء معاملتهم له، ليؤازروه ويعينوه على نشر الدين الجديد.

ومن ذلك الزمن بدأت يثرب مسيرة جديدة في تاريخها، فقد استقبلت المهاجرين الأوائل قبل قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إليها. وفي أواخر شهر صفر خرج الرسول صلى الله عليه وسلم، وبصحبته أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ومعهما دليلهما متجهين إلى يثرب. وعندما وصل صلى الله عليه وسلم إلى قُباء، وكان ذلك في يوم الإثنين، أقام فيها حتى يوم الجمعة، وأسس فيها مسجد قباء (أول مسجد في الإسلام)، ثم خرج من قباء متجها إلى يثرب، فنزل في طريقه في بطن وادي رانوناء وقد أدركه وقت صلاة الجمعة، فصلى في ذلك المكان، وهو المكان الذي أقيم فيه مسجد الجمعة المعروف. ثم توجه إلى يثرب وأقام مسجده في المكان الذي بركت فيه ناقته. وعند وصوله إلى يثرب، استقبله أهلها ، وهم ينشدون:

طلع البدر علينا

من ثنيّات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع

وعندما استقر المقام بالرسول صلى الله عليه وسلم في يثرب قام بتغيير اسمها، فدعاها بـ (المدينة، وطيبة، وطابة) ونهى عن تسميتها بـ (يثرب). فعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سمى المدينة يثرب، فليستغفر الله عزّ وجل، هي طابة، هي طابة». رواه


تصوير: علي كارا يوشي نوماتشي


جانب من الأسواق الشعبية القريبة من الحرم


أحد الشوارع الرئيسة


من المشاريع العمرانية الحديثة


جانب من الطرق والشوارع الحديثة






مسجد العنبرية

أحمد وابن شبة وأبو يعلى.

ومن الأسماء الأخرى: طَيْبة وطابة، ودار الهجرة، والإيمان، والجابرة، والجُنَّة الحصينة، والحبيبة، والمعصومة، وقبة الإسلام.

المدينة في العصر الحديث (العهد السعودي)

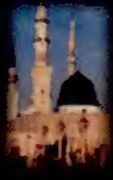
المسجد النبوي والتوسعة:

تعود فكرة توسعة المسجد النبوي في العهد السعودي إلى الملك عبدالعزيز، رحمه الله، إذ وجه في الثاني عشر من شهر شعبان ١٣٦٨هـ كتاباً مفتوحاً إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يبشر فيه العالم الإسلامي بعزمه على توسعة المسجد النبوي الشريف، وقد نشر الخطاب في جريدة المدينة في عدد الخامس من رمضان ١٣٦٨هـ.

وبُدئ في التنفيذ في الخامس من شهر شوال سنة ١٣٧٠هـ، وكانت بداية المشروع هدم الدور المحيطة بالمسجد بعد نزع ملكيتها مقابل تعويضات سخية، وفي الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ، أي في عهد **الملك سعود بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ** جرى الاحتفال بوضع الحجر لتوسعة المسجد النبوي بحضور جموع غفيرة من داخل المملكة وخارجها، وانتهت التوسعة في عام ١٣٧٥هـ، وجرى حفل لذلك في الخامس من شهر ربيع الأول حضره **الملك سعود بن عبدالعزيز، رحمه الله.**

وبلغت الزيادة التي طرأت على مساحة المسجد النبوي بعد تلك التوسعة ٦٠٢٤ متراً مربعاً، ومن ثم أصبحت المساحة الإجمالية ١٦٣٤٦ متراً مربعاً.

أما التوسعة الكبرى فتمت في عهد **خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، يحفظه الله،** حيث بدئ بوضع حجر الأساس في التاسع من صفر ١٤٠٥هـ في حفل كبير شرفه خادم الحرمين الشريفين، وبدأ العمل فعلياً في المشروع في ١٤٠٦هـ، وتحولت المدينة المنورة إلى خلية لايتوقف العمل بها في الليل والنهار، دون كلل أو ملل.. فأزيلت أحياء بأكملها وأدخلت ضمن الحرم. وقد انتهت التوسعة في ٥ ذي القعدة ١٤١٤هـ، وتمت إعادة تخطيط المناطق المجاورة للمسجد النبوي وتطويرها، فمدت بها الطرقات الحديثة بجسورها وأنفاقها. ومنها أنفاق الخدمات، كالكهرباء والماء والهاتف والصرف الصحي. كما تم اعتماد إقامة المجاورات وهي الأحياء



السكنية الحديثة المجاورة للحرم. وعددها خمس مجاورات. وقد تم اعتماد إعمارها بما يتناسق مع عمارة المسجد النبوي الشريف، ومع الطبيعة السائدة في المدينة المنورة. وقد روعي فيها أن تكون مشتملة على عمائر تبلغ كل منها أربعة عشر طابقا تحوي شققا للسكنى الدائمة والمؤقتة (الموسمية) وفنادق وأسواقا تجارية ومراكز صحية ومواقف. وتتوافر فيها جميع الخدمات المطلوبة ووسائل السلامة، سعيا وراء الحفاظ على راحة المقيمين والحجاج والزوار والعاملين بها.

وأصبحت مساحة المسجد النبوي بعد التوسعة التي أمر بها **خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز** ٥٠٠ر١٦٥ متر مربع، ويستوعب ٢٥٧ ألف مصل، وتحيط به ساحات تبلغ مساحتها ٢٧٥ ألف متر مربع، وفي حالة استعمالها كاملة للصلاة يمكن زيادة عدد المصلين إلى ٤٥٠ ألف مصل، مما يجعل الطاقة الاستيعابية لكامل المسجد والساحات المحيطة به تصل إلى ٧٠٠ ألف مصل، وقد ترتفع إلى مليون مصل في أوقات الذروة.

ولتوفير الراحة لرواد المسجد النبوي أنشئت مرافق للخدمات الخاصة به، من مثل: محطة الطاقة الاحتياطية والمجهّزة بأحدث الآلات والمعدات المتطورة. وهذه المحطة تشتمل على ثماني مولدات للطاقة الكهربائية تنتج أكثر من ضعفي حاجة المسجد النبوي بجميع مرافقه وتجهيزاته من الطاقة الكهربائية، كما تشتمل على مستقبلات الطاقة وموزعاتها ومحولاتها.

وفي حالة أي انقطاع في التيار الكهربائي العام، فإن هذه المحطة تقوم بمد المسجد النبوي الشريف بحاجته وبطريقة فورية وآلية، حتى إن الموجود داخل المسجد أو حوله لا يمكنه أن يلحظ أي انقطاع في الإضاءة أو التكييف.

كما أنشئت له محطة تكييف مستقلة تعتمد تقنية التكييف بواسطة الماء البارد الذي يتم ضخه عبر أنابيب ضخمة إلى المسجد، وتمتد هذه الأنابيب عبر نفق يمتد مسافة ٧ كم حتى يصل إلى المسجد النبوي. هذا المشروع يعد من أضخم مشاريع التكييف في العالم.

المنطقة المحيطة بالمسجد

بعد الانتهاء من التوسعة وإزالة الدور القديمة نشطت حركة العمران في المنطقة المحيطة بالحرم النبوي، فأنشئت مجموعة من المباني الحديثة، من أبرزها المباني التابعة لشركة طيبة التي تقع في منطقة



مسجد قباء

قريبة من المسجد، وتستوعب الالاف من الزوار.

تجديد المساجد الأثرية وتوسعتها

هنالك عدد من المساجد الأثرية الواقعة في المدينة المنورة. وقد عد منها السمهودي ستة وخمسين مسجدا. إلا أن أكثرها قد زال بفعل تعاقب الحقب ومر الزمن.

وقد أولت حكومة **خادم الحرمين الشريفين** لما تبقى من هذه المساجد ما تستحقه من عناية ورعاية. فتم تجديد أغلبها وتوسيعه مثل مسجد قباء ومسجد الجمعة ومسجد القبلتين ومسجد الميقات وغيرها. ومن المساجد الأثرية التي لا تزال قائمة تذكر:

مسجد قباء

يقع جنوب المدينة المنورة، أخرج ابن ماجه بسند جيد عن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة، كانت له كأجر عمرة».**

مسجد القبلتين

وهو من المساجد التي صلى فيها رسول الله صلى عليه وسلم، وكان فيه محرابان: أحدهما باتجاه بيت المقدس، حيث كانت القبلة الأولى قبل أن تتحول إلى الكعبة المعظمة، والآخر باتجاه الكعبة؛ ولهذا سمي بمسجد القبلتين.

مسجد الميقات

ويسمى هذا المسجد أيضا بمسجد الشجرة. وهو يبعد عن المسجد النبوي الشريف نحو (١٤)كم.

مسجد الجمعة

وهو المسجد الذي أقيمت فيه أول صلاة جمعة في الإسلام. ويقع إلى شمال مسجد قباء بنحو (٥٠) مترا فقط.

مسجد المصلّى

ويعرف أيضا بمسجد الغمامة. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم صلى في مكانه أول عيد بالمدينة في الثانية من الهجرة، وبعد أن كان يصلي عليه الصلاة والسلام الأعياد والاستسقاء في أماكن مختلفة، داوم في أيامه الأخيرة على صلاتها في مسجد المصلى.

مسجد الصديق رضي الله عنه

يقع إلى الشمال الغربي من مسجد المصلّى، وهو من المساجد التي صلى في موقعها رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العيد. ثم صلى فيه أبو بكر رضي الله عنه في خلافته فسمي: باسمه.

مسجد الإمام علي رضي الله عنه

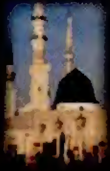
يقع في الجهة الغربية من المسجد النبوي الشريف، وهو أيضا من المساجد التي صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في موقعها أحد الأعياد. ثم صلى الإمام علي، رضي الله عنه، كذلك فيه أحد الأعياد.

مسجد الإجابة

وقد صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ركعتين، ودعا ربه



جزء من مكتبة المصحف الشريف في مكتبة الملك عبد العزيز العامة



طويلاً، ثم انصرف لمن معه وقال: «سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة. سألته ألا يهلك أمتي بالسنة، فأعطاني. وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطاني. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها...»

مسجد الفتح

وهو أحد المساجد السبعة الواقعة غرب جبل سلع، ويعرف أيضا بمسجد الأحزاب، والمسجد الأعلى.

والمساجد التي عنده تسمى مساجد الفتح، ويعود تاريخها إلى القرن الثاني الهجري كما ذكر ذلك ابن شبة والواقدي.

ومن أشهر معالم المدينة التي لا تزال قائمة إلى اليوم:

بقيع الغرقد

والبقيع هو المقبرة التي تضم قبور أهل بيت النبوة، وقبور أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم والتابعين. وقد تم توسيع المقبرة، ولا يزال الدفن مستمرا فيها. وقد وردت عدة أحاديث في فضائل البقيع ومزايا الدفن فيه.

جبل أحد والشهداء

يرتبط جبل أحد بالتاريخ الإسلامي ارتباطا وثيقًا، فقد ورد في الأثر أنه من جبال الجنة، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلع له أحد فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه». وفي سفحه جرت معركة أحد التي استشهد فيها سيد الشهداء، وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبدالمطلب، رضي الله عنه.

وبالقرب من ساحة المعركة تقع مقبرة الشهداء التي تضم قبور شهداء أحد رضي الله عنهم وأرضاهم.

النشاط العلمي :
الجامعة الإسلامية

توجد بالمدينة المنورة مجموعة كبيرة من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية التابعة لوزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات، يدرس فيها عشرات الآلاف من الطلاب والطالبات، أما التعليم الجامعي فهناك الجامعة الإسلامية التي صدر المرسوم الملكي بإنشائها في ٢٥ من شهر ربيع الأول عام ١٣٨٠هـ. وبدأت الدراسة فيها في الثاني من جمادى الآخرة عام ١٣٨١هـ في كلية الشريعة - أولى كلياتها. أما الآن ففيها عدد من الكليات والمعاهد ومراكز البحوث والمكتبات مثل: كلية القرآن الكريم، وكلية الحديث. ومن أحدث ما أضيف إليها مركز السنة النبوية، وذلك بمشاركة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ويقوم المركز بإعداد البحوث والدراسات الخاصة بالسنة الطاهرة وتبنيها. وبهذه الجامعة نشاط دعوي بارز، إذ أنها تتيح مجال الالتحاق بها لكثير من الطلاب المسلمين الذين يفدون للدراسة فيها على نظام المنح.

كما يوجد في المدينة المنورة كلية



مخطوط نادر للمصحف الشريف



جانب من مكتبة المصحف الشريف


مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف


صورة من الداخل لمجمع الملك فهد

الدعوة، وهي فرع من فروع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. ويدرس فيها أكثر من ألف طالب وطالبة. كما أن بها كلية للتربية وأخرى للعلوم تتبعان جامعة الملك عبدالعزيز، ويدرس فيها ٥٣٠٠ طالب وطالبة، وكلية المعلمين تتبع وزارة المعارف، ويدرس فيها ١٠٨٦طالباً، والكلية التقنية ويدرس بها ٧٢١ طالباً، وكلية التربية للبنات. وكلية المعلمات وتتبعان الرئاسة العامة لتعليم البنات.

ومن النشاطات العلمية الأخرى هناك نادي المدينة المنورة الأدبي، وهو يعنى بنشر الكتب الثقافية المتنوعة، وإقامة الندوات والمحاضرات، ويصدر دورية علمية اسمها «العقيق».

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

تفضل خادم الحرمين الشريفين بوضع حجر الأساس لهذا المجمع بتاريخ ١٦محرم١٤٠٣هـ وافتتحه ـ حفظه الله ـ بتاريخ ٦صفر١٤٠٥هـ، ويقوم المجمع على طباعة المصحف الشريف وتسجيله صوتياً، وهو يتبع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

وتبلغ طاقة المجمع الإنتاجية الإجمالية ٣٠ مليون مصحف مطبوع من مختلف الأحجام والأشكال سنويا. ومن أهم نشاطات المجمع نذكر:

ـ طباعة المصحف الشريف.

ـ ترجمة وطباعة معاني القرآن الكريم إلى أهم اللغات وأشهرها وأوسعها انتشاراً.

ـ تسجيل القرآن الكريم بأصوات أشهر القراء.

ـ خدمة السنة النبوية من خلال مركز خدمة السنة والسيرة النبوية المطهرة، بالتعاون مع الجامعة الإسلامية. وطباعة إنتاج المركز بالمجمع.

ـ تغطية احتياجات الحرمين الشريفين والعالم الإسلامي من الإصدارات الخاصة بالقرآن الكريم.

ـ إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة.

ـ نشر إصدارات المجمع على الشبكات العالمية.

ويقوم المجمع بترجمة معاني


مقبرة شهداء أحد من الداخل


جانب من ساحة معركة أحد وجبل الرماة


جبل الرماة


مباراة رياضية في أحد أحياء المدينة

القرآن إلى ما يربو على ٢٥ لغة، منها: البراهوتية والكورية والألبانية والتاميلية والمليبارية والإيغورية والقازاقية والمهرة والبوسنية والمقدونية والبشتو والصومالية والكشميرية والبنغالية والهوساو واليونانية واليوربا. إضافة إلى الإنجليزية والفرنسية والصينية.. إلخ.

ويعمل في المجمع قرابة ١٨٠٠ موظف نصفهم أو أكثر من النصف من العلماء والمختصين بعلوم القرآن، ويقومون بالإشراف والمراجعة والتدقيق لجميع خطوات ومراحل طباعة المصحف وتسجيله.

ويحرص المجمع على مواكبة أحدث التقنيات العالمية الخاصة بالطباعة والتسجيل.

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

تعد هذه المكتبة التي تتبع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد من أهم المكتبات في المملكة لاحتوائها عدداً كبيراً من المخطوطات النادرة، والمطبوعات القديمة، إضافة إلى الكتب الحديثة في تخصصات متنوعة، وهي تقع في مكان متميز بالقرب من المسجد النبوي، وقد ضمت إليها أغلب مكتبات الأوقاف مثل مكتبة رباط قره باش، ومكتبة رباط الجبرت، ومكتبة رباط عثمان بن عفان، ومكتبة الختيني، كما أنها تحوي حاليا مجموعة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة، ومن أبرز معالمها مكتبة المصحف التي تضم قرابة ألفي مصحف من المصاحف المخطوطة النادرة، وتقدم هذه المكتبة خدمات جليلة لطلاب العلم والباحثين من داخل المدينة وخارجها، كما أنها تحظى بشهرة واسعة خارج المملكة العربية السعودية، ويبلغ عدد ما تحتوي عليه المكتبة من المخطوطات ١٢٢٧٦٢ تتوزع على ٣٢٢٦ مصحفا وربعات وأجزاء قرانية مخطوطة، و١٤٥٠٠ مخطوطة، و٢٥ ألف كتاب نادر، و٤٠ ألفا من الكتب الحديثة.

مكتبة الحرم

تقع داخل مبنى الحرم النبوي الشريف، وهي تتبع الرئاسة العام للحرم المكي والحرم المدني، وتضم الكثير من المخطوطات والمصاحف الأثرية، ومجموعة


أحد المتنزهات


مبان أثرية على قمة جبل سلع



من المكتبات الخاصة التي تبرّع بها أصحابها إلى الحرم. كما أنها تقوم بتسجيل خطب الجمع والأعياد ونشرها.

ويبلغ مجموع مقتنياتها ٢٢٤٧ مخطوطة أصلية، إضافة إلى ٣٠٠ مصحف مخطوط، و ٥٠ ألف كتاب، ومجموعة من الدوريات.

الأسواق التجارية

تحفل المدينة بأسواق تجارية كثيرة يقع أغلبها في محيط المسجد النبوي، يرتادها الأهالي، إضافة إلى زوار المدينة المنورة على مدار العام. ومن أشهر هذه الأسواق: سوق شارع قباء الطالع والنازل. وهو من أقدم الأسواق بالمدينة المنورة وتنتشر على جوانبه المحلات التجارية المتنوعة ويبلغ طوله نحو ٣كم.

كما توجد بعض الأسواق التجارية المتخصصة مثل سوق التمور وسوق الخضار.

وينتشر في أحياء المدينة المنورة الكثير من الأسواق والمجمعات التجارية الحديثة. ومن أبرز هذه المجمعات، المجمعات التجارية التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد مثل الداودية والبوصة والنشير.

المتنزهات والحدائق

تنتشر داخل المدينة وعلى أطرافها كثير من المتنزهات والحدائق وأماكن الترفيه العامة. فمتنزه الفقرة الكائن فوق جبل الفقرة الواقع على طريق جدة القديم بهوائه العليل وجوه المنعش يعد مقصدا لأهالي المدينة هربا من الضجيج والزحام وصخب المدن.

ومتنزه البيضاء البري الواقع شمال المدينة بالقرب من سد الغاب



منظر جوي لتقاطع طريق تبوك ـ المطار الواقع امام قصر طيبة



أحد المتنزهات



أحد الشوارع الحديثة

يؤمه سكان المدينة لقضاء نهار بأكمله أو جزء منه حيث يستمتعون بمياه السد في مواسم الأمطار.

وحديقة النخيل الواقعة في الجرى على مرأى من قصر طيبة والتي تزيد مساحتها على ١٠٠ ألف متر مربع تشتمل على مسرح ومدرج للمناسبات الاحتفالية كالأعياد، كما تحتوي على الكثير من الألعاب التي تناسب الكبار والصغار على حد سواء، إضافة إلى المطاعم ومحلات الوجبات السريعة.

وهنالك الكثير من الحدائق والمتنزهات الأخرى مثل حديقة الأسواق، وحديقة السد، وحديقة السرور، وحديقة الطيور.

وتجدر الإشارة إلى الشلالات ومساقط المياه الصناعية المنتشرة داخل المدينة المنورة، وعلى الطرق السريعة التي أصبحت من سمات المدينة ومعالمها المميزة.

الرياضة

يوجد في المدينة المنورة ناديان هما نادي أحد، ونادي الأنصار. وقد حققا كثيرا من البطولات المحلية والدولية في عدد من الألعاب والمسابقات. ولهما دور كبير في شغل أوقات الشباب بما يعود عليهم بالنفع والفائدة.

المراجع

١ـ الأحاديث الواردة في فضائل المدينة المنورة جمعا ودراسة. صالح بن حامد بن سعيد الرفاعي. مركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بالتعاون مع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. ط١. ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٢ـ توسعة المسجدين. الكتاب الأول. وزارة الإعلام. المملكة العربية السعودية.

٣ـ مجلة الحج. عدد صفر ١٤١٩هـ ١٩٩٨م. وزارة الحج بمكة المكرمة.

٤ ـ المدينة المنورة: اقتصاديات المكان ـ السكان ـ المورفولوجية. الفاروق السيد رجب. دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة. ط١. ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٥ـ المدينة المنورة في التاريخ: دراسة شاملة. عبدالسلام هاشم حافظ. نادي المدينة المنورة الأدبي. ط٣. ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

معلومات تم الحصول عليها من أمانة المدينة المنورة، والإدارة العامة للتعليم بمنطقة المدينة المنورة، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالمدينة.

تصوير: **هاشم الشريف**



حسين سرحان: سيرة وقلم

عبدالله الحيدري

لحسين سرحان «أسلوب في النثر يكاد يكون متميزاً، يقوم على أساس من السخرية التي لا تجرح العاطفة. وإنني قلّ أن أترك مقالة يكتبها عندما أبدأ في قراءتها قبل إكمال القراءة»(١). هذه كلمات للشيخ حمد الجاسر أكاد أجزم أن من سيطلع على أدب السرحان سيوافقه من دون تردد، لأن هذه الكلمات الموجزة خير ما يعبِّر به عن نثر السرحان الساحر الممتع.

وبالمناسبة فإن لي مع حسين سرحان (١٣٣٢ - ١٤١٣هـ) قصة ترجع إلى ماقبل خمسة عشر عامًا. كان اسمه مجهولاً، وفي عداد المغمورين؛ لأنه كان منقطعًا عن الكتابة في الفترة التي تعرفت فيها مقالات له مجموعةً في كتاب من جمع يحيى الساعاتي وذلك في عام ١٤٠٠هـ(٢).

قرأت صفحات من الكتاب، وإذا أنا مشدود إلى التهامه من الغلاف إلى الغلاف. أكملت الكتاب، وأصبح اسم حسين سرحان محفوراً بقوة في الذائقة، وذهبت أفتش عن حروفه الساحرة في

كل مكان. ومن ذلك التاريخ والسرحان شغلي الشاغل، أمد حبال المودة مع المعجبين به من أمثال: علي حسن العبادي، وسعد الحميدين، وسعد بن عايض العتيبي، وأحمد المحسن - رحمه الله - وعياد بن عبيد العصيمي، وغيرهم، إضافة إلى أقاربه: زامل بن ناصر السرحان، وعلي بن سعد السرحان.

ووجدت نفسي أجمع كل ما كتب أو يكتب عنه ولو كان خبراً منزوياً في صحيفة، وكان إعجابي به قد أثمر شيئين: إعداد ثبت شامل (ببليوجرافيا) عنه في نحو عشرين صفحة نشر في مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية(٣).

وثانيها: تسجيل أطروحة الدكتوراه تحت عنوان «آثار حسين سرحان النثرية: جمعاً وتصنيفاً ودراسة» في كلية اللغة العربية بالرياض بتاريخ ٢٦ شوال ١٤١٨هـ.

ولقد كنت أتطلع إلى لقاء حسين سرحان شخصيًا، وتمَّ لي ذلك بمعرفة الشاعر عبدالله جبر، والأخ العزيز زامل السرحان، وذلك في عام ١٤١٢هـ، حيث سجلت معه لقاء لإذاعة الرياض ما أزال أحتفظ به إلى اليوم.

وحين رغبت مجلة الفيصل الغالية إعداد ملف عن حسين سرحان سعدت غاية السعادة؛ لأن رئيس تحريرها الدكتور



صورة لابن الكاتب محمد وكان عمره نحو عشر سنوات

يحيى بن محمود جنيد الساعاتي أول من عرَّفني بالسرحان أديبًا بعمله المهم (من مقالات حسين سرحان) الذي صدر عام ١٤٠٠هـ.

إن الحديث عن السرحان بالنسبة إلي متعة، لأنني من أشد المعجبين بأدبه، وبالتحديد بنثره، ولأنه - في اعتقادي - في المقدمة من كتَّاب المقالة في المملكة العربية السعودية، وأتمنى أن يعود القارئ الكريم إلى مقالاته: صلة الأدب بالحياة، أو: كنت أتمنى أن أرى ابن آدم، أو: وكيف كان ذلك؟(٤)، أو: رفاق في الطريق(٥)، أو غيرها من المقالات ليجد أن السرحان لم ينل حظه الذي يستحقه وأنه بحاجة إلى إعادة قراءة.

تعالوا لنقلب أوراق حسين سرحان المتناثرة التي حرصت فيها على مزج الجانب الصحفي بالجانب الأكاديمي.

الميلاد

تفاوتت المراجع التي أشارت إلى تاريخ ولادة حسين سرحان، فبعضها يقول: إنه ولد عام ١٣٣٢هـ، وبعضها يقول: إنه ولد عام ١٣٣٤هـ، وهناك من أشار إلى تواريخ بعيدة عن الصحة، وربما أصابها خطأ طباعي.



صورة جماعية ترجع إلى عام ١٣٤٦هـ، وهي تجمع من اليمين إلى اليسار: علي البسام (كان يعمل مع والد الكاتب في جباية رسوم الإبل والأبقار، ثم أصبح من كبار التجار في الكويت) - حسين سرحان - رجاء الثبيتي (من العاملين عند والد الكاتب) - والد الكاتب علي بن سرحان



صورة التقطت له في بيروت

وقد تحدث السرحان عن ميلاده في مقالة نشرت في مجلة الجزيرة (جمادى الآخرة)، وفيها يقول: «كنت أبلغ من العمر نحو خمسة عشر عامًا، وقد تزيد عامًا، فإن لي مولدين: المولد الأول: عندما بنى والدي علي بن سرحان ـ يرحمه الله ـ داره بالمعابدة في موقع الحديقة التي تجاور القصر الملكي شمالاً بشرق. لقد بناها عام ١٣٣١هـ، وقال: إني ولدت بعدها بسنة وعدة شهور، وعندما دخلت مدرسة الفلاح استصغرني مديرها عبدالله حمدوه، فأمر بتسجيلي في مواليد عام ١٣٣٤هـ»(٦).

وقد سألت ربيبه وزوج ابنته زامل بن ناصر السرحان عن مولد حسين سرحان بالتحديد فكتب إليّ: «سوف آتي على تاريخ ميلاد حسين سرحان ـ رحمه الله ـ ومكانه بالتحديد خلال ما سمعته منه، قال ذلك لي بمفردي وأمامي في مجلس العصر أمام رواد مجلسه من أصدقائه، قال: «البيت الذي نسكنه في المنطقة التي أمامك بناه والدي، وعندما انتهى منه كتب عليه: «تم بناؤه بتوفيق الله عام ١٣٣٢هـ، وولدت فيه ذلك العام، يعني ولادتي الحقيقية عام ١٣٣٢هـ في المعابدة في ذلك المنزل»(٧).

الحياة الخاصة

أنجب حسين سرحان أربع بنات وولدًا واحدًا، فأما ابنته مزنة فقد توفيت في عام ١٣٧٦هـ ورثاها بقصيدة عنوانها «مزنة» يقول فيها:

أراكِ.. أراكِ في نومي وصحوي
وفي بُعدٍ وفي قربٍ قريبِ
أراك على النمارقِ والحشايا
أراك عليَّ آخذة دروبي

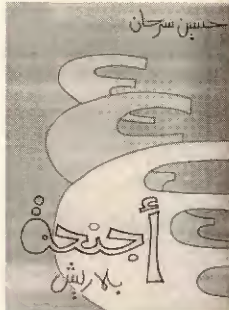
وبالنسبة إلى ابنه الوحيد محمد فقد توفي في حادث سيارة أليم يوم ١٠ جمادى الآخرة ١٣٨٦هـ، فرثاه بأبيات لما تنشر، ومنها:

قبر بجدة أسقاه الحيا الهامي
حتى يطوّف آكامًا بآكامِ
لا أعرف القبر لكني شعرت به
في مهجتي ماثلاً في قلبي الدامي

ويقول في قصيدة أخرى مخطوطة:

جاء عيد ولم تكن أنت عيدَه
يا قديمًا يُبلي الزمان جديدَه
كيف أبكي وكيف ألهج حزنًا
ونشيدي في ذاك كان نشيدَه(٨)

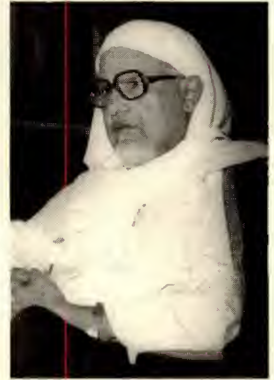
وقد كتب السرحان على أثر وفاة وحيده محمد مقالة عنوانها: «الموت



أجنحة بلا ريش. نادي الطائف الأدبي. ط ٢ ١٣٩٧هـ

والتجارب» لم تتضمن رثاء مباشرًا له، وإنما تناول فيها الموت من منظور فلسفي. أما جريدة عكاظ التي نشرت المقالة فقد قدمت لها بسطور جاء فيها: «فجع بلبلنا الغريد الشاعر الأستاذ حسين سرحان في حبة فؤاده (محمد)، في حادث سيارة أليم انفطر معه القلب، واصطبر عليه الأب، فجاءت هذه المقالة الفلسفية النابعة من الأعماق..»(٩).

وله ابنة اسمها هية توفيت وعمرها خمس سنوات، وله ابنتان لا زالتا على قيد الحياة، إحداهما زوجها ربيبه وأمين سره وابن عمه زامل بن ناصر السرحان(١٠).


حمد الجاسر


محمد حسن عواد

١٣٤٩ - ١٤١٣هـ

بين هذين العامين التاريخيين مسافة مقدارها أربع وستون سنة، وخلالها أغنى حسين سرحان الساحة بعدد من المقالات والقصائد والقصص والبحوث الموجزة تناثرت في معظم الصحف والمجلات المحلية.

وربما كان أول اتصال له بالصحافة - فيما أعلم - حين نشر مقالة له عنوانها «المعمرون» في جريدة أم القرى بتاريخ ٢١ ربيع الأول ١٣٤٩هـ، وعمره سبعة عشر عامًا فقط(١١).

وتوالى عطاؤه الكتابي شعرًا ونثرًا في صوت الحجاز، والمنهل، والبلاد السعودية، والبلاد، والندوة، وعكاظ، والعرب، واليمامة، وسواها من المطبوعات المحلية، هذا إذا استثنينا فترة توقف لا تتجاوز عشر سنوات من عام ١٣٩٦ - ١٤٠٦هـ.

وكانت مفاجأة سارة عندما استطاعت جريدة الرياض بجهد الأستاذ سعد الحميدين، ومعونة أسرة السرحان أن تعيد الكاتب المتوقف إلى عالم الكتابة، فنشرت له بتاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٤٠٦هـ مقالة عنوانها «أحلام في النهار».

وكان وقع هذه العودة سارًا لكل محبي الأدب الأصيل. هذا عبدالله الشهيل يكتب مرحبًا تحت عنوان: «حسين سرحان والعودة بعد طول انتظار»: «فجأة، ومن غير إشعار طالعتنا «الرياض» بمقال لحسين سرحان. والحقيقة أنها فازت به، وأسعدتنا بقلمه، وأيضًا لا يسعنا إلا أن نبدي إعجابنا بالقدرة على إقناعه وهو المضرب عن العطاء فترة طالت كثيرًا، ولم يستجب لكل الإغراءات حتى يئسنا من عودته...»(١٢).

وكانت جريدة الرياض قد استكتبته في عام ١٤٠٨هـ زاوية «سبعة أيام»، ثم خلد إلى الراحة بضع سنوات لتعيده إلى الكتابة مرة أخرى في عام ١٤١٣هـ (العام الذي توفي فيه)، فنشرت له هذا العام سبع مقالات، آخرها بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٤١٣هـ، وعنوانها «ريش متناثر من جناح طائر»، أي بعد وفاته - رحمه الله - بيومين.

أما بالنسبة إلى الشعر فقد أصدر ثلاثة دواوين هي: «أجنحة بلا ريش»، و«الطائر الغريب»، و«الصوت والصدى».

ابن إدريس والباكورة!

في عام ١٣٨٩هـ أصدر حسين سرحان ديوانه الأول «أجنحة بلا ريش» عن دار اليمامة بتقديم الشيخ حمد الجاسر جاء فيه: «اتصلت بالشاعر، وألححت عليه بأن يجمع شعره، وأن ينشره، وبعد إلحاح مني دفع إليّ دفترًا يضم ١٦ مقطوعة تقع في ٢٦٩ بيتًا.. ثم بعد إلحاح من أخ كريم لكي يقدمها للقرّاء كتب بضعة سطور عن الشعر. مقطوعات لم تكن منتقاة، ولكنه دعاها (الباكورة)، وتمنى أن لا تعقم، ومن عرف حسينًا حق المعرفة أدرك ما وراء تمنيه، وما تحمله كلمة (الباكورة) لديه من معنى»(١٣).

أما حسين سرحان فقد كتب كلمة موجزة عن الشعر جاءت بعد تقديم الشيخ حمد الجاسر، ومما قال في ختامها: «هذا ما آثرت أن أقدم به هذا اللون الضئيل من شعري مجموعًا في هذه الباكورة للقراء، راجيًا أن لا تعقم بإذن الله»(١٤).

وحين رأى نادي الطائف الأدبي طباعة ديوان السرحان الثاني «الطائر الغريب» عام ١٣٩٧هـ أضيفت إليه كلمة السرحان عن الشعر بنصها، بما في ذلك السطران السابقان اللذان قد يناسبان الديوان الأول (الباكورة)، ولا يناسبان الديوان الثاني، ولكنها هفوة من النادي.

ومن هنا أخذ الأستاذ عبدالله بن إدريس على السرحان هذه الكلمة في عرضه لديوان «الطائر الغريب» عام ١٤٠٠هـ، وقال مستدركًا على مقدمة السرحان عن الشعر: «فكلمة باكورة غير دقيقة هنا ولا في محلها؛ لأن الشاعر قد صدر له قبل هذا الديوان ديوانه الأول «أجنحة بلا ريش» منذ سنين عديدة..» وتساءل: «فهل الشاعر لذلك ينكر ديوانه الأول أو يقلل من قيمته؟ إنني لا أتصور أن الشاعر أراد ذلك، ولكن ربما جاءت عبارة (الباكورة) هذه عفو الخاطر»(١٥).

أثار السرحان في زاويته «المناوشات والمناقشات» قضايا ساخنة، ودخل في مناوشات مع بعض كبار الأدباء

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر
إدارة الصحافة والنشر

الرقم ______
التاريخ ______

الأديب الظريف الأخ الكريم الأستاذ حسين بن سرحان
أدام سلامته الملك الديان

السلام عليكم ورحمة الله -

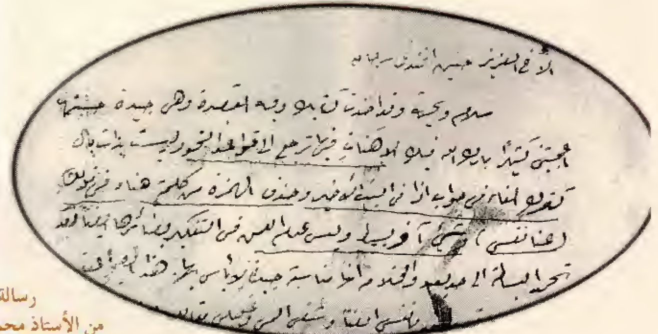
قرأت «حفظك الله» ما زبره يراعك عن تدرجك في حدود من على المعلج بدارك وما نجم عن ذلك ماثلاً على صفحة محياك فاستثار شعوري ساعة كنت افكر فيما يحاك من ورائك وما السلام به أيتمردون اشرك بتك عن ثقافة شباب اليوم الساقطة ؛ وآية ذلك ما رقمه كبيرهم الذي علمهم السحر وآخرون حذوه حذوك النعل بالنعل .

ورأيت انك كحمزة لا بواكي له كما قال النبي في صحابته ورأى النساء يندبن ذويهن

رسالة من أبي تراب الظاهري



صورة للأستاذ حسين سرحان عند سفره إلى مصر للمرة الأولى، وكان عمره حوالي خمسة وعشرين عامًا



رسالة من الأستاذ محمد حسن عواد

وربما اتضح للقارئ الكريم بعد هذا العرض أن السرحان - رحمه الله - لم يدر بخلده مطلقًا التنكر لديوانه الأول، وربما لم يعلم بإعادة نشر كلمته عن الشعر إلا بعد خروج الديوان من المطابع؛ ولذلك فالسرحان بريء من كل التفسيرات التي دارت بذهن الأستاذ عبدالله بن إدريس.

زوايا السرحان الصحفية

اتخذ حسين سرحان خلال مسيرته الأدبية الطويلة جملة من العناوين الثابتة، وكتب تحتها، ولكنْ يلاحظ أنه لا يستمر، فسرعان ما تتوقف الزاوية أو تتغير.

وربما تكون زاويته «مناوشات ومناقشات» أقدم زاوية ثابتة له. وقد ظهرت الحلقة الأولى في جريدة «صوت الحجاز» بتاريخ ٢٤رمضان ١٣٥٥هـ، وهي زاوية طويلة تتكون من فقرات عدة.

وكان في ذهن السرحان أن تكون الزاوية أسبوعية أو نصف شهرية، ولكنها لم تلبث أن توقفت بتاريخ ٦ ذي القعدة ١٣٥٥هـ. يقول السرحان في الحلقة الأولى معللاً التسمية ومحددًا المنهج: «سنتناول تحت هذا العنوان جميع المواضيع التي تشغل الأذهان، والتي تعنينا أكثر من سواها، ولا نخصص هنا موضوعًا بذاته، فكل ما استطعنا إدراجه تحت هذا العنوان أدرجناه بدون تردد» إلى أن يقول: «وسيقرأ القراء الأماجد هذه (المناوشات والمناقشات) أسبوعيًا أو الأسبوع بعد الأسبوع ومن هنا نبتدئ..»(١٦).

وقد كانت الزاوية اسمًا على مسمى، حيث أثار السرحان عددًا من القضايا الساخنة، ودخل في مناوشات مع بعض الكتّاب من بينهم: محمد حسن عواد، وأحمد عبدالغفور عطار، وعبدالكريم الجهيمان.

وظهرت ردود وتعقيبات من هؤلاء وغيرهم على السرحان، وشُغلت صوت الحجاز في تلك الفترة بمناوشات السرحان ومناقشاته!

وفي عام ١٣٦٦هـ ،اتفق حسين سرحان مع صحيفة «البلاد» السعودية على نشر زاوية صغيرة عنوانها: «عيش وملح»، وكانت تنشر في الصفحة الأولى. وكعادة السرحان لم يستمر في الكتابة الثابتة التي يبدو أنها لا تناسبه؛ لأنها تقيّده.

وقد نشرت الزاوية في الفترة من ٢٩ محرم ١٣٦٦هـ - ٥ ربيع الأول ١٣٦٦هـ.

يقول مداعبًا القراء في نهاية الحلقة الأولى: «والآن إلى اللقاء، لنطبخ لكم في الأسبوع الآتي هذه الوليمة التي سيكون العيش والملح هو العنصر الأساسي فيها!»(١٧).

وفي عام ١٣٧٧هـ، طال نفس السرحان قليلاً، فاتخذ زاوية أسبوعية في



من مقالات حسين سرحان
النادي الأدبي بالرياض
١٤٠٠هـ



الصوت والصدى
نادي الطائف الأدبي
١٤٠٩ هـ

جريدة «حراء» وعنوانها «سلام وكلام». وقد نشرت الحلقة الأولى بتاريخ ٨ شوال ١٣٧٧هـ، في حين نشرت الحلقة الأخيرة بتاريخ ٨ رمضان ١٣٧٨هـ، مع ملاحظة أن انقطاعًا دام تسعة أشهر بين الحلقة الأخيرة والتي قبلها!.

ومن «حراء» انتقل السرحان إلى صحيفة «البلاد»، فكتب فيها زاوية ثابتة في عام ١٣٧٩هـ تحت عنوان «بذور فلسفية»، وتوالى نشرها عبر ثمانية أسابيع تقريبًا فقد نشرت الحلقة الأولى بتاريخ ٢٦ شعبان ١٣٧٩هـ، بينما نشرت الحلقة الأخيرة بتاريخ ٢٦ شوال ١٣٧٩هـ.

وعلى الرغم من اختياره عنوانا ثابتًا، فإنه أعلن منذ الحلقة الأولى تهربه من الالتزام بها، ومن هنا استهل الحلقة الأولى قائلاً: «بذور فلسفية هذا هو العنوان الذي سأكتب به في جريدة «البلاد» بين حين وآخر، وفي غير التزام لا في المكان ولا في الزمان»(١٨).

أما الزاوية الخامسة للسرحان فهي «دقائق» وقد نشرها في صحيفة البلاد في الفترة من ٦ جمادى الأولى ١٣٨٠هـ إلى ١٨ جمادى الأولى ١٣٨٠هـ، وكانت تظهر بشكل شبه يومي، وبالتحديد فقد نشرت في تسعة أعداد. ولأنه يخشى التزام زاوية ثابتة تقيده، فقد كتب في الحلقة الأولى مشبهًا الزاوية بالغرفة التي يصطفيها الإنسان لنفسه: «إن غرفة اليوم متواضعة، وتقع في جانب منزو من أرض الله الواسعة، حتى مكانها في جريدة البلاد يكاد يكون منطويًا، ونهجه يشبه أن يكون ملتويًا»، إلى أن يقول: «مع أنها محدودة الزمن بدقائق تطول أو تقصر ـ وهذا هو الأرجح ـ فإنني لا أدري أكنت سأطيل المكث والمواظبة أم لا أطيل؟ إنها على كل حال غرفة وتجربة»(١٩).

وفي عام ١٤١٣هـ، ظهرت له في صحيفة الرياض زاوية عنوانها «ريش متناثر من جناح طائر» نشرت في خمسة أعداد، وبالتحديد في الفترة من ٢ جمادى الآخرة ١٤١٣هـ إلى ٨ ذي القعدة ١٤١٣هـ.

ويبدو أن السرحان كان ينوي إصدار كتاباته النثرية تحت هذا العنوان بدليل قول علي حسن العبادي في الغلاف الأخير من ديوان السرحان «الصوت والصدى»: «وللشاعر نثر فني قد تميز به يسمو على شعره أحيانًا، وكتابه المخطوط «ريش متناثر من جناحي طائر» يجعل لصاحبه الصدارة بين كتّاب النثر الفني المعاصرين»(٢٠).



أحمد عبد الغفور العطار

السرحان قاصًا

معظم القراء، ومنهم بعض المتخصصين في الأدب السعودي، يعرفون حسين سرحان شاعرًا وكاتب مقالة فقط، لكن القليلين من المهتمين بالأدب السعودي ودارسيه يعرفون للسرحان بعض الإسهامات القصصية التي نشرت في عدد من المطبوعات السعودية.

وقد عثر له على ثلاث عشرة قصة منشورة في الفترة من ١٣٥٥هـ إلى عام ١٣٨٥هـ، وربما كان من المناسب أن نذكرها جميعًا مرتبة بحسب تواريخ نشرها.

- **حياة ميت**. صوت الحجاز، ع ٢١٠، ١٩ربيع الأول ١٣٥٥هـ، ص٤.
- رجل من الناس. مجلة المنهج، ع ٣، صفر ١٣٥٦هـ، ص٢٤.
- هكذا كان. البلاد السعودية، ع ٥٩٥، ١٥ربيع الآخر ١٣٦٥هـ، ص٤.
- **أعمال كثيرة**. البلاد السعودية، ع ٦٢٦، ٣ ذو الحجة ١٣٦٥هـ، ص٤.
- **العودة**. المدينة، ع ٢٣٠، ١٥ربيع الأول ١٣٦٧هـ، ص١.
- **الصياد والسمكة**. البلاد السعودية، ع ٦٩٣، ٦ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ، ص١٣.

لا يعرف كثيرون أن للسرحان إسهامات قصصية منشورة في الدوريات السعودية

- **الأحلام لا تعود**. البلاد السعودية، ع ٧٩٨، ٣ جمادى الأولى ١٣٦٨هـ، ص٤.
- **موظف (أنموذج)**. البلاد السعودية، ع ٨٧٢، ٩ صفر ١٣٦٩هـ، ص٤.
- **أقصوصة حجازية: عامر ذو عيد غير سعيد**. البلاد السعودية، ع ١١٩٣، ٢٤ رمضان ١٣٧١هـ، ص٣.
- **حلم غريب**. الأضواء، ع ٥٥، ١١ ذو الحجة ١٣٧٧هـ، ص٦.
- **قتلى وجرحى ومعركة حامية**. قريش، ع ١٣٩، ٧ ربيع الأول ١٣٨٢هـ، الصفحة الأخيرة.
- **أقصوصة لها ذيول.. قد تقصر وقد تطول(١)**. عكاظ، ع٣١٩، ١٣رجب ١٣٨٥هـ، ص٥.
- **أقصوصة لها ذيول**. قد تقصر وقد تطول(٢). عكاظ، ع ٣٧٠، ١٤رمضان ١٣٨٥هـ، ص٥.

السرحان والأخطاء المطبعية

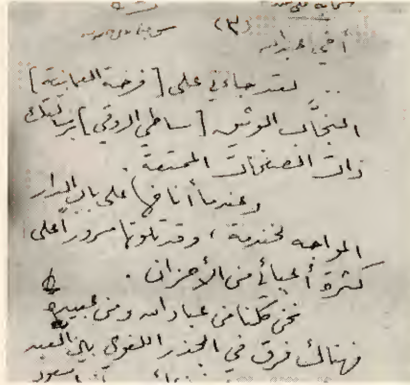
ليس ثمة كاتب لم يكتو بنار الأخطاء المطبعية، ولكن التعبير عن الضيق بها يتخذ أشكالاً عدة، فالكتَّاب الذين يرسلون مقالاتهم من المنازل، ولم يعملوا في الصحافة بشكل مباشر، ولم يتعاملوا مع قسمي الصف والتصحيح في المطبوعة التي يكتبون فيها قد تكون نفوسهم ضيقة وحساسة أكثر مما ينبغي، بينما لو رأى مسودة مقاله وجهد المصحح الواضح في تخليصه من الأخطاء لخفف من غضبه.

أما الكتَّاب الذين وسط المطبوعة فيبدون قدرًا من المرونة تجاه بعض الأخطاء اليسيرة التي لا فكاك منها مهما بذل المصحح والطابع من جهد؛ لأن العين أحيانًا تقرأ دون إدراك اعتمادًا على الصيغة الصحيحة المثبتة في الذهن؛ ولذلك يتسامحون في كثير من الأحيان إلا إذا تعددت الأخطاء، وأبانت عن انشغال المصحح وضعفه وتساهله.

ومن الكتَّاب من يكتم غيظه، ولا يبدو منفعلاً إلا عند أصدقائه الخلَّص معلنًا رغبته في التفكير في مقاطعة المطبوعة التي يكتب فيها، ومنهم من يرفع سماعة الهاتف معاتبًا من دعاه إلى الكتابة، سواء أكان محررًا أم رئيس تحرير.

وبعضهم لا يكتفي بهذه الوسيلة أو تلك، بل يخصِّص من الغد أو من الأسبوع القادم مقالته عن الأخطاء المطبعية، ويبدي ضيقه من تفشّيها(٢١).

وحسين سرحان ليس بدعًا من الكتَّاب، فله نفسيته المرهفة التي تتألم لكل خطأ مطبعي يغيِّر المعنى أو يحرفه، ومن هنا فقد شكا - كغيره - من آفة الصحافة (الأخطاء المطبعية) وكتب غير مرة عن ذلك.


لسحابة على [...]
زات الصغرات المستمة.
المواجه لخندمة، وقد تلوتها مرورًا على
نحن كلنا من عباد الله ومن عبيده
وهناك فرق في الجذر اللغوي بين العبد

رسالة أدبية سبق نشرها بعنوان «سحابة على خندمة»

- في عام ١٣٨٣، كان السرحان يشرف على الصفحة الأدبية بجريدة البلاد، فنشر مقالاً عنوانه «تقاسيم على القلم» بتاريخ ٢٣ صفر ١٣٨٣هـ، غير أن الطابع نسب المقالة لغيره، وظهر التوقيع بالشكل التالي: «بقلم حسين سراح»!!

وفي الأسبوع التالي كتب السرحان زاوية صغيرة عنوانها «الأخطاء المطبعية» قال فيها ساخرًا: «انتقل إلى رحمة ربه المرحوم فلان الفلاني، فبالرفاه والبنين وتهانينا. هذا مثال من الأخطاء المطبعية العجيبة التي تنفلت من بين أيدي المصححين المسؤولين، ففي الأحد الماضي أصبح اسمي حسين سراج لا حسين سرحان كما هو معروف.. حقيقة إن الكتَّاب والشعراء مع المصححين لفي عناء ملازم وهم دائم. ترى أين نذهب؟»(٢٢).

- في العدد ١٣٧٠ من صحيفة «البلاد» الصادر بتاريخ ١٤ ربيع الأول١٣٨٣هـ جاءت فقرة من مقال عنوانه « مواضيع» عن تصويب أخطاء مطبعية في مقال سابق، ووضع عنوان الفقرة «يفسدون ولايصلحون» جاء فيها: «الجهل بأبسط تراكيب اللغة العربية، إلى الجهل بمعرفة ترابط الألفاظ واتساق السياق، إلى عدم الاهتمام بأداء عملهم الرئيس الموكول إليهم أمره. كل هذه اجتمعت في تضافر غريب في القائمين

إشارات عن أسلوبه في الكتابة

- كان يكتب الموضوع دفعة واحدة، وبقلم واحد، وكان يحبذ استعمال القلم الرصاص.
- كان قليل الشطب والتعديل، وإذا اقتضى الأمر تعديلاً ، فإنه يتم أثناء سير القلم، فلم يكن يشطب كلمة إذا تجاوز موضعها.
- إذا أنهى كتابة مقالة أو قصيدة، كان يمر عليها سريعًا، ولم يكن يلجأ إلى إحداث أي تعديل.
- إذا لم يكمل كتابة موضوع لسبب من الأسباب في حينه، كان يعيد كتابته من جديد، من غير أن يعود إلى ما سبق أن كتبه، وكأنه قد حفظه عن ظهر قلب.
- لم يكن يتحدث مع جلسائه بحديث لا يفهمونه.

على تصحيح الصفحة الأدبية في جريدة البلاد». ثم أورد جملة من الأخطاء وبيَّن الوجه الصحيح لها(٢٣).

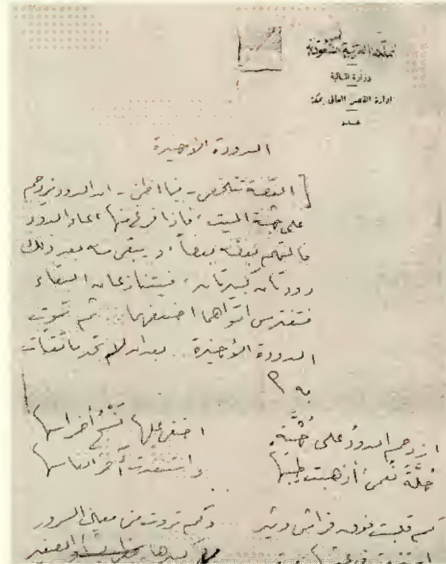
٣ـ وفي العدد ١٤٠٦ من جريدة البلاد الصادر في ٢٧ ربيع الآخر ١٣٨٣هـ ظهر للسرحان مقال عنوانه «ترويح وتهويم» بالخط العريض. وبعد أسبوعين وضع استدراكًا في نهاية مقال له حمل فيه على المصححين، ووصفهم بالمفسدين، ومما قال: «عنوان المقال الأخير (تدويم وتهويم)، الأولى بالدال والميم من دوَّم الطائر تدويمًا إذا علا في الجو. ونعوذ بالله من هؤلاء المفسدين!»(٢٤).

ـ وعندما عاد السرحان إلى الكتابة في جريدة الرياض بعد انقطاع دام عشر سنوات تقريبًا ظهر له مقال عنوانه «وجانيت لها متاعب» نشر بتاريخ أول رجب ١٤٠٨هـ، وفيه تذييل بعنوان «عتاب» يخص أخطاء حدثت في مقال سابق، وفيه يقول: «الأخطاء المطبعية لم تعد ظاهرة في صحفنا السعودية، فقد أصبحت حقيقة ثابتة، وقد استفحلت في السنوات الأخيرة إلى حد أنك قد تضطر إلى أن تقرأ الموضوع معكوسًا أحيانًا، أو تقرأ الشيء بضده لتصل إلى الصحيح»، وأضاف ملمحًا إلى نيته التوقف عن الكتابة لهذا السبب: «الكاتب معذور إذا توقف عن الكتابة. إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله»(٢٥).

نهاية رجل مبدع

كان حسين سرحان يكثر من ذكر الموت في مقالاته وقصائده، بل إنه في أخريات حياته يتمنى الموت، وله في ذلك بيتان مؤثران يقول فيهما:

متى يخلو المكان من المكين
وينداح التراب ويحتويني؟
وألجأ ـ يومذاك ـ إلى إله
كريمِ العفو في البلدِ الأمين(٢٦)



قصيدة «الدودة الأخيرة» نظمها عام ١٣٦٦هـ

وحقق الله للسرحان أمنيته، فاختاره إلى جواره يوم السادس من شهر ذي القعدة من عام ١٤١٣هـ، ودفن في مقبرة المعلاة بمكة المكرمة، رحمه الله رحمة واسعة.

وقد رثاه عدد كبير من الكتّاب والشعراء، منهم الدكتور العواجي الذي رثاه قائلاً:

يا فارسَ الشعر صار الشعر في حَزَن
وقد ترجّل عن ميدانه البطلُ
تبكي القوافي يَرَاعًا كان يرفعها
في أزمُنٍ صار فيها الشعر يُبْتَذلُ
الشعر في عرفه صدق وأغنية
أصيلة من شغاف القلب تشتعل(٢٧)

وبعد، فإن الحديث عن السرحان واسع متشعب، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق ـ كما يقولون ـ ولعلي أبسط القول عنه في ملف آخر أو مناسبة أخرى.

ولا يسعني إلا تقديم الشكر لكل من أعانني على الحصول على مقالات السرحان وقصصه، وأخص بالذكر الأستاذ زامل السرحان، والأستاذ محمد عبدالله الحمدان، والإخوة في مكتبة الحرم المكي الشريف، ومكتبة الملك فهد الوطنية، ومكتبة معهد الإدارة العامة، ومكتبة جامعة الإمام، ومكتبة جامعة الملك سعود، وغيرها من الجهات الحكومية.

الهوامش

١ـ حسين سرحان، أجنحة بلا ريش. ط٢. الطائف: نادي الطائف الأدبي، ١٣٩٧هـ، ص١٠ (كلمة حول الديوان بقلم حمد الجاسر).

٢ـ هذا التاريخ هو الزمن التقريبي لقراءاتي الأولى للكتاب، أما صدوره ففي عام ١٤٠٠هـ عن نادي الرياض الأدبي، وعنوانه: «من مقالات حسين سرحان».

٣ـ ينظر: المجلد الثالث، العدد الأول، المحرم ـ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ، ص١٦٨ ـ ١٨٦.

٤ـ تنظر هذه المقالات في كتاب «من مقالات حسين سرحان»، الصفحات ٢٢، ٤٤، ٨١.

٥ـ انظر جريدة البلاد، ع ١٣٦٤، ٧ ربيع الأول ١٣٨٣هـ، ص٥.

٦ـ مجلة الجزيرة، ع ٨، جمادى الآخرة ١٣٨٠هـ، ص٥. وقد أعد نشر هذه المقالة في كتاب «بلادنا والزيت» لعبدالله بن خميس، ص٦٧.

٧ـ رسالة خاصة تاريخها ٣ ربيع الآخر ١٤١٩هـ.

٨ـ القصيدتان زودني بهما مشكورًا الأستاذ زامل السرحان.

٩ـ حسين سرحان، «سوق عكاظ: الموت والتجارب». عكاظ، ع٦٠٣، ٦ رجب ١٣٨٦هـ، ص٣.

١٠ـ هذه المعلومات من رسالة زامل الخاصة المؤرخة في ٣ ربيع الآخر ١٤١٩هـ.

١١ـ أعيد نشر هذه المقالة في كتاب «من مقالات حسين سرحان»، ص٩.

١٢ـ جريدة «المسائية»، ٤ ربيع الآخر ١٤٠٦هـ، الصفحة الأخيرة.

١٣ـ «أجنحة بلا ريش»، ص٩، ١٠ (تقديم بقلم حمد الجاسر).

١٤ـ المرجع نفسه، ص١٤.

١٥ـ عبدالله بن إدريس، كلام في أحلى الكلام: دراسات شعرية. ط٣. الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص٩٣.

١٦ـ حسين سرحان، «مناوشات ومناقشات». صوت الحجاز، ع ٢٣٦، ٢٤ رمضان ١٣٥٥هـ، ص٦.

١٧ـ حسين سرحان، «عيش وملح». البلاد السعودية، ع ٦٣٤، ٢٩ محرم ١٣٦٦هـ، ص١.

١٨ـ حسين سرحان، «بذور فلسفية» البلاد السعودية، ع ٣٢٧، ٢٦ شعبان ١٣٧٩هـ، ص٥.

١٩ـ حسين سرحان، «دقائق». البلاد، ع ٥٢٦، ٦ جمادى الأولى ١٣٨٠هـ، ص٤.

٢٠ـ حسين سرحان، «الصوت والصدى». ط١. الطائف: نادي الطائف الأدبي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، صفحة الغلاف الأخيرة.

٢١ـ بعضهم يصف الأخطاء المطبعية بأنها «شر لابد منه»؛ ولذلك ألَّف منذر الأسعد كتابًا عنها عنوانه «طرائف الأخطاء الصحفية والمطبعية» وصدر عام ١٤١٢هـ.

٢٢ـ انظر جريدة «البلاد»، ع ١٣٥٨، ٣٠ صفر ١٣٨٣هـ، ص٥.

٢٣ـ حسين سرحان، «مواضيع». «البلاد»، ع ١٣٧٠، ١٤ ربيع الأول ١٣٨٣هـ، ص٥.

٢٤ـ حسين سرحان، «هدية من العراق». البلاد، ع ١٤١٨هـ، ١١ جماد الأولى ١٣٨٣هـ. ص٥.

٢٥ـ حسين سرحان، «وجانيت لها متاعب». الرياض، ع ٧١٧٩، أول رجب ١٤٠٨هـ، ص٥.

٢٦ـ انظر: عبدالله الجفري «ظلال». عكاظ، ٢٦ ذو القعدة ١٤١٠هـ، ص١٣. وقد ورد البيتان ضمن رسالة بعث بها السرحان إلى الجفري، ووصفها بأنها من آخر ما نظم.

٢٧ـ د. إبراهيم العواجي، «بكاء القوافي»، الرياض، ع ٩٠٨٢، ١٥ ذو القعدة ١٤١٣هـ، ص٢٥.

تداخل الأصول في المعاجم

لتداخل الأصول اللغوية أثر بالغ في بناء المعجم العربي، ولاسيما معاجم القافية، التي تعتمد أصل الكلمة أساساً في التبويب والترتيب؛ فإنّ الكلمة قد تنتقل من باب إلى باب آخر أو من فصل إلى آخر؛ فتجيء في غير موضعها الصحيح، أو توضع في موضعين أو أكثر؛ مما يؤدي إلى خلل بين في النظام المعجمي الدقيق، ويسهم في تضخيم بعض الأبواب. فما التداخل؟

عبدالرزاق بن فراج الصاعدي

تداخل الأصول هو أن يتوارد على الكلمة الواحدة أصلان أو أكثر، مما يؤدي إلى التداخل مع أصلها (جذرها) الحقيقي، فيلتبس الأصلان أو الأصول(١)؛ فكلمة «المدينة» مثلاً ـ يتوارد عليها أصلان ثلاثيان؛ فيتداخلان؛ وهما: «م د ن» و«د ي ن» ويتداخل في كلمة «الرُّمّان» أصلان؛ وهما «رم م» و«رم ن» أما كلمة «القرآن» فإنها تحتمل ثلاثة أصول: «ق رأ» و«ق رن» و«ق ري» وتحتمل كلمة «مأجج» ثلاثة أصول ـ أيضًا ـ وهي «أج ج» و«م ج ج» و«م أج ج» ويصلح من ذلك كله أصل واحد لكل كلمة.

ومن أعجب ما وقع فيه التداخل كلمة «كوكب»، فإن فيها خمسة أصول متداخلة؛ وهي «ك ك ب» على مذهب جمهور اللغويين(٢)، و(وك ب) على مذهب الأصمعي والأزهري(٣)، و«ك ب ب» على مذهب الراغب الأصفهاني(٤)، و«ك وك ب» على مذهب الخليل(٥) وأبي بكر الزبيدي، و«ك ب ك ب» على مذهب بعض الباحثين المعاصرين(٦).

وقد كثر التداخل في أنواع مخصوصة من ألفاظ اللغة، منها: الرباعي المضاعف؛ نحو: سلسل وزلزل ووسوس، فأثّر ذلك في بناء معاجم القافية تأثيراً بالغًا، إذ تابع صنّاع تلك المعاجم فيه المذهب الكوفي، وهو أن مثل تلك الكلمات هو من الثلاثي؛ وتركوا المذهب المشهور، وهو مذهب البصريين وجمهور النحاة واللغويين؛ وحاصله أن تلك الكلمات رباعية.

أما نحو سَبِط وسبَطْر، ودَمث ودمَثْر، فهو باب في التداخل، وتداخل الأصلين منه عند المعجميَين دفعهمَ إلى ترَجمة أحدهما في الآخر(٧).

ومما كثر فيه التداخل واختلفت فيه المعاجم: المهموز والأجوف والناقص وذو النون أو الميم؛ فكان بعضهم يرى الهمزة أو النون أو الميم من الأصل، ويرى بعضهم أن ذلك زائد، أو يرى الهمزة منقلبة عن حرف علة، أو العكس، فيضعها فريق في باب، ويضعها فريق آخر في باب آخر، بل إنهم كثيراً ما وقعوا في تكرار المهموز في المعتل؛ مما أدى إلى تضخيم البابين.

أما النون فمنزلقتها كبيرة(٨)؛ فإن أصالتها تلتبس في أول الكلمة، وفي وسطها، وفي آخرها، نحو نرجس وذرنوح وضيفن.

وللميم منزلقة لا تقل عن النون، فأصالتها تلتبس في أول الكلمة، وفي وسطها، وفي آخرها أيضًا، نحو: المدينة ودلامص وحلقوم.

وقد تخفى حال التاء، إذا وقعت في أول الكلمة، نحو: ترقوة، وتنور، وتألب، وترامز، وتنوخ.

ومن عجائب تداخل الأصول في «اللسان» أن ابن منظور ذكر «الأفكل» وهي الرعدة ـ في أصل رباعي في باب اللام فصل الهمزة «أف ك ل» مع نص علماء العربية على أن الكلمة ثلاثية الأصول، والهمزة فيها زائدة.

وتداخل الأصول غور في العربية بعيد، وقد فصلّت القول فيه وفي أثره في المعاجم في بحثي: «تداخل الأصول اللغوية وأثره في بناء المعجم العربي» وهو رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية لم تنشر إلى الآن، لأن البحث في مجلدين كبيرين، ولأن الأبحاث التخصصية في اللغة لا تلقى رواجًا عند نشرها لعسرها، ولأن القراء يقبلون على الموضوعات الخفيفة فحسب.

ولهذا رأيت أن أنشر أهم النتائج التي توصلت إليها، رغبة في تعميم الفائدة ـ إن شاء الله ـ من خلال هذه المجلة الرصينة الواسعة الانتشار. تتلخص هذه النتائج في ثلاثة أشياء وهي: «الأصول والتداخل» و«أثر التداخل» و«الحلول والتوصيات».

أولاً ـ في الأصول والتداخل

ـ كثر تداخل الأصول في العربية، وظهر جليًا في معاجمها، ولاسيما معاجم القافية، وقد جمعت منه قدراً صالحًا فاق ما كنت أتوقع الوقوف عليه؛ إذ زاد ما وقفت عليه من الكلمات المتداخلة على ألفي كلمة، منها ما هو شديد التداخل بحيث خفي على كثير من العلماء، ومنها ما هو دون ذلك.

ـ لم يخرج تداخل الأصول عن قسمين:

أولهما: التداخل في البناء «الأصل» الواحد، كتداخل الثلاثي بالثلاثي، والرباعي بالرباعي، والخماسي بالخماسي.

وثانيهما: التداخل بين بناءين «أصلين» مختلفين؛ كتداخل الثلاثي بالرباعي، والثلاثي بالخماسي، والرباعي بالخماسي.

وقد وقع التداخل في جميع هذه الأبنية، ولكن بنسب متفاوتة. وكثر التداخل في المعتل بين الناقص والناقص، ثم الأجوف والأجوف، ويقلّ في المثال مع المثال؛ لقلة تأثر المثال بعوامل الإعلال والإبدال، وذلك راجع لطبيعة فاء الكلمة في التصريف العربي.

لا جرم أن يكثر التداخل بين الثلاثي والثلاثي؛ فأكثر كلام العرب ثلاثي الأصول؛ ويعزى ندرة التداخل بين الخماسي والخماسي إلى سببين:

أحدهما: قلة ما جاء في اللغة من الخماسي.

والآخر: قلة ما يعتريه من الزوائد.

- ثمة أوزان في العربية يكثر وقوع التداخل بين الكلمات التي تأتي عليها ومن أهمها:

١- مَفْعِل وفَعِيل؛ نحو: مَسِيل، «من: سيل أو مسل».

٢- مَفْعُول وفَعِيل؛ نحو: مَهِين، «من: هون أو مهن».

٣- مُفْعَل وفُعال؛ نحو: مُراد، «من: ريد أو مرد».

٤- مفْعَل وفعال؛ نحو: محال، «من: حول أو محل» وهكذا....

٥- مَفْعَل وفَعال؛ نحو: مَجاج.

٦- فَعْلان وفَيعال؛ نحو: شيطان.

٧- فَعْلان وفاعال؛ نحو: راذان.

٨- فُعْلان وفُوعال؛ نحو: خُوذان.

٩- فَعْلُون وفيعول؛ نحو: زيتون.

١٠- فَعْلان وفَعَّال؛ نحو: حسَّان.

١١- فُعْلان وفُعَّال؛ نحو: رُبَّان.

١٢- فَعَوْلَى وفَعَوعل وفعلعل؛ نحو: خَجَوْجَى.

- لا يقع التداخل في الثلاثي بين اللفيف والصحيح في اللغة العربية.

- تعتمد مدرسة القافية في بنائها على الأصول؛ فيظهر التداخل فيها جليًا في حين أنه لم يكد يظهر في مدرسة التقليبات؛ لأن الأصول لم تكن الأساس الوحيد للبناء في هذه المدرسة وترتيبها؛ فليس ثمة حصر للكلمة من طرفيها، بل طُوِّعت الأصول وأخضعت - في هذه المدرسة - لخدمة نظام التقليبات؛ لأن الحكم على الحرف، من حيث الأصالة أو الزيادة، قد يتغير بتقليب الكلمة.

لا جرم أن يكثر التداخل بين الثلاثي والثلاثي، فأكثر كلام العرب ثلاثي الأصول

- ثمة أسباب تؤدي إلى تداخل الأصول، ولاسيما في معاجم القافية، ومن أهمها: اتحاد المعنى «تقارب الأصلين والمعنى واحد» والقلب المكاني، والإبدال، والهمز والتخفيف، والتعريب، والحذف والتعريب، والحذف والتعويض، والضرورة الشعرية، وتصريف الحروف وما أشبهها، والإدغام، والجمع، وتوهم أصالة الحرف، واختلاف الحركات، والتصحيف والتحريف، ومتابعة مدرسة التقليبات.

- ثمة مقاييس للتفريق بين الأصول يمكن أن تلحق بما ذكره العلماء؛ وهي:

١- الدخول في أوسع البابين. ٢- الصرف أو منعه. ٣- إهمال أحد الأصلين. ٤- الإعراب بالحروف. ٥- الإدغام. ٦- الموازنات السامية.

- الحرف المشدد «المضعف» حرفان؛ كما قال القدامى، وليس حرفًا واحدًا أُطيل صوته، كما جاء في اجتهادات بعض المتأخرين.

- كل ما جاء على صيغة «افعألّ» في شعر من مثل: اضفأدّ وازبأرّ - إنما هو في الأصل «افعالّ» وهو ثلاثي؛ وليس رباعيًا؛ وما جاء منه في نثر فمحمول عليه.

ثانيًا - في أثر التداخل:

- يؤدّي تداخل الأصول إلى وضع كثير من الكلمات في غير مواضعها في معاجم القافية، وهذا من أشد نتائج التداخل ضررًا.

ومن أبرز ما يترتّب على وضع الكلمة في غير موضعها:

١- اختلال الترتيب في النظام المعجمي الدقيق.

٢- الحيلولة بين القارئ ومراده ما لم يكن متضلعًا من العربية، خبيرًا بأصولها وزوائدها، ملمًا بتداخل الأصول في معاجمها.

٣- الحكم على الكلمة بالإهمال في المعجم على الرغم من وجودها فيه، وقد امتدّ هذا إلى بعض العلماء في مؤلفاتهم؛ فاستدركوا على بعض المعاجم ما هو موجود فيها كما فعل الفيروزأبادي في «القاموس» والبارودي في «الحسن والإحسان».

٤- إن الدراسات الإحصائية للجذور في بعض معاجم القافية كالصحاح واللسان والتاج، التي اعتمدت على ما جاء في هذه المعاجم من غير تصحيح للأصول المتداخلة، لا تعدّ كاملة، ولا يمكن أن تعطي نتائج دقيقة.

- الاضطراب في الترتيب المشرقي للحروف بسبب دمج المعجميين - وعلى رأسهم الجوهري - بابي الواو والياء في باب واحد، أدى إلى تقديم وتأخير بين الهاء والواو؛ فهناك من يقدم الهاء على الواو متأثرًا بالمعاجم في الأبواب؛ وهناك من يقدّم الواو على الهاء سائرًا على الأصل في ترتيب نصر بن عاصم.

- يؤدي تداخل الأصول إلى وضع كثير من الكلمات في موضعين في معاجم القافية، وربما وضعت في ثلاثة مواضع أو أربعة؛ فترتّب على هذا أمور؛ من أهمها:

١- الإخلال بالنظام المعجمي الدقيق القائم على وضع الكلمة في أصلها فحسب.

٢- الإسهام في اتساع معاجم القافية؛ بسبب إعادة كثير من الكلمات، بشروحها، وبكل ما تحمله من: معانٍ، وشواهد، وأقوال، وحكايات، وآراء، وردود.

٣- الحكم على الكلمة بأنها من أصل ليست منه فترتّب على هذا أحكام تصريفية في غاية الأهمية، كحركة عين المضارع في الأجوف أو الناقص أو المهموز، وكذا في الجمع والتصغير.

٤- اختلاف شرحي الكلمة أو شروحها في المضمون، من حيث الأسلوب، أو الضبط، أو الأحكام، أو النقول، أو الشواهد، والنصوص، ونحو ذلك؛ ولذا فإني أنصح مطالعي المعاجم ألاّ يقتصروا - في طِلْبتهم - على ما يطالعونه في أصل واحد؛ بل عليهم أن يطالعوا كل ما تحتمله الكلمة من أصول؛ بحثًا عن فائدة جديدة متوقعة في كل أصل.

- اضطراب المعاجم في بعض الصيغ، ومن أهمها ما جاء على صيغ: «افعألّ» نحو: اضفأدّ، و«فوعل» نحو كوكب، و«فعلل» نحو: زلزل، وكذلك اضطرابها في معتل اللام ومهموزها. ويلحق بهذا أنه شاع في معاجم القافية وضع الحروف الثنائية نحو: «أنْ» و«عَنْ» و«بَلْ» و«قَدْ» و«هَلْ» في أصول ثلاثية.

- أسهم تداخل الأصول إسهامًا بينًا في حركة التأليف في النقد المعجمي؛ على امتداد ألف عام أو تزيد؛ وقد انحصر جل النقد المعجمي المتصل بالأصول في مدرسة القافية، وتركز في معجمين اثنين؛ هما «الصحاح» للجوهري، و«القاموس المحيط» للفيروزأبادي.

وكان نشاط القدامى - كابن بري والصَّغَاني (أو الصاغاني) والصفدي والفيروزأبادي وداود زاده والتادلي - أشد التصاقًا بالتداخل مما آلت إليه الأحوال عند المتأخرين الذين لم يعنوا كثيرًا بنقد التداخل، خلا ما قدّمه الشدياق في «الجاسوس»، وإن كان كل ما قيل في نقد التداخل عند القدامى والمتأخرين لا

يتعدّى التنبيهات والملحوظات الجزئية، التي كان ينقلها اللاحق عن السابق، والتي خلت من صفتي العمق والشمول.

ـ أدّى تداخل الأصول إلى ظهور أبنية غريبة على العربية بعيدة عن قياسها، ومنها الأبنية التالية:

١ـ «افلأعَلّ» نحو اكلأزّ على رأي من جعل الأصل «ك زز».

٢ـ «افتعال يفتعيل فهو مفتعيل» نحو استكان يستكين فهو مستكين؛ على رأي من حمله على «س ك ن».

٣ـ «فُبعْلن» نحو «خُبَعْثن» حملاً على رأي من جعل الباء زائدة.

٤ـ «كَفَعَل» نحو «كَوكب» على مذهب الأصمعي والأزهري في تقديرهما زيادة الكاف الأولى.

ـ ثمة تعارض بين قول العلماء: «إن الياء تغلب ـ في الكثرة ـ على الواو في لام الكلمة» ونتيجة الإحصاء فيما جاء في باب المعتل من «اللسان» و«القاموس» إذ غلبت الواو فيهما؛ خلافًا لقول اللغويين، فكانت نسبتها في «اللسان» ٧١.٨١٪ للواوي مقابل ٢٨.١٩٪ للبائي. وكانت نسبتها في «القاموس»: ٥٣.٥٣٪ للواوي، مقابل ٤٦.٤٧٪ للبائي.

ويمكن التقريب بين قول العلماء ونتيجة الإحصاء بما يلي:

الأول: أن يحمل مراد اللغويين والنحاة في تغليبهم الياء على الواو لامًا ـ على المنقلب؛ أي: الألف والهمزة.

الثاني: أن يكون ما في المعجمين من أصول غير دقيق، بسبب تداخل الأصول؛ فتبطل ـ حينئذ ـ نتائج الإحصاء في المعتل.

الثالث: أن يحمل قول العلماء على كثرة الاستعمال في لغة العرب؛ لأن ثقل الكلمة يتدرج بتدرج حروفها من الأول إلى الآخر؛ فينبغي أن يغلّب على اللام الأكثر خفة، والياء أخف من الواو، ولما كان الآخر موضع التغيير والثقل، فإنه ينبغي أن يغلّب فيه الأخفّ.

ـ ثمة نوع من التداخل لا يضرّ ببناء معاجم القافية، وهو تداخل الأوزان الذي لا يؤدي إلى تداخل الأصول؛ وهو بتعبير آخر: أن تحتمل الكلمة غير وزن مع بقائها على أصل واحد؛ كتداخل «فعوعل» و«فعلعل» في كلمة «المَرَوْرَاة» وهي الأرض أو المفازة، و«فاعول» و«فَعلُوت» في «الحانوت» و«فَعْلان» و«فَعَّال» في «المَنَّان» و«فَوْعَلة» و«تَفْعَلَة» في «التوراة».

ثالثًا ـ في الحلول والتوصيات

ـ يلزم، لتلافي أثر التداخل في المعاجم، أمران يتصل أحدهما بالمعاجم المؤلفة، والآخر بالمعاجم المقترحة التي لم تؤلف بعد.

أما ما ألف من المعاجم فلا يعدو علاج ما فيه من تداخل الإرشاد إليه، وصنع معاجم «ملاحق» صغيرة كاشفة ترصد الألفاظ المتداخلة، وترشد إلى مظانها في كل معجم، مع بيان ما فيها من تداخل، بصورة ميسرة وموجزة، وفي هذه الدراسة ما يعين على التخطيط لصناعة مثل هذا المعجم.

وأما ما سيؤلف مستقبلاً من معاجم، فإنني أدعو إلى وضع الكلمة في موضع واحد فحسب؛ وهو أصلها بعد تجريدها من كل زيادة، وردّ المحذوف لعلة صرفية أو لغيرها ـ إلى أصله، وردّ المقلوب؛ أو المبدل، إلى أصله، وفك المدغم.

ثم تذكر الكلمة فيما يتوارد عليها من أصول؛ للإحالة إلى أصلها الصحيح فحسب، لا لتشرح فيها؛ فتُسد الأبواب أمام الأضرار المترتبة على وضع الكلمة في غير موضعها.

أما ما اشتد فيه التداخل، وخفي أصله، وتساوت فيه آراء العلماء، وأدلتهم ـ فإنه يوضع في أحد الأصلين أو الأصول؛ وفقًا لاختيار صاحب المعجم، وترجيحه، ويحال إليه في الأصل الآخر.

ـ أوصي بتجنب مذهب الكوفيين في الأصول، وتجنب الآراء الفردية لبعض العلماء، كابن فارس، وأدعو إلى الأخذ بمذهب البصريين؛ وهو مذهب جمهور اللغويين من القدامى والمحدثين. ويعني هذا وضع الرباعي المضاعف نحو «زلزل» في أصول رباعية؛ بدلاً من الأصول الثلاثية.

ويدعو البحث ـ من جانب آخر ـ إلى وضع الحروف الثنائية؛ كـ: «عَنْ» و«أنْ» و«بَلْ» و«قَدْ» و«هَلْ» في مدخل ثنائي مستقل يناسبها؛ لأنها لا تمت إلى الأصول الثلاثية بصلة؛ فمثلاً توضع «قَدْ» في «ق د» ويأتي بعد الأصل الثلاثي «ق د د» وتوضع «لَمْ» في «ل م» ويتلوها الأصل الثلاثي «ل م م» وهكذا.

ـ ويوصي البحث بأن يوضع المنحوت؛ نحو «عبشمي» و«بسمل» في أصول رباعية؛ وفاقًا لوزنه عند البصريين، ويشار فيه إلى الأصلين أو الأصول التي نحت منها.

أما المركب المزجي؛ نحو «حضرموت» و«بعلبك» فيعامل معاملة المركب الإضافي، نحو «عبدالرحمن» فيوضع في أحد الجزأين، ويذكر في الجزء الثاني للإحالة فحسب.

ـ آمل أن يحذو صناع المعاجم حذو أصحاب كتب المعرَّب؛ كالجواليقي والخفاجي والمحبّي ـ في تجنبهم تجريد المعرب والدخيل من الزوائد؛ بإخضاعه إلى مقاييس العربية. وتتم الفائدة عند تنبيه القارئ في الأصل الذي يحتمله لو كان عربيًا، والإحالة إلى موضعه الذي ذكر فيه من غير تجريد.

يؤدي تداخل الأصول إلى وضع كثير من الكلمات في غير مواضعها في معاجم القافية

ـ أقترح على أهل التخصص ـ ولاسيما أعضاء مجامع اللغة العربية ـ اعتماد مصطلح «حروف التداخل» على غرار «حروف الذلاقة» و«حروف الإبدال» و«حروف الإدغام».

وحروف التداخل ستة هي: الهمزة والتاء والميم والنون والواو والياء، ولا تكاد تخلو كلمة متداخلة أصولها من واحد من هذه الحروف.

ـ أنصح مطالعي معاجم القافية أن يضعوا تداخل الأصول في حسبانهم وهم يطالعون هذه المعاجم، وألاّ يقتصروا في طلبتهم على ما يطالعونه في أصل واحد؛ بل عليهم أن يطالعوا كل ما تحتمله الكلمة من أصول؛ بحثًا عن فائدة جديدة، كضبط أو حكم لغوي مغاير، أو فائدة صرفية أو نحوية، أو نقل عن عالم أو رأي له، أو شاهد شعري أو نثري.

وأنصحهم ألاّ يتعجلوا بإصدار أحكامهم على الكلمة بالإهمال في المعجم؛ فقد تكون فيه في أصل آخر، وإن كان يبدو ـ أحيانًا ـ بعيدًا.

الهوامش:

١ـ تداخل الأصول اللغوية، رسالة دكتوراة في الجامعة الإسلامية، لصاحب المقال.
٢ـ الأصول لابن السراج ٣/٣٠٩، والخصائص ٢/٥٦.
٣ـ التهذيب ١٠/٤٠٢.
٤ـ المفردات ٦٩٥.
٥ـ العين ٥/٤٣٣.
٦ـ التطور النحوي ٩٧، وفقه اللغات السامية ٧٤.
٧ـ الخصائص ٢/٤٩.
٨ـ الجاسوس ٣٨.

أبو الغمر المدني

الشاعر الجبان

عبدالله بن سليم الرشيد

ما أكثر ما يطرق السمعَ شعرٌ يفخر فيه قائله بالشجاعة، ويتمدح بها، وديوان العرب مترعٌ بمثل هذا اللون، فهم أمة الشمس والصحراء، أخذوا من شمسها الصراحة والوضوح، ومن صحرائها البأس والصبر، فلا عجب أن يتخذوا الشجاعة ملبسًا، فبها عيشهم، وبها مفاخرهم.

قال جعفر بن عُلْبَة الحارثي:

ولا يكشف الغمـاء إلا ابن حـرّة
يرى غمـرات الموت ثم يزورها
نقاسمهم أسيافنا شر قسمة
ففينا غواشيها، وفيهم صدورها

وقال سوّار السعديّ:

وإني لا أزال أخا حروبٍ
إذا لم أجن كنتُ مِجَنّ جانِ

وأسيَرُ من ذلك قول:

فلقد أراني للرماح دريئة
من عن يميني مرةً وأمامي
حتى خضبت بما تحدّر من دمي
أكناف سرجي أو عنان لجامي(١)

هذه نفس العربي: شمم وإباء، وعزة نفس، يأنف أن يولي دبره، وألايستقبل الموت، وقد ظل هكذا حتى جاء الإسلام فهذّب الشجاعة، وجعل لها غاية سامية، وهدفًا نبيلاً.

أما الجبن والفرار من الحرب فإنه أمر يحدث بلا شك، فالنفس مهما بلغت من الشجاعة يُساورها التعلق بالحياة:

وقولي كلما جشأت وجاشت
مكانك تُحمَدي أو تستريحي

ولكن العربَ لم يمدحوا الجبن، ولم يروا في الفرار خصلة يمكن المدح بها، غير أن الحضارة الجديدة التي طرأت عليهم، وغضارة العيش التي نعموا بها، حبّبت إلى بعضهم القعود، وكرّهت إليهم الحرب، وما تجرّ من ويل وخراب، فصاروا يعتذرون عن الفرار، كقول أبي دلامة:

ألا لا تلمني إن هربتُ فإنني
أخاف على فخّارتي أن تحطّما
فلو أنني أبتاع في السوق مثلها
وجدك ما باليت أن أتقدّما(٢)

غير أن الدارس لتاريخ الأدب، لا يجد شاعرًا انصرف شعره إلى مدح الجبن والاعتذار للجبناء، وذم الشجاعة، وتسفيه الشجعان، كأبي الغمر المدني، علمًا أن ما وصلنا من شعره بضع مقطّعات، وكلها - إلا ما ندر - في المعنى المشار إليه.

وقبل أن أتحدث عن فلسفته الجُبنية، ومذهبه في ذم الشجاعة يجدر أن أفرد أسطرًا لبيان خيط دقيق عن حياته الغامضة، التي لا يُعرَف منها إلا عُلالة مسافر.

أما اسمه فهارون بن موسى ، وقيل هارون بن محمد الطمري يُكنى بأبي الغمر(٣).

أديب وكاتب شعر، تولّى الكتابة للحسن بن زيد العلوي أمير المدينة النبوية، ويظهر أنه لازمه مدة ولايته التي دامت خمس سنوات، من عام ١٥٠هـ إلى عام ١٥٥هـ(٤).

ويظهر أيضًا أن للحسن هذا يدًا على أبي الغمر، وأنه ظلّ ذا صلة به بعد عزله، إلى أن توفي - أي الحسن - عام ١٦٨هـ(٥).

اشتهر أبوالغمر بنسبته إلى المدينة، فوصف بـ «المدني»، وفي هذا دلالة على استيطانه بها، وليس في المصادر ما يدلنا على سنة وفاته.

كما اشتهر بكتابته للحسن، حتى إن البيهقي اكتفى حين أورد شعرًا له بأن قال: «قال كاتب الحسن بن زيد»(٦)، أما عن ابن عبدالبر في «بهجة المجالس» فقد ألحق باسمه هذا النعت: «قال الغمراني المدني كاتب الحسن بن زيد» في موضعين(٧).

إن ماوصلنا من شعر أبي الغمر يمثل فلسفة تفضيل الجُبن على الشجاعة، وهو يصرح بأنه فرّار غير كرّار، غير مبال بنقد الناقدين:

لستُ غداة الكرّ بالكرّار
ولا على الطِّعان بالصّبّار
هانت عليّ سبلات العار
وما أبالي قبلوا اعتذاري
أو وسموني سمة الغدّار
أنا طليق الركض والفرار
فديت نفسي منه بالإضمار
فلو تراني أو ترى إحضاري
لا أعرف الليل من النهار
لخلتني عجلان ذا انشمار
طِرْفًا نجا من وخزة البيطار
أُحكم منه الصنع في المضمار
أو عَدْوَ عَيْرٍ غير ما عثار
أو كنجاء النقنق الطيّار(٨)

ولا تخلو فلسفته تلك من حجج عقلية، كقوله:

ظلّت تشجعني ضلاً بتضليل
للشجاعة خطب غير مجهول
هاتي شجاعًا بغير القتل مصرعه
أوجدك ألفَ جبان غير مقتول
الحرب توسع من يصلى بها حربًا
يُتم البنين وإثكال المثاكيل(٩)
واسم الوغى اشتق من غوغاء تبصرها
يغدون للموت كالطير الأبابيل

ومثل ذلك قوله:

إني أضن بنفس لا يُجادُ بها
والجود بالنفس أقصى غاية السرف
ما أبعد القتل من نفس الجبان وما
أحلّه بالفتى الحامي عن الشرف(١٠)

ويقترن بجبن أبي الغمر صفاقة وجه لا تمنعه من أن يعترف بالفرار، غير عابئ بلوم ولاعذل، كقوله:

هل غير أن يعذلوني أنني فشل
فكلّ هذا، نعم فاغرَوا بتعذيلي(١١)

مثل قوله:

قد هان عندي لسان العار والعَذَل
فلستُ آنف من جبن ولا فشل(١٢)

غير أنه يمزج ذلك كله بظرف وخفة روح، كقوله:

اسمع أخبّرك عن بأسي بذي سلم
خلاف بأس المساعير البهاليل
لما بدت منهم نحوي عَشَوْزَنَة
تُشرّع الموت في عرضي وفي طولي(١٣)
فقلت ويحكم لا تُذهبوا جلدي
رمحي كسير وسيفي غير مسلول
لما اتقيتُهُمُ طوراً بذات يد
وانصعت أطوي الفلا ميلا إلى ميل
الله خلّصني منهم وسلّمني
حتى تخلصت مخضوب السراويل(١٤)

وقوله أيضًا:

لستُ لدى الحرب بوقّاف
ولا على القِرْن بعطّاف
قد أمّن الله عدوي فما
يخاف أرماحي وأسيافي
إذا رأيت الحرب من فرسخ
خذْرفتُ رجلي أيّ خذراف(١٥)

هل يمكن أن نقول: إن أبا الغمر شاعر صريح، بيّن ما يعتلج في صدره، ولم يسع إلى نعت نفسه بنعوت ليس فيها؟

ثم: هل يُقبل الشعر إذا كان مجرد حقائق؟

أما المسألة الأولى: فهو صريح بلا ريب، إذا صدّقنا أنه كان جبانًا حقًا، وقد يخطر في ذهنك أن تسأل: وهل عندك شك في جبنه بعدما أوردت له ما أوردت؟

أقول: إن بعض الأدباء يجدون أنفسهم في عصر زاخر بالمشاهير الفحول، فيشعرون بخفوت أنجمهم عند توهج شموس أولئك، فلا يُلتفت إليهم، ولا يعبأ بشعرهم أو بأدبهم بعامة، وهذا الوضع يورث في نفس الأديب المرهف عُقدة، فهو يحب أن يُشار إليه، ويطمع في الحظوة عند المتنفذين، ولكنه لا يجد وسيلة توصله إلى ذلك، فقد استحوذ المشاهير على المجد، واختصوا بالبريق واللمعان.

ولذلك يعمد كثير من هؤلاء الأدباءالمُغْفَلين - بضم الميم وإسكان الغين - إلى محاولة لفت النظر إلى أدبهم، باتّباع مبدأ: (خالف تذكر)، فيخالف بعضهم عرفًا سائدًا، ويتوفّر آخرون على معان محدّدة، وقد يخرج بعضهم إلى ذم نفسه وتنقّصها، بدلاً من مدحها والثناء عليها.

وعندي أن أبا الغمر المدني من هذا القبيل، فقد أحب أن يتطرف بمدح الجبن، ووصف نفسه بذلك، حتى يشعر بشيء من التميز، في عصر يشاركه فيه عدد من فحول الشعراء كمروان ابن أبي حفصة، والعباس بن الأحنف، وأبي نواس وأبي العتاهية.

أما المسألة الأخرى وهي كون الشعر حقائق، فإني أرى أن الحقيقة إذا مُزجت بشيء من العواطف الجياشة والأخيلة المجنّحة، كانت أكثر إشراقًا وأقرب إلى النفوس، وهذا ما فعله أبو الغمر، فقد عرض هذه الخصلة - أعني الجبن والفشل - صريحة واقعية، ولكنه مزجها بظرف وحجج عقلية، وغلّفها بغلاف من الجزالة اللفظية، فجعلها طريفة ماتعة.

وها أنذا أختم الحديث عن مغامرات أبي الغمر مع الفرار والجبن، بقوله:

إني بخلت بنفس لا يجاد بها
ولستُ بالمال أفديها من البخل
هيهات، تأبى لي التغرير فلسفة
ترى حضور الوغى من أكثر الزلل
متى رأيت شجاعًا مات بالأجل
ونال من لذة الدنيا مدى الأمل
كأن آجال شجعان الورى خُلقت
في أنفس البيض والخطيّة الذُبُل(١٦)

إن أبا الغمر المدني شاعر، نسيه التاريخ فيمن نسي، ولم يبق من تراثه إلا نزر يسير، وهو - وإن كان شاذًا في هذه الفكرة - يمثّل جزءًا من أدبنا، ويصوّر لونًا طريفًا من ألوان الشعر، وإنه بإصراره على ذم الشجاعة ومدح الجبن والفرار، يصدّق قول الشاعر:

خلق الله للحروب رجالاً
ورجالاً لقصعة وثريد

وكأنما عناه من قال - على افتراض أنه جبان حقيقي:

إذا صوّت العصفور طار فؤاده
وليث حديد الناب عند الثرائد

يعمد بعض الأدباء المُغْفَلين إلى محاولة لفت النظر إلى أدبهم باتباع مبدأ «خالف تذكر»

الإحالات:

١- راجع باب الحماسة في ديوان الحماسة.
٢- ديوان أبي دلامة، ٨٠.
* لعله الطّهوي
٣- معجم الشعراء ٤٨٥.
٤- تاريخ الطبري ٨ - ٣٢، ٤٩.
٥- الأعلام للزركلي ٢- ١٩١.
٦- المحاسن والمساوئ للبيهقي ٤٩٠.
٧- بهجة المجالس ٢ - ٤٨١، ٤٨٣.
٨- السابق ٢ -٤٨٣.
٩- المحاسن والمساوئ ٤٩٠.
١٠- بهجة المجالس ٢ - ٤٨١.
١١- المحاسن والمساوى ٤٩١.
١٢- بهجة المجالس ٢- ٤٨١.
١٣- العشوزن والعشوزنة: الشديد الخَلْق والعسير الخُلق من كل شيء (اللسان).
١٤- في الأصل (الله خلّصني منهم وفلسفتي) ولا معنى لها، وأظن الصواب ما أثبته المحاسن والمساوئ ٤٩١.
١٥- بهجة المجالس: ٢- ٤٨٥ والخذروف: السريع المشي (اللسان).
١٦- معجم الشعراء ٤٨٥، وبهجة المجالس ٢ - ٤٨١.

من صور النقد في أوليات هذا القرن: قصة السَّفُّود بين الرافعي والعقاد

بدوي طبانه

لعل كثيرًا من أدباء هذا العصر أو نقاده لم يعرفوا أو لم يسمعوا شيئًا عن السَّفُّود أو عمن صنعه ومن اكتوى بناره من أدباء هذا العصر، لأنهم لا يعيشون إلا في حاضرهم، وينسَوْن أمسهم القريب الذي مهّد لهذا الحاضر، وكان عظيم الأثر في اتجاههم الجديد، ولأنهم مشغولون بقضايا يفتعلها بعضهم كقضية الحداثة ثم قضية ما بعد الحداثة بعد أن سكنت عاصفة الحديث عن «الشعر الحرّ»، وبدأ الحديث عما يسمّونه «قصيدة النثر». وهكذا تعيش الحياة الأدبية في دوامة من القلق والاضطراب لا تستقر على حال..



عباس محمود العقاد



مصطفى صادق الرافعي

ولعل المعاصرين معذورون في نسيان «السَّفُّود» أو تناسيه بواحد من التعلاّت الآتية:

ـ بعد العهد بينهم وبين تأليفه ونشره.

ـ أنه لم يصدر منه سوى طبعة واحدة، نفدت نسخها بعد طبعها بقليل.

ـ أن مؤلفه لم يكتب اسمه صريحًا على ظاهر الكتاب، وإنما اكتفى بوصف كتابه بأنه «نقد تحليلي»، وأنه «بقلم إمام من أئمة الأدب العربي».

وكان المتأدبون يعرفون أن هذا «الإمام من أئمة الأدب العربي» ليس سوى الأديب المعروف مصطفى صادق الرافعي، وأن أصل هذا الكتاب سلسلة مقالات نشرت من قبل في مجلة «العصور» التي كان يصدرها إسماعيل مظهر.

وكان الرافعي الكاتب وإسماعيل مظهر صاحب «العصور» قد اجتمعا على معاداة هذا العملاق الزاحف من أقصى الصعيد الذي يسمى عباس محمود العقاد، يَنْفُسان عليه، ويحسدانه على المنزلة الرفيعة التي بلغها في دنيا الأدب والشعر والكتابة والتأليف، وفي عالم السياسة أيضًا، إذ أصبح العقاد بقدراته الفائقة الكاتب الأول لحزب «الوفد المصري» الذي كان يرأسه الزعيم سعد زغلول، ثم خليفته مصطفى النحاس قبل أن يدب الخلاف بينه وبين العقاد.

وللسفود نارٌ

ونعود إلى «السَّفُّود» لنبين كيف رأى الرافعي شخصية العقاد، وكيف عرضها على الناس في كتابه الذي سمّاه «على

السَّفُّود»، وكيف نقد أدب العقاد ونتاجه في عالم الشعر؟

والسَّفُّود بفتح أوله وتشديد فائه المضمومة على وزن التنُّور حديدة يشوى بها اللحم، ويسميها العامة «السيخ»، وقد تكون عودًا مستويًا من الحديد ينتهي بطرف مستدق له شَبَاة حادة في طرفة الأعلى وهي مغرزة في اللحم، وقد يكون حديدة ذات شعب معقوفة. وتسفيد اللحم هو نظمه في تلك الحديدة لشيِّه.

ويطالع القارئ في أول صفحة من كتاب «على السَّفُّود» أنه طبع على نفقة مكتبة النهضة المصرية بشارع سليمان باشا. ولست أدري أكان مقر مكتبة النهضة المصرية في هذا الشارع حقًا أم كان ذلك ضربًا من ضروب المغالطة أو التمويه؟! فإني أعرف تمام المعرفة منذ عهد بعيد أن مقر هذه المكتبة هو «شارع عدلي» في جزئه الواقع بين ميدان الأوبرا وشارع عماد الدين.

وقد رسم على ظاهر الكتاب صورة شيخ ملتح يلبس عمامة كبيرة وفي قدمه نعل، وبيده السَّفُّود غُرز في جثمان هيكل بشري، وتحته نار متأججة، كأنه يشوي «العقاد» على مشهد من الناس. وتحت هذه الصورة بيتان من الشعر:

وللسَّفُّود نار لو تلقَّتْ
بجاحمها حديدًا ظُنْ شَحْما
ويشوي الصخر يتركه رمادًا
فكيف وقد رميتُك فيه لحما

وتتكرر هذه الصورة في كثير من الصفحات الداخلية للكتاب.

أنصار ومريدون

ويبدأ الرافعي بذكر السبب الذي دعاه إلى نشر تلك المقالات، ثم إلى جمعها في كتاب، وهو أنه أراد أن يعبر عن رأيه في صراحة وجلاء في عباس محمود العقاد الذي وصفه بأنه «أديب امتاز بين الأدباء بشيء من الصلف، عرف به، وبقدر غير قليل من الزهو بالنفس، والإغراب في تقدير الذات، تلك الأشياء التي لا تسكن نفسا إلا ويطلِّقها العلم ثلاثا، ولا تحلّ بشخصية إلا وتنفر منها الرجولة نفورًا، ولا تغشى عقلا إلا وتكون دليلا على انحرافه، وتفكك الثقة به»!.

هذه هي الصورة التي صور بها الرافعي فريسته «العقاد» في هذا الكتاب.

ويذكر الرافعي سببًا آخر يسوغ به حملاته على العقاد، وهو أن العقاد سلط عليه بعض حوارييه ومريديه، ويقول: لقد أطلق علينا ذلك الأديب المفتون ألسنة من أعوانه حدادًا، كان يلقنهم ما يقولون، فينقلون ما يلقى إليهم، كأنهم الحاكية المركبة، تنطق عن غير إرادة، وعن غير فهم، كما مُلئت به.

والحقيقة التي شهدتها الحياة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن العشرين أنه كان لكل واحد من أولئك الأدباء الكبار أنصار ومريدون يشيدون بهم، ويظاهرونهم، ويدفعون عنهم.

وكان في طليعة شيعة العقاد المرحوم سيد قطب، كما كان في مقدمة أنصار الرافعي المرحوم محمد سعيد العريان، وربما أدى التعصب إلى نشوب معارك قلمية عاتية بين الخصوم والأنصار، أو بين سيد قطب ومحمد سعيد العريان، وكأنهما بوقان لهذا وذاك.

ولا شك أنهما خسرا خسرانًا أليمًا برضاهما عن تلك التبعية، في حين أنه كان لكل واحد منهما شخصيته الأدبية المتميزة التي يعرف الناس ملامحها، ويقرؤون شواهدها فيما يقرؤون لكل واحد منهما في كتاب يصدره، أو في مقال ينشره.

وإذا كان الرافعي قد وصف مقالاته في العصور التي جمعها في كتابه «على السَّفُّود» بأنها «نقد تحليلي» فما أبعد ما كتب عن روح النقد بالمعنى الصحيح الذي يعرفه الأدباء والمتأدبون، ويعلمون أن النقد هو (التمييز) والكشف عن القيم التي اشتمل عليها العمل المنقود.

ولم يخلُ عمل من الأعمال التي يطالعها الناس من حسنة من الحسنات أو قصور في الفكرة أو في العبارة عنها.

لم يدع الرافعي منقصة إلا رمى العقاد بها، فهو لص يسطو على نتاج الآخرين من القدامى والمحدثين، ومن العرب والأوربيين

ولكن ما يطالع القارئ في «على السَّفُّود» بعيد كل البعد عن تحقيق غاية من تلك الغايات التي ينشدها كل من يعنِّي نفسه في قراءة مقال أو مطالعة كتاب، ولكن يجد قارئ هذا الكتاب نفسه أمام معرض من معارض السخائم والأحقاد التي فاضت بها جعبة الرافعي، فلا يقرأ فيما يقرأ شيئًا من النقد والتمييز، وإنما يطالع سبًا وإقذاعًا وقذفًا!

كان العقاد مدمنًا للقراءة مشغوفًا بها، وكانت هذه القراءة سبيله إلى المعرفة الواسعة بعد أن وقف في تعلمه عند المرحلة الابتدائية التي لم يتجاوزها، ولم يحمل شهادة بعدها. وذلك مما يكبر شأن العقاد، ويرفعه درجات، فقد حصَّل بنفسه ما وسعه من الثقافة العربية، وما استطاع تحصيله من ثقافة الشرق، ومن علم الغرب، فقد أتقن اللغة الإنجليزية إتقانًا عجيبًا.

وربما كان لمولد العقاد ونشأته في أسوان مدينة الآثار، ومنتجع السائحين أثر كبير في هذا الإتقان العجيب.

لصوصية أدبية

ويعترف العقاد بإفادته من قراءة الكتب، وإنك ترى هذه الإفادة مما تقرأ في كتب يسميها «ساعات بين الكتب»، و«مراجعات في الأدب والفنون»، و«مطالعات في الكتب والحياة». وهذه التسميات وحدها دليل على أمانة العقاد، ولكن الرافعي يتخذ من هذه التسميات دليلاً على سرقة العقاد، ويقول الرافعي بالحرف الواحد تعقيبًا على صنيع العقاد: «ما هذا؟ هل

هي إلا اللصوصية الأدبية تسمي نفسها من حيث لا يشعر اللص؟!».

ويصف العقاد بأنه من أجهل الناس باللغة وعلومها، وقلما تخلو مقالة له من لحن، وأسلوبه الكتابي أحمق مثله، فهو مضطرب مختل، لا بلاغة فيه، وليست له قيمة.. ويقول: إن العقاد من جهة اللغة والبيان «ساقط» لا يكابر في هذا!!

ولم يدع الرافعي منقصة إلا رمى العقاد بها، فهو لص يسطو على نتاج الآخرين من القدامى والمحدثين، ومن العرب والأوربيين.

وهو جاهل بلغة العرب التي يكتب بها، و«ساقط » في البيان. وللعقاد ديوان شعر كبير، وليس شاعراً، ولكنه (شعرور). ويصفه بأقبح الأوصاف، أو لا يعفّ عن تلقيب العقاد بالشاعر (المراحيضي)!!

ويقول: «نفتح الآن ديوان هذا «السخيف» كما يتفق، ونخرج لك مما تصادفه، وكن واثقاً أنك لن تفتح صفحة دون أن



أحمد حسن الزيات

كشف الرافعي للزيات عن حقيقة مشاعره نحو العقاد، فقال: أما العقاد، فإنني أكرهه وأحترمه!

تقع على «سخافات» كثيرة.

وذلك بعد أن يقول: «وأنت تقرأ شعر العقاد، فتجد فيه شيئين متباينين، بل متناقضين، الأول بعض أبيات حسنة، لا بأس بها، والثاني ألوف الأبيات السخيفة المخزية التي لا قيمة لها، لا في المعنى، ولا في الفن، ولا في البيان، فعلام يدلك هذا؟!».

يدلك بلا شك أن الأبيات الحسنة «مسروقة» جاءت من قريحة أخرى، وطبيعة غير هذه التي تعصف بالغبار والأقذار، فإن الشاعر القوي لا بد أن ينسق كلامه في الجملة على حذو الألفاظ، ومقابلة المعاني، وإذا نزل بعض كلامه لعارض ما لم ينزل إلا طبقة واحدة أو ما دونها.

أما العقاد فيتدحرج من مئة درجة عندما يسمو، أي عندما يسرق في بيت أو بيتين.!

ويمضي الرافعي في كلامه على هذا النحو من الإسفاف والإقذاع، وينحط إلى هذا الدرك على المستوى الذي نطالعه في هذا النقد أو في هذا الهجاء حتى نهاية «على السَّفُّود» الذي ينال أشد النيل من الناقد أكثر مما يصيب المنقود.

كره واحترام

ونجتزئ بهذا القدر الذي يتجاوز حدود النقد فيما كتب الرافعي في «على السَّفُود» عن العقاد وكتابته وشعره، ونتوقف لنتساءل عما إذا كان هذا النقد الجائر يمثل الرأي الحقيقي للرافعي في العقاد وأدبه المنثور وفي شعره المنظوم.

وصريح القول في هذا ما رواه المرحوم أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» في الذكرى الثالثة للرافعي مما أسرّه إليه، وخصه به، وشرط عليه كتمانه.

وفي هذا الحديث يروي الزيات أنه يسأل صديقه الرافعي ضاحكًا إذ كان يروي له الأعاجيب مما يلقى إليه إلقاءً في النوم، وما يلهمه إلهامًا في اليقظة. وكان الرافعي يعزو ذلك إلى قوة إلهية ترفده وتسنده!

وهنا يسأله الزيات: هل تعتقد أن من إلهام هذه القوّة تلك الفصول المقذعة التي كتبتها في النقد؟

ويجيب الرافعي: «أما ما كتبته «على السَّفُود» فأكثره رجس من عمل الشيطان! وأما ما أدخلته تحت راية القرآن فكله إلهام من روح الله!».

ثم يكشف الرافعي للزيات عن حقيقة مشاعره نحو العقاد، فيقول: أما العقاد، فإنني أكرهه وأحترمه!

أكرهه لأنه شديد الاعتزاز بنفسه، قليل الإنصاف لغيره!

ولعله أعلم الناس بمكاني من الأدب، فيتجاهلني حتى لا أجري معه في عنان!

وأحترمه، لأنه أديب استملك أداة الأدب، وباحث قد استملك عدة البحث، قصر عمره وجهده على القراءة، فلا ينفك بين كتاب وقلم. ومن آفة الذين يديمون النظر في الكتب أنهم يفقدون استقلال الفكر، وابتكار القريحة. وليس كذلك العقاد، فإن رأيه، لقوة عقله، وسلامة طبعه يظل متميزاً عن رأي الكتاب، مهيمنًا عليه، يؤيّده أو يفنّده، ولكنه لا يسمح أن يذوب فيه، أو يتأثر به!

ثم يقول عن أسلوب العقاد: إنه أسلوب الأديب الحكيم، تبرز فيه الفكرة الدقيقة في مجتلى الفن الرفيع، فيجمع بقوة تفكيره، ودقة تعبيره طرفي البلاغة..

ويصف العقاد بأنه مخلص لفنه، فلا يخرج للناس ما لا يرضاه، فهو لذلك أبعد الأدباء عن استغلال شهرته، واستخدام إمضائه.

ألا ما أبعد الفرق بين هذا الرأي الذي مجد به صنوه أو غريمه العقاد وما نشره من قبل في «على السَّفُّود» الذي وصفه بنفسه أخيراً بأنه «رجس من عمل الشيطان»!!

الفولكلور في العصر العباسي

خيرالله سعيد

لم يهمل الخلفاء العباسيون شؤون الثقافة في عصورهم المختلفة، فهم قد أولعوا بالشعر والأدب منذ البدايات الأولى لتسنمهم مقاليد الخلافة، وحينما قوي عودهم وازداد صلابة، انتبهوا إلى الأهمية الاجتماعية والثقافية في بيئتهم الجديدة ـ بغداد ـ بعدما شيدها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ.

وقد توافدت الأقوام المختلفة على هذه المدينة، من أنحاء المدن الإسلامية كافة، فهذا فارسي، وذاك رومي، والآخر تركي، أو هندي، وغيرهم، إضافة إلى وجود العرب في ذاك المجتمع، الأمر الذي مازج بوجوده الاجتماعي، مختلف الثقافات، فتفاعل إيجابياً مع كل المؤثرات المحيطة به، وكانت الثقافة العربية ـ الإسلامية ، هي البؤرة الأشمل والأكثر تأثيراً في حياة الناس، فقد انطلقت من مكوناتها الأولى، «القرآن والحديث والسنة»، وشكل المسجد نقطة التجمع الأولى لنشاطهم الثقافي، وقربت الدولة العباسية رجال العلم والأدب، وأغدقت عليهم الهبات والعطايا والجرايات، وعرف ذو الفضل بفضله، فرفع الأديب، وأكرم العالم، وجلّت صولة الأدب، واختلط العالم بالفقيه، وتناظر العلماء واختلف الفقهاء، وتوسعت دائرة المعرفة بالتناظر، وشاعت في الدولة مجالس المناظرة والمنادمة، وأُكبّ على العلم والتأليف، وقد أدت حركة الترجمة دوراً بارزاً في تلاقح الثقافات، فقربت البعيد فأصبح في متناول اليد، وحركت العقول، وظهرت الفلسفة ـ فيما بعد ـ متخطية «علم الكلام» وراحت تظهر مختلف الآراء، وكان للمعتزلة دور بارز في تحريك الوعي الثقافي، وأصبحت بغداد في مستهل القرن الثالث الهجري متألقة بشعاع فكري لا مثيل له، فقد كان المأمون على رأس الخلافة، فوسع دائرة الكتابة الأدبية لتشمل أغلب حقول المعرفة، ومن ثم كان له الفضل في غربلة التراث الأدبي، وتخليصه مما علق به من شوائب، وأقام معياراً عقلياً منصفاً لمختلف العناصر الثقافية، وقدّم توفيقاً بين المعارف بطريقة أدبية لإنسان العصر في أوانه. فقد تميز أسلوب الجاحظ بسعة العبارة المؤلفة من جمل مقطعة أو من تعريفات تبرز فيها لفظة ذات غنى خارق، بشكل يتألف من أمثالها وحدة كمية، متساوية أو متجاورة، وبمعنى يماثل أو يضاد، دون أن تستعمل القافية إلاّ عرضاً.(١)

إن التشكل المعرفي في ذهن الخليفة المأمون، جعله ذا نزوع قلق نحو المعرفة والثقافة، فكان يريد للخلافة ودار الإسلام أن تنهض بثقافتها حتى توازي، بل تزيد على بقية الثقافات السائدة في عصره، من يونانية وفارسية وهندية، فلقد بالغ المأمون وبذل الأموال الطائلة لتشييد دار الحكمة، فقد فاقت هذه المكتبة كل دور الكتب في العالم حيث حوت مختلف أصناف العلوم، وأسند رئاستها إلى سهل بن هارون، كما حشر فيها مختلف العلماء ليشرفوا على فروعها وأروقتها وعلومها، وسهل بن هارون هذا هو واحد من أوائل الذين اشتغلوا بالفلكلور من بين المثقفين العرب والمسلمين.



«كليلة ودمنة» أبرز ما تُرجم عن الهند

وإثر حلم رآه المأمون، ذات ليلة وشاهد فيه «أرسطوطاليس» وحاوره في المنام، استدعى «علماء الحكمة» وقرر إرسال وفد علمي إلى ملك الروم لينتخبوا أبرز المعارف وينقلوها إلى «دارالحكمة» وكان الوفد مؤلفاً من الحجاج بن مطر، وابن بطريق، وسلْم ـ صاحب بيت الحكمة ـ ويوحنا بن ماسويه، وحنين بن إسحاق(٣).

وعندما عاد الوفد العلمي بالكتب، أوعز المأمون إلى المترجمين لنقلها إلى العربية، وكلف حنين بن إسحاق بالإشراف على عملية الترجمة والنقل، وإصلاح ماينقله المترجمون(٤). فنقلت من كتب الفلسفة ٢٧ كتاباً، ومن الطب وفروعه ٥٨ كتاباً، ومن الرياضيات والنجوم وسائر العلوم أكثر من ١٠ كتب، وهذه الكتب نقلت عن اليونانية، فيما نقلت عن الفارسية كتب في الأدب والأخبار والسير والأشعار والنجوم،

ونقلت عن الهندية، «السنسكريتية» الكثير من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمار والتورايخ وغيرها(٥).

والملاحظ في هذه الكتب، أن فيها ما يشير إلى بدايات كتب الفلكلور، لا سيما في «الأخبار والسير والأسمار»، كما أن المصادر ذكرت أن أبرز كتاب ترجم عن الهند هو كتاب «كليلة ودمنة» و«السندباد الكبير» و«كتاب أدب الهند والصين»(٦).

ومن هنا تتوضح أمامنا أن العباسيين كانوا ينظرون إلى الثقافة بشمولية واضحة، ولم يغب عن بالهم «الفلكلور»، فكان حاضراً ضمن تفكيرهم وثقافتهم، بل إن عشقهم له دعاهم إلى ترجمة أساطير غيرهم إلى لغتهم الأم، وهم في مستهل القرن الثالث الهجري.

التجليات الواضحة للفلكلور في العصر العباسي

ما من شك أن الغناء في العصر العباسي، كان هو الصدى الأوضح والأبرز لإفرازات الشعر في الحضارة العباسية، وقد عرف عن الرشيد حسّه المرهف للإصغاء والسماع للشعر والغناء، حتى إنه جعل للمغنيين مراتب وطبقات(٧). وهذا الحس الفني عند الرشيد كان له تأثيره الحضاري المهم في رفع دعائم الثقافة العباسية والشد في دعائم صروح الحضارة العباسية.

إن الحسّ بالجمال يعني معرفة مكامنه، ولا ريب أن الغناء كان قد تُوورث من عهد إلى عهد، ومن عصر إلى آخر، وهو بالضرورة يحمل معه طرائق تأديته، وأساليب منشديه، وكلمات قائليه، وبالنتيجة تكون الروايات الشفهية إحدى القواسم المشتركة بين الحُقب الزمنية المتوالية على الحضارة العربية - الإسلامية، وعليه فإنّ ملامح الفلكلور العباسي تكون قد انتقلت مع انتقال الناس، وكانت واضحة في الغناء بشكل جلي، فقد أوردت المصادر أن الرشيد كان ينزل إلى دجلة ويسمع أغاني الملاّحين ويتلذذ بها، ومن ثم أمر إبراهيم الموصلي وأصحابه أن يضعوا ألحاناً لهذه الأغاني(٨) وبذا يكون الرشيد قد فتح الباب المعرفي - العلمي، المهم في عصره، وأن هذا الإجراء يعني وضع الأسس الأولى لتدوين الفلكلور من جهة، ومن جهة ثانية، حث الناس على حفظه من خلال تناقله على ألسنة المُغنين، والمغنون هم أكثر من غيرهم حملة للفلكلور. كما هو شائع ومعروف، وبذا يكون عهد الرشيد عهد فتح معرفي وثقافي بالنسبة إلى علم الفلكلور.

وقد أدت طبيعة بغداد الجغرافية والمناخية دوراً بارزاً في إظهار معالم الفلكلور البغدادي، وذلك من خلال بعض أزيائها ومأكولاتها ومشروباتها، وشكل تعايش الناس فيما بينهم، وتعليقاتهم اللطيفة واللاذعة، والسارية في التداول حتى اليوم. ومن يطّلع على «حكاية أبي القاسم البغدادي» يدرك تماماً أحوال أهل بغداد في ذلك العصر، من الناحية الفلكلورية(٩)، فعلى سبيل المثال، يذكر صاحب هذه الحكاية وهو- أبو المطهر الأزدي - أنواع الملابس والبيوت في ذلك الوقت، فيقول: «والله ما أرى على بدن واحد - والخطاب موجه إلى أهل أصبهان - ثوباً ديبقياً شقيرياً، ولا دبقاوياً، ولا قيراطياً زهيرياً، ولابفتاً قشيرياً، ولا رداءً عدنياً، ولا تاختج ولا راختج، ولا ثياب قصب سموتّاً، ودسيسياً وتنيسياً ودمياطياً، ولا وشي ديباج بالذهب المنسوج والعنبر الممزوج، حسن التوشيح كأنما نسج من نور الربيع، ولا شغوفاً سينوية كالهواء الرقيق أو كالسراب، أو شتقات قصب معلم مخوم، يمسح بها الفم في المجلس، ولا أرى في بيوتكم ودوركم بيوتاً قد غشيت سقوفها بالساج، وزُيّنت تعاريجها بالأبنوس والعاج، فيها رواق مليح، أو عرضي أو خبري بكمين، فيه إيوان مجنب بيت جنسين، أو بهو مشرف عال، ولا أرى دوركم مفروشة المجلس بالولالي المغربية، والطنافس الخُرشنية، والنخاخ الأندلسية والقرطبية، والمطارح الأرمنية، والقطف الرومية، والمقاعد التسترية، والأنطاع المذهبة المغربية، والنمارق التي ترى البيت منها كأنه قراح منثور، ولا لكم حصر سامان، ولا غبادني يطوي بالعرض، كما تطوى الثياب، ولا أرى والله في عطركم مثلثة برميكة سكرية وجوهرية، وعمارية ولا ذريدة الورد، ولا الغالية العنبرية، ولا الكافورية والصفراء التي لا تؤثر في الثياب»(١٠) ثم يستطرد في حديثه ذاكراً أصنافاً أخرى من الطيب والعنبر وأنواع العطر والشموع والأحذية والخفاف والآنية والأدوات واللباس والخبز والحلوى، والجبن والتوابل وبعض الأكلات البغدادية مثل: الفراريج، وكبود الدجاج، وصدور البط المصنوع بماء التفاح، وماء حب الرمان، والتوت الشامي، ومطجن، وزيريح ومنقورية بالجلاّب، ولب الفستق واللوز والكراويا، والمرّي العتيق، وحماض الأترج، وحماض الليمون، يشم ريح أفاويهها من فرسخ، وسكاريج فيها بُن مقلي، وضحناة ورببثاء فيها مالح القاش ومالح السرة، ومالح ناعم من الشبوط، والبُني، وطريخ مقلي بالبيض، وكبور مُفركة بالبيض الطري، كل ذلك معمول بالكزبرة الحديثة، والزعفران المالح المقمور، وقريض السمك بالخلّ، وسنبوسكج معمول بصدور الدجاج، والدراريج والفراريج محمصة بماء السماق وماء الليمون، وعلى طرف الخوان، فيما بين الزغفان بقل، وقطف على رقاق منعطف»، ثم يستفيض بذكر أنواع الشواء والحلويات، والرز بالحليب وأصنافه، وغيرها من الأطعمة والأشربة»(١١).

وقفة قصيرة متأملة مع هذا النص تكشف أمامنا قوس قزح من ألوان الفلكلور في العصر العباسي، ولا غرو في ذلك، فإن شموخ الحضارة وقتذاك، هي دلائل لا تزال قائمة وشاهدة على فلكلورنا وعلومنا الأخرى.

التدوين والتأليف الفلكلوري في العصر العباسي

في مستهل هذا البحث، كنا قد أشرنا إلى أن الترجمة كان لها الفضل في نقل تراث الأمم والشعوب إلى العربية، وهذا يعني أن الأدباء العرب والمسلمين كانوا اطّلعوا على كنوز الثقافات الأخرى، وبالتالي صار لديهم الحس النقدي لموازنة ثقافاتهم بالثقافات الأخرى الوافدة عليهم.

وثمة ظاهرة مهمة جداً، من الناحية الحضارية والثقافية، برزت في العصر العباسي، وواكبت ظهور الترجمة هي: ظاهرة الوراقة والوراقين(١٢) وقد كان لهذه الظاهرة الدور الأبرز في استنساخ العلوم والآداب ومختلف فنون الثقافة وترويجها، وقد أفرزت ظاهرة الوراقة هذه تخصصاً في أبوابها وأصنافها(١٣) وكان أغلب المشتغلين في هذه المهنة الحضارية هم من الأدباء والعلماء، وقد اختص قسم منهم بوراقة الأسمار والخرافات وتفرغوا لشؤونها تأليفاً وتدويناً، وكانت هذه الأسمار والخرافات مرغوباً فيها جداً، مشتهاة في أيام الخلفاء العباسيين،

نظر العباسيون إلى الثقافة بشمولية واضحة، ولم يغب عن بالهم الفلكلور، بل عشقوه، وترجموا أساطير غيرهم إلى لغتهم

ولا سيما في أيام المقتدر في مطلع القرن الرابع الهجري كما يقول النديم(١٤).

لذلك عمد الوراقون إلى هذا الصنف من القصص والأسمار والخرافات، فصنفوا فيها، وعمدوا إلى الكذب في أمثالها، وقد عرف منهم الوراق ابن دلأن، واسمه أحمد بن محمد، وآخر يعرف بابن عطارّ وجماعته، ومنهم من كان يعمل الخرافات والأسمار على ألسنة الحيوان وغيره، وهم طائفة اشتهر منهم: سهل بن هارون، وعلي بن داود، والعتابي وأحمد بن طاهر(١٥).

وكانت موضوعاتهم في هذا المضمار تدخل في أحاديث السمر، كأخبار العُشاق والحبائب المتطرفات، وأسماء عشاق الأنس من الجن، وعشاق الجن من الأنس، إضافة إلى الموضوعات الخيالية الأخرى لبعض الأسفار والرحل، وتعداد ما في البلدان النائية من الخوارق والنوائب الموهومة، وما اشتهر فيها من خصائص الأودية والجبال، ومزايا النباتات والأشجار، وما زعموا في المسير إليها من الظلمات في البحار، وما يتشعب فيها من البحيرات والأنهار، وقد أشار المسعودي إلى شيء من هذه الخرافات والأقاصيص(١٦).

ولم تقف همة الوراقين عند هذا الحد من الاستنباط والإبداع، بل عمدوا إلى النقل والتعريب، فاستخرجوا طائفة من كتب الروم والفرس والهنود، وقد ذكرها النديم وقال: «إن لابن عبدوس - صاحب كتاب الوزراء والكتاب - كتابًا اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره، وأحضر المسامرين، فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه وكان فاضلاً، فاجتمع له من ذلك أربع مئة ليلة، وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأكثر، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه ألف سمر(١٧).

ومن الذين دأبوا على وراقة الأسمار والخرافات ابن أبي الزهر الورّاق، واسمه أحمد بن يوسف، المعروف بالطرائقي، حلبي الأصل وانتقل إلى دمشق، وفتح دكان وراقة له في باب جيرون(١٨). وكان الطرطوسي الوراق أحد جمّاعي الطرائف والنوادر في بغداد(١٩).

فيما يختص الفضل بن العباس الوراق بنقل الأخبار وروايتها، فقد ذكرت المصادر أنه كان من جملة الإخباريين الذين تخصصوا بهذا الفن وهم:(٢٠)

عيسى بن يحيى، وأبو محذورة الوراق، وغانم الوراق، وعثمان الوراق، وعلي بن الحسين المروزي، ومطير الوراق، وعبدالله بن عمر، وعيسى بن الحسين، وأبو الحسن محمد بن علي الوراق الأنطاكي المعروف بابن الغنوي الفقيه، وإبراهيم بن محمد، وابن أبي المدوّر.

لقد أغنى هؤلاء الوراقين المكتبة العربية بكتب الفلكلور نقلاً وتدوينًا، وهو أمر يشير إلى مدلولاته المعرفية والحضارية، فهذا الجانب من المعرفة، كان أحد المصادر الأساسية في ثقافتنا العربية والإسلامية، وهو منهل رئيس، انتبه إليه العرب في عصر التدوين، وقد كان للجاحظ علامات السبق في ذلك، على بقية الكتاب العرب والمسلمين. فقد تناثرت شذرات فلكلورية في كتاباته المختلفة، كالبيان والتبيين، والحيوان، وبعض الرسائل، مما أغرى معاصريه ولاحقيه أن ينحوا منحاه في تضمين الكثير من نوادرهم بعض الأحاجي والقصص، من أمثال التوحيدي، في كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، وأبي علي القالي في «النوادر»، وابن الجوزي في «أخبار الحمقى والمغفلين» وغيره من كتاب مؤرخي الفترة العباسية، وليس ذلك فحسب، بل استفادت الحركات الفكرية في ذلك الوقت في توجيه الفولكلور لخدمة قضاياها السياسية، فهؤلاء إخوان الصفاء يوظفون الفولكلور في «رسائلهم» ذات النزعة الفلسفية(٢١). بغية العمق في التأثير في المتلقي، وقد أفلحوا في الكثير من ذلك، فانظر لكون هذا الفلكلور نابعًا من حياة هذه الأمة ومتشبعًا في وجدانها.



«حكاية أبي القاسم البغدادي» شملت أنواعًا عديدة من التوابل والمكسرات

الإحالات والهوامش:

١- للاستزادة في معرفة أسلوب الجاحظ - راجع - شارل بيللا - «النثر العرب في بغداد»، مقال منشور في مجلة «المورد العراقية»، العدد ٤، المجلد ٨ لعام ١٩٧٩م، ص٤٨٧.
وراجع كذلك كتاب شفيق الجبري «الجاحظ معلّم العقل والأدب».
٢- النديم، «الفهرست»، ص١٧٤، الطبعة المصرية، وراجع كذلك د. أحمد فريد، عصر المأمون ١/٣٧٥، ط٢، طبعة القاهرة، ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م.
٣- راجع تفاصيل ذلك عند ابن أبي أصيبعة، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، ص٢٥٩، ضمن ترجمة حنين بن إسحاق، تحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٦٥م.
٤- طبقات الأطباء، ص٢٦٠.
٥- عصر المأمون ١/٣٨٨-٣٩٠.
٦- المرجع السابق، ١/٣٩٢.
٧- انظر «التاج في أخلاق الملوك»، المنسوب للجاحظ، ص٣٧ - ٣٩ بعناية أحمد زكي باشا، ط١، القاهرة سنة ١٣٢٢هـ/١٩١٤م.
٨- انظر «الأغاني» لأبي فرج الأصبهاني، الجزء الأول، فصل «الأصوات العشرة»، طبعة دار الكتب المصرية - ط١، القاهرة، ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م.
٩- حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المطهر الأزدي، ص٦ - ٢٥ بعناية آدم ميتز، طبعة هايدلبرج سنة ١٩٠٢م.
١٠- المصدرالسابق، ص٣٥ - ٣٦.
١١- المصدرالسابق نفسه، ص٣٨ - ٣٩، وانظر بقية الأصناف على الصفحات التالية.
١٢- أنهينا دراسة مطولة في هذا الجانب، وأصبحت موسوعة، تضم بين دفتيها أكثر من ألفين صفحة، قسمت إلى ثلاثة أجزاء، أطلقنا عليها اسم «وراقو بغداد في العصر العباسي» والموسوعة قيد الإصدار.
١٣- سيجد القارئ في دراستنا أعلاه أكثر من عشرة أصناف لهؤلاء الوراقين.
١٤- الفهرست، ص٤٢٨، الطبعة الرحمانية المصرية.
١٥- المصدر السابق، المكان نفسه.
١٦ المسعودي، مروج الذهب، ١/١٣٧، الطبعة الأولى، راجع كذلك حبيب زيات «الوراقة والوراقون في الإسلام»، ص٣٩، بحث منشور في مجلة المشرق لعام ١٩٤٧م. وطبعته المطبعة الكاثوليكية بيروت عام ١٩٤٧م.
١٧- الفهرست، ص٤٢٣، وحبيب زيات، ص٤٠.
١٨- حبيب زيات، ص٣٧.
١٩- المرجع السابق.
٢٠- الأغاني ٥/٢٠، ٧/٢٣٨ - ترجمة السيد الحميري - وحبيب زيات، ص١٨.
٢١- راجع رسالة رقم ٢٢ من رسائلهم الجزء الثاني، طبعة خير الدين الزركلي - الطبعة المصرية ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

قراءة أولية في بعض وظائف الإعراب الدلالية والتركيبية

رشيد بلحبيب

الإعراب كيان ذهني إدراكي يتصل بعقلنا، ويتطلب من منشئ الكلام وقارئه حضورًا واعيًا يواكب عملية الإنشاء، والقراءة بما تنطوي عليه هذه العملية من تفكير في المضمون تبلغ سرعتها لدى المنشئين والقارئين درجة يتوهمون معها أنهم في مراعاتهم للإعراب إنما يقومون بعمل حدسي سليقي يتيح لهم أن يتفرغوا لمضمون الكلام.

هذه الحقيقة، حقيقة الإعراب من شأنها أن تجعل علاقة العقل بالإعراب علاقة خاصة مختلفة عن علاقته بالمفردات والبنى التركيبية، وتجعل دخول العقل في عملية مراعاة الإعراب عنصرًا رئيسًا تكاد تنحصر فيه علاقة العقل بالإعراب(١).

وقبل التطرق إلى العناصر المكونة لهذا الموضوع أود أن أشير إلى أنّ الإعراب مكوّن أساسي من مكونات العربية، وهو دليل على عبقرية اللغة وشجاعتها كما يقول ابن جني. وهو من المقومات الذاتية والحضارية لها، وقد بلغ من أهميته ما جعل علماء العربية يحصُرون النحو فيه، يقول الخليل بن أحمد: «هذا كتاب فيه جملة الإعراب إذ كان جميع النحو في الرفع والنصب والجر والجزم»(الجمل ص٣٣)، بل إن بعض العلماء كانوا يؤثرون استعمال مصطلح (علم الإعراب) عوضًا عن علم النحو، فقد اشترط الزمخشري ألا يقدم الناظر في كتاب الله تعالى عليه إلا إذا كان فارسًا في علم الإعراب، لأن الإعراب - كما يقول محمد بن الحسن الشيباني - «أجدى من تفاريق العصا... وهو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن..».

ولما كان الإعراب بهذه المنزلة المتعددة الوظائف دليلاً على المعاني، ومحرّكًا لمكونات الجملة تقديمًا وتأخيرًا، آثرت أن أقف منه على جانبين: جانب دلالي، وجانب تركيبي.

الجانب الدلالي

كان النحو العربي منذ نشأته الأولى مهتمًا بالمعنى، يعتد به وبدوره في التقعيد، وهناك تفاعل قائم مستمر بين الوظيفة النحوية والدلالة المعجمية للمفرد.

ويشكل هذا التفاعل بينهما مع الموقف المعين، المعنى الدلالي للجملة كلها.

ففي الفترة المبكرة للنحو العربي كان أتباع مدرسة الكوفة يقولون عن سيبويه: إنّه: «عمل كلام العرب على المعاني، وخلّى عن الألفاظ»(٢) أي: إنه أولى الجانب الإدراكي رعاية واهتمامًا على حساب الجانب الصوتي، وعلى هذا فكل بحث خاص بالنحو واللغة إنما هو بحث في الدلالات كما يقول ابن جني(٣).

إن النحويين العرب يعوّلون على المعنى تعويلاً كبيرًا، ويمثل التفاتهم إلى المعنى عامة، والمستوى الداخلي خاصة، ملحظًا ثابتًا يفزعون إليه، ويصدرون عنه في التفسير النحوي، واستيعاب أمثلة ذلك في كتبهم متعذرة كثرة واستفاضة(٤).

فقد جرد المبرد هذا المبدأ تجريدًا غير ملتبس إذ اعتمد المعنى فيصلاً في تصحيح النحو، فذهب إلى أن «كل ما صلح به المعنى فهو جيد، وكلّ ما فسد به المعنى فمردود»(٥).

ومن أصولهم «الزيادة في المبنى زيادة في المعنى». والمعنى عندهم حكم فيما يجوز وما لا يجوز، فمن ذلك أن ابن السراج يذهب إلى أنه «لا يجوز أن نستثني النكرة من النكرات في الموجب، لا تقول: جاءني قوم إلاّ رجلاً لأن هذا لا فائدة في استثنائه»(٦).

كما أنهم منعوا الابتداء بالنكرة لعدم إفادتها(٧).

إن الإشارات المقتضبة التي أوردتها تبيّن إلى حد ما علاقة النحو بالدلالة عند النحاة، ولعل ما يعيب هذه الجهود أنها كانت، وما تزال متناثرة موزعة هنا وهناك.

ولهذا حكم مصطفى ناصف على تصور النحو العربي لمسألة المعنى: «بأنه ما يزال من الأمور المهملة التي عزف عنها الدارسون المحدثون لصعوبتها(٨).

الإعراب والدلالة

لقد ترددت عبارة «الإعراب فرع المعنى - بشكل مكثف - في مصادر العربية»(٩) وهي واحدة من جوامع الكلم «لأن كل تحليل لا يكون عند فهم المعنى الوظيفي لكل مبنى من مباني السياق، أما المعنى المعجمي فلا يصدق عليه «الإعراب فرع المعنى»(١٠)، وذلك لأن التمسك بصحة المعنى يؤول لصحة الإعراب(١١)، ولعل هذا ماجعل د. مازن المبارك يقول: «وتتصف هذه التعليلات أيضًا بأنها تلتزم موافقة الإعراب للمعنى، فلم يكن للنحوي أن يجيز وجوهًا من الإعراب متعددة دون مراعاة اختلاف المعنى، بله الخروج عنه، وهذا الاستهداف للمعنى، والحرص على سلامته هو الذي دفع الخليل إلى القول: «والموضع موضع نصب لأن المعنى معنى النصب»(١٢).

فقد فرقت العرب بين العمد والفضلات بالحركات، فجعلت الرفع للعمد، والنصب للفضلات(١٣) كما جعلت الاختلاف في الحركات سبيلاً إلى اختلاف في المعنى.

إن النحوي قد ربط الدلالات بالإعراب، فاهتم بالجانب الإعرابي لتحصين المعنى، ولوضع ضوابط لغوية أساسية للجانب الدلالي، ولما كانت النصوص التي دلت على العلاقة بين العلامات الإعرابية والمعاني كثيرة جداً، والإلحاح فيها على وظيفة العلامات واضح وأكيد، كان إيراد بعض هذه النصوص ضرورياً، وإليك بعض النماذج:

لقد حاول النحاة التدليل على موقع الإعراب من المعنى ودلالته ع النصوص التي سبق ذكرها، والتي تعود إلى أزمنة مختلفة تؤكد أن ا الحركات والمعنى كانت من قبيل المسلمات، أليسوا قد ذكروا في سبب و أن أبا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يقرأ: أنّ الله بريءٌ من المشركين ورسولِه. بكسر اللام «ورسوله»(١٤)؟.

فالكلام واحد، ولم يتغير فيه إلا حركة اللام، فإذا حركت بالكس الكفر، وإذا حركت بالرفع أدى إلى معنى، مستقيم لا كفر فيها، فهل كانوا وهم يرون أن حركات الإعراب لا تدل على معنى ولا أثر لها في تصوير المفه

النص	صاحبه	مصدره
ـ الإعراب إنما دخل الكلام دليلاً على المعاني.	الزجاجي (٣٤٠هـ).	الإيضاح: ٧٦.
ـ والإعراب إنما دخل الكلام ليفرق بين الفاعل والمفعول به، والمالك والمملوك، والمضاف إليه، وسائر ما يعتور الأسماء من المعاني.	الزجاجي.	الجمل: ٢٦٠.
ـ الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيدٌ أباه، وشكر سعيداً أبوه، علمت، برفع أحدهما ونصب الآخر، الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجاً واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه.	ابن جني (٣٩٢هـ).	الخصائص: ١/ ٣٥.
ـ الإعراب هو الفرق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرَف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد.	ابن فارس (٣٩٥هـ).	الصاحبي: ٧٦، المزهر: ١/
ـ أما الإعراب فبه تُميّز المعاني، ويُوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلاً لو قال: ما أحسن زيد غير معرب، أو ضرب عمرو زيد، غير معرب، لم يوقف على مراده، فإذا قال: ما أحسن زيداً، وما أحسن زيدٌ، وما أحسنُ زيد أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرهم، فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني.	ابن فارس	البرهان، ١/ ٣٠١.
ـ قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه.	عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ).	الدلائل ٢٨، المقتصد، ١/ ٠
ـ إن الإعراب دليل على المعاني التي تلحق الاسم نحو كونه فاعلاً، أو مفعولاً، أو غير ذلك.	السهيلي (٥٨١هـ).	نتائج الفكر، ٨٢.
ـ إن كل واحد من وجوه الإعراب دال على معنى، كما تشهد لذلك قوانين علم النحو.	السكاكي (٦٢٦هـ).	مفتاح العلوم، ٢٥١.
ـ الإعراب أصل في الأسماء؛ لأنه يفتقر إليه للتفرقة بين المعاني.	ابن عصفور (٦٦٩هـ).	الأشباه والنظائر، ١/٢٧٨.
ـ الإعراب عند المحققين من النحويين عبارة عن المجعول آخر الكلمة مبيناً للمعنى الحادث فيها بالتركيب.	ابن مالك (٦٧٢هـ).	الأشباه والنظائر، ١/٨٧.
ـ وهذا التغيير في الحركات إنما قصد به في الأصل الدلالة على المعاني من الفاعلية والمفعولية والإضافة.	ابن أبي الربيع (٦٨٨هـ)	البسيط، ١/١٧٢ ـ ٥٨١.
ـ اختص الإعراب بالأواخر؛ لأنه دليل على المعاني اللاحقة للمعرب، وتلك المعاني لا تلحقه إلا بعد تحصيله، وحصول العلم بحقيقته.	ابن القيم (٧٥١هـ).	بدائع الفوائد، ١/٣٤.

وكذلك لو قال قائل: «ما أحسن زيدْ» ولم يبين الإعراب في ذلك لما علمناه منه، إذ يحتمل أن يريد به التعجب من حسنه أو يريد به الاستفهام عن أي شيء منه أحسن، ويحتمل أن يريد به الإخبار بنفي الإحسان عنه، ولو بيّن الإعراب في ذلك فقال: «ما أحسنَ زيداً»، و«ما أحسنُ زيدٍ» علمنا غرضه، وفهمنا مغزى كلامه، لانفراد كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة بما يعرف به الإعراب، فوجب بذلك معرفة النحو، إذ كان ضابطًا لمعاني الكلام، حافظًا له من الاختلاف(١٦).

ولعل هذا ما جعل أبا الأسود الدؤلي يرد على ابنته حين سألته بقولها: أبتاه ما أجملُ السماء (بالرفع) بقوله: أي بنية نجومُها، فقالت: ما هذا أردت، إنما أردت التعجب من حسنها قال: فقولي: ما أجملَ السماءَ!(١٧) بالفتح.

وما كانت العرب لتجزع من اللحن في الإعراب لو لم يكن مؤديًا إلى فساد المعنى، لقد كان إقبال العلماء على إعراب النصوص إدراكًا منهم أن المعنى لا يمكن أن يفهم إلا بعد إعراب التراكيب المشتملة عليه، «لأن إعراب نصّ ما يتوقف على وظائف الأصوات، ووظائف المباني، ووظائف القرائن، ونظام العلاقات كما يقرر تمام حسان»(١٨).

وتحدُدُ فيه العلامات الإعرابية المقصود، يقول الخضري: «واعلم أن المعنى يختلف بالرفع والنصب، لأن النصب نص في المعية، والرفع لمطلق الجمع... فإن قصدت المعية نصًا فالنصب، أو إبقاء الاحتمال والإبهام فالرفع، أولم يقصد شيء جاز الأمران...»(١٩).

لقد كان إعراب النصوص مدخلاً طبيعيًا وأساسيًا لفهم المضامين، ولذلك تضم المكتبة اللغوية عددًا كبيرًا من هذه النصوص المعربة من جملتها إعراب الحديث للعكبري(٢٠)، وإعراب لامية العرب الموسوم «بأعجب العجب» للزمخشري(٢١) وإعراب لامية العجم للشيخ المكي البطاوري(٢٢).

كما أفرد إعراب القرآن بالتأليف خلائق من أمثال الفراء، والأخفش، والزجاج، والنحاس وابن خالويه، والعكبري، وأبي حيان... وكتبهم مطبوعة متداولة.

وقد كانت مقدمات هذه الكتب تشير إلى ضرورة هذا الأمر، يقول القيسي: «ورأيت من أعظم ما يجب على طالب علوم القرآن، الراغب في تجويد ألفاظه، وفهم معانيه... معرفة إعرابه، والوقوف على تصرف حركاته وسواكنه ليكون بذلك سالمًا من اللحن فيه، مستعينًا على أحكام اللفظ به، مطلعًا على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات، متفهمًا لما أراد تبارك وتعالى به عباده، إذ بمعرفة حقائق الإعراب تعرف أكثر المعاني، وينجلي الإشكال، وتظهر القواعد، ويفهم الخطاب، وتصح معرفة حقيقة المراد»(٢٣).

وما ذلك إلا لأن الإعراب يميز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين(٢٤).

وقد تحدث النحاة عن الشروط التي يجب توافرها في المقبل على الإعراب، وعما يجب على المعرب مراعاته، فأول واجب على المعرب أن يفهم معنى ما يعربه مفردًا أو مركبًا قبل الإعراب فإنه فرع المعنى(٢٥).

قال ابن هشام: «وأنا مورد ـ بعون الله ـ أمثلة، متى بني فيها على ظاهر اللفظ، ولم ينظر إلى موجب المعنى حصل الفساد، وبعض هذه الأمثلة وقع للمعربين فيه وهم بهذا السبب، من ذلك مثلاً ما حكاه بعضهم من أنه سمع شيخًا يعرب لتلميذه «قيّمًا» من قوله تعالى: ولم يجعل له عوجًا قيّمًا.الكهف: ١ ـ ٢. صفة لـ «عوَجًا» قال: فقلت: يا هذا كيف يكون العوج قيّمًا؟ وترحمت على من وقف من القراء على ألف التنوين في عوجًا وقفة لطيفة دفعًا لهذا التوهم، وإنما «قيمًا» حال إما من اسم محذوف هو وعامله، أي أنزله قيمًا، وإما من الكتاب(٢٦).

وذكر ابن هشام من الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها أن يراعي ما يقتضيه ظاهر الصناعة، ولا يراعي المعنى، وكثيرًا ما تزل الأقدام بسبب ذلك(٢٧).

ومنه ألا يتأمّل عند وجود المشتبهات(٢٨).

وذلك؛ لأن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحركات، كما يقرر السيرافي(٢٩).

أما المعاني التي تدل عليها الحركات الإعرابية فهي معان مطلقة يقول العلوي: «فالنظر في علم الإعراب إنما هو نظر في حصول مطلق المعنى، وكيفية اقتباسه من اللفظ المركب، فلا بد من الإحاطة بصحة التركيب ليأمن الخلط في تأدية المعاني وتحصيلها»(٣٠).

بمعنى أن الإعراب في المرحلة الأولى يحدد المعاني التي يؤديها التركيب بعيدًا عن أي غرض جزئي، فلا تفهم منه معنى فقهيًا، أو معنى أصوليًا، وإنما يفهم الفاعلية والمفعولية والإضافة، فهذه المعاني الثلاثة تنحصر فيها كل المعاني، ومنها تؤخذ جميع الدلالات، فمعرفتها مقدمة على غيرها.

وهذا الفهم والتمييز بين المعنى المطلق والمعنى الخاص هو الذي جعل النحويين المفسرين يهتمون بإعراب النص القرآني، وكأنهم يريدون حصر المعاني القرآنية في المعاني النحوية الإعرابية، ليسهل على غيرهم الانتفاع بها، أو بتعبير آخر كانت مرحلة إعراب القرآن مرحلة تأسيسية بالنسبة إلى التفاسير اللاحقة المعنونة بالتفسير بالرأي(٣١).

كلما اقتربنا بلغتنا من اللغة الأدبية المميزة ازداد الإعراب في كلامنا، وتنوعت حالاته

أما قول القائلين بفهم المستمع للكلام غير المعرب، واستنادهم إلى ذلك لنفي الوظيفة الدلالية للعلامات، فهو أمر ـ إن كان مقبولاً في الكلام المتعارف المشهور ـ لا يثبت عند النظر في النصوص الأدبية الرفيعة، يقول الزجاجي: «فأما من تكلم من العامة بالعربية بغير إعراب فيفهم عنه، فإنما ذلك في المتعارف المشهور، والمستعمل والمألوف بالدراية، ولو التجأ أحدهم إلى الإيضاح عن معنى ملتبس بغيره من غير فهمه بالإعراب لم يمكن ذلك، وهو أوضح من أن يحتاج إلى الإطالة فيه»(٣٢).

وقد أدرك ريمون طحان بعض هذا في قوله: «ولئن ألفنا الآن الاعتماد على مواقع الكلمات في اللغة العربية، وأخذنا نقوم أحيانًا دون العودة إلى الحركة بالقرائن الخلاقة التي تنقل إلينا بسرعة ما يمكن أن يولده النص من أرجاع ذهنية تساعدنا على فهم ما نقرأ فهمًا صحيحًا، وعلى نقده وتحليله، إننا لا نزال نستأنس بالحركة عندما يغلق المعنى علينا، ويحدث اللبس»(٣٣).

إذن ثمة تناسب مطرد بين مستوى اللغة الكتابية والإعراب الذي يدخلها، بمعنى أننا كلما اقتربنا بلغتنا من اللغة الأدبية المميزة ازداد الإعراب في كلامنا، وتنوعت حالاته، أي: كان فيه ـ على ما يسميه أحمد حاطوم ـ «الإعراب الدلالي»، أو «الوظيفي»، وما يسميه «الإعراب الجمالي» ـ ما يتناسب مع اقتراب العبارة من الدرجة العليا في السلم، أي من المستوى الأدبي الذي ينقسم الكلام معه إلى نثر، وشعر، وقرآن(٣٤).

إن علاقة الإعراب بالدلالة علاقة لا يمكن تجاهلها، فالإعراب من جملة العناصر المكونة للدلالة الفاعلة في المعاني النحوية.

ومع كون الإعراب بهذه القيمة، وبهذا الحضور الدلالي المتميز في التركيب العربي، إن العبارة قد تستغني عنه إذا اتضح المراد، وتترخص فيه إذا أمن اللبس.

أمن اللبس والترخص في الإعراب

لقد جعل النحويون العدول عن أصل وضع الجملة بواسطة الحذف، أو الإضمار، أو الفصل، أو تشويش الرتبة بالتقديم والتأخير، أو التوسع في الإعراب من باب «الترخص عند أمن اللبس».

ومن أشكال العدول عن أصل من الأصول العدول عن الإعراب، ذلك أن من الأصول العربية الدلالة بالحركات على المعاني، فإذا استهدينا بهذا الأصل وجب أن نرى

في هذه العلامات الإعرابية إشارة إلى معان يقصد إليها، فتجعل تلك الحركات دوالّ عليها، وما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات، ويحرصوا عليها ذلك الحرص كله، وهي لا تعمل في تصوير المعنى شيئًا، بل لقد كانت حارسًا لأمن اللبس في النظام والسياق معًا(٣٥).

يقول السيوطي: «إنما وضع الإعراب في الأسماء ليزيل اللبس الحاصل فيها باعتبار المعاني المختلفة عليها، ولذلك استغني عنه في الأفعال والحروف والمضمرات والإشارات والموصولات لأنها دالة على معانيها بصيغها المختلفة، فلم يحتج إليه، ولما كان الفعل المضارع قد تعتوره معان مختلفة كالاسم دخل فيه الإعراب ليزيل اللبس عند اعتوارها، ومنه رفع الفاعل ونصب المفعول فإن ذلك لخوف اللبس منهما لو استويا في الرفع أو في النصب، ثم وضع للبس ما يزيله، إذا خيف، واستغني عن لحاق نحوه إذا أمن»(٣٦).

إن العرب مجمعون على رفع الفاعل، ونصب المفعول به إذا ذكر الفاعل إلا أنه قد جاء الفاعل منصوبًا والمفعول مرفوعًا إذا أمن اللبس، يقول ابن مالك:

ورفع مفعول به لا يلتبس

ونصب فاعل أجز ولا تقس(٣٧).

قال ابن الطراوة: «بل هو مقتبس، ومنه في القرآن الكريم: فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ. البقرة:٣٦. فابن كثير وهو القارئ المكي من القراء السبعة ينصب «آدمَ» ويرفع «كلماتٌ»(٣٨).

وقد كان ابن الطراوة يقول: «إذا فهم المعنى فارفع ما شئت، وانصب ما شئت، وإنما يحافظ على رفع الفاعل، ونصب المفعول إذا احتمل كل واحد منهما أن يكون فاعلاً وذلك نحو: «ضرب زيدٌ عمرًا» لو لم ترفع «زيدٌ»، وتنصب «عمرًا» لم يُعلم الفاعل من المفعول(٣٩).

وقد أوردت مصادر النحو عددًا من الأبيات الشعرية وقع فيها الترخص في الإعراب، يقول الزجاجي: «وقد جاء في الشعر شيء قُلب فصيِّر مفعوله فاعلاً، وفاعله مفعولاً على التأويل ضرورة، وأنا أذكر لك منه شيئًا، يستدل به على ما يرد عليك منه في الشعر، فتعرف وجهه ولا تنكره، فمنه قول الشاعر:

مثلُ القنافذ هدّاجون قد بلغت
نجران أو بلغت سوءاتهم هجرُ

فقلب الفاعل فصار مفعولاً؛ لأن السوءات هي التي تبلغ هجر، فنصبها، ورفع هجر.

ومنه قول الآخر:

قد سالم الحياتُ منه القدما

الأفعوانَ والشجاع الشجعما

لأن المسالة لا تكون إلا من اثنين، ومن سالم شيئًا فقد سالمه الآخر؛ لأنه مثل المقاتلة والمضاربة ... فجعل الحيات فاعلات، فرفعها بالمسالمة ثم نصب الأفعوان والشجاع.. فجعلها مفعولات لأنها مسالمة كما أنها مسالمة(٤٠).

وقد جعل ابن هشام هذا الترخص من ملح كلامهم قال: «من ملح كلامهم تقارض اللفظين في الأحكام»(٤١) كإعطاء الفاعل إعراب المفعول وعكسه عند أمن اللبس مثل: «خرق الثوبُ المسمارَ» و«كسر الزجاجُ الحجرَ»، وأورد مجموعة من الأبيات من بينها:

إن من صاد عقعقا لمشوم

كيف من صاد عقعقان وبومُ

وفيه رفع الفاعل والمفعول معًا(٤٢).

إذن، فمتى حصل المراد، واتضح المعنى أمكن الترخص في الإعراب، وإذا كان الإعراب فاعلاً في المعنى فلا شك أن له وظيفة جوهرية في التركيب، تتمثل في الحرية التي يتيحها لمكونات الجملة، فتتقدم وتتأخر، وتحتل من المواطن ما تشاء، ثم تصير الجملة عند غيابه حجرات جامدة، فتصبح الرتبة محفوظة مقيدة.

الجانب التركيبي

أما الجانب التركيبي فسوف أقتصر فيه على الحديث عن دور الإعراب في حرية الحركة تقديمًا وتأخيرًا.

دور الإعراب في حرية الرتبة

إن وجود إعراب غنيٍّ بالحالات يُعفي من الاعتماد على قواعد الترتيب، وعلى العكس من ذلك يجب أن تكون هناك قواعد دقيقة لترتيب الكلمات عندما لا يوجد أي عنصر من عناصر الإعراب ـ هناك تجاذب بين الرتبة والإعراب، فاللغات غير الإعرابية تكون الرتبة غالبًا فيها مُحدِّدة للوظيفة التركيبية، بينما في اللغات الإعرابية لا نحتاج إلى الرتبة.

وقد تنبه عدد من العلماء قديمًا وحديثًا إلى الإمكانية التي تتبعها ظاهرة الإعراب في اللغة العربية من المقدرة على حرية الحركة، وتعدد الأماكن التي يمكن أن يحتلها كل جزء من أجزاء الجملة، يقول الزجاج: «إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني، فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافًا إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلّة على هذه المعاني جُعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني، فقالوا: «ضرب زيدٌ عمرًا» فدلوا برفع زيد على أن الفعل له وبنصب عمرو أن الفعل واقع به، وكذلك سائر المعاني.. ليتسعوا في كلامهم، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعاني(٤٣).

علاقة الإعراب بالدلالة لا يمكن تجاهلها، فالإعراب من جملة العناصر المكونة للدلالة الفاعلة في المعاني النحوية

وأكد ابن جني الفكرة نفسها بقوله: «باب القول على الإعراب: هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت: «أكرم سعيدٌ أباه»، و«شكر سعيدًا أبوه» علمت برفع أحدهما ونصب الآخر، الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجًا واحدًا لاستبهم أحدهما من صاحبه»(٤٤).

والتزام الرتبة بوصفها بديلاً عن العلامة الإعرابية في تمييز العناصر يؤدي عند ابن يعيش إلى تضييق المذهب، والحد من الاتساع، يقول: «الإعراب الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلام لتعاقب العوامل في أولها، ألا ترى أنك لو قلت: ضرب زيْد عمرْو بالسكون من غير إعراب لم يُعلم الفاعل من المفعول، ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيُعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب، ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب، ألا ترى أنك تقول: ضرب زيدٌ عمرًا، وأكرم أخاك أبوك، فيعلم الفاعل برفعه والمفعول بنصبه سواء تقدم أو تأخر، فإن قيل: فأنت تقول: ضرب هذا هذا، وأكرم عيسى موسى، وتقتصر في البيان على المرتبة؟ قيل: هذا شيء قادت إليه الضرورة لتعذر ظهور الإعراب فيهما، ولو ظهر الإعراب فيهما أو في أحدهما، أو وُجدت قرينة معنوية أو لفظية جاز الاتساع بالتقديم والتأخير نحو: ضرب عيسى زيدٌ، فظهور الرفع في زيد عرّفك أن عيسى مفعول، ولو لم يظهر فيه الإعراب، وكذلك لو قيل: أكل كُمَّثْرَى عيسى جاز تقديم المفعول لظهور المعنى، لسبق الخاطر إلى أن الكثرى مأكول، وكذلك لو ثنيتهما أو أحدهما جاز التقديم والتأخير، فتقول: ضرب الموسيان العيسيين، وضرب عيسى الكريمَ موسى، فحينئذ يجوز التقديم والتأخير في ذلك كله لظهور المعنى بالقرائن»(٤٥).

وقد نقلت هذا النص على طوله؛ لأنه واضح الدلالة على تعاون العلامة الإعرابية والرتبة فيما سماه ابن يعيش بالاتساع، وهذا الاتساع بالتقديم والتأخير الذي مكن بناء الجملة العربية من الغنى والتنوع(٤٦) من مثل ما نجده في الشعر والنثر على حد سواء،

وكذلك في القرآن الكريم يقول تعالى:

إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ. **فاطر**:٢٨.

أنّ الله بريءٌ من المشركين ورسولُه. **التوبة**:٣.

وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه. **البقرة**:١٢٣.

وإذا حضر القسمةَ أولو القربى. **النساء**:٨.

يقول يوهان فك: فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حيًا، ولا يزال يقوم مقام الرتبة، ويتيح حرية ملحوظة(٤٧).

فحركات الإعراب هي التي أتاحت للعربية مثل هذه المرونة التي يستفيد منها الناثر والشاعر كلاهما، يقول العقاد: «فهذا الإعراب المفصل في هذه اللغة الشاعرة هو آية السليقة الفنية في التراكيب العربية المفيدة، ولها بعد ذلك مزية تجعلها قابلة للتقديم والتأخير في كل وزن من أوزان البحور؛ لأن علامات الإعراب تدل على معناها كيفما كان موقعها من الجملة المنظومة، فلا يصعب على الشاعر أن يتصرف بها دون أن يتغير معناها إذ كان هذا المعنى موقوفًا على حركتها المستقلة الملازمة لها، وليس هو بالموقوف على رصّ الكلمات كما ترصّ الجمادات»(٤٨).

حركات الإعراب تتيح للعربية مرونة في التقديم والتأخير يستفيد منها الناثر والشاعر

ويجعل التزام الرتبة قيدًا يكبل عملية الإبداع، يقول: «ولا يستقيم هذا النسق لشاعر ينظم بغير اللغة العربية؛ لأن الترتيب الآلي يقيده بموضع لا يتعداه»(٤٩).

وهذا القيد هو الذي أفلتت منه العربية بفضل مزية الإعراب فيها، وقد تنبه فندريس لأن من اللغات ـ ومنها العربية ـ لغات فيها النحو نظام إجباري، ولا تتأثر العلاقات المنطقية التي بين كلمات الجملة في شيء إذا غيرنا وضعها، تقول العربية: يضرب زيدٌ عمرًا، أو يضرب عمرًا زيد، أو عمرًا يضرب زيدٌ دون أن يؤدي ذلك إلى تردد في معرفة الفاعل والفعل والمفعول(٥٠).

إذن بفضل الإعراب يستطيع الكاتب أو المتحدث أن يتصرف في الجملة، فيراعي دواعي التقديم والتأخير دون أن يبقى أسيرًا للحجرات الثابتة، فأنت ـ ما دامت للألفاظ رموزها ـ تستطيع أن تتصرف في وضعها الموضع الذي يمليه عليك المعنى، أو يشاؤه لك فنك، أو مزاجك، أو موسيقى كلامك(٥١).

فالتقديم والتأخير ظاهرة مسموح بها في لغة لها ما يضبط حركة ألفاظها ووظائفها داخل التركيب، ذلك أنك سواء قدمت أو أخرت، تظل مرتبطًا بهذا الضابط الذي هو الإعراب(٥٢)، فالمفعول يقدم، ويظل مفعولاً؛ لأنه منصوب، والفاعل يقدم على المفعول، ويظل فاعلاً؛ لأنه مرفوع.

أما إذا انتفى الإعراب اللفظي في الفاعل والمفعول معًا، مع انتفاء الدالة على تمييز أحدهما من الآخر وجب تقديم الفاعل؛ لأنه إذا انتفت العلامة الموضوعة للتمييز بينهما.. والقرائن اللفظية والمعنوية التي قد توجد في بعض المواضع دالة على تعين أحدهما من الآخر فسيلزم كل واحد مركزه ليعرفا بالمكان الأصلي(٥٣).

يقول ابن جني: «فإن قيل: فقد تقول: ضرب يحيى بُشرى فلا تجد هناك إعرابًا فاصلاً، وكذلك نحوه؟ قيل: إذا اتفق ما هذا سبيله مما يخفى في اللفظ حاله، ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول ما يقوم مقامه بيان الإعراب(٥٤).

وعلى هذا الأساس قال العكبري في إعراب قوله تعالى: أنْ تَضِلَّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى. البقرة:٢٨١. إحداهما للفاعل، والأخرى للمفعول، يصح في المعنى العكس إلا أنه يمتنع في الإعراب على ظاهر قول النحويين، لأن الفاعل والمفعول إذا لم تظهر فيهما علامة الإعراب أوجبوا تقديم الفاعل في كل موضع يخاف فيه اللبس، فعلى هذا، إذا أمن اللبس جاز تقديم المفعول كقولك: كسر العصا عيسى(٥٥).

ويؤمن اللبس بالقرائن اللفظية كالإعراب الظاهر في تابع أحدهما أو كليهما نحو: ضرب موسى عيسى الظريفُ، واتصال علامة الفاعل بالفعل نحو: ضربتْ موسى حُبلى، أو اتصال ضمير الثاني بالأول نحو: ضرب فتاه موسى، ونحوه.

أو بالقرائن المعنوية نحو: أكل الكمثّرى موسى، واستخلف المرتضى المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونحو ذلك.

لقد اتضح بما لا مجال للشك فيه أن للإعراب دورًا تركيبيًا واضحًا يتمثل في حرية الرتبة في العربية، وأن احترام الرتبة يصير ضروريًا عند غياب هذه العلامات، وفي هذا تنبيه على أن التقديم والتأخير وحريتهما في الجملة مرتبطان بالإعراب، وأنه لا تقديم ولا تأخير عند غياب هذا الضابط.

وفي الختام نسجل أن موقع الإعراب من التركيب والدلالة مكين، وأن بقاءه في العربية رمز قوة وذكاء وشجاعة واستمرار، وأن غياب هذه الحركات أو تغييبها هو قتل للعربية، وتضييع لأخص خصائصها، وتدميرٌ لمقوماتها الحضارية والدلالية والتركيبية على حد سواء.

الهوامش:

١ـ اللغة ليست عقلاً: ١٠٥ وينظر في تعريف الإعراب الإيضاح للزجاجي ٨١.
٢ـ طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، ص١٣١، والقول منسوب إلى ثعلب.
٣ـ الخصائص، ٢١٦/١.
٤ـ نظرية النحو العربي، نهاد الموسى، ص٦٥.
٥ـ المقتضب، ٣١١/٤.
٦ـ الأصول، ٢٩٩/١.
٧ـ شرح ابن عقيل، ٢١٦/١ وشرح الكافية، ٢٨/١.
٨ـ نظرية المعنى، مصطفى ناصف، ص٧.
٩ـ البرهان، ٣٠٢/١. والإتقان، ٢٦٠/٢.
١٠ـ اللغة العربية معناها ومبناها، ص٣٧٢.
١١ـ البرهان، الزركشي، ٣٠٩/١. وانظر نهاية الإيجاز، ص١٠٣ ـ ١٠٤، والتبيان، ص٣٢.
١٢ـ العلة النحوية نشأتها وتطورها، ص٥٨.
١٣ـ البسيط، ٥٤١/١.
١٤ـ انظر القصة في «طبقات النحويين واللغويين»، الزبيدي، ص٢٢ ـ ٢٣ ومراتب اللغويين، ص٢٦.
١٥ـ النحو والنحاة، أحمد عرفة، ص١١٧.
١٦ـ المثل السائر، ٤٥/١، وانظر البسيط، ٥٤٢/١، والأشباه والنظائر: ٢٨٧/١.
١٧ـ مراتب اللغويين، ص٢٦.
١٨ـ اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٨٥.
١٩ـ إحياء النحو، ص١٦٢ ـ ١٦٣.
٢٠ـ طبع بتحقيق عبدالإله نبهان، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩م.
٢١ـ طبع برخصة نظارة المعارف الجليلة في مطبعة الجوائب، القسطنطينية، الطبعة الأولى، ١٣٠٠هـ.
٢٢ـ طبع بفاس، الطبعة الثانية، ١٩٥١م.
٢٣ـ مشكل إعراب القرآن، ٢٠١/١.
٢٤ـ الإتقان، ٦٩٠/٢، ومفتاح السعادة، ٢٨٠/٢.
٢٥ـ البرهان، ٣٠٢/١.
٢٦ـ مغني اللبيب، ص٦٩٠.
٢٧ـ المصدر السابق، ص٦٨٤.
٢٨ـ المصدر السابق، ص٧٨١.
٢٩ـ الإمتاع والمؤانسة، ١٢١/١ ـ ١٢٢.
٣٠ـ الطراز، ١٨٢/١.
٣١ـ عوامل استخراج المعنى، بودلال، ص٢٦.
٣٢ـ النحو والنحاة، أحمد عرفة، ص١١٤.
٣٣ـ الأشباه والنظائر، ٣٣٧/١.
٣٤ـ شرح الكافية الشافية، ٦١٢/٢.
٣٥ـ معاني القرآن، الفراء، ٢٨/١، وإعراب القرآن للنحاس، ٢١٥/١.
٣٦ـ الإيضاح، الزجاجي، ص٧٠.
٣٧ـ الألسنة العربية، ١٣/٢.
٣٨ـ اللغة ليست عقلاً، ص٢٩٢.
٣٩ـ البسيط، ٢٦٢/١، وقد تعقب ابن الطراوة وجعل رفع المفعول إن فهم المعنى كالغلط.
٤٠ـ الجمل، الزجاجي، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ـ ٢٠٥، المقتضب، ٤٣٠/٢، النكت، ص٩٥ ـ ٩٦.
٤١ـ مغني اللبيب، ص٩١٥.
٤٢ـ المصدر السابق، ص٩١٧ ـ ٩١٨، شرح ابن عقيل، ١٤/٢، شرح الكافية الشافية ٦١٢/٢.
٤٣ـ الإيضاح، ٦٩ ـ ٧٠، شرح ابن عقيل، ١٤/٢، شرح الكافية الشافية، ٦١٢/٢.
٤٤ـ الخصائص ٣٥/١، نتائج الفكر ٨٢، بدائع الفوائد ٣٤/١، المزهر ٣٢٧/١.
٤٥ـ شرح المفصل، ٧٢/١.
٤٦ـ ينظر: النحو والنحاة: أحمد عرفة ١١٩، وفي بناء الجملة العربية ١٢٦.
٤٧ـ العربية، يوهان فك ١٥، وانظر مدرسة الكوفة ٢٥٢.
٤٨ـ اللغة الشاعرة، العقاد ١٦.
٤٩ـ المرجع السابق.
٥٠ـ اللغة، فندريس ١٨٧، وانظر نظرية اللغة، عبدالحكيم راضي، ٢١٢.
٥١ـ نحو وعي لغوي، مازن المبارك ١٠٧.
٥٢ـ النحو والدلالة ١٨٠.
٥٣ـ شرح الكافية ٧٢/١.
٥٤ـ الخصائص ٣٥/١.
٥٥ـ إملاء ما من به الرحمان ١١٩.

فن عمارة المساجد في الجزائر

محمد الطيب عقاب

قبل نهاية النصف الأول من القرن الأول الهجري عرف المغرب الكبير، ومنه الجزائر (المغرب الأوسط) الدين الإسلامي، فسعد السكان به، وقد كان لوجوده بالمنطقة الأثر الطيب في نفوس السكان، فاستقاموا واتبعوا تعاليمه السمحة، وأصبحوا بدورهم يساهمون مع إخوانهم العرب، في توصيله إلى مختلف الأقاليم القريبة والقاصية، بما في ذلك جنوب أوربا، وعلى رأسها شبه جزيرة إيبريا (الأندلس).

مسجد سيدي عقبة
بعد ترميمه



مئذنة أحد جوامع الواد بوادي سوف

وكانت اللبنة الأولى لمعالم العمارة الدينية بالمنطقة مسجد القيروان (إفريقية ـ تونس) التي غرسها القائد عقبة بن نافع الفهري، الصحابي بالمولد. فارتسمت بذلك نمطية المسجد بالمنطقة، وأصبحت العلامة المقتدى بها في مجال العمارة الدينية إلى ما قبل العهد العثماني، كما سيأتي ذلك في مكانه.

وعلى الرغم من ذلك، احتفظت المنطقة الصحراوية بالنمط الأول لعمارة المساجد إلى اليوم.

هذه بعض التحديدات الرئيسة للمسجد في الجزائر الإسلامية منذ منتصف القرن الأول الهجري إلى الوقت الحاضر. وقد أعتمد في البحث سبيل الاختصار والتركيز، لإفساح المجال للصور لتوضح ما شكل على القارئ.

المساجد المبكرة

ليس من شك في أن نظامًا ما يولد هيئة خاصة لتطبيقه عمليًا. وهذا ما ينطبق على الدين الإسلامي، الذي أوجد الأداة الفاصلة لإبراز صدق العباد، فكانت المساجد الوعاء التي احتوت صفاء إيمان المؤمنين في الجزائر، ولم تبتعد تلك الأوعية أبدا عن شكلها المعروف في كامل العالم الإسلامي، الذي عرف الدين الإسلامي الحنيف. فكان المسجد على قسمين رئيسين: بيت الصلاة، والصحن المحاط بالمجنبتين اليمنى واليسرى وأفرغت المجنبة الخلفية منها ليجعلوا فيها مرافق أخرى، كالمكتبة، وغرفة عابر السبيل، ومكانا وسطيا للمئذنة المواجهة للمحراب أحيانًا. وهذا النموذج نجده ماثلاً للعيان في رابع مسجد أسس بالجزائر والعائد إلى دولة بني حماد في بداية القرن الحادي عشر للميلاد ٣٩٩هـ(١).

يقوم مسجد قلعة بني حماد على موقع منبسط الأمراء في المرتفعات والحي السكني في المنخفضات. وهو ذو شكل مربع تقريبًا، يتكون من قسمين رئيسين: بيت الصلاة، والصحن. يشمل بيت الصلاة ثمانية أساكيب موازية لجدار القبلة، وثلاث عشرة بلاطة عمودية عليه، وهي غير متساوية في العرض خاصة الوسطى منها. وينفتح بيت الصلاة على أحد عشر بابا، وهو بهذا العدد الكبير للأبواب فريد من نوعه في العالم الإسلامي قاطبة، في ذلك الوقت طبعا. دون الإشارة إلى ذكر بابي الإمام الموجودين في جدار القبلة.

أما الصحن فيتضمن الرواق المحاط به، غير أن رواق الجدار الخلفي أوسعهم.

ويبدو من الآثار أن الرواق قائم على الدعامات المستديرة بلا قواعد كيفما كان شكلها، مثلما هي عليه في بيت الصلاة، مما يدل على أن علو الرواق أقصر من علو بيت الصلاة.

كما يتضمن هذا المسجد بعض المرافق، منها المعروفة لدى علماء الآثار ومنها غير المعروفة. فقد احتوى بيت الصلاة على هيكل مربع، داخل المسجد نفسه، من أربعة أساكيب، وخمس بلاطات. تراوحت آراء الباحثين الأثريين بين المقصورة والمسجد. وقد يكون الرأي الأخير هو الأصوب، لأن رحيل الدولة الحمادية إلى بجاية، نتج منه قلة في عدد السكان، ومن ثمة حدد ذلك الهيكل بما يناسب عددهم.

أما في الصحن فيلاحظ وجود جب مغطى بسقف جملوني، وغرفة في أحد أركان الرواق، بينما المئذنة انتصبت في منتصف هذا الجدار الخلفي، مواجهة للمحراب تماما (شكل١). وإضافة إلى الأبواب المذكورة فقد فتح بابان آخران في الجدارين الشرقي والغربي، فيكون مجموع الأبواب، مع بابي الإمام، هو خمسة عشر بابا. وإن كثرة الأبواب له ما يفسره من الناحية الاجتماعية، بل الاقتصادية أيضًا،



مئذنة جامع مدينة بو نورة - غرداية

فهو يسهل الدخول للسكان كلاً حسب وجهته إلى الحي الذي يسكن فيه، وللتجار والغرباء بالنسبة إلى البابين المتصلين بالصحن. كما يدل على كثرة السكان في ذلك العهد.

ويمكن أن نتخذ من مسجد القلعة نموذجًا حيا لبقية مساجد الجزائرفي فترة ما قبل العهد العثماني، ذات النمط الأول؛ غير أنه يجب القول: إن هناك بعض الظروف الخاصة التي تجعل المساجد الأخرى تتميز من مسجد القلعة، خاصة إذا تعلق الأمر بالنضج الفني، مثلما هو الحال بالنسبةإلى مساجد تلمسان مثلا. فمساجد هذه المدينة، وإن كانت مطابقة لمسجد القلعة، من حيث التصميم، إلا أنها تفاوتت بين البساطة في البناء وإغراقها في الزخرفة في آن واحد، بدءاً من عصر المرابطين (١٠٣٣/٤٤٤/١١٤٧/٥٤٢)، المتأثرين بالفن القرطبي بالأندلس، فاحتوى المسجد الجامع (الأعظم) بتلمسان مثلاً على قبة مخرمة، أفرغت فيها العناصر الزخرفية من الرَّقْش العربي، فكانت بذلك أول قبة في العمارة الدينية الإسلامية بهذا الشكل الفني الرائق. كما اشتمل جدار القبلة خاصة في شريطه العلوي المكون للبائكة والجدار المحراب على الزخرفة النباتية المطابقة لمثيلاتها في زخرفة الجامع الكبير بقرطبة، قوامها مراوح مضرسة وموخزة الحواف، صيغت بطريقة التقابل والتدابر معا، مع أغصان رفيعة عاكسة بذلك النسيج العضوي لها. وبالعناصر الزخرفية نفسها لقبة المحراب المخرمة صيغت واجهة المحراب، موضوعها الزخرفي الرئيس هو السنوج المتناوبة والمملوءة بمراوح بسيطة واحدية ومركبة مزدوجة داخل عدد من الأطر أو السنوج المفصصة المتركبة بشكل تراجعي إلى الداخل أو العكس (الصورة٤). ومن أجل أن يبدو أكثر إشراقًا وطلاوة جعلت فوقه القبة المخرمة المذكورة، كما وسعت بلاطته أكثر من الأخريات.

ونبقى في هذه المدينة (تلمسان) لنكمل الحديث عن الزخرفة، فقد تطورت الزخرفة المرابطية الواضحة المعالم إلى زخرفة متشابكة متداخلة ورفيعة العناصر حتى أصبحت مستعصية الفهم والإدراك، لما أدخل عليها من التحوير والتجريد في فترة الحكم الزياني أو العبد الوادي (٦٢٦- ٩٦٢هـ /١٢٢٩- ١٥٥٤م)، دون أن ننسى امتزاجها بالخط النسخي المغربي ذي الصفة الاكتنازية والاسترسالية من حيث النمط الذي يمتاز به هذا الخط، والذي عرف أول ظهور له في العهد الموحدي. وقد أصبحت المساجد الزيانية - في تلمسان طبعا - معروفة بثرائها بالزخرفة الفنية بصورة ملفتة للانتباه في معظم جوانب المسجد: حول العقود وبواطنها، وتحت السقوف في شكل أشرطة ونطاقات، بله المساحات المحيطة بالمحراب وجداره، وكذلك في مداخلها الرئيسة وأبوابها المصفحة المزخرفة بالأشكال الهندسية التي قوام عناصرها الرئيسه الأطباق النجمية، إضافة إلى الزخرفة العمائرية المرتبطة بمساحات السقوف والجدران العلوية، مثل الدلايات والمقرنصات (المقربصات) مثلما يحلو لبعضهم نطقها. وقد ساعد على تنويع الزخارف المادة الجصية المتوافرة بالمنطقة، مع تطوير التقاليد الفنية المعروفة بالمنطقة منذ القدم، وإخضاعها إلى ما يمليه ديننا الحنيف من الإتقان والصدق في التعبير والابتعاد عن المحاكاة.

وبالجزائر العاصمة، يوجد مسجدان يعودان إلى فترة المرابطية المذكورة وهما: المسجد الأعظم، ومسجد سيدي رمضان بالجزء العلوي للمدينة، فالمسجد الأعظم هو صورة طبق الأصل لمسجد تلمسان الكبير، مع اختلاف بسيط في مجال الزخرفة، فمسجد مدينة الجزائر لا يحتوي على أية زخرفة تذكر، ما عدا التي على المنبر المطابقة لنمط الزخرفة القرطبية تماما. وعلى ذكر هذا المنبر نود أن نشير إلى نادرة غريبة، ذلك أن المنبر صنع مع المسجد، أي منذ ٤٤٧هـ، وهو مازال يؤدي وظيفته، وان كانت بعض ألواحه متداعية وآيلة إلى السقوط، بينما منبر جامع تلمسان لا ندري مصيره ولا كيف اختفى من الوجود.

ومواز لهذه المساجد المرابطية مسجد آخر يوجد بمدينة ندرومة القريبة من تلمسان، وهو مشابه لمسجدها أيضًا، غير أنه خال من الزخرفة تماما، ومنبره الأصلي مفقود.

ولا نغادر الفترة المرابطية من دون أن نشير إلى الفترة الموحدية (١١٤٦ - ١٢٣٥م) التي لم توجد فيها عمارة موحدية بالجزائر، لكونهم انتقلوا مباشرة إلى مراكش المغربية سنة ١١٤٦م، غير جزء من المحراب في إحدى ضواحي مدينة بجاية تسمى قرية ملالة.

وإذا عدنا إلى مجال الزخرفة في عهد الزيانيين



المحراب وبلاطته للمسجد الكبير (تلمسان)

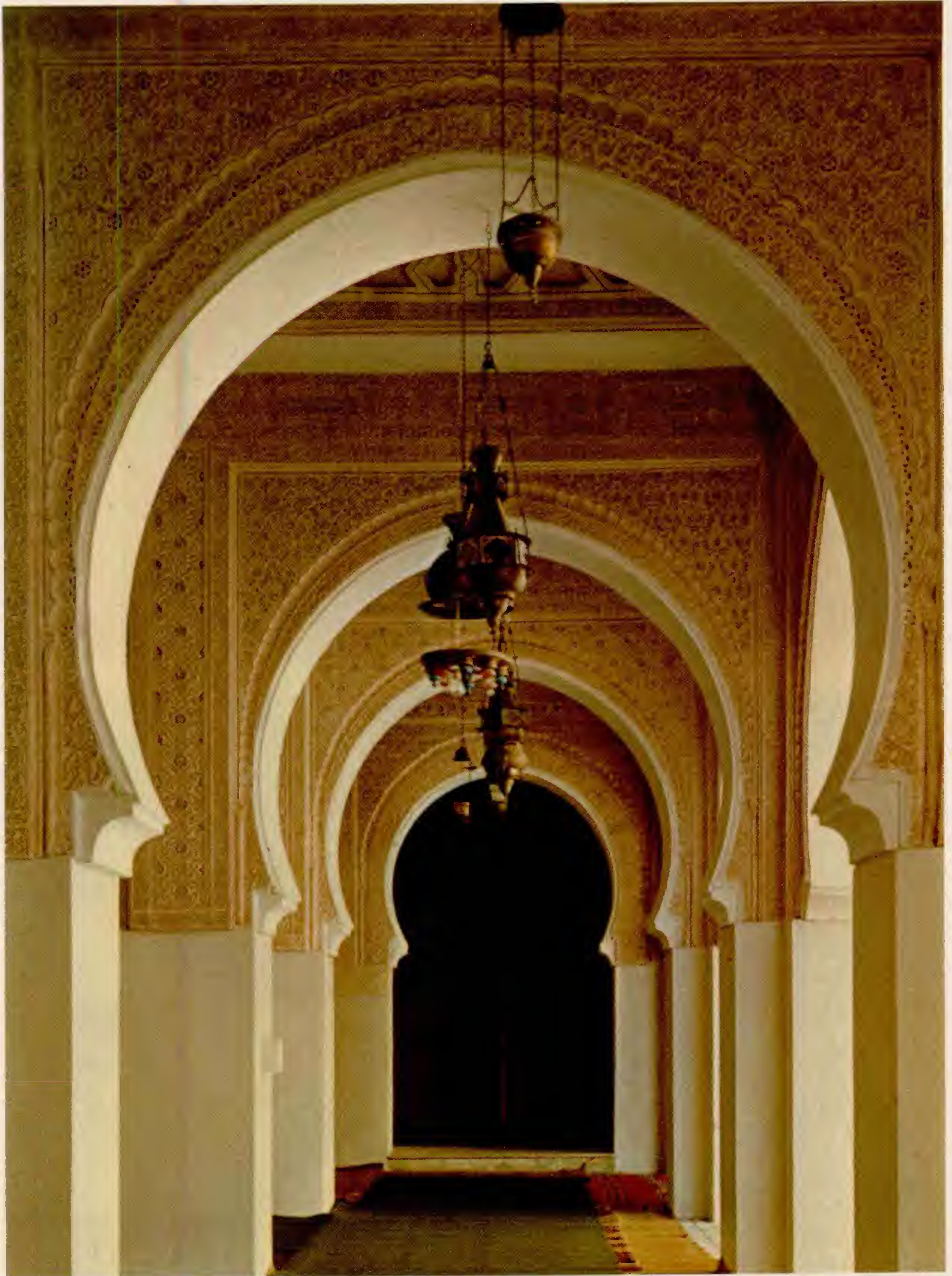
(١٢٣٥ - ١٥٢٠م)، فسنجد عنصراً آخر من الزخرفة، وهو المقرنصات، التي أصبحت تغطي جوانب كثيرة من المساجد، بدءاً من المدخل إلى بيت الصلاة، فقد حليت بها السقوف وما تحتها، وأركان مختلف أجزاء المساجد، وكذا مناطق الانتقال، وحتى بواطن العقود وجبهات التيجان، وليس هذا فقط، فقد دهنت هذه الحلية المعمارية الزخرفية العمائرية بمختلف الألوان، خصوصاً اللونين الأزرق والأحمر الأرجواني، فأصبح المسجد في هذه الفترة يشع بالألوان وكأنه حديقة غناء. وقد وجد هذا العنصر العمائري الفني في عمارة القلعة الحمادية وبمختلف الأشكال الهندسية دعمت به المحمولات البنائية البارزة، كالنوافذ والحنيات وتدعيم السقوف. وعليه تكون القلعة من مبتكري هذا العنصر قبل بلاد الشرق الإسلامي، كما هو شائع لدى الباحثين في الآثار.

العناصر المعمارية

نقصد بها العقود ودعاماتها وقبابها، وحتى المآذن. إن المساجد الأثرية الباقية في الجزائر تقوم على العقود المنكسرة المتجاوزة الشبيهة بالحدوية تقريباً، والمحمولة على الدعامات المربعة الضخمة، وخاصة تلك التي ترجع إلى الدولتين المرابطية والزيانية. فكانت العقود قد اكتملت ونضجت في عهد المرابطين، وأصبحت موحدة الشكل إلى آخر العهد الزياني، بل إلى العهد العثماني، فكانت مفصصة في بلاطة المحراب، للتعبير عن المعالجة المعمارية المتزنة من خلال التقاسيم والملامح المعمارية الرشيقة الموصوفة بالرقة والطلاوة، والمعبرة عن أحاسيس مرهفة تجاه العمارة الروحية لقدسية المحراب، وما يتطلبه من توفير جانب التقدير والخشوع حينما يقف المصلى قبالة المحراب، كل ذلك حمله العقد المجانب للمحراب، وإن إعطاء هذه الأهمية القصوى لبلاطة المحراب له ما يسوّغه، خاصة إيجاد الكمية المناسبة من الضوء، فالعقد المنكسر


مئذنة جامع الثعالبي بالعاصمة


مسجد سيدي الحلوي (تلمسان)



مسجد أبي مدين أحد الأساكيب (تلمسان)



مسجد أبي الحسن (تلمسان)



الجامع الجديد بالعاصمة



مسجد مدينة تيزي وزو الحديث

المتجاوز بتشكيله المتدرج في التكوين من الضيق النسبي في القاعدة إلى الانتفاخ المبالغ فيه نسبيا في الوسط والرجوع إلى الانغلاق بشكل قبوي، يبرز مدى التصرف المعماري الذي أبداه الصانع من أجل إضفاء الجانب الجمالي للعقد، ومدى حرص الصانع أيضًا على إبراز مهارته الفنية، وقدرته على التحكم في الأجزاء العقدية من دون تجاوز فيه، كما يدل أيضًا على قدرة الصانع على توجيه العقد إلى الجهات الأربع فوق دعامة واحدة، وكأنها ترجمة لشجرة النخيل تمامًا. وإن هذه التعبيرات المعمارية للفنان الصانع لتوضح بصورة ملفتة للانتباه مدى ارتباطه ببيئته، وتجسيده لها في أعماله الإنشائية.

وإذا كانت بلاطة المحراب قد حُليت وكسيت بعناصر من الزخرفة العمائرية، فإنّ بقية العقود في البلاطات الأخرى قد جعلت بسيطة وملساء، غير أنها موافقة لها في الشكل، من حيث كونها ذات مركزين كلها، سواء في الطول أو العرض.

أما القباب فلم تكن ذات شأن كبير في هذه الفترة، وخاصة الفترة الزيانية، وإن كانت، فهي ضحلة وغير بارزة، بما في ذلك قبة المحراب، التي تبدو من الداخل فخمة، كما رأينا، وأضيف إليها شكل آخر، مثل التضليعات المشبهة للمحارات الصدفية المتأثرة بقباب مسجد القيروان ومسجد قرطبة الكبير. والسبب في عدم عناية الصانع بالقباب يرجع إلى اتخاذ السقوف شكلاً جملونيا أو مُسَنّمًا، لدرء الظروف المناخية الصعبة المصاحبة للأمطار والثلوج (الصور ٢و٣).

المآذن

اكتست المآذن في مساجد الجزائر طابعا خاصا، منذ القرن الخامس الهجري. فأول نموذج لذلك العهد نجده في مئذنة القلعة الحمادية، التي تبدو سامقة (٢٧مترًا) من دون الجوسق المتهدم منذ رحيل الحماديين عنها، ولا يعرف شكله. والمئذنة ذات تكوينات معمارية في واجهة المسجد. وهذه العناصر راوحت بين الجوفات (الحنيات) المستطيلة والمربعة المتوجة بقباب أو بعقود مفصصة على شكل محارات مضلعة، ومؤطرة ببطاقات من القطع الخزفية، ذات البريق المعدني، ومن هنا تكون القلعة من المدن المبكرة الإسلامية التي عرفت، واستوعبت أسلوب الخزف المبرنق فوق اللون الأزرق الكوبالتي. وكان لهذا التوزيع الزخرفي العمائري أثره الطيب والمحتذى في مآذن الموحدين (١١٣٠ - ١٢٦٩م)، ومن جاء بعدهم، مثلما هو واضح في مآذن المغرب الأقصى وإشبيلية بالأندلس. ولم نشر إلى مآذن المرابطين، لأن هؤلاء لم يشيدوا مآذنهم لمساجدهم، وإنما المآذن التي عليها الآن فيها ترجع إلى العهد الزياني.

فحينئذ نلاحظ أن المآذن الزيانية تمتاز بالتربيع وبالكسوة الفنية المعتمدة على المادة الطينية. وقبل ذلك نقول: إنها تتركب من قسمين: البدن والجوسق، وهذا الأخير يمثل خُمس المئذنة تقريبًا، ومع ذلك، فقد جاء مناسبًا لشكل المئذنة الكلي، وزخرفة هذه المآذن موحدة تقريبًا، وفي الوقت ذاته فريدة من نوعها في العالم الإسلامي، وإن امتد نمطها إلى المغربين الأقصى وقليل منها إلى الأدنى (تونس). وقوام تلك العناصر معينات متشابكة، تتناوب فيها خطوطها بين الانكسارات والمنحنيات. ولذلك عرفت محليًا «بدرج كتف» تعبيرًا عن الزاوية القائمة، ثم ما يشبه سلسلة من الخطوط المنحنية المتفاوتة الشكل. وبتعاقب هذه المعينات بصورة تعاقبية متناوبة تنتج منها حلة قشيبة من الزركشة الخطية القائمة على الحسابات الدقيقة لأركان تلك الزخرفة العمائرية ودوائرها، مما يدل على الفكر الهندسي المتطور لدى الموحدين، ومن جاء بعدهم. وقد عُدت هذه الزخرفة الكسوة المفضلة في بلاد المغرب كله، بل في الأندلس، مثل مئذنة مسجد إشبيلية الموحدي (لاخيرالدة). وإمعانًا في زخرفة المآذن أضيف إليها أحزمة من الخزفيات عند نهاية القسم الكبير لها، وأحيانًا تكون الخزفيات في شكل لوحات فنية شبيهة بالألواح الفسيفسائية تمامًا (الصورة ٢).

مساجد المرحلة الثانية

وإذا انتقلنا إلى المرحلة الثانية، التي شهدت تغييرا جذريًا في نمط بناء المساجد الجزائرية، وذلك تبعًا للجو السياسي الذي عرفته الجزائر على يد العثمانيين منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي. وكان هذا النمط قد عرف واحدية الإنشاء المعماري للمساجد، وهو بيت الصلاة كعنصر أساسي فيه، محاط بالمجنبات عدا جدار القبلة، التي هي بمنزلة كتف لحمل القبة المركزية لبيت الصلاة مع بقية المجنبات الأخرى، وذلك بوضع أنصاف القبات على التي في الأركان لتحويل المربع إلى مثمن، تسهيلاً لبناء رقبة القبة المركزية وتشكيلها والقبة نفسها الحاوية تقريبًا لبيت الصلاة كله، وهو كما يلاحظ تكبير لبلاطة المحراب الحاملة لقبته، فأصبح بيت الصلاة كله من دون أساكيب ولا بلاطات. غير أن هناك استثناءات

معمارية تشبه عمارة كنيسة آيا صوفيا بتركيا، القائمة على الجناحين: العمودي والعرضي، ومثالها في الجزائر الجامع الجديد (١٦٦٠م) بالعاصمة (الصورة ٨). وكلا الجناحين يحتويان على عدة قباب، عدا القبة المركزية التي تتوسط تقريبًا بيت الصلاة كله، حيث شغلت وسط الجناح العرضي الوسطي قبالة المحراب تمامًا؛ وعلى الرغم من هذا التحوير الجذري المفاجئ في العمارة المسجدية بالجزائر الشمالية إلا أن



أحد المساجد الحديثة ببلاد القبائل (مدينة أزفون)

هناك بعض الملامح المحلية شاخصة للعيان، سواء منها الوحدات العمائرية، كالمآذن المربعة، أو الزخارف العمائرية أيضًا، وحتى المعمارية واضحة، بل ربما أحيانًا طاغية في المساجد كلها في هذه الفترة، وهي لا تمت بصلة إلى النمط المسجدي المذكور.

مآذن المرحلة الثانية

والمئذنة في هذه المرحلة واحدية، وليست ثنائية ولا متعددة في المسجد الواحد، وقد جعلت في أماكن غير معتادة، بل في أي جزء من المسجد، دون أدنى قيمة لها، ومعظمها غير سامق ولا رشيق مثلما هي في تركيا أو في بعض بلدان أوربا، إلا المربعة منها، فهي - نسبيًا - عالية تصل إلى أكثر من ٢٥مترًا، مثل مئذنة الجامع الجديد المذكور (الصورة ٨)، ومئذنة جامع السيدة، الذي هدمته السلطات الفرنسية سنة ١٨٣٢م.

وامتازت المآذن في هذه المرحلة بالتثمين، والعديمة الظلة لجوسقها الرمحي المستدق. زخرف بدنها بالمربعات الخزفية بعد أن شكلت جوفات ضحلة معقودة، وهو الجزء الوحيد المعني به فنيا، خاصة في مئذنة جامع الثعالبي، العالم الجزائري المشهور، الذي له تفاسير للقرآن الكريم (الصورة ٩).

وقبل الانتقال إلى الحديث عن المساجد في العصر الحاضر، تجدر الإشارة إلى المساجد الريفية وتركيبها المعماري. وهي عادة تبنى في وسط القرية، وتكون بارزة عن المساكن في موقع مرتفع نسبيًا، وقلما تزود بمئذنة.

وهذه المساجد تتركب من هيكلين رئيسين: مستوى أرضي وآخر علوي، يتقدمهما صحنان، أحدهما مغطى، وكأنه مجنبة مستعرضة معقودة، والآخر مكشوف، وفي كليهما تؤدى الصلوات في أثناء فصل الصيف خاصة صلاتي المغرب والعشاء، وللمجنبة وظائف أخرى، مثل المذاكرة وتحفيظ القرآن، ومعالجة قضايا القرية وغيرها من الوظائف الاجتماعية، واللجوء إليها هو الإبقاء على احترام بيت الصلاة والحفاظ على قدسيته الدينية.

ومع أن بناء مساجد الريف الجبلية في الجزائر بسيطة، ليس فيها تكلف معماري يذكر، إلا أن بعض تقاسيمها المعمارية لها مقاصد حاسمة، من ذلك مثلاً مدخلها الوحيد المقتطع من نهاية جدار القبلة، والغرض من ذلك تعرف الداخل خاصة إذا كان أجنبيًا وغريبًا عن القرية، وكبح جماح القاصدين الشر وعدم تمكينهم من مبتغاهم، وربما أيضًا التحكم في حركة الهواء القاسية شتاء، إضافة إلى الامتثال للمقصد الشرعي، وهو عدم تخطي الرقاب، سواء عند الدخول أو الخروج.

ولذلك يمكن القول: إن تركيب المساجد الريفية ضافية لكل شؤون المجتمع، فالمستوى الأرضي قد قسم أيضًا قسمين: أحدهما وهو الأكبر خصص لتحفيظ القرآن والدروس الدينية، أما الجزء المتبقي فقد جعل لعابري السبيل للمبيت فيه.

المساجد حاليًا

أما المساجد في الوقت الحالي، فقد طرأ عليها تغير كبير، بفعل توافر المادة الماسكة والصلبة، مثل الإسمنت والحديد، بحيث استُغني عن الأساكيب والبلاطات، أو الرواق المربع المعقود الحامل للقبة المركزية لبيت الصلاة؛ لذلك أصبحت المساجد الحديثة في الجزائر بسيطة في هيكلها، فهي تتكون من بلاطة واحدة في الوسط لحمل القبة الرمزية للمسجد فقط بعد إحداث المثمن، أما بقية مساحة المسجد فهي مدعومة بالمجازات الانتقالية من جدار إلى جدار. وقد يقسم علو المسجد قسمين في شكل سدات مطوقة للقبة، كما هو موجود في المسجد الكبير بقرطبة ولكن في جانب واحد فقط.

إن المظهر الخارجي للمساجد يبدو بسيطًا جدا، فهي في شكل مكعبات بطابق أو أكثر، ذات نوافذ متباعدة قلما تكون معقودة، واجهاتها متباينة غير موحدة، بعضها يتقدمها رواق متوسط، كفسحة للمصلين لخلع أحذيتهم، قد يشرف على صحن مقتضب، أو على الشارع مباشرة، كما تتصدره أكثر من مئذنة (الصورة ١٣)، بينما القبة تأخذ وسط المسجد تقريبًا، وإن كانت غير موحدة الشكل، راوحت بين الضحالة والضخامة، وليس هناك ضابط مفروض على السكان لتوحيد نمطها. إضافة إلى ذلك هناك بعض المساجد جمعت كل الأنماط التي ظهرت الآن في العالم الإسلامي، كأن تتقدمها صفة تراثية بسقف هرمي الشكل مع قرميد أخضر، ومساجد أخرى بُنيت على هيئة المساجد الهندية تقريبًا، فأضحت مساجدنا خليطًا من المركبات المتشعبة، فابتعدت عن النمط المغربي، الذي حافظت عليه مدينة تلمسان وضواحيها، فلها منا أجل التقدير.

أما من الداخل فقد بدت المساجد عارية من أية تقاسيم معمارية أو أية قشيبة من الزخرفة العمائرية، فليس هناك إتقان في العمل، وليس هناك تعبير فني في أي جزء من أجزاء العناصر المعمارية، فالعقود المفصصة والمزودة بالمقرنصات والمعينات المتشابكة، وجدار القبلة الذي كان مشبعًا بكل مظاهر الجمال الفني، والثراء الزخرفي، كل ذلك قد غاب وانقرض في مساجد الفترة الحديثة، وهي الصورة التي جعلتها باهتة ومعتمة، ليس فيها من الإشراق والطلاوة ما يدل على وجود ثقافة فنية معبرة عن الإحساس بالذوق الفني أو الاهتمام بها، فلم تجسد الجملة المشهورة: إن الله جميل يحب الجمال. ولولا وجود بعض المساجد المزودة بالمآذن الرمحية وذات القباب الهوائية لقلنا: إن العمل الفني المعماري والعمائري قد مات في الجزائر، ولكن هناك بعض الشواهد التي تثلج الصدر وتريح العين وتحيي الروح الفنية لتجعلها مستمرة في شموخ واعتزاز، آمين.

أطفالنا ومخاطر الدواء

ناصر بوكلي حسن

أنزل الله سبحانه وتعالى الدواء ليكون بلسمًا يشفي الأمراض، ولكن بعض الأدوية تتطلب معاملة خاصة كي لا تصبح مصدرًا للمرض، وتزداد هذه الخصوصية دقة إذا كان الدواء يستعمل لمعالجة فلذات الأكباد؛ لأن الأطفال لهم أجسام رقيقة لا تحتمل الأدوية بشكل عام بسبب الكثير من الأمور الخاصة، منها مثلاً عدم نضج الوظائف الكبدية والكلوية بشكل كامل، والكبد والكليتان هي التي تقوم بطرح الدواء والتخلص منه. وبقاء الدواء مدة طويلة في الجسم قد يجعل منه سمًا ناقعًا في بعض الحالات، ومن وجهة نظر أخرى، إن الأدوية تكون أشد فتكًا في الأجسام التي مازالت في طور النمو والتكامل؛ لذلك كانت معظم الأدوية محرمة الاستعمال عند المرأة الحامل خوفًا من احتمال تشوه الجنين.

هدف هذه المقالة التعريف بالأضرار الدوائية الناجمة عن استعمال بعض الأدوية بشكل غير صحيح. أما تلك الأضرار الناجمة عن التسمم بالأدوية فلن نتطرق إليها في هذا المقال.

تحصل الأضرار الدوائية عند الأطفال بسبب تجاوز الجرعات المسموح بها، وقد تحصل بسبب صعوبة طرح الأدوية المسببة، أو صعوبة طرح مستقلباتها؛ لذلك ينبغي أن يعطى الأطفال أدويتهم بدقة، إما حسب الوزن، وإما بحسب مساحة الجلد. وفي بعض الحالات يمكن أن تتراجع معظم الأضرار الدوائية بإيقاف العلاج المسبب، ولكن بعضها يرفض التراجع، ويقاوم أي معالجة، وهذه الحالات قليلة لحسن الحظ.

لن ندرس جميع الأدوية التي قد تسبب الأذى، فذلك لا يمكن الإتيان به في هذه الصفحات، بل سنقسم الأدوية مجموعات متشابهة كي نستطيع الإلمام بأكبر قدر ممكن منها.

مضادات الجراثيم

إن مضادات الجراثيم أكثر الأدوية استعمالاً عند الأطفال، وقد تستعمل الأمهات من تلقاء أنفسهن شرابًا مضادًا للجراثيم كلما أصيب أحد أطفالهن بارتفاع الحرارة، وإذا كن أكثر وعيًا فإنهن يستشرن الطبيب، ويُلححْن عليه بوصف المضادات الجرثومية.

ويكمن الخطأ في هذا التصرف في أن ارتفاع الحرارة لا ينجم عن الجراثيم فقط، بل ينجم عن أسباب أخرى مثل الفيروسات التي لا تتأثر بالمضادات الجرثومية البتة، وكذلك فإن الأم التي تستعمل لطفلها مضادًا جرثوميًا، قد تستعمله بمقادير إما كبيرة قد تسبب التسمم، أو قليلة قد تسبب مقاومة الجرثومة للدواء، أو قد يكون الدواء المستعمل لا يؤثر في الجرثومة المسببة بشكل جيد مما يجعل الطفل بين المرض والصحة، ويشجع على استفحال أمر الجراثيم المقاومة في بدنه. وقد يكون المرض المسبب لارتفاع الحرارة أخطر بكثير من المتوقع مثل التهاب الزائدة الدودية الذي لا بد أن يعالج بالعمل الجراحي، وإلا سبب الكثير من المضاعفات التي لا تحمد عقباها، وفوق كل ذلك، فإن استعمال مضادات الجراثيم بشكل عشوائي وغير مراقب قد يسبب التهاب الأمعاء، أو التهاب الشفتين، أو الإسهال الحاد أو المزمن، وقد تصاب الأسنان بسوء النمو، وتتلون بالأصفر، ويصاب الطفل بالسُّلاق، وهو آفة فطرية تصيب الأغشية المبطنة للفم والأمعاء



أضرار كثيرة يسببها الاستعمال الخاطئ للأدوية

ارتفاع الحرارة لا ينجم عن الجراثيم فقط، بل ينجم عن أسباب أخرى مثل الفيروسات التي لا تتأثر بالمضادات الجرثومية

أحيانًا، ويحتاج علاجها إلى إعطاء دواء يدعى الميكوستاتين، هذه الاضطرابات الهضمية الناجمة عن استعمال مضادات الجراثيم. أما الاضطرابات العصبية فهي: إصابة العصب السمعي، ومنه الصمم أو نقص السمع، وقد تحدث بعض الاختلاجات أو الاكتئاب أو الهياج، أما الكلية فقد تصاب بأذية مترافقة لأذية العصب السمعي؛ إذ يبدو بفحص البول وجود البروتينات والدم والأسطوانات، ويرتفع عيار آزوت الدم في حالات إصابة الأنابيب الكلوية، وقد يحدث نوع من الاندفاع والتحسس الجلدي المختلف، وقد يصاب المريض بفقر الدم البسيط أو الشامل، أو ينحل الدم، ويضطرب تخثره.

المسكنات وخافضات الحرارة

هذه الأدوية أيضًا شائعة الاستعمال كثيرًا عند الأطفال، وقد ثبت أن استعمال بعض الأنواع المشتقة من الديرون يجلب الأذى بنسبة كبيرة خاصة فيما يتعلق بالدم ونَقْيِ العظام، لذلك منعت هذه الأدوية منعًا باتًا في بعض الدول، أما الأسبيرين فهو قلَّما يسبب الأذى إذا استعمل بجرعات قليلة، أما إذا استعمل بكمية كبيرة فقد يصبح سمًا زعافًا.

ولو شئنا التقريب لقلنا: إن ابتلاع طفل لم يتجاوز السنة من عمره لثلاث حبات من الأسبيرين الخاص بالكبار قد يسبب الموت، أما الاستعمال الحكيم لهذا الدواء فنادراً ما يجلب المشكلات باستثناء المرض المدعو بتلازمة ري، وهو آفة تصيب الدماغ والكبد، ولكن يحذر من استعمال الأسبرين عند الأطفال المصابين بمرض الفُوَال، وهو المرض المشهور الذي يسبب انحلال الدم عند أكل الفول أو بعض الأغذية المشابهة، وكذلك عند استعمال بعض الأدوية مثل السلفا ومضادات الملاريا والأسبيرين.

قد يسبب الاستعمال المفرط للمسكنات المشتقة من الباراسيتامول أذية في الكبد، ولكن ذلك نادر الحصول لحسن الحظ إلا في حالات تسمم الطفل بهذه المسكنات.

مضادات الصرع

تكمن المشكلة في معالجة الصرع في أنه يحتاج إلى معالجة طويلة الأمد، مما يعني أن الطفل سيستعمل مقادير كبيرة من الأدوية، مما يسهل ظهور التأثيرات الجانبية.

فالباربيتورات قد تسبب الوَسَن والهِيَاج، أو السُبات، أو الطَّفح الجلدي. أما الهيدانتوئين فقد يسبب سوء نمو اللثة والضخامة الشديدة فيها، وقد يسبب فقر الدم والتحسس الجلدي. أما الأوكزاليدين فقد يسبب أذية الكلية أو الدم. ويسبب استعمال السوكسينيمسد الصداع، والاضطرابات الهضمية، والأرق، وظهور البروتينات في البول.

يمكن تدارك الأضرار الناجمة عن مضادات الصرع عند ظهورها، وفي بعض الحالات يقوم الطبيب بتبديل الدواء، والاستعانة بأدوية أخرى يستطيع الطفل تحملها، لأن بعض الأدوية قد يستطيع بعض الأطفال تحملها بينما تكون شديدة على الآخرين.

الهرمونات

لعل الهرمونات أشد الأدوية المؤذية للأطفال، لأنها أدوية قوية ذات وظائف متعددة تؤثر كثيرًا في الأجسام الفتية. فالكورتيزون أو مشتقاته قد يسبب الوَذْمة، وسوء نمو العظام، وتوقف النمو، وضياع البوتاسيوم، وبعض الاضطرابات في تنظيم سكر الدم، وقد يسبب الاختلاجات، وارتفاع التوتر ضمن القحف (الجمجمة)، وقد يسبب القرحة، والترف المعدي، ويسبب الدوالي، وارتفاع الضغط الشرياني. يمكن الوقاية من حدوث معظم هذه المشكلات إذا تفهم الأهل نصائح الطبيب جيدًا فيما يتعلق بغذاء الطفل الذي يجب أن يكون غنيًا بالبروتين وفقيرًا إلى الملح. ويجب إجراء الفحوصات الدموية الدورية في أثناء التداوي بمركبات الكورتيزون. ومعظم الأضرار بعد الإيقاف التدريجي لهذه الأدوية قد يتراجع، أما الإيقاف المفاجئ فقد يسبب مشكلة عويصة تتمثل في أن الغدة الكظرية تكون مثبطة عن إفراز الكورتيزون في أثناء التداوي به وتحتاج إلى فرصة زمنية مناسبة لتستأنف نشاطها، وتفرز الكورتيزون.

أما الهرمونات الأخرى مثل الأندروجينات، وهي هرمونات الذكورة، فقد تسبب تسارع النمو العظمي والاسترجال بشكل يصعب تراجعه، إن لم يكن مستحيلاً، وتسبب كذلك كبر حجم الأثداء عند الذكور والإناث، وكذلك اليَرَقان والقصور الكبدي، وكلها قابلة للتراجع لحسن الحظ، أما الإستروجينات، وهي هرمونات الأنوثة،



جرعات محدودة من الدواء تعطى للطفل

فتسبب نمو أشعار العانة، ونموًا مفرطًا في الأثداء، وفرط تصنع المبيضين، وتعد هذه الأضرار قابلة للتراجع لحسن الحظ في خلال بضعة شهور من إيقاف الدواء.

الفيتامينات

يعتقد الكثيرون أن الفيتامينات نافعة في كل الحالات، ولكنهم ينسون أن الإفراط نظير التفريط، وتحصل الأضرار الناجمة عن الفيتامينات بسبب تجاوز الجرعات العلاجية، فقد يسبب إعطاء مقادير علاجية من الفيتامين (د)، العطش الشديد، والقيء، وارتفاع التوتر الشرياني، واضطرابات المزاج، وفرط كلس الدم والبول، والقصور الكلوي، واعتلال النفرونات الكلوية؛ وتعالج هذه الإصابة بإيقاف الدواء المسبب، وإنقاص الكلس من الأغذية، ويعطى المريض مشتقات الكورتيزون، والدواء المسمى EDTA. أما المبالغة في إعطاء فيتامين (أ) فيسبب أعراضًا شبيهة بأعراض استسقاء الدماغ الحاد، وهي الوهن، والاختلاجات، وانتباج اليوافيخ، وتعتمد المعالجة على إيقاف الدواء المسبب، وبزل القطن لإخراج جزء من السائل الدماغي الشوكي لتخفيف الضغط عن الدماغ، وإعطاء الفيتامين (س). أما الفيتامين (ك) الذي يستعمل في بعض اضطرابات تخثر الدم فقد يسبب اليرقان، وانحلال الدم، مما يستدعي نقل الدم في بعض الحالات.

مضادات الملاريا

قد تسبب اعتلال شبكية العين والأذية البصرية والسمعية؛ لذلك يتوجب إجراء الفحص البصري الدوري عند الأطفال الذين يعالجون بمضادات الملاريا التي تستعمل أحيانًا لمعالجة بعض التهابات المفاصل عندهم.

مضادات الذُّهان

تستعمل هذه الأدوية التي تنتمي إلى عدد من الزمر الدوائية في معالجة بعض الاضطرابات العصبية أو النفسية عند الأطفال، وهي بشكل عام قد تسبب الوهن، والسُّبات، والميل للإغماء. أما الهالو بيريدول والميتو كلوبراميد فقد يسببان المتلازمة خارج الهرمية التي تتألف من الحركات غير الإرادية في الوجه والأطراف، وعسر الحركة، والحركات الالتوائية، والميتو كلوبراميد دواء مشهور يستعمل في معالجة القيء، وله أسماء تجارية مختلفة، ويسبب إعطاء حبة منه خاصة للكبار لطفل لم يتجاوز السنة من عمره ظهور هذه الأعراض العصبية الخطيرة، وقد يحصل في أغلب الأحيان أن يعطى الأطفال الصغار التحاميل الخاصة بالأطفال الكبار، مما يسبب ظهور الأعراض السابقة، لذلك يجب الانتباه كثيرًا عند استعمال مضادات القيء عند الأطفال.



الإشراف الطبي ضرورة لحماية الأطفال من مخاطر الدواء

مضادات التحسس أو مضادات الهيستامين

قد تسبب هذه الأدوية انخفاض الحرارة والوسن، أو الهياج ثم السبات، وقد تسبب فقر الدم الانحلالي؛ وغالبًا ما تسبب هذه الأدوية قلة الانتباه والوسن عند استعمالها، لذلك ينبغي علينا حماية الطفل جيدًا من الأخطار خاصة في الشوارع والأماكن الخطرة.

التيوفيللين

يستعمل هذا الدواء لمعالجة الربو، ويسبب إعطاء تحميلة الكبار لطفل صغير ظهور علامات التسمم، وهي الهياج والاختلاج والسبات، وعلامات الترف والوهط.

الأتروبين ومضادات التشنج «المغص»

إن الكثير من مضادات التشنج تتألف من الأتروبين أو مشتقاته، وهذه الأدوية قد تسبب الهياج النفسي الحركي، وتوسع الحدقات العينية والعطش وتسرع القلب، وأحيانًا احمرار الجلد وقلة التعرق.

ولو رحنا نسترسل في ذكر جميع الأدوية لاحتجنا إلى جميع صفحات المجلة، ولكن يكفي أن نتعلم مما سبق أن الدواء سلاح ذو حدين، يمكن أن نتجنب أذاه بالحكمة وحسن الاستعمال، وهذا نقتبسه من التطبيق الجيد للإرشادات التي يقدمها الطبيب. أما إذا أردنا استعمال هذه الأسلحة دون أن نعرف مخاطرها فإن وبال ذلك سينقلب علينا في النهاية، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج.

الهرمونات أشد الأدوية المؤذية للأطفال، لأنها أدوية قوية ذات وظائف متعددة

أطباق من الميكروبات



الطهي الجيد والنظافة ضروريان لتجنب التسمم الغذائي

يونس وهبي

على الرغم من التقدم الحاصل في تقانة (تكنولوجيا) الغذاء من حيث استحضاره وضمان نظافته، فإنه يكون أحيانًا ملوثًا بجراثيم قديمة وحديثة مسبِّبة للمستهلك عللا خطيرة كالمغص والتقيؤ والإسهال والشعور بضعف عام. وقد تؤدي كذلك عدة عوامل فيروسية ملوثة ومهيجة وأرجية دورا في حصول التسمم الغذائي. إضافة إلى التسمم الناتج من الطهي بشكل غير صحيح، حيث يترك الطعام المطهو جانبًا فترة طويلة في ظروف جوية حارة فيبدأ بالتحلل والتلف.

منتصف شهر يناير/كانون الثاني ١٩٩٨م استيقظ سكان هونغ كونغ على خبرين: أحدهما سار وآخر مقلق، فالخبر الأول مضمونه أن خبراء مركز مراقبة ووقاية الأمراض بالولايات المتحدة الأمريكية CENTERS FOR DISEASE CONTROL AND PRE-VENTION CDC استطاعوا أخيرًا عزل مسبب عدوى أنفلوانزا الدجاج وتعرّف هويته، إنه الفيروس الذي يُرمَز له بـ: H5N1. فقد أصاب هذا الأخير في تسعة أشهر مضت ثمانية عشر من سكان هونغ كونغ، وقتل منهم ستة.

يعود اكتشاف هذا الفيروس أوّل مرة إلى سنة ١٩٦١م بجنوب إفريقية عندما كان يهاجم طيور الحظائر، إلا أن الخبراء كانوا يجهلون كونه يمكن إصابة الإنسان كذلك إلى حدود شهر مايو/أيار من السنة الماضية عندما ظهرت على طفل في الثالثة من عمره أعراض أنفلوانزا، حيث أعطيت له مضادات حيوية وأسبيرين لكن دون جدوى.

بعد ذلك بأيام، توفي الطفل من جراء انهيار في رئتيه وكليته أمام أعين الأطباء المشدوهة والعاجزة عن كشف الفيروس ضمن عينات الدم والسوائل العضوية له، فأرسلوا خزعةً (عينة) BIOP-SY من المريض إلى مختبرات بالولايات المتحدة الأمريكية

وهولندا بغية الكشف عنه وتشخيصه. وبعد مرور ثلاثة أشهر توصل الأطباء بفضل الاختبارات إلى نتيجة خلاصتها: أن الصغير توفي من جراء لمسه دجاج مصاب بـ H5N1. لقد قتل هذا الفيروس آلاف الطيور بهونغ كونغ، لكن لم يشك أحد بأن الإنسان قد يُعدى هو أيضًا.

عادة، عندما يصيب الفيروس أي كائن فإنه يرسو على مواقع ومُستقبلات خاصة بغشاء الخلية، هذه الأخيرة تختلف تمامًا بين الإنسان والطيور.

عامة، يمكن لأصل ذرية فيروس الطيور أن يمتزج بفيروس أنفلونزا الإنسان عند حيوان ثالث لإعطاء نُوَيع VARIANT فيروسي جديد يكون أكثر خطورة بالنسبة إلينا. أما إذا أصبح فيروس H5N1 يمر مباشرة إلى الإنسان فإنها ستكون كارثة لا محالة، لأن نظام مناعة الجنس البشري يعجز عن مقاومة هذا الدخيل الجديد.

لقد توصل خبراء مركز مراقبة وقاية الأمراض بعد تحليل الحمض الريبي النووي المنقوص الأكسجين DNA لـ H5N1 الموجود في نسيج قصبة رئة الطفل في مجلة العلم SCIENCE لشهر يناير/كانون الثاني الماضي، توصلوا إلى أن H5N1 ينحدر مباشرة من أصل ذرية فيروس الطيور دون المرور عبر حيوان ثالث.

الخبر الفاجع لسكان هونغ كونغ، هو وجود بروتين خاص في فيروس أنفلوانزا الدجاج (H -5) HEMAGLUTININE -5: جزيء تتكون قاعدته من أحماض أمينية متعددة متصلة بموقع الالتصاق عند العائل تجعله من بين الفيروسات الأكثر خطورة.

فأمام مخاطر هذه الأنفلوانزا التي قد تجتاح كل الصين وتصبح وباءً خطيرًا، عمدت السلطات في البلد إلى إبادة مليون ونصف المليون من الدجاج المشكوك في إصابتها بالفيروس، ولحسن الحظ ينتقل هذا الأخير إلى الإنسان عند لمسه للحيوان المصاب، ولا يستطيع الانتقال من شخص إلى آخر، إلا أن هذا لا يمنع من ظهوره في مكان آخر، كما لا يمنع من أن يمتزج هذا الفيروس بفيروس أنفلوانزا الإنسان لإعطاء نويع جديد ونبتة جديدة تنشر الوباء بين بني الإنسان.

لقد أطلق ظهور هذا الجرثوم صفارات إنذار من طرف السلطات الصحية، مطالبين برقابة أكثر على الصناعات الغذائية، فالتربية الهائلة للحيوانات داخل المزارع، ومعالجتها بالمضادات الحيوية وأدوية أخرى (سواء المسموح بها والمحظور) لتحسين مردوديتها، وكذا الطرق المعقدة لتوزيع هذه الثروة وترويجها، وطرائق حفظها مدة زمنية أطول، إضافة إلى تصرفات بعض المحتالين من أجل الربح السريع، تعدّ كلها وسائل تستطيع من خلالها الميكروبات التسرب والوصول إلى أجسامنا.

وبعيدًا عن أي موقف مثير للقلق، فإن مستوى التسمم



فيروس الطيور قد يمتزج بفيروس أنفلونزا الإنسان لإعطاء نوع فيروسي جديد

الغـذائي قـد ارتفع في الآونة الأخيـرة بشكـل لافت للنظر. فـفي الولايات المتحدة الأمريكيـة وحدها هناك ما بين ٤٨ و ٨٠ مليون شخص سنويًا يلجؤون إلى الإسعافات بالمستشفيات في حالات من الإسهـال والآلام والتشنجـات البطنية وحـالات غثيان، تقيؤ وتعرق. إنهـا الأعراض التي تنتـاب شخصـا بعد تناوله طعـاما في حـالة سيئـة، فـمن بين آلاف هؤلاء المصـابين يموت منهم تسـعة آلاف من دون علاج. وفي إسبانيا كذلك يصيب التسمم الغذائي ما بين ١١ ألـفًا و ١٥ ألف فرد، وهـو عدد منخفـض جدًا بالنسبة إلى السنوات الماضية بفـضل الإجراءات الصـحيـة الوقائيـة فيـما يخص مـراقبـة الصناعـة الغـذائية والمطاعم، كمـا يكمن السـبب الرئيـس لقلة الإصـابات في النظافـة فـي المنزل وطريقـة حـفظ الأطعمة به.

- في شهر يناير/كانون الثاني المـاضي، خلَّفَت إرسالية أطعمة من اللحم إلى طلبة بأسكـتلندا أكـثر من ٥٠٠ إصـابة بالتـهـاب القولون حيث كان الطعام ملوثا، فقد توفي عشرون منهم.

- في الفترة نفسها تقريبًا ٤٠٠ شخص من لويزيانا بالولايات المتحـدة الأمريكية أصـيبوا بحالة إسـهال مفـرط من جرَّاء تناولهم نوعا من المحار كان في حالة سيئة.

- قبل ذلـك، وفي نبراسكا سـحبت شـركة لصناعـة الأغذية من السـوق أكـثـر من طن من اللحم المفـروم بعـد أن أصيب ١٦ شخصـا بتسمم حاد. فـقد كانت وراء هذا التسمـم بكتيريا ES-CHERISCHIA COLI O157 الجديدة التي تحتـوي على ذيفـان (سم) قوي تفرزه في أثناء عمليات استقلابها.

- في مارس / آذار المـاضي، في أثناء وقائع أولمبية خـاصة في ميـشكان وزعت على الحـضور قطـع من حلوى فـاكهـة مـغطاة (بفـراولة) حيث أصيب ١٥٠ منهم بمرض الكبـاد HEPATITIS A، فقد كانت الفاكهة ملوثة بفيروس.

- في شهر يوليو/تموز من السنة الماضيـة سُحِبت من الأسواق الكنـدية والأمـريكيـة إرســاليـة من توت العـليق FRAMBOISE المستـورد من غواتيمـالا حيث كانت ملوثة بعـضويات دقيـقة من جنس CYCLOSPORA المسبب للإسهال.

- بالنسبة إلى مرض جنون البقر، فمازال يحدث تخوفًا وريبة بين المستـهلكين ومربي الماشـية، والعلماء، والأطـباء، والسيـاسيين الأوربيين كذلك، حـيث تراجع هذا القطاع وعرف نكسـة بعـدما كان يمثل مكسـبًا مـهما للصناعـات الغذائية بأوربا. وأصبح الآن معـروفا أن مسبب هـذا المرض هو نوع من البروتين PRION الذي

البكتريا الملوثة للطعام

◦ مجموعة بكتريا

CAMPYLOBACTER

بكتريا من أنـواع كـمبيلوباكـتر جـيجـوني CAM-PYLOBACTER JEJUNI و كمبيلوباكتر كولي CAM-PYLOBACTER COLI.

مصدرها:

- لحم البقر النِّيء وكذا العجول والغنم.
- لحم الدجاج الطري وطيور الحظائر.
- الحليب غير المبستر.
- المياه غير الصالحة للشرب.
- الحيوانات الأليفة كالقطط والكلاب.
- الحيوانات والطيور البرية.

فترة الحضانة:

- بين يومين وخمسة أيام.

الأعراض:

- إسهال مائي قد يصبح مدمّى (ملوث بالدم)
- مغص شبيه بآلام التهاب الزائدة.
- غثيان وتقيّؤ.
- حمى بين ٣٨ و ٤٠ درجة مئوية.

العلاج:

- علاج بالمضادات الحيوية مثل: تيتراسيكلين TETRA-CICLINE وكلورامفينيكول CLORAMFENICOL.

◦ بكتريا: كلوستريديوم بوتولينوم

CLOSTRIDIUM BOTULINUM

تسـبب التسـمم الوشـيقي BOTULISM، وهو نوع خطير من تسمم الطعام.

مصدرها:

- المعلبات المنزلية.
- التربة.
- معلبات الأسواق المعلبة.
- أمعاء وإفرازات الإنسان والحيوان.

فترة الحضانة:

- بين ٣٠ دقيقة و ٣٦ ساعة بعد الهضم.

الأعراض:

- وهن عضلي.
- جفاف ويبوسة في الفم.
- اضطراب في الرؤية.
- صعوبة البلع.
- غثيان وتقيؤ.
- تشنج بطني.
- إسهال.
- في الحالات الخطيـرة تحدث وفـاة بسـبب شلل الجهاز التنفسي.

العلاج:

- الحث على التقيؤ، غسل المعدة أو إعطاء مسهلات.
- تناول مضادات التسمم الوشيقي.

◦ بكتريا: إشيريشيا كولي

ESHERISCHIA COLI

وهي جرثومة تعيش في الأمعاء لها سلالات مختلفة.

مصدرها:

لحم العجول النِّيء أو القليل الطهي.

- الحليب غير المبستر.
- الخضر والفواكه والبقول المسقية بمياه الوادي الحار.
- المياه غير المعالجة.

فترة الحضانة:

تظهر علاماتها في أقل من ٢٤ ساعة.

الأعراض:

- مغص حاد.
- إسهال مائي مدمٍ، في الحالات غير المعقدة قـد يمتد الإسهال إلى ٨ أيام.
- حمى منخفضة أقل من ٣٩ درجة.

العلاج:

- شرب السوائل وتناول أطعمة سهلة الهضم.
- حسب بعض المتخصصين، فإن تناول مضـادات البكتريا قد لا يحسن الوضع.



معالجة الحيوانات بالمضادات الحيوية خطر يهدد الإنسان

• بكتيريا ليستريا مونوسيتوجين
LISTERIA MONOCYTOGENES

مصدرها:
- الخضراوات، والفواكه والبقول.
- الحليب ومشتقاته.
- المواد الغذائية المحفوظة في البرودة (البكتيريا قادرة على التكاثر داخل الثلاجة).
- أمعاء الإنسان والحيوان.
- معالجة إجهاض المواشي.

فترة الحضانة:
- من يومين إلى ستة أشهر.

الأعراض:
- شبيهة بالأنفلوانزا، وعكة عامة، حمى وشقيقة.
- قد تحث على الإجهاض التلقائي وولادة أطفال ميتين.
- التهاب السحايا الذي يعدّ الأكثر شيوعًا للإصابة بهذه البكتيريا.

العلاج:
تناول البنسلين من نوع G ومضادات حيوية أخرى.

• بكتيريا سالمونيلا تيفي
SALMONELLA TYPHI

مصدرها:
- اللحم النِّيء: خاصة لحم الدجاج والديك الرومي وطيور أخرى تربى في الحظائر.
- تلامس الطعام النِّيء والطعام المطهو.
- بقايا إفرازات ملوثة في بعض المواد.
- المياه غير المعالجة.
- أمعاء الإنسان والحيوان.

فترة الحضانة:
- أكثر من ٤٨ ساعة.

الأعراض:
- حمى وآلام في الدماغ.
- آلام طفيفة في المفاصل.
- التهاب البلعوم.
- إمساك.
- قلة الشهية للطعام.
- مغص.

العلاج:
يعالج بالمضادات الحيوية مثل: كلورامفينيكول CLORAMFENICOL، سيفتيريا كسون CEF-TRIAXON، و سيفوبيرازون CE-FEOPERAZON.

• بكتيريا ستافيلو كوك أيريوس
STAPHYLOCOCCUS AUREUS نوع من العنقوديات

مصدرها:
- دمامل بالجلد والأنف ولعاب شخص مصاب مثل العاملين في تحضير المواد الغذائية كالطباخين.
- أمعاء الإنسان.
- حلويات من بيض وسكر وحليب وقشدة.
- اللحم المعالج.
- السمك.
- الحليب ومشتقاته.

فترة الحضانة:
- بين ساعة وثماني ساعات.

الأعراض:
- غثيان وتقيؤ.
- تشنج بطني.
- إسهال.
- آلام في الدماغ.
- حمى.
- صدمات (في الحالات الخطيرة).

العلاج:
- إعادة التوريد بعملية الكهرل الحيوي: أي إدخال الأملاح إلى الدم عبر الأوردة لتتفكك إلى جسيمات مشحونة.
- صيانة الجسم ببعض السوائل، حمية بسيطة.

يُتَنسَّخ تلقائيا ويعيد تخليق نفسه، وهذا ما يعلل استحالة مهاجمة أصل المرض، إذ يعدي المستهلك بعد تناوله لحم بقر مصاب، فيتجمع هذا البروتين في دماغ الإنسان محدثا تفسخًا مرعبا بجهازه العصبي يذكرنا بمرض غريب يطلق عليه داء التهاب الدماغ الإسفنجي CREUTZFELDT - JAKOP DIS-EASE: CJD فيصبح دماغ المصاب شبيها بإسفنج دون أن يستطيع الطب فعل أي شيء. وقد هلك حتى الآن أكثر من ٢٦ من البريطانيين من جراء هذا البروتين. وقد أشارت كل التحريات إلى أنّ بؤر المرض تتوافر في الأعلاف التي تتغذاها الماشية، ذلك لكونها مصنوعة من طحين العظام المسحوقة، ومن لحوم وأحشاء البقر المصاب بهذا البروتين.

المدة هي في المتوسط الفترة الممتدة بين الإصابة وظهور المرض.

وسعيًا منها لإعادة ثقة الزبائن والمستهلكين الإيرلنديين قامت مجموعة سوبر ماركيت SUPER- VALU بتقديم «لحم مضمون» أو خال من البروتين القاتل مقابل بعض الجنيهات الإضافية، إذ تخضع اللحوم قبل طرحها في الأسواق لاختبارات تشخيصية بواسطة مولدات ضد أحادية المنشأ، قادرة على كشف البروتين الشاذ. مبادرة واجهت انتقادات لاذعة بعدم جدوى هذه الاختبارات في حالة غياب الأعراض على الحيوان المصاب.

وإذا كان البقر يهدد صحة المستهلك بوجود بروتينه القاتل، فإن الدجاج والبط، والديك الرومي، وطيورًا أخرى مربّاة في الزرائب لا تخلو من تهديد لما تحمله من بكتيريا مثل سالمونيلا SALMONELLA. وكمبيلوباكتر CAM-PYLOBACTER و وايسريشا كولي ES-CHERISCHIA COLI محدثة أمراضًا مثل حمى التيفوئيد والتسمم، وأصبحت المسبب الرئيس للالتهاب المعوي والأمراض الإسهالية.

ويؤكد البياطرة أن حظائر الطيور بأوربا قد اجتيحت من طرف البكتيريا، ففي إسبانيا ثمانٍ من عشرٍ من الدجاج تحمل جرثومة CAMPYLOBACTER، وفي إنجلترا ثبت أن ثلث الدجاج الذي يصل إلى المطابخ يشتمل على سالمونيلا SAL-MONELLA، ويعود سبب وجود هذه الميكروبات إلى الاستعمال المفرط للمضادات الحيوية في الزرائب. فالدجاج الخاضع لهذا العلاج يزيد وزنه إلى أكثر من ٥٪، ففي سنة ١٩٩٤م رصدت بالدانمارك ٢٤٠٠٠ كلغ من الببتيدات السكرية VANCOMICINE وAV-OPARCINE لعلاج الإنسان، إلا أنها استعملت لتسمين الحيوانات. لذا تستعمل المضادات الحيوية لأجل هذا الغرض وليس لقصد العلاج. كما تصبح مقاومة لهذه الأدوية، فتعيش في طيور الزرائب دون استئصالها، كما أن هناك أصول ذرية بعض الميكروبات تكتسب مناعة تجاه كثير من المضادات الحيوية.



الحلويات من مصادر بكتيريا ستافيلوكوك أيريوس

وقد يجهل على وجه التدقيق عدد البقر المصاب الآن، إلا أنه أكثر من ٩٠٠ ألف رأس من البقر كان يحتضن المرض منذ سنة ١٩٩٦م، وأنه مر إلى تغذية الإنسان خاصة في بريطانيا.

وعلى الرغم من إبادة مئات الآلاف من البقر، وكذا الحظر الأوروبي المضروب على بعض الدول لتصدير هذه اللحوم ومشتقاتها، فإن مشكلة جنون البقر ما زالت في مراحلها الأولى، وأن عواقبها الوخيمة ستظهر أكثر فأكثر، هذا ما صرح به في شهر فبراير/شباط الماضي فريق من الخبراء مختص في مرض التهاب الدماغ الإسفنجي في منظمة الصحة العالمية بجنيف، معللين ذلك بأنه في السنوات العشر أو الخمس عشرة الآتية سيظهر وباء جنون البقر في الإنسان؛ لأن هذه

المراجع

1- ESTO NO SE COME!. CONOCER NO 160 MAYO 1996.
2- LOS PECADOS DE LA CARNE. MUY INTERESANTE, NO 180, MAYO 1996.
3- VACAS LOCAS, OTRA VENGANZA DE GAIA. ANO/CERO, ANO V, NO 72.
4- PERO QUE ESTAMOS COMIENDO?. MUY INTERESANTE, NO 203, ABRIL 1998.
٥ ـ على الإنترنيت: VM. CFSAN. FDA. GOV. صفحة FDA للولايات المتحدة الأمريكية عن أمن المواد الغذائية.



النظام المركزي الشمسي بين ابن الشاطر وكوبرنيكوس

عبدالأمير المؤمن

فكرة مركزية الشمس، أو دوران الأرض والكواكب السيّارة حول الشمس وضعت حدًا فاصلاً بين عصرين فلكيّين، عصر الفلك القديم، وعصر الفلك الحديث، عصرٍ آمن بالأرض مركزًا لكل الكون (الشمس القمر، الكواكب السيارة والنجوم «الثابتة») وعصرٍ آمن بالشمس مركزًا للكون أولاً، ثم للمجموعة الشمسية فيما بعد.

وقد اقترن نظام مركزية الشمس بالعالم الفلكي البولندي كوبرنيكوس. ومن شدّة اقتران كوبرنيكوس بالنظام الشمسي الجديد، كثيرًا ما يُطلق على نظامه (نظام كوبرنيكوس) أو «النظرية الكوبرنيكية» COPERNICAN SYSTEM.

ولكن، أكان هذا النظام الجديد بالفعل كوبرنيكيًا خالصًا، مئة بالمئة؟ أم كوبرنيكوس كان فلكيًا فذًا استطاع أن يستعمل الخيوط الفلكية المتوافرة بين يديه، ويقدم لنا نظريته الجديدة «النظام المركزي الشمسي»؟

لكي لا نغمط حق هذا العالم الفلكي، نقول ابتداءً، إنّ النظرية الجديدة بصورتها النهائية هي نظريته، لكنه لم يؤسسها من العدم، ولم يكن مقطوعًا عن أسلافه الفلكيين، يونانيين وإسلاميين. هذا إذا عرفنا أن أفكارًا فلكية إبداعية كثيرة سبقت كوبرنيكوس، وعُرفت على مستوى التاريخ العلمي، ومن أقرب تلك الأفكار الفلكية الثورية، كانت إبداعات العالم الفلكي العربي الإسلامي ابن الشاطر، الذي لم يبْعد عن الفلكي البولندي أكثر من قرنين من الزمان.

فمن ابن الشاطر هذا، وما أفكاره الفلكية الثورية؟، وما امتداداته؟

ابن الشاطر
آخر العمالقة المجددين

من المؤسف أن فلكيًا مسلمًا عملاقًا مثل ابن الشاطر لم يحظ باهتمام العلماء والباحثين العرب والمسلمين إلا مؤخرًا. ينام تحت غبار الزمن طويلاً ويكتشفه، أو يلفت النظر إليه الباحث الفلكي الأمريكي إدوار كيندي وطلابه في جامعة بيروت الأمريكية في أواخر الخمسينيات من هذا القرن. فقد لفتوا الأنظار إلى نموذجه الفلكي المنسي(١).

هذا الفلكي الفذ هو علاء الدين علي بن إبراهيم بن محمد بن الهمام الأنصاري. المعروف بابن الشاطر. ويُعرف أيضًا بالمطعِّم الفلكي، لاشتغاله بتطعيم العاج.

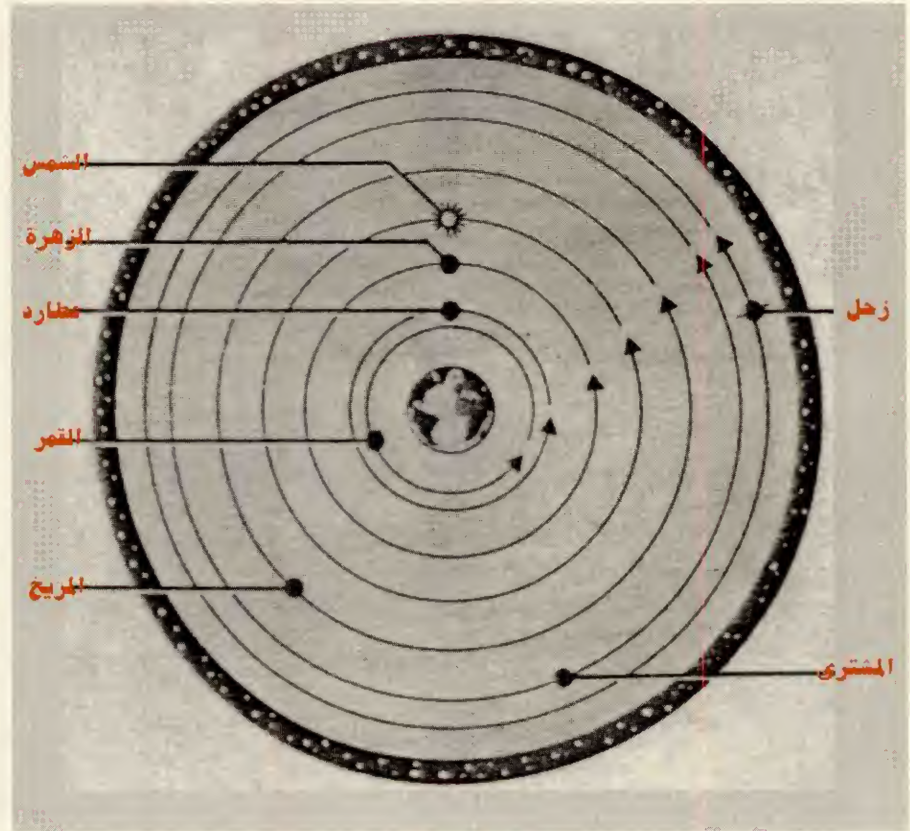
إنّه حقًا عالم فلكي ورياضي عملاق . وإذا تتبعنا الفلكيين المجدّدين والعمالقة إلى العصر الفلكي الحديث (القرن السادس عشر الميلادي) فسنكون أمام آخر العمالقة المجددين (جاء بعده فلكيون لكن لم يجددوا في الفلك).

عاش في الفترة بين ٧٠٤-٧٧٧هجرية، ولا نعرف الكثير عن سيرته. أورد عنه ابن حجر العسقلاني قوله: «علاء الدين بن الشاطر، ويُعرف أيضًا بالمطعم الفلكي، كان أوحد زمانه في ذلك. وكان أبوه مات وله ست سنين، فكفله جده وأسلمه لزوج خالته وابن عم أبيه..»(٢)وفي المصادر القديمة عُدَّ ابن الشاطر من كبار علماء الفلك في الحضارة الإسلامية.

يذكر صلاح الدين الصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤هـ) في وصفه: «فريد الزمان، المحقق، المتقن، البارع الرضي، أعجوبة الدهر..» وما قال أيضًا: «إن من تقدمه من الأفاضل عند جبل علمه الراسخ هباء»(٣). وقال ابن إياس الحنفي (ت: ٩٣٠هـ) في حقه «العلامة الفلكي وكان علاّمة في علم الهيئة وعلم الحساب والهندسة، وكان أوحد زمانه في هذا الفن»(٤). وأثنى عليه - كذلك - المستشرقون والباحثون من العرب والمسلمين مما لا مجال لذكره.

والحقيقة أن أكثر ما تميّز به هذا الفلكي من الفلكيين الآخرين، هو الإبداع والابتكار والتجديد المتواصل. ولعلّ هذا جاء بسبب اهتمامه وانهماكه في تخصصه في علم الفلك والرياضيات. وعدم تشتت جهوده في مجالات أخرى. إضافة إلى الصفات الشخصية الخاصة.

وكان ابن الشاطر فلكيًا مبدعًا على مستويين: الأول: تطويره وإبداعه آلات فلكية كثيرة. منها الإسطرلاب العجيب، يقول الصفدي: «دخلت إلى منزله في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وسبعمئة لرؤية الإسطرلاب الذي أبدع وَضْعه، فوجدته قد وضعه في قائم حائط في منزله داخل باب الفراديس في درب



الكون كما رآه بطليموس

الطيار، ورأيت هذا الإسطرلاب فأنشأ لي طربًا ووجد لي في المعارف أربا وقلت: «ان من تقدمه من الأفاضل عند جبل علمه الراسخ هباء، ولو رآه إقليدس لما كان عنده إلا نقطة من خطه أو أرشميدس لرأى شكله قطاعًا في تحريره وضبطه، فسبحان من يفيض على بعض النفوس ما يشاء من المواهب، ويجدد في كل عصر من يحيي رسوم الفضل الذي عدم في الليالي الذواهب، وصورة الإسطرلاب المذكور قنطرة مقدار نصف أو ثلث ذراع تقريبًا يدور أبدًا على الدوام في اليوم والليلة من غير رحى ولا ماء على حركات الفلك، لكنه قد رتبها على أوضاع مخصوصة تُعلَم منه الساعات المستوية والساعات الزمانية»(٥).

ومن إبداعاته الأخرى تطوير آلة فلكية أخرى: «الربع التام لمواقيت الإسلام». وابتكار آلة ثالثة: «صندوق اليواقيت» وغيرها.

لكن الأهم من كل ذلك هو مواصلة الجهود التجديدية التي سبقته في مجال النظرية الفلكية، وابتكاره نظرية جديدة حول حركة الكواكب، توّج بها كل الجهود السابقة، ومهّدَ للثورة الفلكية الحديثة، التي فجرّها الفلكي البولندي كوبرنيكوس في القرن السادس عشر.

ابن الشاطر يطوِّر أعمال أسلافه

لم يظهر ابن الشاطر في الساحة الفلكية فجأة. وإنما واصل - كما قلنا - جهود الفلكيين السابقين له، مستفيدًا من اقتراحات أسلافه وملاحظاتهم النقدية على الفلك القديم، فلك بطليموس.

فعلى الرغم من القداسة التي أحاطت بالنظام البطلمي القائل بمركزية الأرض ودوران الكواكب والشمس والقمر والنجوم حولها، وبضع قواعد وأفكار بطلمية أخرى، على الرغم من رسوخ هذا النظام في العقول - قال الفلكيون المسلمون السابقون آراءهم صريحة في حقه، تعديلاً وتحويرًا ونقدًا، بل ذهبوا إلى إبداله بنظام أنسب وأكثر انسجامًا من نظامه المعقّد والمتعب. (راجع مقالنا «بطليموس قيَّد الفلك وأطلقه العلماء المسلمون» في عدد ٢٦١ من «الفيصل»).



النموذج الفلكي للقمر عند ابن الشاطر، وفيه اقتراح لنظام الأزواج من الدوائر الفرعية عن مخطوطة في مكتبة بودليان Bodelian Liberary في أكسفورد

لقد جاء ابن الشاطر ليقول الكلمة الأخيرة في سلسلة الانتقادات والملاحظات التي أثارها أسلافه من الفلكيين المسلمين الثائرين على التقليد والتقديس، جاء ليضيّق الخناق أكثر فأكثر على النظرية الفلكية القديمة، وليوصل آخر النتائج التي توصَّل إليها، إلى الفلكي الحديث كوبرنيكوس، ليفتح بها عصرًا فلكيًا جديدًا، يقسم تاريخ الفلك قسمين: الفلك الأرضي القديم والفلك الشمسي الحديث.

ولكي نضع الفلكي المسلم ابن الشاطر في مكانه الحقيقي، دون مغالاة وخروج على المتوافر القليل بين أيدينا نقول: إنه كان فلكيًا بطلميًا من حيث المبدأ، أي لم يخرج عن نظرية مركزية الأرض القديمة، كما خرج كوبرنيكوس من بعد. لكن هذا الفلكي البطلمي كان في الوقت نفسه ثائرًا على عدد من إشكالات النظرية، مبتكرًا ما عجز عنه بطليموس أبو النظرية الفلكية القديمة. وبصدد هذا يذكر تقي الدين في «سدرة المنتهى» أفكار ابن الشاطر بقوله: «احتل أصولاً عظيمة وفرّع فروعًا جسيمة، وهي وإنْ لم تكن بصورها النوعية خارجة عن الأصل التدويري المبرهن على صحة المجَسْطي»(٦). (والمجَسْطي هو مستودع نظرية بطليموس).

ونحن لا نشك أن هذه الأصول العظيمة وتلك الفروع الجسيمة لم تأت في جلوسه بين أربعة جدران، كما كان يفعلَ غالبية العلماء اليونانيين مثل: أفلاطون وأرسطو وسواهما،

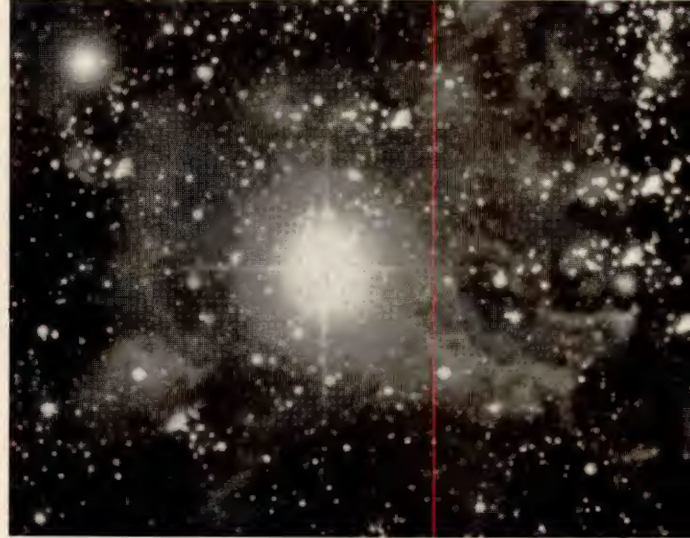
وإنما من المعـاناة والرصـد الطويل ومـلازمـة ميدان المرصد وأدواته.

كان ابن الشـاطر فلكيًا راصدًا له مـرصدٌ في الشام بسـورية(٧). وعلى هذا المرصد بنى كثيرًا من أبحاثه ومـلاحظاته، كما يؤكد هذا في كثير من كتبه(٨).

من هنا تأتي علمية أبحاثه وإنجازاته. ومن هنا تأتي عدم قناعته بأفكار بطليموس التقليدية ومن لفّ لفـه؛ فـهي في حسـاباته وعـقليتـه المتفتحـة لا تفي بالمطلوب. وإنما يجب البحث عن أفكار أكثر إقناعًا وأكثر ملاءمة للواقع.

لقـد ألـف ابن الشـاطر كـتبًـا فلـكيـة ورياضـية أوصلهـا الباحـثان د. كنيـدي ود. غانم إلى ٣٢ مـؤلفًا(٩)، لازال الـكثير منـها مـفـقـودًا. الذي يهـمنا منهـا كـتـابه «تعليق الأرصاد» ولعلّه أهمها، وفـيه يصف ما أنجزه من أرصاد، ويبدو أنه يتضمن نظريته الخاصة عن الكواكب أو المجموعة الشـمسية . ولكن ـ ومع كل الأسف ـ الكتـاب مـفقـود، لكن يمكن التقاط بعض ماورد فيه من خلال كتبه الأخـرى. ففي مـقدمـة كتـابه الآخر «نهـاية السُّول في تصحيح الأصول»، وهو موجود، يقول ابن الشـاطر: «غرضنا أن نورد في هذه المقالة هيئة أفلاك الكواكب على الوجه الذي ابتكـرناه وهو الســالم من الشكـوك، الموافق للأرصـاد الصحـيحة، مـجردة عن البـراهين بقـول وجيـز لهـا ليسـهل الاطلاع عليهـا والانتـفاع بهـا، ونضيف إلى ذلك مـا يجب إضـافتـه مما يُحتـاج إليـه ويستـدل عليـه من الأصـول والمسـائل الضـرورية، وهذا مطلب جليـل إذ يعـرف أحـوال الأجـرام العـلوية والسفلية على جهة كميـاتها ومقادير الأبعاد والأجرام العلوية والسفلية من جهـة كمياتها وبعض كـيفـياتهـا وتعاديلهـا ومقـاديرالأبعاد والأجـرام وما يتـفرع من ذلك مما هو مـعلوم مشهور.

وقد تقدم بطليمـوس وغيره من المتقدمين والمتـأخـرين بوضـع أصـول إلا أنهـا لا تفي بالمطلوب لأنهـا مخـالفة لما تقرر في الأصول الهندسـية والطبـيعية. وقـد أورد جماعـة من محققـي هذا العلم على تلك الأصول شكوكًا يقـينية، وأوردنا نحن كـذلك شكوكًا أخـرى دققنا عليها بالرصد وغيره. ولم يمكن من كان قـبلنا وضع أصـولاً تفي بالمقـصـود ومن غـيـر مخـالفة للأرصاد الصحـيحة كمـا ذكـروا في كتبهم، وقـد تتبعنا تلك الشكوك الواردة على تلك الأصول، وشرحنا ذلـك في كتابنا الذي سمـيناه تعليق الأرصـاد، ونورد هذه الشكوك في أول المقالة من غـير براهين عليهـا ولا شرح لها حتى يعلم عذرنا فيمـا قلناه، وعظم فائدة ما ابتكرناه. ولا يعلم ذلك إلا من أحـاط علمًا بما ابتكره المتـقدمـون والمتأخـرون من مخالـفة تلك الأصول لما يجب من الأصول، واستفرغ الجهـد منهم على وضع أصول تفي بالمقـصود فلم يوفـقـوا لذلك، وقـد وفق الله تـعـالى وله الحمد للأمل المعجوز عنه»(١٠).



استخدم ابن الشاطر منهجًا علميًا تخلص به من الإشكالات المعقدة التي أحاطت بالنظرية الفلكية القديمة

لاحظ المنهج العلمي الذي استـخدمه في بحـوثه. لاحظ عـبـارات: «السـالم من الشكوك». «الموافق لـلأرصاد الصـحـيحـة». «لأنها مـخالفة لما تقـرر في الأصول الهندسية والطبيعية». «وأوردنـا نحن كذلك شكوكًا أخرى». «ودققنا عليهـا بالرصد وغيره». «وقد تتبـعنا تلـك الشكوك الـواردة على تـلك الأصول» وغيرها.

إنَّه المنهج العـلمي الذي حـقق به سبْقـه للنظرية الفلكية الجـديدة. ومن خلاله استطاع ابتكار هيئـة جديدة، وتخلص من الإشكالات المعـقـدة التي أحـاطت بالنظرية القـديمة. لقـد اقـتـرح نظام الازدواج من الـدوائر الفـرعيـة، وحذف «أفـلاك معـدل المسير»، الأفلاك التي كـانت وراء عـدد من الإشكالات. واضـعًا الشمس والقـمر والكواكب في أفلاك متـحدة المركز.

وهكذا تمكن هـذا العـالم العربي المسلم الفـذ من صيـاغة جـديدة فسَّر بهـا حركـات الكواكب السيّارة. دون أن يخـرج على مبـدأ الحركة الدائرية التقليدية.

كوبرنيكوس الثائر الفلكي الطموح

لاشك أن كـوبرنيكـوس عـالم فـلكي مبـدع، قـدّم إلى العـالم نظامًا فـلكيًا جـديدًا، مُفتـتحًا به عصـرًا فلكيًا علميًا حـديثًا، وطاويًا إلى الأبد صـفـحـة فلكيـة بـائدة وهو ـ في حسابات تـاريخ العلم ـ ثائر فلكي آخر، يقع ضمن سلسلـة الفلكيين الذين ثاروا على نظرية بطليـموس، وإن كان أكـثر قوة مـن أسلافـه وأبعـد منـهم مـدى، إذ اسـتطاع أنْ يـطيح بالنظرية الفلكية القديمة إطاحـة تامة، وإلى غير رجعة.

ولد نيكولاي كـوبرنيك، كـمـا تدعوه بولندا، أو نيكلاك كوبرنيج كما تدعوه ألمانيا، أو نيكولاوس كـمـا يدعـوه العلمـاء، ولد سنة ١٤٧٣م بمدينة تورت في بولندا(١١). وتوفي سنة ١٥٤٣م.

درس الـلاهوت والـرياضـة والـفلـك والطب. لكنه اشتـهر عالمًا فلكيًا ثائرًا، بسبب كـتـابـه الرئيـس «حـول دوران الأجـرام

السماوية»، ونظريته في مركزية الشمس المذكورة.

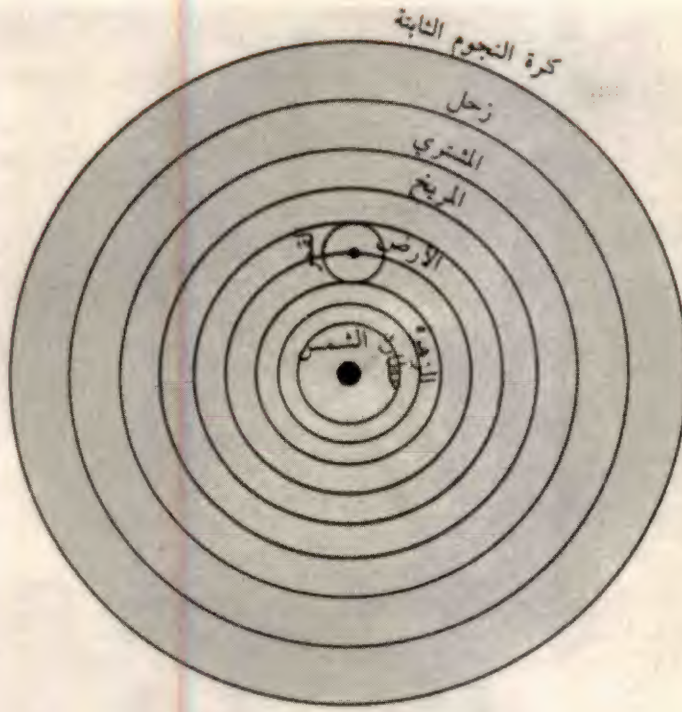
إذن هو عالم فلكي من أبناء القرن السادس عشر الميلادي. القرن الذي أدّى دوراً مهمًا في تاريخ العلم، فقد بلغت فيه النهضة الأوربية مبلغًا ذا شأن. ففي هذا العصر نشطت التجارة وتقدمت المواصلات والعلوم. واحتاجت الاستكشافات الجغرافية الكبرى إلى معارف فلكية دقيقة لتوجيه السفن توجيها صحيحًا في أنحاء الأرض. وفيه زاد التناقض بين الأرصاد الناتجة عن الأجهزة الفلكية الدقيقة وتوقعات النظام البطلمي القديم. وهناك أمورٌ مستجدة كثيرة أخرى. كل ذلك وفّر أرضية مناسبة للانقضاض على النظرية الفلكية القديمة والتخلص منها.

في وسط هذه الظروف ظهر كوبرنيكوس العالم الفلكي الطموح، قرأ تاريخ الفلك القديم، وقرأ الآراء الفلكية الجريئة لمعاصريه، وقرّر أن يكمل المشوار، ويواصل ما بدأ به أسلافه، معتقداً أن التجديد في النظرية الفلكية القديمة أمرٌ لابد منه.

لقد أحب كوبرنيكوس علم الفلك، وأحب أن يدرسه دراسةً واعيةً أكثر متانة من دراسة سابقيه فعكف على دراسته دراسة متأنية متأثراً بآراء أستاذه دومنيكو دي نوفارا، الذي نقد ما في نظرية بطليموس من تعقيد سخيف كما تأثر بآراء معاصريه نيكولي أوريسمي، ونيكولاس الكوزاري، وليوناردو دافنشي وغيرهم ممن نقدوا الفلك القديم.

وإذا جمعنا بين الجو الفكري والعلمي الجديد والملاحظات والأفكار العلمية الجريئة التي ظهرت في هذا العصر، صار متوقعًا أن نسمع بعالم فلكي طموح ينقضُّ على النظرية الفلكية المريضة، فكان كوبرنيكوس.

لقد اقتنع بصورة نهائية أن يقلب النظرية القديمة بأخرى جديدة مخالفة للأولى. اقتنع أن يضع الشمس في مركز الكون حلاً للإشكالات الكثيرة التي أثارتها النظرية القديمة. لكن التصريح بهذا الحل كان غير ممكن ما دامت الكنيسة مسيطرة على الأوضاع كلها؛ فالقول بهذه الصورة بشكل صريح، يعني مخالفة الشعور العام والتعارض



الكون كما رآه كوبرنيكوس

مع حرفية التوراة والنظرية العلمية التي احتضنتها الكنيسة، وبناء صورة علمية جديدة للعالم، واستبدال صورة الجوهر بالصورة الهندسية(١٢). وهذا غير مقبول بتاتًا.

من هنا لم يستطع أن يقدم أفكاره على هيئة حقائق علمية نهائية، وإنما اضطر ابتداءً إلى أن يقولها افتراضًا، ثم تحولت إلى حقيقة علمية قلبت الدنيا.

وبغض النظر عن الصعوبات التي واجهت نشر النظرية والملابسات التي رافقت إعلانها، فإنها أخذت طريقها إلى النور، وسادت وانتشرت وأصبحت من أساسيات علم الفلك. وهنا نذكر الأسس التي توصل إليها هذا العالم في بداية الأمر في سنة ١٥١٤م؛

١ ـ ليس هناك مركز واحد لجميع الكرات السماوية.

٢ ـ إن مركز الأرض ليس مركز الكون، بل نقطة مركز الجاذبية والكرة القمرية.

٣ ـ كل الكرات (الكواكب) تدور حول الشمس بوصفها نقطتها الوسطى. وإذن فالشمس مركز الكون.

٤ ـ نسبة المسافة بين الأرض والشمس إلى ارتفاع قبة السماء أصغر بكثير من نسبة نصف قطر الأرض إلى بعدها عن الشمس، بحيث إنَّ المسافة من الأرض إلى الشمس لا تدرك لضآلتها بالقياس إلى ارتفاع قبة السماء.

٥ ـ إن الحركة التي تظهر في قبة السماء لا تنشأ عن أي حركة في قبة السماء بل عن تحرك الأرض. والأرض هي وعناصرها المحيطة بها تدور دورة كاملة حول قطبيها الثابتين في حركة يومية، في حين تظل القبة الزرقاء والسماوات العليا ثابتة لا تتغيّر.

٦ ـ إن ما يبدو لنا حركات للشمس، لا ينشأ عن تحركها، بل عن تحرك كوكبنا الأرضي الذي يجعلنا ندور حول الشمس كأي كوكب آخر.

٧ ـ إن ما يبدو من تراجع الكواكب وحركتها المباشرة لا ينشأ عن حركتها بل عن حركة الأرض. إذن فحركة الأرض وحدها تكفي لتفسير الكثير من المفارقات البادية في السماوات»(١٣).

على هذه الأسس رتَّبَ النظام الكوكبي بالشكل التالي:

الكوكب الأول زُحل ويتم دورته في

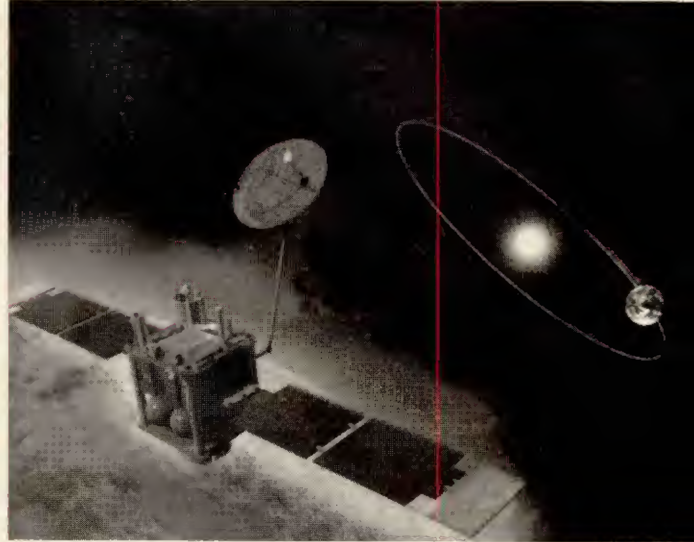
ثلاثين سنة. والكوكب الثاني المشتري ويتم دورته باثنتي عشرة سنة. والثالث كوكب المريخ ودورته سنتان. والرابع الأرض وتتم دورتها في سنة واحدة، ومعها مدار القمر، وهو دائرة صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة أكبر. والخامس كوكب الزُهرة. وتكمل دورتها في تسعة أشهر، وأخيراً عطارد ويتم دورته في ثمانين يوماً. وفي وسط هذه الكواكب جميعها تقع الشمس(١٤).

وبهذه التفاصيل الجريئة التي لم يسبق إليها أحد ـ أدخل الفلك في عصر علمي آخر، كان بداية للتطور الفلكي والفضائي الذي نعيشه اليوم.

بالفلكيين اليونانيين الذين شككوا في ثبات الأرض ووضعها المركزي، أمثال فيلولاوس الفيثاغوري، وهيكيتاس السيراكيوزي الذي كان يعتقد أن الشمس والقمر والنجوم ثابتةً، وأن حركتها الظاهرية مرجعها دوران الأرض حول محورها. وعرف أيضاً أنّ أريستارخوس كان يقول بدوران الأرض حول الشمس(١٥). وعرف أموراً كثيرة.

أما معاصروه، فبالأولى أنه عرفهم أو تلمذ لبعضهم، لأنه عاش عصرهم.

وقد ذكرنا منهم أستاذه دومنيكو دي نوفار، وذكرنا نيكولي أوريسمي ونيكولاس الكوزاوي، وليونادو دافنشي وغيرهم.



إذا ثبت اطلاع كوبرنيكوس على تصحيح ابن الشاطر على المجموعة الشمسية، فيمكن أن نعد ابن الشاطر أعظم الفلكيين في العالم على مر الأزمان

كوبرنيكوس يبني نظامه على أفكار أسلافه

كوبرنيكوس هو الحلقة الأخيرة من سلسلة الفلكيين المجدّدين (قبل العصر الحديث)، وهو كغيره من المفكرين والعلماء، استند إلى العلم السابق، وقرأ أفكار أسلافه ليختصر الطريق، ولينطلق من حيث انتهوا، وليس من المعقول أن يبدأ بداية جديدة.

وتذكر المصادر أنه قرأ أفكار أسلافه من العلماء والمفكرين اليونانيين والعلماء المسلمين والمعاصرين له. ويُذكر أن أستاذه دومنيكو دي نوفار (المذكور آنفاً) دَرَّسه نظرية بطليموس وبيَّن ما فيها من تعقيد وسخف. وعَرَّفه

يبقى القول: هل دَرَسَ الفلكَ الإسلاميَّ، وأخَذَ من علماء الفلك العرب والمسلمين؟

من البديهي القول: إنَّ كوبرنيكوس، بوصفه عالماً فلكيّاً، درس الفلك، ودرس تاريخه، ودرس علم الفلك عند العرب والمسلمين، أهم فلك في تاريخ العلم القديم كله. ولابد أنه تأثر بإبداعات الفلكيين المسلمين، وهم علماء عالميون في وقتهم، وعطاؤهم إبداعي عالمي ليس له ما يوازيه في كل التاريخ العلمي ، قبل النهضة الأوربية.

وإذا عرفنا أنَّ حركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللاتينية واللغات الأخرى ابتدأت في وقت مبكر، قبل كوبرنيكوس بقرون، لاسيما في مجال الفلك، صار من المؤكد أن هذا الفلكي درس علم الفلك الإسلامي وأخذ منه. ولكن لا نعرف مقدار ما أخذ، ولا مدى تأثير هذا التراث الإبداعي في أفكاره ونظريته في مركزية الشمس، بشكل مفصل ودقيق. يذكر أوين جينكريتش في معرض حديثه عن العالم الفلكي المسلم أبي عبدالله البتاني المتوفى سنة ٣١٧هـ: «وقد شق زيجه (أي جداوله الفلكية) طريقه إلى إسبانيا أولاً، وهناك تُرجم إلى اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر للميلاد، وإلى القشتالية بعد ذلك بنيِّف ومئة عام. إن بقاء نسخة واحدة فقط منه (في مكتبة أسكوريال قرب مدريد) يجعلنا نفترض أنَّ فلك البتاني لم يحظَ لدى المسلمين بتقدير كبير خلافا لما هو الأمر عند الأوربيين، حيث مكَّن اختراع الطباعة من الحفاظ عليه وإيصاله إلى كوبرنيك ومعاصريه. وقد استشهد العالم الفلكي البولوني كوبرنيك بسلفه الذي عاش في القرن التاسع للميلاد أكثر من ٢٣ مرة وذلك في كتابه الذائع الصيت «حول دوران الأفلاك السماوية»(١٦).

وماذا كانت حصة كوبرنيكوس من ابن الشاطر؟ هنا لا نستطيع أن نتحدث بلغة الأرقام الدقيقة عن العلاقة بين عالمنا المسلم والفلكي البولندي، لأننا ـ كما قلنا ـ لا زلنا بحاجة إلى العثور على نصوص كافية ومفصلة عن نظرية ابن الشاطر الكوكبية، وخاصة في كتابه المفقود «تعليق الأرصاد» الذي سبق ذكره.

لقد أدرك الدكتور كنيدي العلاقة العلمية بين الفلكيَّين المذكورين، فقد قام هذا الباحث بدراسة «زيج ابن الشاطر» ووجد حساباته ونتائجه تتفق اتفاقاً تامّاً مع الحسابات والنتائج التي تنجم عن فكرة أنَّ الأرض والكواكب تدور حول الشمس. ومن ثم صرَّح كنيدي بأن حسابات كوبرنيكوس ونتائجه هي نفسها حسابات ابن الشاطر ونتائجه التي أجريت قبل كوبرنيكوس بحوالي قرنين من الزمان(١٧).

وإذا ثبت أن التصحيح الذي أجراه ابن الشاطر على المجموعة الشمسية قد اطلع عليه كوبرنيكوس، وأخذه، أو أخذ بعضه أو أدخله في حساباته، فيمكن أن نعدّ ابن الشاطر أعظم

الفلكيين في العالم على مرّ الأزمان. وسيكون لنا السبق - نحن العرب والمسلمين - في تجديد علم الفلك في العالم.

وهنا نذكر بعض ما أورد الباحثون من تأكيدات عن العلاقة العلمية بين ابن الشاطر وكوبرنيكوس. أورد الباحث د. علي عبدالله الدفاع: أنه ثبت في سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م أن كثيرًا من الأفكار الفلكية المنسوبة إلى كوبرنيك أخذها هذا الأخير من العالم المسلم ابن الشاطر. وفي سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م عثر على مخطوطات عربية في بولندا مسقط رأس كوبرنيك اتضح منها أنه كان ينقل تلك المخطوطات العربية(١٨).

ويذكر الأستاذ صلاح الدين الخالدي في بحثه المقدّم إلى الندوة العلمية الأولى في جامعة حلب: «وقد استفاد منه - أي من زيج ابن الشاطر - الفلكي الكبير كوبرنيكوس».. ثم يقول «وقد اعترف بذلك مواطن كوبرنيكوس الرئيس البولوني هنريك بابلونسكي، حيث قدم الرئيس البولوني تمثالاً نصفيًا لكوبرنيك، وهو يقول بأن هناك عالمًا دمشقيًا وهو (ابن الشاطر) وآخر هو البتّاني كان لهما دور كبير في آراء كوبرنيكوس الفلكية»(١٩).

إن وجود هذه العلاقة والتشابه في الأفكار بين الفلكيين المذكورين تجعل الباحث في حلٍ من القول: إن كوبرنيكوس استند - في كثير أو قليل - إلى عالمنا المسلم ابن الشاطر، الفلكي الأقرب إلى عصر كوبرنيكوس.

النظام الكوبرنيكي والتعديلات اللاحقة

على الرغم من أن كوبرنيكوس توّج أفكار سابقيه، ووَضَع نظرية مركزية الشمس، إلاّ أن نظريته هذه لم تكن كاملة متكاملة. لقد كانت ناقصة، لكنها مرحلة متقدمة قياسًا إلى ابن الشاطر والفلكيين المجددين الآخرين.

فعلى الرغم من براعة كوبرنيكوس، لم يستطع صياغة النظام الشمسي السالم من النقص. لقد كانت شمسه في مركز الكون، لا في مركز المجموعة الشمسية كما هو الصحيح. ثم إنه افترض مدارات دائرية كاملة



كوبرنيكوس

الاستدارة تدور بها الكواكب حول الشمس، بانيًا افتراضه على أسلافه اليونانيين الذين آمنوا بأن الدائرة أكمل الأشكال الهندسية. إضافة إلى إدخاله الدوائر الفرعية الصغيرة (البطلمية) على مداراته.

وكذلك اعتقد - خطأ - أنَّ الكون مغلق تحيط به النجوم، كما اعتقد الفلك اليوناني.

وهذه النقوص وغيرها، أدت إلى تعقيد النظام الكوبرنيكي، مما دفع علماء آخرين إلى إكمالها. فقد توصَّل الفلكي الألماني كبلر (ت: ١٥٧١م) بالحسابات التي قام بها على أرصاد تيخوبراهن (ت: ١٦٠١م) إلى أن الكواكب لا تدور بمدارات دائرية حول الشمس، وإنما بمدارات إهليلجية. وقد اكتشف ثلاثة قوانين عُرفت بقوانين كبلر الثلاثة وهي:

- أن الكوكب يتحرك في إهليلج تقع الشمس في إحدى بؤرتيه.

- المستقيم الواصل بين الشمس والكوكب يمسح مساحات متساوية في فترات زمنية متساوية.

- مربع الزمن اللازم لكل كوكب ليكمل دورةً واحدةً حول الشمس يتناسب طرديًا مع مكعب بعد الكوكب عن الشمس.

وباكتشاف هذه القوانين وانطباقها على الأرصاد سقطت فكرة الدوائر الكاملة الاستدارة. ثم جاء غاليلو (ت: ١٦٤٢) ليبرهن باستخدام المنظار الفلكي، على أن الأجرام السماوية لها بنية كالأرض مبدئيًا، فكان اكتشاف التماثل الفيزيائي للأجرام السماوية برهانًا فيزيائيًا على صحة نظرية كوبرنيكوس.

ثم جاء الفيزيائي الرياضي إسحق نيوتن (ت: ١٧٢٧م) ليضع اللمسات النهائية للنظرية، وليبين أسباب قوانين كبلر. إلى هنا تكاملت النظرية وشقت طريقها... وتتابعت التطورات الفلكية، لتصبح ما نراه اليوم من التقدم الفلكي والفضائي المذهل.

وأخيرًا، لابد أن نقول: إنَّ العلم ملكٌ شائعٌ، لا يمكن أن تحتكره حضارةٌ أو يمتلكه فرد. فإذا سُمي النظام الشمسي بالنظام الكوبرنيكي، فلمساهمة كوبرنيكوس الفعالة أولاً، ولوضعه اللمسات الأخيرة للنظام، ولقوة الغرب المادية، وإعلامه المؤثر. أما حقيقته فليس كوبرنيكية بالضرورة. إن المستقبل العلمي كفيلٌ بإزاحة الستار عن حقيقة هذا النظام.

الهوامش

١- أوين جينكريتش: علم الفلك الإسلامي: مجلة العلوم الأمريكية (الترجمة العربية)، مج١ع١، الكويت/نوفمبر ١٩٨٦م.

٢ - ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأنباء العمر، ج١ ص ١٧٢. الهند ١٩٦٧م.

٣ - عبدالقادر النعيمي: الدارس في المدارس: تحقيق جعفر الحسني، ج٢ ص ٣٨٩ - ٣٨٨.

٤ - ابن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور: تحقيق محمد مصطفى، ج١ق٢ ص١٦١: القاهرة ١٩٨٣م.

٥ - الدارس في المدارس ج٢ ص٣٨٩.

٦ - حاج خليفة: كشف الظنون، ج١ص ٩٠ وما بعدها: دار الفكر بيروت ١٩٨٢ (أوفست).

٧ - المصدر نفسه ج١ ٩٠٧.

٨ - د. كيندي و د. غانم: ابن الشاطر فلكي عربي، ص٢١، معهد التراث العلمي العربي/ جامعة حلب ١٩٨٤م.

٩ - المرجع نفسه ص ٢٢ - ٢٣.

١٠- المرجع نفسه ص١٨عن مقدمة كتاب نهاية السول لابن الشاطر.

١١- ول ديورانت: قصة الحضارة: (الترجمة العربية) ج٢٧ ص١٢٧: مصر١٩٧٥م

١٢- موريس كروزيد (إشراف) تاريخ الحضارات العام (الترجمة العربية) ج٤ص٥٢ منشورات عويدات، لبنان ط٢ ١٩٨٧.

١٣ - قصة الحضارة ج ٢٧ ص١٢٩ -١٣٠.

١٤- المرجع نفسه ج٢٧ ص ١٣٦.

١٥- المرجع نفسه ج ٢٧ ص١٢٧ .

١٦- علم الفلك الإسلامي مجلة العلوم الأمريكية مج ١ ع١ .

١٧- د. أحمد سليم سعيدان: المطعّم الفلكي، مجلة آفاق علمية، العدد ٢٦ قبرص تموز ١٩٩٠.

١٨- د. علي عبدالله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية والإسلامية ص٤٢٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٤ - ١٩٨٧م.

١٩- معهد التراث العلمي العربي: أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب: ص١٣٨، حلب ١٩٧٧م.

غنائيات من الروح

عبدالله السمطي

أسئلة صغيرة

من أنتِ؟ يا من قد عرفتُكِ من زمن
وقرأتُ صوتكِ.. والبلابلُ لم تكنْ

من أنت؟ قد صغر السؤال.. فجاوبي
شفةً تكادُ من الصبابةِ تفتتن

إن البساتين التي سطعتْ برو
حي هل لها.. تحت اكتنازك منْ سكنْ؟

والبحر حين يضلُّ عن شطآنه
هل يهتدي في ناظريكِ إلى السفنْ؟

صوت الورد

بأيّة موسيقى أدلُّ شراييني
عليكِ، وألقي الجرحَ خلف البساتينِ؟

بأيّ طريقٍ سوف تدمعُ فكرتي
وفي وجْنتيكِ الشمسُ تمحو عناويني؟

تقدمتُ وحدي للصباح.. وعتمتي
قميصي، ودمعاتي سرابٌ لمحزونِ

تقدمتُ.. خطوى الأمس، والعشق في غدي
أعاتبُ صوتَ الورد.. والجرح يشكوني!

طبيعة

طبيعة الريح تذوي في قميص دمي
لا زَهْرَ في النبضِ لا جرحٌ بإزميلي

الناسُ كلهُمُ.. بردٌ وأغطيةٌ
ولا رصيفَ غدٍ يأتي ويمشي لي

تساءلي: ما الضحى؟ هل فكرةٌ رسختْ
بذهْنِ يومي، وهل نهرٌ يجاريني

نارُ التحول شيءٌ من فراش غدي
أنا احترقتُ، وهذا الماءُ من طينِ

قضاء وقدر

أهكذا.. تمرُّ أقدارُنا
دون غدٍ يطلُّ فيّ الضميرْ

أهكذا أيامنا ترتدي
ترابَنا.. وتختفي كالمصير

نقلّص الدهْرَ إلى لحظةٍ
وننتهي في خلساتِ العصورْ

يمامة النخيل

محمود حامد

مدَّت على جفن الغمام جنَاحا
ومضت تعانق في السَّماء صباحا
ومشت فضاءً شاردًا في تيهها
ورمت على صدر النجوم وشاحًا
تمشي بظل الخافقات عواصفًا
وتميدُ في خفقِ البروق رياحا
ولها فضاء الأمنيات ملاعب
ترقى لها فجراً همى وضاحا
لم ينطفئ في الدهر كبرُ إبائها
أبدًا ولا غاب الجبين كفاحا
هي نفحة من طيب ما صنع الأُلى
وعبير مجد قد همى فوَّاحا
أرياضُ ما اكتحل اليمام بنخلها
إلا وضج على الزمان صُداحا

***

عبرت فكان السفح ملعبها وما
دت تحتها الأنواء والأجواء
وسرى وميض البرق تحت جناحها
فإذا الجناح ذُرًا علت وسماءُ
ولنا بها عَلَم أبيٌّ خافقٌ
مازال تحضن كبره الأرجاءُ
وهي امتداد الدهر في هذي الرُّبى
وشموخ ما يروي الغدُ الوضَّاءُ

***

ناديت فاشتعل النخيلُ على الهوى
شوقًا وثار على الضفاف أُباةُ
واحتدَّ في ساح الرماح صهيلها
فالأرض في عرس الصهيل صلاةُ
تمشي فتنكسر الدروبُ لخطوها
وتدبُّ في صمت الجذور حياةُ
إنا هنا والدهرُ يشهد أننا
في الباقيات ملاحمٌ وفُراتُ

حسان بن ثابت الأنصاري:

أبكي الرسول وأرجو جواره

الشاعر حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام النجّاري الأنصاري، أبو الوليد، كان أبوه وجده من أشراف قومهم، وكرمائهم وحكامهم. وهو من الشعراء المخضرمين، عاش ستين سنة في الجاهلية، وستين سنة في الإسلام، ولد في المدينة (يثرب) نحو عام ٦٠ ق.هـ، وتوفي سنة ٥٤هـ بعد أن أسنّ وعمي في آخر أيامه.

وكان من الشعراء الفحول، فهو شاعرالأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في الإسلام. وأشهر مدائحه في الجاهلية في الغساسنة والمناذرة، وبعد الإسلام وقف مدحه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدفاع عن المسلمين، والذبّ عن الإسلام.

وقصَرَ هجاءه على المشركين، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له: «اهجهم وروح القدس معك»، فكان هجاء حسان للمشركين أشد عليهم من وقع النبال.

وله بضع مراثٍ في الرسول صلى الله عليه وسلم، أشهرها هذه التي يقول فيها:

بِطَيْبَةَ رسْمٌ للرسولِ ومَعْهَدُ
مُنيرٌ وقَدْ تَعْفُو الرُّسومُ وتَهْمَدُ(١)

ولا تَنْمَحي الآياتُ مِن دَارِ حُرْمَةٍ
بها مِنْبَرُ الهادي الذي كان يَصْعَدُ(٢)

وواضِحُ آياتٍ وبَاقِي مَعالِمٍ
وَرَبْعٌ لهُ فيهِ مُصلّى ومَسجدُ

بها حُجُراتٌ كان ينزلُ وَسْطَها
من اللهِ نورٌ يُستضاءُ ويُوقَدُ(٣)

معالِمُ لم تُطْمَسْ على العهدِ آيُهَا
أتاها البِلَى فالآيُ مِنْها تَجَدَّدُ(٤)

عرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وعَهْدَهُ
وقبرًا بهِ واراهُ في التُّرْبِ مُلْحِدُ(٥)

ظَلِلْتُ بها أبكي الرسولَ فأسْعَدَتْ
عُيُونٌ ومِثلاها مِنَ الجَفْنِ تُسْعِدُ(٦)

تَذَكَّرُ آلاءَ الرَّسُولِ ومَا أرى
لها مُحْصِيًا نَفْسي فَنفْسي تَبَلَّدُ(٧)

مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَفَّها فَقْدُ أحْمَد
فَظَلَّت لآلاءِ الرَّسُولِ تُعَدِّدُ(٨)

ومَا بَلغتْ مِن كلِّ أمْرٍ عَشِيرَهُ
ولكن نَفْسي بعضَ ما فيهِ تَحْمَدُ(٩)

أطالت وُقُوفًا تَذْرِفُ العَيْنُ جُهْدَهَا
على طَلَلِ القَبْرِ الذي فيهِ أحْمَدُ

فَبُورِكتَ يا قَبرَ الرسولِ وبُورِكَتْ
بِلادٌ ثَوَى فيها الرَّشيدُ المُسَدَّدُ(١٠)

وبُورِكَ لَحْدٌ مِنْك ضُمِّنَ طَيِّبًا
عليهِ بناءٌ من صَفيحٍ مُنَضَّدُ

تَهِيلُ عليهِ التُّرْبَ أيْدٍ وأعْيُنٌ
عليهِ وقد غَارَت بذلك أسْعُدُ(١١)

لقَد غَيَّبوا حِلْمًا وعِلْمًا ورَحْمَةً
عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثَّرى لا يُوسَّدُ(١٢)

وراحوا بحُزْنٍ لَيْسَ فيهم نَبِيُّهمْ
وقد وَهَنَتْ منهُمْ ظُهورٌ وأعْضُدُ(١٣)

يُبَكّون مَن تبكي السمواتُ يَوْمَه
ومَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأرضُ فالناسُ أكمَدُ(١٤)

وهَل عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةُ هَالِك
رَزِيَّةَ يومٍ ماتَ فيهِ مُحمَّدُ(١٥)

تَقَطَّعَ فيهِ منزِلُ الوَحْيِ عَنهُم
وقَدْ كان ذا نورٍ يَغُورُ ويُنْجِدُ(١٦)

يَدُلُّ على الرحمنِ مَنْ يَقْتَدي به
ويُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الخَزايا ويُرْشِدُ

إمامٌ لهم يَهْدِيهُم الحقَّ جاهدًا
مُعلِّمُ صدْقٍ إنْ يُطيعوه يَسْعَدُوا

عَفُوٌّ عن الزلاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ
وإنْ يُحْسِنُوا فاللهُ بالخيرِ أجْوَدُ

وإنْ نابَ أمْرٌ لم يقُوموا بحَمْلِه
فَمِنْ عِنْدِه تَيْسيرُ ما يَتَشَدَّدُ(١٧)

فَبَيْنَا هُمُ في نِعْمَةِ اللهِ بينَهُم
دليلٌ به نَهْجُ الطَّرِيقةِ يُقْصَدُ

أبكي الرسول وأرجو جواره

عـزيزٌ عليـه أنْ يَحيـدوا عن الهـدَى

حَـرِيصٌ على أنْ يَسْتَـقيمـوا ويَهْتَـدُوا

عطُوفٌ عَليــهم لا يُثَنِّي جَناحَــهُ

إلى كنفٍ يَحْنو عليـهم وَيُمَهِّـدُ(١٨)

فَــبَـيْـنَاهُمُ فـي ذَلكَ النُّورِ إذْ غـدَا

إلى نُورِهِمْ سَهْمٌ من المَوْتِ مُقْصِدُ(١٩)

فأصْبَحَ محـمُودًا إلى الله رَاجِـعًا

يُبكِّيـه جَـفْنُ المُرْسَلات ويَحْمَـدُ(٢٠)

وَأمْسَتْ بلادُ الحَـرَمِ وَحْـشًا بقاعُـهَا

لغَيْبَـةِ ما كـانت منَ الوَحْيِ تَعْهَدُ(٢١)

قِـفَارًا سوَى مَعْـمورَةِ اللَّحْدِ ضافهـا

فَـقِيـدٌ يُبَكِّيـهِ بَلاطٌ وغَـرْقَـدُ(٢٢)

ومَـسْجِـدُهُ فـالمُوحِـشـاتُ لِفَقْـدِه

خَـلاءٌ لَهُ فيــه مَـقَـامٌ ومَـقْـعَـدُ

وبالجَمْـرَةِ الكُبْـرى لَـهُ ثُمّ أوْحَـشَتْ

دِيارٌ وعَـرْصَـاتٌ ورَبْـعٌ ومَـوْلِدُ(٢٣)

فَـبَكِّي رَسُـولَ الله يا عَـيْـنُ عَـبْـرَةً

ولا أعْـرِفَنْكَ الـدهْرَ دَمْـعَكِ يَجْـمُـدُ

ومَــالَكِ لا تَبْكين ذا النِّعْــمَـةِ التي

على النَّاسِ مِنْها سَابِغٌ يَتَـغَـمَّـدُ(٢٤)

فَـجُـودي عَلَيـه بالدمـوعِ وأعْـولي

لِفَـقْدِ الذي لا مِثْلُهُ الدَّهْرَ يُوجَـدُ(٢٥)

ومـا فَـقَـدَ الماضون مِـثلَ مُـحَـمَّـدٍ

ولا مِـثْلُهُ حـتى القِـيامـةِ يُفْـقَـدُ

أعَفَّ وأوْفـى ذِمَّــةً بَعْــدَ ذِمَّـــةٍ

وَأقْــرَبَ مِـنْـهُ نائِـلاً لا يُنَكَّـدُ(٢٦)

وَأبْـذَلَ مِــنْـهُ لـلـطَّـريـفِ وَتـالِـدٍ

إذا ضَنَّ مُـعْطَاءٌ بِـمـا كـان يُتْلَدُ(٢٧)

وأكْـرَمَ حَـيًّا في البـيوتِ إذا انتـمى

وأكْـرَمَ جَـدًّا أبْطَحِـيًّا يُسَـوَّدُ(٢٨)

وَأمْـنَـعَ ذِرْوَاتٍ وأثْبتَ فـي العُـلَـى

دعــائِمَ عِــزٍّ شـاهِقــاتٍ تُشَـيَّــدُ

وَأثْبتَ فَـرْعًـا في الفـروعِ ومنبـتًـا

وَعُـودًا غَـدَاةَ المُزْنِ فالعود أغْـيَـدُ(٢٩)

رَبَاهُ وَلِيــدًا فَـــاسْـتَــتَـمَّ تمَامَــهُ

على أكْـرمِ الخَيـراتِ رَبٌّ مُـمَجَّـدٌ

تناهت وصَــاةُ المسلمين بكَفِّــه

فلا العلمُ مَحْبوسٌ ولا الرَّأيُ يُفْنَدُ(٣٠)

أقُــولُ ولا يُلْفَـى لِقَــوْلِي عــائبٌ

منَ النَّاسِ إلا عَـازبُ العَقْلِ مُبْعَـدُ(٣١)

ولَيْـسَ هَوَائي نَـازِعًــا عَنْ ثَنـائِه(٣٢)

لعَـلِّي بـه في جَـنَّـةِ الخُلْـدِ أخـلُـدُ

مَعَ المُصْطَفى أرْجُــو بذاكَ جِــوارَهُ

وفي نَيْـلِ ذَاكَ اليَـوْمِ أسْـعَى وأجْـهَـدُ

الهوامش

١- طيبة: هي مدينة النبي، وهو، صلوات الله عليه، الذي سماها بذلك.
والمعهد: المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه، وقوله وتهمد: فالهمود البلى في كل شيء.

٢- ولا تنمحي الآيات: فالآيات جمع آية وهي العلامة، وقوله: الذي كان يصعد أي المنبر الذي كان يصعده الهادي، صلوات الله عليه.

٣- الحجرات: جمع حجرة يعني مساكن الرسول، صلى الله عليه وسلم.

٤- لم تطمس: لم تغير، وقوله على العهد آيها: أي إن آياتها لا تزال على ما نعهد. تجدّد: تتجدّد.

٥- مُلْحدُ: ألحد الرجلُ الميتَ فهو مُلْحد: دفنه في اللحد. واللَّحْدُ: الشق في جانب القبر للميت.

٦- أسعدت العيون والجفون: واتت صاحبها بالدموع لشدّة لوعته.

٧- قوله تذكر بحذف إحدى التاءين، أي تتذكر، والفاعل نفسي، وقوله تبلد: إنما هو تتبلد بحذف إحدى التاءين كذلك، وتتبلد: أي تلحقها حيرة.

٨- مفجعة: يقال: فجعته المصيبة وفجّعته: أوجعته فهو مفجع أي موجع، والفاجعة: الرزية الموجعة التي تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم، وشفه الحزن والهم لذع قلبه وأضمره وأهزله حتى رق.

٩- العشير: في الأصل كالعشر الجزء من أجزاء العشرة، وجمع العشيرة أعشراء مثل: نصيب وأنصباء، وقوله بعض ما فيه: أي بعض ما في كل أمر.

١٠- المسدد: يقال: سدده الله: وفقه للسداد، وهو الصواب والقصد من القول والعمل.

١١- غار يغور غورًا: غاب.

١٢- لا يوسَّدُ: لا يجعل له وسادة في القبر.

١٣- وهنت: ضعفت وفترت في أثر الحزن.

١٤- يبكون: يبكون عليه. يومه: اليوم الذي مات فيه. أكمد: أحزن. من الكمد وهو الحزن.

١٥- رزية: مصيبة.

١٦- يغور: يبلغ الغور وهو المنخفض من الأرض، وينجد: يبلغ النجد وهو المرتفع من الأرض، أي يعم جميع الأمكنة.

١٧- ناب أمر: نزل. يقول: إن نابتهم نائبة لم يقوموا نحوها بما يجب سهّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكشف غمّتها.

١٨- عطوف عليهم: مشفق عليهم بارٌّ بهم. لا يثنّي جناحه إلى كنف: أي لا يصرف عطفه عن أحد منهم، بل هو عطوف عليهم جميعًا. يمهد: يوطئ. يقال: مهدت لنفسي: جعلت لها مكانًا وطيًا سهلاً.

١٩- مقصد: أي مصيب، من: أقصد السهم: أي أصاب فقتل.

٢٠- المرسلات: الملائكة. ويروي يبكّيه جنّ المرسلات يريد الملائكة المسترة عن أعين الآدميين.

٢١- بلاد الحرم يعني مكة وما اتصل بها من الحرم.

٢٢- قفارا يقول: وأمست بلاد الحرم مقفرة خالية ما عدا قبر نزل به فقيد يبكي عليه بلاط وغرقد، ومسجده إلى آخره. والبلاط موضع معروف بالمدينة بين المسجد والسوق. والغرقد في الأصل ضرب من شجر العضاه وشجر الشوك، ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة الغرقد وبقيع الغرقد، لأنه كان فيه غرقد واستؤصل.

٢٣- يقول كما أقفرت منه بلاد الحرم وطيبة وبلاطها وغرقدها، ومسجده بها عليه الصلاة والسلام أقفرت كذلك منه، وأوحشت ديار وعرصات بالجمرة الكبرى، والجمرة: واحدة جمرات المناسك، وهي ثلاث جمرات يرمين بالجمار بمنى أي: بالحصى.

٢٤- سابغ: كامل تام. يتغمّد: يغمر ويستر.

٢٥- أعولي: ارفعي صوتك بالبكاء.

٢٦- النائل: العطاء. المنكد: الذي لا يهنأ من يعطاه.

٢٧- الطريف والطارف: المال المحدث المستفاد، والتالد والتليد: المال القديم.

٢٨- انتمى: انتسب. وأبطحيا: نسبة إلى الأبطح بمكة، وقريش البطاح هم الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة. وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج الشعب، وأكرمهما قريش البطاح.

٢٩- المزن: السحاب، وأغيد ناعم متثن.

٣٠- قوله: ولا الرأى يفند، فالفَنَد الخطأ في الرأي، وأفنده خطأ رأيه أو أضعفه.

٣١- عازب العقل: بعيده.

٣٢- نازعًا عن ثنائه: كافًا عن مديحه.



عَتابا

إيهاب الشلبي

على ضفة لم تَعِدني
سوى بالغبار
فقط شردتني وباعت عيوني لما لا
يجيء
على ضفة ضيّعتْ لي نهاري
وأرْخَت عليّ الظلام البطيء
ولدتُ على غير ما أشتهي
ذا حصان رديء
ووجهٍ ـ على سمرة اللون فيه ـ
غريبِ الهوى
يألف البحث عن روحه
في الركام إلى أن يفيء
على ضفةٍ حيثما
أحرق النهر أمواهه
والتوى عائدًا مثل أفعى
صبأتُ
وجدت أبي لم يزل
منذ نحو ثلاثين بؤسًا

ـ حصادي من الريح ـ يحكي
عن الجنة الضائعة
تلمع الذكريات نحاسًا على صوته:
لـ (دنّا) وفي أول الغيث
زغرودة وارتعاش،
ولمّا تؤلف في موسم الخصب أعشابها
يستفيق الفَراشُ
انبعاثًا لروح الصبايا
يسابقْنَ جرّاتهنَّ إلى (دانيال)
أحاول أن أستعير مسامات جلدكَ
كي لا أزيّف لسع النسيم، أبي
حين تخرج من فجر ليلٍ
يلف البيوت إلى بيدر الأغنيات:
عَتابا.. فعولن
فعولن يَ يابا
لكَم أنت تترك فيّ الحنينَ
إلى سدرةٍ
لم تداعبْ يداي

إلى ضفةٍ/زهرةٍ
لم تعانق شذاي
أراك تحدّق
في ساعديّ
كأن لم يزل
ضوْء عينيكَ يغسل بي
ما تلوَّثَ من ملح جلدي
على ضفةٍ ضيعتني
ويفرك صوتي ببعض الحصى
ربما يا أبي لن أغني
على ضفة بعثرتني
عَتابا يَ يابا
عَتابا

الهوامش:

(دنّا): هي قرية الشاعر في فلسطين المحتلة، و(دانيال): عين ماء عذب بجوار القرية.
(زهرة): والدة الشاعر التي رحلت عنه صبيًا.

خصوصية

صالح الزهراني

لنا البـحـر، والرِّيح، والمرفـأ
لنـا الكفُّ، والـصفُّ، إذ نبـدأ
لنا دائمـًا نكهـة المسـتحـيل
فـقل للمـخـبّين أن يـهـدؤوا
ولدنا من الرِّيح والمعـصـرات
ونـوّارة النـهــر لا تظمــأ
من الأفْق تنداح شـامـيــة
إذا أسـرجت وجـهـها طأطؤوا
لنـا قـامــة النخـل، قنديلهـا
وبرقٌ عـلى صــدرها يهــزأ
وفي مـقلـة الحُـرِّ تزهو القـذاة
لأن الـدُّجى قلبُــه مطـفــأ
ويمضـي النـهــار علـى دربه
أصــاب المريـبـون أم أخـطؤوا

لنا البرق، والخفـق، والمنتهى
لأنـا بغــاياتنا الأكـــفـــأ
خـبـرنا نـفـوسًـا لهـا مـبدأ
رديء، ومــعــدنهــا أردأ
ولكننا فـوقــهـا غـيـمــة
وطـبع الغطـاريف أن يربـؤوا
غـسلنا الحـزازات، لكنْ أبَتْ
فنفس المنـافق لا تـبـــرأ
لنا فـوقـهـم صـيقل من هوى
وسـيف الصـبــابة لا يصـدأ
لهم فـي الهـوى مـبــدأ راسخ
ونحـن لنا في الـهـوى مــبــدأ
هُمُ يـلجـؤون إلـى كــيــدهم
ونـحن إلـى ربـنـا «نلجـــأ»

باتجاه المحطة الواطئة

عبدالحفيظ مريود

** «ينبغي أن نفكر بحذق كالثعالب»

عبدالرحمن منيف

** «مثل رجل يريد أن يكون وحيداً مع ضحكته».

فرانز كافكا

(١)

قلت : إنني كنت متضايقًا من الجو داخل عربة القطار، حيث رائحة الفاكهة تختلط بروائح أخرى، طعام تالف وماء مندلق على قشر الفول وأتربة البلاد التي يمر بها القطار. ثم إنني لا أستطيع النظر إلى الجالسين قبالتي، ولذلك ما إن توقف القطار في المحطة السادسة بعد تحركه، حتى نزلت وركبت عربة صهريجية ذات سطح مستو، تنقل بها السكة الحديدية الماء إلى عمالها في المحطات الخلوية. كان الليل والماء قد أبردا حديد العربة العاري. ثمة غبار كان يصلني فوق، ولكنه خفيف..

في المحطة التالية ركب جندي بجانبي، ويبدو أنه يريد هواءً بارداً.. لم يُلقِ بأي تحية، ولم أكن راغبًا في مجاذبته أي حديث.

حين كركرت عجلات القطار زهاء الساعة كان كلانا غارقًا في تفاصيله الخاصة، شرع الجندي في الغناء، كان يؤدي أغنية ريفية يغنيها الرعاة في منطقة غائرة في تاريخها، كنت أحب تلك الأغنية؛ ولذلك جعلت أذني تستمع.. كان صوت الجندي معذبًا وجريحًا، والهواء الليلي يجري طليقًا، والقطار تكركر عجلاته على الخط الحديدي القديم..

بعد حين وبينما كنت أنسرب إلى غنائه، أشعل الجندي سيجارة. كان يغني، ثم يقطع غناءه ليجذب نفسًا من السيجارة الملتهبة بين حين وآخر، كانت عربات القطار تحدث جلبة تفصلني عن متابعة الغناء. كنت حتى ذلك الوقت أفكر، مع متابعتي لغناء الجندي في قضايا غرامية معقدة.. حين سألني الجندي: هل كنت ذاهبًا إلى الخرطوم؟ ولما أجبت بالنفي صمت قليلاً ليسألني عن وجهتي، كان حتى تلك اللحظة مترددًا في الدخول معي في ألفة؛ لأنه عاد إلى غنائه بعد بضعة أسئلة تمهيدية، وقد قررت أنا التفكير في موضوعي الأول ذاته.

(٢)

توقف القطار في محطة رئيسة، وينبغي، حسب نظام السكة الحديدية، أن يقضي فيها ما يزيد على ثلث الساعة، توزع الركاب هنا وهناك يشربون أو يأكلون.. رجال يبحثون عن ماء للوضوء، وفئة آثرت التيمم كسبًا للوقت، بينما كانت نساء تلتمس الظلام بعيدًا عن القطار في عجلة.

(٣)

كان الأمر كله خارجا عن سيطرتي، قال الجندي ذلك، يمزقه الضجيج غير المنتظم للقطار الموغل في جغرافية متناقضة، حبيبة إلى القلب، كان الجندي كمن يحدث نفسه قلت لأبي: إنه، إذا كانت كلثوم لا تروق لك، فإنني أكون كاذبًا إن قلت إنني أستطيع أن أبقى هنا. أحسست بأن الجندي أزاح الجزء الأكبر من الثقل الرابض على صدره. كنت مدفوعًا بشيء مخيف، حين أسرنا الخوارج في جبال النوبة، لم أكن ألبس بزتي العسكرية، إذ كنت خرجت أتسوق، وداهموا البلدة.. كانت كلثوم مثل فاكهة طازجة، حين أطلق الخوارج سراحنا كمدنيين وهمّ زوجها بتركها لهم.. أجبرتني قوةّ ما للبقاء من أجلها، لم يضربوني كثيراً، وحين سألوني عن صلتي بها قلت: إنني زوجها، كان زوجها ذهب مع المتلهفين على النجاة.. سألوها أهو زوجك؟ فأجابت بنعم، وحين وجدوا مني إصراراً، وقدرة على الدفاع عنها حتى الموت، أعطوني إياها. سرنا مسافة طويلة، يومًا ونصف اليوم حتى وصلنا البلدة.. بدا أن الجندي قد استراح قليلاً، كنت أصغي دون أن يشغلني الحديث عن متابعة الجغرافية. قال كمن اكتشف شيئًا جديداً: الغريب أننا لم نتحدث قط طوال الطريق، كانت تمشي إلى جواري صامتة، تبكي من حين إلى آخر بصوت مكتوم، بينما كنت منهمكًا طوال الطريق في التكهن بما ستكون عليه النتائج.

والقطار يصفر طويلاً، وينحدر، يثير العجاج، أيقنت أننا باتجاه المحطة الواطئة المحاطة بأشجار الحراز. انتبه كذلك الجندي، وقال: لن تصدق أن أبي يسكن في هذه المحطة، وأنني منذ عشرة أعوام لم أره.

أي منذ غادرته في ذلك الصباح البعيد، لقد حدث ذلك كما كنا نمثل في سينما، قلت له: إن كلثومًا بنت قبائل، وإنها



رفضت زوجها، وأجبرته على طلاقها في المحكمة، لتتبعني، قالت: إنها تريد رجلاً يموت من أجلها. قال أبي: إنه لا يريدني لامرأة تتغيّر، يريد لي امرأة بلا مشاكل، كان أهلها يثيرون ثارات قديمة مع قبيلتنا، إذا قررت زواجها اخرج من بيتي، هكذا قال أبي ذلك الصباح لكلثوم، كانت تبكي بمرارة وهي جالسة بجانبي قبالة أبي. قلت له: إنني لن أتزوجها، ولن أبقى معه، وسافرنا إلى أهلها، تركتها لهم، ومن يومها وأنا رجل أحراش، أعيش مجازفًا..

قلت له: ألن تنزل هذه المرة لترى أباك؟؟ ضحك هازئًا سيان عندي أن أراه أو لا، لأنه بالنسبة إلي لم يكن أبًا إطلاقًا.. لقد قابلت كلثومًا مرتين في الخرطوم، عندما عملت بالقيادة، عدة شهور.. هل تصدق أنها لم تتزوج حتى الآن.. لقد عملت ممرضة، قلت لها: إنه يترتب عليها، ما دامت أنثى جميلة، وما تزال شابة، أن تجد رجلاً يحميها.. قالت: إن المسألة بالنسبة إليها انتهت من زمن طويل..

(٤)

سألني الجندي بعد أن غادر القطار المحطة الواطئة إن كانت سجائري قد نفدت، ولما نفيت ذلك سألني واحدة أشعلها في لهفة.. كان القطار يعاني صعود المرتفع، ولذلك كانت ماكينة الوابور تئن أنينًا مقلقًا.. كنت أحاول استيعاب الموقف، وعندما استوى القطار، وصار بوسعنا أن نتحدث دون عناء كبير بدأ الغناء - كان متخففًا شيئًا ما من ثقل الجرح والانكسار، ولكنه قطع أغنيته الريفية الحزينة: ذات يوم كنا ننقل إمدادات إلى فصيل محاصر، كنت أقود إحدى شاحنات الجيش الكبيرة. كان معي عريف يدعي «مهيد» من أبناء الجزيرة. من بعيد لاح رجل يرتدي بنطالاً من الكاكي، وفانلة داخلية، كان يراقب الشمس وهي خارجة الآن، ويمضغ عودًا من الأراك طويلاً.. لم يبد على الرجل أنه سمع محرك الشاحنة المقترب منه، طلب مني العريف أن أوقف الشاحنة، ثم نزلنا متحفزين، أمرني أن أطلق النار..

قلت له: لنر، ربما كان من رجالنا قال لي: إنها تعليمات صوبت باتجاه قلب الرجل المتجه نحو الشمس، وأفرغت عليه عيارًا.. فسقط. وعندما ذهبنا إليه، كانت عيناه مفتوحتين وفمه مفتوحًا، مثل شخص يضحك بعمق. فحصنا أشياءه القليلة. كانت هناك ملاءة مفروشة باتجاه القبلة، عليها مصحف صغير وثلاثة أعواد أراك مستقيمة، وإلى جانبه سلاح جاهز، بينما كانت البذلة الكاكي والحذاء الثقيل على مبعدة منه بما يشبه الإهمال. دفناه في مكانه، وعدنا صامتين إلى الشاحنة..

قلت: إن الجندي كان جالسًا إلى جانبي على سطح العربة الصهريجية الباردة، العارية، كنت قد بدأت في نسيج روحه، أحسست بأنني أرحته، حيزّته، وأعطيته ما كان يتمنى. في الليل المتقدم سريعًا، تتبجس شهوة الانكشاف، تنحو الروح إلى التخفف من وطء القهر والحب والعمى.. كان القطار نشيطًا سادرًا في انسرابه بين الأدغال والتلال المفاجئة، أصغيت عميقًا إلى رقرقة أحزان الجندي، قطع صمته الخطيب، وقال لي: ثلاثة أشهر تباعًا، كان وجه الرجل الميت يبلبل ليلي، ذات الفم المفتوح مثل شخص يضحك، وذات العينين الراغبتين عن رؤيتي، ثم أصبح يأتيني في أوقات متباعدة..

رجع الجندي إلى أغنيته الريفية، ودخل القطار المحطة الصغيرة التي أحب.. محطتي، نظرت إليه جانبًا ثم قلت: (سلام)، قال: (سلام)، وحين ترك القطار تاركًا إيّاي، استطعت أن أبصر جيدًا ضحكة الجندي ويده الملوحة لي..

حلمك مُرٌّ كالقهوة

عبدالعزيز الصقعبي

شائكة هي الكلمات حتى ولو تصنعنا بساطتها وقابليتها لأن تكون أداة طيعة لتعبيرنا.. شائكة كهذه اللحظة حين لا تجد من يقاسمك فنجان قهوة..

يطل الفنجان بطقسه الخاص ليشعرك برهبة سؤال يلح عليك «أوحيد حقًا أنت»؟ تتأمله: فنجان هو، صنعته يد صينية ليستقبل في جوفه قهوة رغبت أن تكون مرة..

كنت تضعه بين أصابعك لتقربه من شفتيك.. لترتشف تلك المرارة، تعيده يدك إلى الطاولة التي يئن خشبها من تراكم الكتب، والأوراق، وأشرطة التسجيل، والأقلام، والمجلات، تخاف أن تنسكب تلك القهوة على كتاب كنت تحمله بيدك الأخرى، ووضعته لتحتسي القهوة.. لا مكان ليد ولا لقعر فنجان على تلك الطاولة، تحمل الكتاب مرة أخرى لتضع الفنجان ثم ما تلبث أن تحملهما معاً لتقرأ كثيراً، ولتتجرع المرارة أكثر.

ترفع رأسك قليلاً وتراه..

- كيف جئت؟

- أنا وأنت؟

- لم أشعر بوجودك مطلقًا.

- أنت دائماً تنسى نفسك وبالذات عندما تكون مهتماً بقراءة كتاب.

- ربما.. ولكن..

ربما كان ذلك الشخص الذي لا ترغب أن يشاركك احتساء القهوة، وبالذات وأنت تعلن لكل الأصدقاء بأنه من العبث احتساء فنجان قهوة ومشاهدة مباراة في كرة القدم تبثها إحدى القنوات التلفزيونية كما يفعله أمامك الآن.. قد تجامله كعادتك دائمًا بأن تغلق الكتاب الذي بيدك، وتقضي على ما تبقى من القهوة وتسأله: «كم النتيجة»؟ على الرغم من أنها لا تعني لك شيئًا.

- يعجبني حماسك.... تشجع البرازيل.

- لا.. أشجع.. جمهور النساء اللاتي يرقصن السامبا.

تصفعه إجابتك لا سيما وهو يعلم أنه في مجتمع رجولي، كالشقة التي تسكنها لابد من البحث عن مواطن أخرى للجمال غالباً لا تكون المرأة من ضمنها.

ينتهي الصخب الذي أحدثه ذلك الشخص... ليطرح مشروعه الذي لا يقل صخبًا للذهاب إلى المقهى حيث الأصدقاء... تعتذر في البدء لرغبتك في قراءة بعض الصفحات من كتاب أثار جدلاً عندما نشر بلغته الأصلية..

- بإمكانك أخذه معك، ولك أن تجلس في مكان هادئ لتقرأ هناك؛ إذا لم يعجبك حديث الأصدقاء.

وكعادتك تخضع لمشروعك هذا... تغادران شقتكما، ولرغبته بالتحدث إليك، ولتريح عينيك كما أقنعك... تستقل سيارته لتجلس على المقعد الأيمن، وتستمع إلى أغان شبابية صاخبة تبثها محطة إذاعية... تطلب إغلاق المذياع فيؤكد أنك ستستمع بعد قليل لأغنية جديدة لفيروز تلك التي أحببتها كثيراً، وتتمنى أن تنشلك فيروز من ضجيج تبثه تلك الأغنيات... تصلان إلى المقهى وفيروز حلم تبخر...



تقابل الأصدقاء.. تحيط بكم أجهزة تلفزيون مختلفة لقنوات مختلفة تقترح بأن يكون جلوسكم في مكان أكثر هدوءاً.. يوافق بعضهم وينصاع البقية قسراً، فتشعر بالسعادة قليلاً لابتعادك عن صخب وسط المقهى، وأن هناك مجالاً للحديث بينكم قد يكون مجدياً.. بعد أن يسجل النادل طلب كل واحد منكم.. يترنم أحدهم بمقاطع من أغنية شعبية رديئة فتتمنى أن تلقمه حجراً فيغضب صديقك لضجرك.

- لا أدري لماذا لا تحب هذا المغني؟

يواجهك السؤال بحدة وينتظر الجميع إجابتك.

- وهل هو حقًا مُغَنٍّ؟ صدقوني لا يعجبني مطلقًا أبدًا.

تجدها فرصة بأن تتحدث بإسهاب عن الغناء الجيد، وخامة الصوت المتميزة التي يجب أن يتسم بها كل فنان، وأن هنالك غناءً يدعو للانفتاح على الآخرين لا إلى التقوقع في محلية ضيقة غالباً تكون غير مفهومة.

- حلوة «تقوقع» هذه.

تصفعك هذه المداخلة.. ويكمل آخر:

- رجاء بلا فلسفة.

بشيء من الهدوء تقول: هي ليست فلسفة بل إقناع بما هو صحيح.

- كأنك لست من عامة الناس.

- ماذا تعني.

- هؤلاء المطربون الذين لا يعجبونك نبعوا من الشعب، أنت منهم شئت أو أبيت.

أنا لا أعمّم ولكن..

- ولكن لماذا.

ويضيف الآخر بحنق:

- يا أخي دعه.. قرأ كتابين، وبدأ يتفلسف علينا.

تشعر بالغليان.. يحاول صديقك مراعاة لشعورك أن يغير مجرى الحديث.. تصاب بالإحباط عندما تفقد اللغة المشتركة معهم..

تبحث لك عن مكان قصي فيقابلك الصخب في كل مكان تذهب إليه، تغادر المقهى مشحوناً بالغضب.. الصخب يحيط بك، أصوات الناس، هدير السيارات، يلحق بك صديقك ويطلب منك العودة إلى بقية الأصدقاء، تخبره بأنك ستذهب لشراء صحيفة يومية وستعود. تجد أنها حجة معقولة للابتعاد عن صخبهم ولو دقائق معدودة، تحاول اجتياز الشارع، تصطدم بإحدى السيارات المسرعة، يرتطم جسدك بأرض ترابيه.. تفتح عينيك، تجد البياضَ حولك، وقدميك كتلتين من الجبس.. تبتسم امرأة بجانبك تلبس ملابس بيضاء..

- الحمد الله على السلامة.

تنظر إليها.. كانت تقف بالقرب من سريرك.. تحمل بيدها الكتاب الذي كان بحوزتك..

تنتبه لنظرتك..

- عفوا.. هذا الكتاب كان معك عندما وقع الحادث.. عذراً إذا كنت تطاولت قليلاً وبدأت بقراءته.. حقيقة هو مثير للجدل.

- تكاد تدمع عيناك.. ألمًا وسعادة..

- هل تريد أن تأكل شيئًا.. شاي.. قهوة..

تنظر إليها.. تتمنى أن تجلس بجانبك.. لتتعرفها كثيراً.. هي الآن تؤدي عملها في ذلك المستشفى الكبير.. تستجمع قواك وتقول لها:

- قهوة.. لا أريدها مرة.. وإذا أمكن لو تستقطعين من وقتك قليلاً لنتحدث حول هذا الكتاب.

تبتسم لك.. تشعر بانتعاش فقدته منذ زمن طويل.. تضع الكتاب بجانبك وتغادر الغرفة لتبقى وحيداً بانتظارها.. مع فنجان قهوة.

بيت العنكبوت

أحمد محمد عيسى

إذا كان أبناءالبلد الشجعان يقولون: إن الرجال معادن، وبعض علماء الأحياء الطبيعية يؤكدون أن الرجال من سلالة القردة والنسانيس؛ فإن المعلمة «تفيدة» تُقسم بأغلظ قسم أن الرجال أصلهم من الطير!!

والمعلمة امرأة قادرة، تاجرة «ماهرة» يتحول التراب في يدها إلى تبر، تعرف كيف تصطاد القرش من الهواء والماء؟ وتأتي به ولو من تحت الأرض! لها في كل سوق زبون وبضاعة، ولها على النفوس نفوذ وطاعة. ومع ذلك فقد حُرمت من نعمة الذرية حتى أوشكت على سن اليأس، ولما فقدت الأمل واسودّت في وجهها الدنيا، وضاقت بها الحياة حتى أصبحت كثقب إبرة فُرجت، وشاء الله أن تحبل وتلد طفلة حظها من الجمال كحظ حرباء الشجر أو دود الحجر، ومع ذلك.. وعناداً للشامتين.. أسمتها «بدر البدور». وكان الأطفال أكثر شجاعة وصراحة من الكبار - الذين نافقوا للمعلمة خوفًا وطمعًا - فتجاهلوا الاسم الجميل، ولم ينادوها بغير «ضفدع البرك» بسبب منظرها القبيح، وصوتها النشاز الأجش.

وعندما دخلت مرحلة المراهقة أطلقوا عليها «النخلة الذكر» والسبب أن «خرّاط الصبايا» عندما طرق بابها ليجهزها لعالم الأنوثة والجمال أخفق في تدويرها أو حتى تربيعها، وتكسرت تروسه وأسنانه، فانصرف عنها خائبًا، غاضبًا، وأقسم ألا يعود إليها مرة ثانية، فطال عودها حتى أصبحت كالنخلة الذكر التي لا ظل لها ولا ثمر! وازداد قلق أمها عليها، فكانت تندب حظها حينًا، وتلطم خدها حينًا آخر. ولما كان والدها مرهف الحس، فقد مات من الكمد والحسرة، وتركها في كنف أمها التي كانت على ثقة بأن الله الذي خلق لإناثِ البقّ ذكوراً قادر سبحانه أن يقيض لابنتها الدميمة زوجًا!!

ذهبت إلى العرّافين والمشعوذين لعلها تجد عندهم حلاً، لكنهم - بالإجماع - صرخوا في وجهها لما رأوا ابنتها: طريقك مسدود، الداخل فيه مفقود، والخارج منه مولود، ودربك مهجور يا بدر البدور.

ذات صباح جاءت إلى المعلمة إحدى جاراتها وهي تزغرد فرحة، أخبرتها أنها رأت في الحلم بدر البدور عروسًا في «الكوشة»، وبجوارها عريس كالقمر في المحاق وذراعه مفقودة.. وعينه مفقوءة! بُهتت المعلمة وأحست بالخزي والهوان، لكنها رسمت ابتسامة صفراء باهتة على شفتيها وهي تقول: لا بأس.. الرجل لا يعيبه سوى جيبه.. وعلى رأي المثل.. ظل رجل ولا ظل حيطة!

انتظرت المعلمة تحقُّق حلم الجارة، فأخذت تحملق في الرجال، وتتفحص عيونهم وأذرعهم لعلها تجد ضالتها، فظل الناس بها الظنون، وذات صباح رأته جالسا أمام المرحاض العمومي في الميدان الكبير، وأسراب الذباب تحط على وجهه الناحل المترب كأيام الحسومات! وذراعه اليمنى مبتورة مفقودة، وعينه اليسرى مفقوءة! يلمّع أحذية المارة. انقبض صدرها وتحسرت على ابنتها، لكنها استسلمت للقدر. وبكل مكر النساء وكيدهن نصبت شباكها على برغوث البحر، ونسجت خيوطها بمهارة العنكبوت - على ذبابة البر المدعو «غَلبان العدْمان» - وهذا اسمه في بطاقته الشخصية - وزوجته الحسناء الخنفساء «بدر البدور» ابنة الخمسة عشر ربيعًا، وبشهادة تسنين مزورة قفزت بسنها إلى عشرين!!

استنكر بعض العقلاء ما فعلته المعلمة قائلين لها: كيف تزوجينه البنت وهي لازالت طفلة؟! أجابت في حدة: زواج البنات سُترة وأريد أن أفرح بها، وأحمل أطفالها الذين حرمت منهم طويلاً.

وفي ليلة الزفاف، همست المعلمة في أذن ابنتها بالنصيحة المتوارثة عند بنات حواء «يغلبك بالمال اغلبيه بكثرة العيال، فلا تنسي أن تقصقصي طيرك حتى لا يؤلف بغيرك»، وعندما سمع همسها بعض الخبثاء انفجروا في الضحك حتى ارتموا على أقفيتهم، فالغلبان لم يكن له جناح لينمو عليه ريش أو حتى زَغَبْ.

ونفّذت بدر البدور النصيحة وحملت في الليلة الأولى. وفي يوم «الصباحية» ترك العريس عش الزوجية ـ أو بالأحرى بيت العنكبوت ـ وخرج يسعى وراء رزقه، وفي السوق كانت «رتيبة» بائعة الطماطم تجلس عن يمينه، على مرمى عينه المبصرة.. وهي مطلّقة في الثلاثين من عمرها جميلة، مثيرة. ومع أن الغلبان لم يكن فيه أي شيء يجذب أقبح أنثى؛ إلا أن «رتيبة» مالت إليه، ورأته في مرآة الحب العمياء وسيمًا، وما هي إلا أيام حتى تحدث الناس والباعة في السوق بقصة الحب العنيفة التي جمعت بين ماسح الأحذية وبائعة الطماطم. ولما علمت بدر البدور اشتعلت الغيرة في قلبها، واستعانت بأمها التي أرادت أن تطرد غريمة ابنتها من السوق المزدحم دائمًا بالناس والباعة، وكادت الحرب أن تقوم بين المؤيدين والمعارضين لقرار المعلمة، لولا تدخل بعض العقلاء الذين رأوا حلا وسطًا لا ينقطع به رزق «رتيبة»، ولكنه يبعدها عن مكانها بجوار «الغلبان».

ومرت الأيام والشهور، ووضعت بدر البدور مولودها الأول.. أنثى نسخة طبق الأصل من أمها، بعد أن تعرضت حياتها لخطر أكيد في أثناء الولادة بسبب ضيق حوضها، وتعسر الولادة، والنزيف المصاحب لها لصغر سنها، وعدم اكتمال نمو جسمها. أتت المعلمة مسرورة بخصوبة ابنتها، وختانها وهي تحمل لها أصنافًا كثيرة من المأكولات وأشياء كثيرة لزوم (سبوع) المولودة. حزن الغلبان؛ لأن زوجته ولدت أنثى.

زفر بضيق: كنت أريدها ولدًا أتفاخر به، وليست بنتًا أخجل منها، وأتوارى من الناس! دفعته المعلمة في صدره قائلة: وما لها البنت يا عدمان؟ إن والد البنات مرزوق. وعلى رأي المثل «ومن يسعدها زمانها تخلف بناتها قبل صبيانها».

تنهد الغلبان قائلاً: رحم الله أمي كانت دائمًا تقول: «أم البنات في الهم للممات! أما الولد فعز وسند ومدد».

خرجت بدر البدور عن صمتها قائلة: على رأي المثل: «لما قالوا: ده غلام شدوا ظهري بالحزام وجابوا لي البيض مقشر وعليه السمن عام، ولما قالوا دي بنية ظلموا الأوضه عليّا وجابوا لي البيض بقشره وعليه السمن ميّه».

قالت تفيدة: البنت زي الولد. المهم تحسنوا تربيتها لأجل أن يرضى عنكم الله، ويدخلكم الجنة. وأعيش لما أشوفها معلمة.

قالت بدر البدور: تقصدي مُعلمة يا أمي.

قال الغلبان: رحم الله أمي.. لم تخيب بطنها ولا مرة واحدة. خلفتنا عشرة رجال.

قالت تفيدة بسرعة: المرأة كالأرض، والرجل هو الذي يحرث ويبذر.. والزرع زرعك.. وعلى رأي المثل «العيب في الماء وليس في الإناء»!!

تركهما الغلبان إلى السوق، ولم يفصح لهما عن سر عقدته من البنات. كانت له أخت توءم يحبها حبًا جمًا، ولما كبرت وأصبحت فتاة رائعة الجمال أحبت جارهم، ولما علم بذلك والده وكان جبارًا غليظ القلب يعدّ الحب خطيئة دس لها السم في الطعام، فماتت، وهو غير قادر على البوح بالحقيقة. ترك بلدتهم في «الصعيد الجواني»، وهرب على سطح عربة نقل اصطدمت بشجرة ضخمة، وكان الحادث مروعًا فقد فيه عينه وذراعه.

قالت المعلمة لابنتها: لن يرضى عنك حتى تلدي له الذكر. شدي حيلك ولا تتوقفي عن الحمل والولادة، وحتى تأمني خيانته، ويصبح خاتمًا في إصبعك اسحري له على صندوق تلميع الأحذية.

انتهز الغلبان فرصة انشغال زوجته وأمها عنه، وأخذ يتقرب إلى رتيبة حتى هام بها عشقًا. علمت بدر البدور بنصيحة أمها، وسحرت لزوجها، ونفذت القول المأثور: «يغلبك بالمال اغلبيه بكثرة العيال» حملت على الأربعين وبعد تسعة أشهر وضعت أنثيين توءمتين، فازداد الغلبان منها نفورًا، ثم ترك صنعته ليبيع الطماطم بجوار رتيبة. ازداد قلق بدر البدور، فقد علمتها أمها ألا تأمن للرجال؛ لأنهم ـ على حد قولها ـ كالماء في الغربال! غيرت السحر المنقوش على الصندوق إلى «عمل» قامت بحشوه في باذنجانة، وثبتتها في بطن عربة الطماطم ليكره الغلبان «رتيبة»، ويعود إلى عشها، ولكن الغلبان أبى إلا أن يجلس على يسار «رتيبة» ليستمتع بجمال وجهها وشباب قوامها الذي لم توهنه ولادة أو حمل، ولم تضعفه رضاعة أو سهر.

وحملت بدر البدور للمرة الثالثة ثم ولدت أنثيين توءمتين؛ وأصبح الغلبان والدًا لخمس بنات. ضاق صدره، واشتد كربه، وأيقن أن عشرة بدر البدور لن تجلب عليه إلا المصائب، وليس ببعيد أن تتكرر مأساة أخته مع إحدى بناته، فقرر أن يفر بجلده من بيت العنكبوت، وأن يتزوج رتيبة الجميلة فتلد له الولد، وتقرّ عينه، ويرتاح باله.

ولما طال غياب الغلبان عن بدر البدور ذهبت إلى السوق تسأل عنه، فوجدته يعانق الباعة واحدا تلو الآخر، ويوزع عليهم الحلوى وأكواب «الشَربات».. ولم لا؟ وقد نمت له أجنحة وتزوج رتيبة، لكنه كان ـ في الحقيقة يبني قصرًا في الهواء ويحرث حقلاً فوق الماء؛ لأنه لم يكن يعلم أن «رتيبة» عاقر تزوجت قبله ثلاثة رجال، ولم تحمل أبدًا.

الثور الأبيض اليشمي

قصة قصيرة تايوانية

آه شنغ*

ترجمة : الحسان الرزاقي

كان رجلاً عجوزاً أسمر نحيلاً بوجه صغير وساقين قصيرتين، ولم يدر أحد متى ظهر أول مرة أمام مبنى فخم يقع في طريق تشونغهسيا المزدحم، قرب قاعة صن يات صن التذكارية، ولا يستطيع بواب المبنى، وبالتباس، أن يتذكر إلا أنه قرب رأس السنة الصينية لسنة ١٩٨٥م لاحظ أول مرة أن هناك شيئًا شاذاً في سلوك الرجل العجوز، وفي ذلك اليوم من السنة، كانت الشوارع غاصَّة بأناس يحملون ملء أذرعهم من مشتريات السنة الجديدة، وكان العجوز جالسًا على حافة أمام نافذة متجر تعرض فيه ملابس زاهية ، أخذ البواب فكرة سريعة عنه حينما خرج لشراء الغداء، ولم يلق نظرة عن قرب على الرجل العجوز الذي يبدو في الثمانين من عمره، بل اعتراه شعور بالسخافة، فقبعة الرجل السوداء البالية، وثيابه القاتمة الغامقة في تناقض غريب مع الشباب المتزيي بالجديد الحديث (الموضة) والمستعد على مايبدو للتطلع عبر نافذة العرض في كل لحظة.

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام، ظهر الرجل العجوز مرة أخرى حول باب البناية، ولم يتبق لرأس السنة الصينية غير أسبوع، وكان الجو بارداً وممطراً، ولكن لا يبدو أنه يرتدي ملابس إضافية. نظر إليه البواب نظرة أطول هذه المرة مدفوعًا بتيقظ مهني بديهي، إن نظرة فاحصة عن قرب تشي ببياض لحيته الكلي ، شعر البواب بالتأكيد من أنه لا يشكل خطراً من أي نوع، إنه، في أسوأ الأحوال، شخص غريب الأطوار.

ومرت الأيام، وفي ظُهر اليوم السابق لرأس السنة الصينية شاهد البواب الرجل الوحيد وهو يمر به، وفي هذه المرة أحس بقدر من الارتياب ـ ما خطب الرجل العجوزياترى؟ هل ينوي الجلوس على حافة النافذة حتى في عشية رأس السنة الصينية؟ هل ينتظر أحداً؟ قد يكون الرجل العجوز مولعًا بالعزلة، لكن ذلك ليس مسوغًا لجلوسه منفرداً مراراً على المرمر البارد كالثلج بتحديقة شاردة على وجهه.

فتح البواب الباب الخارجي الثقيل، وكما هو متوقع ، كان الرجل العجوز في الموقع السابق كما في السابق.

ـ يا عم، هل تبحث عن أحد؟

رفع الرجل العجوز رأسه، وبدا مذعوراً. ولكنه يبدو أيضًا أنه لا يفهم اللغة التي تحدث البواب بها.

ـ يا عم أقول هل تبحث عن أحد؟

لم يوقع القليل من التايوانية المكسرة التي لفظها البواب الأثر الكبير في الرجل العجوز، وفي تلك اللحظة مر شاب خارج المبنى، لوح له البواب، ولما فهم التلويح اقترب الشاب من الرجل العجوز: «يا عم، لقد سأل أكنت تنتظر أحداً؟» قالها الشاب بالتايوانية، حينئذ بدأ الرجل العجوز في الفهم، ولكن جسده المنحني ظل ساكنًا، فقال:

لا أنا فقط أجلس هنا.

تبادل الشاب بعض الكلمات مع البواب، فقررا دعوة الرجل العجوز للجلوس في الداخل، «يا عم إنك تأتي نحو المكان كثيراً، فهل تريد شيئًا؟ قل لنا قد نستطيع فعل شيء من أجلك».

ظهر السرورعلى محيا الرجل العجوز لكنه ظل محدقًا إلى الأرض، وبعد برهة طويلة قطع حبل الصمت فقال:

أنا هنا لرؤية أسلافي وأبي.

صعق الرجلان الآخران مما قاله: رؤية أسلافك؟

«نعم، هذا صحيح» قال الرجل العجوز.

أبوك المكرم، أقصد، هل يعيش والدك هنا؟» سأل الشاب.

آه، وكان ذلك منذ ثلاثين سنة. تنهد الرجل العجوز. تبادل البواب والشاب النظرات، وبعد بعض الكلمات بالمندرينية اتفقا على الاستمرار في طرح الأسئلة:

يا عم كم تبلغ من العمر؟

اثنتين وثمانين سنة.

يا عم كم عندك من الأبناء؟

ثلاثة أبناء وبنتان.

أين تقطن؟

«شيباي، غير أن أبي كان يملك أرضًا حول هذا المكان، من هنا إلى الشارع المقابل، وكل هذه البسطة من الأرض كانت غيضات أرز في ملكنا».

تحول الشاب إلى البواب وتحدث معه برهة بالمندرينية، حينئذ بدت بعض الأشياء تتضح له هل العم هنا لرؤية الموضع القديم؟ سأله الشاب هل قطنت هنا من قبل؟

نعم لكن الأرض هنا بيعت منذ خمس وعشرين سنة، ويوجد قبر والدي إلى اليسار تمامًا من مكان الباب، كم كنت عاقًا لقد تحطمت كل أحجار القبر ذات مرة... أسلافي أيضًا دفنوا في الحقل، انظر أستطيع التذكر بكل وضوح ، في المكان الذي يوجد فيه المصعد حاليًا دُفن أبي، وبجواره توجد جدته، أسلافنا من ثلاثةأجيال دفنوا في الجانب الآخر من الشارع... أما قبر جدي، دعني أر، فيلزم أن يكون إلى اليمين من الباب.

ظل الرجل العجوزيشير إلى مواقع القبور لا كلل، ثم ساد صمت مطبق، وكان البواب قد هيأ كوب شاي للرجل العجوز، ولما ناوله كوب الشاي لاحظ أن الرجل العجوز يبكي، وقبل أن يتمكن الشاب من طرح



المزيد من الأسئلة، شـرع الرجل العجوز في الحديث مـجدداً وهو يتوقف مراراً كأنه يهـمهم: عدة سنوات، كثيـراً ما أتى إليَّ والدي وزجرني على نكراني لجميله، وفي أحـلامي كان يضربني قائلاً: بأنه مـا كان ينبغي لي بيع غياض الأرز، أخـفقت في استعـادة كل عظامه حينما أخـرج جسده من قبره، عظم لوحه... فُقد عظم من فـراشة كتفه، في أحلامي ، كنت أرغب في طمأنته بأنني سأمضي للعثور عليه، ولكن بعد بضعة أيام، أتى مجـدداً وزجرني لأني لم أف بوعدي. وفي واقـع الأمر عندما أفكر فـيه، كان ممكنًا ألا أعـمل العمل كَاملاً فـقد أفقد عظمـة أو عظمتين أثناء نقل القبر... قد لا أجد كل العظام... فـأنا فوق الخمسين آنذاك، وكان أبنائي الثلاثة يطلـبون مني المال على الدوام. وكان عـسيراً عـلى رجل مثلي ألا يُذعن لطلبات أبنائـه، لقد أصبحت هرمـاً حقًا لا يغـفر لي والدي... ويا للتعاسة لم أحلم قط دون أن يأتي لرؤيتي، أما عن العظام المفقودة فلم أدر ما أقوله له... فقبل أن يموت قـال مرارًا وتكرارًا: إنه عند الضـيق والشدّة إذا اضطررت لبيع الأرض فينبغي عليّ بكل حـال من الأحوال الاحتفاظ بالجزء الذي يحوي قـبور أسلافنا، لكن أبنائي الثلاثـة رفضوا. قلت لأبي في أحلامي ألا يغضب، ووعدته بزيارته في موقع قبره حتى أموت، وكم كان الأمر غريبًا، وافق ولم يعد أبدًا مرة أخرى لزجري.

استمع البـواب إلى ترجمة تقريبيـة للقصة، فتبـللت مقلتاه، ومع أن الشاب خمن أنه من المحـتمل أن يكون تفكيره في وطنه بالبـر الصيني قد جـعله عاطـفيـًا، ولم يسـأل مخـافـة أن يتطفل فـقال بأنه يتـوجب عليـه الانصراف، وعند مغادرته رافق الرجل العجوز إلى الخارج .

انتهت احتـفالات رأس السنة الصينية الجـديدة، وفي اليوم الخامس من السنة الجديدة جاء العجوز إلى المبنى مـرة أخرى، وفتح البواب الباب ودعاه للدخول ثم هيأ الشاي لكليهمـا، وعلى الرغم من اختلاف لغتيهما تحادث الاثنان بود، وفي الحقيقة بدلاً من مـحادثة في اتجاهين كانت أشبه لرواية كل جـانب لقصتـه، ومع أن اللغة التي يـتحـدث بها البـواب هي المندرينية بلكنة هونان تتخلها تايوانية متعثرة، وهذا لا يبدو أنه أحدث أي انقطاع في التواصل، استمع إليه الرجل العـجوز بنصف فهم، وكان قادراً على قطع حديثه أحيانًا .

حكى البواب عن مـاضيـه فيمـا يشبه الحلم عن الـفلاحة في قـريته الأصلية وعن التحاقه بالجيش والحرب والفرار من العدو وفراقه عشيرته... وحينما تمكن الرجل العجوز من فهم تفـاصيل مهمة أجرى بعض الدموع أسوة بالبواب.

التـقى الرجل العـجـوز مع البـواب ثلاث مـرات أخرى قـبل عـيـد الفـوانيس، وفي اليـوم الخـامس عشـر من السنة الصـينيـة الجـديدة ـ وفي إحـدى المناسبـات ـ انضم إليهـما الشـاب الذي عمل مـترجـمًا، تحـدث ثلاثتهم إلى ما بعد الظهر بكامله على الشاي، وشرع البواب يغني أغنية من موطنه، استـمع الرجل العـجـوز ثم ضـحك مقتـرحـًا أن يتـبنى البواب ولدًا له، وهكذا نـظمت حـفلة تبن رسـمـيـة مـدة ثلاثـة أيام بعـد عـيـد الفوانيس، غـير أن الرجل العجوز لَم يـعد يظهر قط؛ وبعد عـشرة أيام من عيد الفوانيس أتى رجل في الأربعينيات من عمره إلى المبني لرؤية البواب، وقال: إن اسمه العائلي هو «تشانغ» وأنه يقطن في شيباي.

قـال الزائر: «طلب مني أبي المجيء هنـا ومقـابلة بواب يسـمى «ليـو هسينغهو»

فأجاب البواب: إنه أنا ماذا أفعل من أجلك؟

السـيد ليـو .. توفي والدي منذ سـبعة أيام.. وطلب إليَّ أن أقـول لك.. يومين قـبل أن يموت قال: إنه قـد تبنى ولدًا . هل هو أنت؟ لا بدأن تكون إياه، سأناديك بالأخ الثـالث. هذه هي (وثيقة) التـبني، لقد كتبـها والدي، علاوة على ذلك فإن له بعض الأشياء خصّك بها.

استمع الـبواب لزائره كأنه في غيـبوبة فجرت الدموع عـلى وجهه، وأخذ العقدة، وفتح الرزمة التي ناوله الزائر إياها.

احـتـوت الرزمـة على ثور أبيض من اليـشـم وعلى قطعـة دائرية مسطحـة من اليشم البني بحـجم نصف راحته في وسـطها ثقب، وفيـها أيضًا ثلاث قطع نقدية إمبراطورية من الفضة تعود إلى عهـد الإمبراطورة الخاتون .

ولم يعد البواب إلى رشده إلا عندما خاطبه رسميًا بالأخ الثالث:

«أخي الثـالث»لقد طـلب مني والدي أن أخاطبك بـهذه الصـيغـة، ويريدك أن تلبس القطعة اليـشمية الدائرية حول عنـقك، أما الثور الأبيض اليشمي فهو ميراث عائلي، لقد قال بأنك ولدت في سنة الثور.

الهوامش :

• آه شنغ: هوالاسـم الأدبي للكاتب التـايواني ليـانغ مين شنغ ، ولد سنة ١٩٥٠م وألف الكثيـر من الروايات والمجموعات القصصية.

المرجع باللغة الإنجليزية:

Free China Review. Vol 45, No: 3 pp:58-61 March 1995.

قصص من الحياة في الصين

زانغ شين وسانغ يي
ترجمة: محمد رمضان علي

راكبة الدراجة

لا مانع لديّ على الإطلاق. ولكن لا أخفي عليكم أنني مندهشة، امرأة من غمار الناس تستخدم دراجة في الذهاب إلى العمل يستوقفها صحفيان نابهان في الطريق، ويطلبان منها الإدلاء بتصريحات! هذا أمر عجيب! المألوف أن نجوم المجتمع وحدهم من الوزراء والساسة والنابغين هم الذين يحظون باهتمام القراء.

اسمي «زاو شولان» سني ٢٩ سنة من قومية هوى، مرتبي الشهري الأصلي ٤٧ إيوانًا، يضاف إليه ٢٠ إيوانًا لاعتبارات مختلفة من بينها أنني مسلمة، ومطعم الشركة التي أعمل بها يقدم وجبات غذائية تحرمها الشريعة الإسلامية. عملي خبيرة في إدارة الإحصاء. ومن طبيعة هذا العمل أنني أمر على جميع مكاتب الشركة، في مختلف أنحاء المدينة.

تعلمت قيادة الدراجة منذ أن كنت طالبة في المدارس، وكنت في بادئ الأمر أتجنب الشوارع الرئيسة، وأوثر الجانبية، ولكني تجرأت بالتدريج. أستخدم دراجتي منذ عشرة أعوام. أما أبي فقد ظل يستخدم دراجته ثلاثين عامًا.

أقود الدراجة في الحر والبرد، وفي الجو العاصف الممطر على السواء، ولكن إذا نزلت الثلوج والبَرَد لا أجازف بركوبها إطلاقًا، لأن حوادثها عندئذ كثيرة ومميتة. أضطر في هذه الأحوال إلى ركوب الحافلات العامة، التي يتكدس الناس فيها كالسردين، ويكون الجو فيها خانقًا، والروائح المنبعثة من الجوارب القذرة، ومعاجين الأسنان، ودهون شعور النساء مقززة.

يقع بيتي في حي يونغ دنج، أي في أقصى الغرب، ومكاتب الشركة التي أعمل بها في أقصى الشرق، أي إنني أجوب المدينة يوميًا من الغرب إلى الشرق ثم من الشرق إلى الغرب عند العودة إلى بيتي. تستغرق هذه الرحلة أربع ساعات، ذهابًا وإيابًا، ومع ذلك فقد أكون أسعد حظًا من بعض زميلاتي.

منذ عامين، وزعت علينا إدارة الشركة استمارات لنسجل عليها مواقع مساكننا فانتعشت الآمال في احتمال النقل إلى أماكن عمل أخرى قريبة من منازلنا، ثم تبين لنا في النهاية أن الأمر لم يكن يعدو أن أحد الأكاديميين أراد أن يستوفي بعض البيانات المتعلقة بالرسالة التي كان يعدها لجامعته، فعدنا إلى الواقع الأليم من جديد. هؤلاء الأكاديميون يعيشون في أبراج عاجية، بعيدًا عن واقع الحياة.

هل من الممكن لعامل النسيج أن يتبادل العمل مع أحد عمال الحديد والصلب؟

تقول: إنك تبينت في كلامي نغمة فلسفية، أبدًا يا سيدي إنني واقعية تمامًا وأحرص دائمًا على مصلحتي الخاصة ولا أضحي بها إلا في سبيل مصلحة الوطن العليا.

الحصول على دراجة ليس بالأمر الهين، الثمن وحده لا يمثل مشكلة كبرى، ولكن الحصول على «الكوبون» الذي يمكنك من شراء دراجة من النوع الممتاز مثل «العنقاء» و«الحمام الطائر» التي تصمد مع العمل الشاق وعلى مدى سنوات طوال، لا ندفع أية ضرائب عند شراء الدراجة، ولكننا ندفع سنتين اثنين، إنه مبلغ ضئيل جدًا.

وهذا حسن. ولكن ما رأيك في أنني منذ أسبوع؛ أردت أن أشتري لنفسي سروالاً جديدًا؛ فاضطررت إلى المرور على عدد كبير من المحلات على أمل أن أجد السروال المناسب؛ فاقتضاني ذلك أن أدفع لساحات الانتظار ٢٨ سنتًا، وفي النهاية لم أعثر على الصنف الذي يناسبني، وعدت إلى بيتي بخفي حنين.

تسألني فيم أفكر خلال الفترة التي أركب فيها الدراجة؟ في كل شيء: أفكر في أولادي، وفي زوجي، وفي مشكلات العمل، وفي المشاحنات التي تقع أحيانًا بيني وبين زميلاتي. فيم أفكر عندما أوقفتني مباشرة؟ كنت أفكر في هذا الإعلان الضخم المعلق فوق هذا الحائط بخصوص الفيلم السينمائي الجديد، إنه إعلان رديء؛ قلت لنفسي: إن الفنانين المتواضعين الذين يعملون في شركتنا يمكنهم أن يرسموا إعلانًا أكثر جاذبية وإتقانًا.

تسألني عن الحوادث؟ كثيرة بسبب اعتياد الرجال قيادة دراجاتهم بسرعة رهيبة، ولا أستثني زوجي نفسه من هذه العادة السيئة. إنه يستيقظ مبكرًا، ثم أراه يتمهل ويتباطأ، ويذهب هنا وهناك دون مسوغ، اعتمادًا على أنه سيعوض كل هذا الوقت الضائع فيما بعد، بالإسراع في القيادة.

مضايقات الطريق ليست كثيرة والحمد لله، بسبب أنني لست فاتنة ولا جذابة ولا أسرف في استخدام الأصباغ والعطور، وعلى كل ذلك، لا أسلم أحيانًا من مضايقات تلاميذ المدارس. أكبر حادثة وقعت لي كانت بسبب البالوعات التي لا يغطيها أحيانًا عمال المجاري بعد تسليكها. وعندما وقعت العجلة الأمامية في البالوعة المفتوحة انقلبت على وجهي وأصبت ببعض الكسور؛ وتخلفت عن العمل عشرة أيام متتالية للعلاج. أما الدراجة فلم يصبها تلف يذكر. لم أفكر أبدًا في المطالبة بتعويض من المسؤولين عن هذا الإهمال، لعلمي بأن هذه المحاولة لن تجدي. لم يقع لي

غير حادث تصادم واحد، وقد دفع لي الرجل الذي تسبب فيه عشرة إيوانات؛ فحمدت الله على ذلك، ولم أبلغ الشرطة. في مدينة بكين وحدها أربعة ملايين دراجة على الأقل يستخدمها المواطنون، ولا بد أن تزود دراجتك بجرس وقفل وكوابح (فرامل). الجرس لا فائدة منه، فمهما بالغت في الرنين لا يتحرك المشاة الذين يعترضون طريقك. أما القفل فلا بد من استعماله دائمًا، وإلا فقدت دراجتك في أول فرصة، بقيت الكوابح، وأرى أنها حيوية جدًا، لأنها تجنبك من حوادث مميتة. أتوقع أن أحد مخرجي السينما سيفكر يومًا ما في عمل تسجيلي لنا نحن راكبي الدراجات، ثم يحتفظ به في أحد الأدراج، ولا يقدمه للجمهور إلا بعد انقضاء عشرين عامًا، فلعل أولادنا وأحفادنا يرون كيف كابدنا وعانينا في سبيل رعايتهم وتنشئتهم، وكيف كافحنا من أجل الحصول على القسائم «الكوبونات» التي نشتري بها الحبوب والزيوت، وكيف كنا نشقى من الصباح الباكر حتى المساء فوق دراجاتنا من أجل توفير الراحة لهم، ورفعة الوطن العزيز. وسعدتم مساء يا رفاق وإلى اللقاء.

المشرف الصغير

إنني في السابعة والعشرين من عمري. عينت في هذا المكان منذ أن أنهيت دراستي الثانوية. إنني مسؤول عن قسم القصص الأدبية في هذه المكتبة الضخمة، بالإضافة إلى ذلك أقوم بالإشراف على ثلاثة عشر عاملاً.

نبيع الكتب ونسلمها للعملاء بأنفسنا. جربنا من قبل أسلوب المكتبة المفتوحة، ففقدنا في شهر واحد أكثر من ٧٠٠ كتاب. قد يكون هذا الأسلوب أكثر ملاءمة للقارئ ولكنه أكثر ملاءمة للصوص الكتب أيضًا. ولما تضاعفت خسائرنا أذنت لنا السلطات العليا في العودة إلى النظام القديم الذي يقتضي أن يدفع العميل الثمن مقابل الإيصال، ثم يقدمه إلى الموظف المختص، فيسلمه الكتاب يدًا بيد، لم تتوقف السرقات والخسائر تمامًا، ولكنها تضاءلت كثيرًا عن ذي قبل. إذا ضبطنا لصًا ما فرضنا عليه غرامة مالية بطريقتنا الخاصة التي تتلخص في أننا نطلب منه دفع ثمن الكتاب الذي حاول أن يسرقه، ثم نصادر الكتاب. فإذا احتج وطالبنا بالكتاب قلنا له: لا مانع عندنا من إعادته إليك بشرط أن تقدم إلينا رسالة اعتذار رقيقة على أن تكون معتمدة من جهة العمل التي تعمل فيها، وطبيعي أنه لا يحب أن تعلم المؤسسة التي يعمل بها بهذه السقطة من جانبه، فينصرف ولا يرينا وجهه بعد ذلك أبدًا. ماذا تقول؟ هذا العمل غير قانوني؟ لا توجه إليّ اللوم. هذه التعليمات تلقيتها من الإدارة، وفي وسعك أن تقابل المدير، وتبسط له وجهة نظرك.

أتقاضى ٣٨ إيوانًا شهريًا، أدخر عشرة منها لتكاليف زواجي في المستقبل. لا أعول أمًا ولا أبًا. حاولت العثور على فتاة تناسبني، فلم أهتد إليها حتى الآن. لست متعسفًا على الإطلاق. أريدها فتاة طيبة الأعراق. ماضيها السياسي لا غبار عليه. الجمال الصارخ لا يعنيني ولا أتطلع إليه. يكفيني أن تكون شريكة حياتي مهذبة وودودًا.

لا. ليس في العاملين في المكتبة من يحمل مؤهلاً جامعيًا. كلنا من أصحاب المؤهلات المتوسطة حتى المديرون كذلك، وكذلك يزعم بعض الرفاق أنني مرن ولست عنيدًا. هذا أمر ضروري فقد يتهور الإنسان ويحتدّ في الجدل والمناقشة مع رئيسه، ثم يندم على هذا الموقف طوال حياته. ولات ساعة مندم. أنبأتني إحدى زميلاتي أنها جدّت واجتهدت حتى ظفرت بدرجة جامعية ولكن الإدارة تركتها كما هي ولم تفكر في ترقيتها. وبالتحري عرفوا أن أباها حال دون ذلك، بسبب اتجاهاته اليمينية المتطرفة.

لا أحب أن أسبح ضد التيار ولا أحب الطموح ولا أن أكون مديرًا يومًا ما. أفضل الحذر والتأني والسير تحت راية الرؤساء.

أنت تسألني الآن عن سر المهنة؛ لست في حل من إذاعتها، ولكن يمكنني أن أقول لك: إننا وزعنا من مؤلفات ماوتسي تونغ ما يبلغ عشرة ملايين نسخة، وإن المغامرات أكثر الكتب رواجًا. أما أكثرها كسادًا فكتب التاريخ المملة والأشعار الرديئة. لاقت الترجمة الصينية للكتاب الإيطالي DECAMERON رواجًا ساحقًا في السوق، ولكن السلطات العليا لم توافق على إعادة طبعه.

لا. لا. أنت تحاول الالتفاف حول الموضوع وتعيد توجيه السؤال نفسه في صيغة أخرى. حسنًا قصة الرياضي التيانجيني سرت بين القراء كالنار في الهشيم، ولكن السلطات العليا لم توافق على إعادة طبعه. لماذا؟ لا دخل لنا في هذه المسائل الدقيقة. السلطات العليا تدرس الموضوع من جميع الزوايا وهم أقدر منا على التمييز بين الصواب والخطأ، طبعًا أنا من أنصار الإصلاح، ولكن المشكلة كيف يتحقق؟ ليس من الحكمة أن تكسر وعاء الأرز الحديدي لتبيعه في سوق الخردة، ثم تبقى بلا وعاء تأكل الأرز فيه.

ما معنى حشد الجماهير والمطالبة بالديمقرطية وتطبيق سياسة اللامركزية؟ كل هذه المسائل تحتاج إلى دراسة دقيقة متأنية وخبرة طويلة لا يصلح لها غير أولياء الأمور. ثم إن تسويق الكتب مختلف تمامًا عن تسويق الخضروات والفاكهة، وينبغي أن يكون العاملون في سوق الكتب على حذر دائمًا.

قرأت عددًا لا بأس به من الروايات، ولكنني أفضل مشاهدة الأفلام، وأفضل الأفلام الصينية على الأجنبية. الأفلام الأمريكية واليابانية لا تعرف لها رأسًا من ذنب. لا، عدد العاملين في المكتبة ليس أكثر مما ينبغي. لقد وجدنا بالتجربة أن الموظف الذي يبيع الكتاب ويسلمه للعميل ينبغي أن يتفرغ لهذا العمل وحده، ولا شأن له بتحصيل النقود، فهذه مهمة رجل آخر، وبذلك لا يكون هناك فرصة للاختلاس. ليس لديّ مشكلات خاصة، وإذا كانت لديّ فلن أريها لك. لقد ثرثرت أكثر مما ينبغي. قلت لك في جلسة واحدة أكثر مما أقول في عشرة أيام. وهذا لا يليق بالمشرف الملتزم الذي يجب أن يكون قدوة طيبة.

تتهمني بالتحفظ، نعم إنني مثل أبناء جيلي، ولا أحب أن أبحث عن المتاعب، أتريد أن تقابل مديرنا؟ لا مانع تفضل.

العمياء

اسمي «هي بي» أمارس مهنة التدليك في أحد مراكز العلاج الطبيعي. ولدت في أيلول سبتمبر عام ١٩٣٦م، وكنت مبصرة ولكني فقدت البصر في الثامنة من عمري. كان أبي يعمل في ميدان التعليم واتفق أنه نال درجة الدكتوراه يوم ولادتي، فأطلق عليّ هذا الاسم

«بي»، وأنت تعلم أن «بي» باللغة الصينية الفصحى تعني «دكتور»، أما في الإنجليزية فتعني «آلهة الربيع».

نناقش، نحن المكفوفين، أموراً تخصنا ولا تخطر لكم على بال. من ذلك قد نعقد مناظرة حول «فقد البصر»: أيهما أخف قسوة أن تولد كفيفًا منذ البداية أم تولد مبصرًا، ثم تفقد البصر بعد سنوات؟ يقول أصحاب الرأي الأول: إنك في هذه الحالة لن تهتم بسبب الفقدان وقد تتصور أن هذا أمر طبيعي، وما أتيح لك من حواس السمع والشم والتذوق واللمس هي وحدها وسائل الإدراك للناس جميعًا. فيرد عليهم أصحاب الرأي الثاني بأن الفترة التي قضيتها مبصرًا مكنتك على الأقل من مشاهدة أبويك، ومعرفة معنى اللون الأخضر والأصفر والأحمر، ونظل هكذا في جدل متصل دون أن نتفق على رأي موحد.

أتقول: إنني أتكلم بلهجة بكينية فصيحة؟ ولم لا؟ هذا أمر طبيعي، لأنني أدمنت الاستماع إلى المذياع، فتعلمت لغة المذيعين وأتقنت لهجتهم. ولماذا تستكثر علينا نحن المكفوفين أن نتفوق عليكم في أحد جوانب الحياة؟ آه! إنني أسمع الآن أنك تقلب صفحات كتابي الخاص بلغة «برايل»، لغة المكفوفين في كل مكان، إنها اختراع ممتاز حقًا وإن كانت لا تخلو من بعض القصور، خذ عندك مثلاً لذلك كلمة نساء في كتاب برايل الصيني تعني «نساء» في حين تجدها في كتاب برايل الإنجليزي تعنى «مؤنث» لكم وددت لو كان هناك قاموس صيني/إنجليزي بلغة برايل لأتمكن من التفاهم بيسر مع السائحين الأجانب المكفوفين.

التحقت بالتعليم الابتدائي عام ١٩٥٣م، وكنت طفلة عادية تمامًا أسعد أيامي آنذاك يوم أحصل على الدرجات النهائية في بعض المواد الدراسية، ويوم ألبس الملابس الجديدة. بدأت أشعر بصداع مؤلم لا في أثناء اللعب والجري، ولكن عندما أنظر إلى السبورة أو أقرأ في كتاب. وكان الألم يزداد شدة وعنفًا كلما أنعمت النظر، وفوق ذلك كانت هناك غشاوة سوداء أمام ناظري. توجهنا إلى المستشفى من المفارقات العجيبة أنني أبصرت جميع العلامات التي يقيسون بها قوة الإبصار، دون عناء، فظن أهلي أنني كنت كاذبة، وأن الشعور بالألم ادعاء كاذب اتخذته ذريعة للتهرب من الاستذكار. ولكن الصداع العنيف لم يتوقف. أخيرًا فحصني أحد الخبراء وشخص الحالة بأنها ورم في الشبكية، ولا علاج غير إزالة مقلة العين تمامًا. كنت أشفق على نفسي من تشويه وجهي، ولكن الطبيب أفهمني بأنهم سيركبون لي عينًا زجاجية عوضًا عن العين الأصلية، وأنهما متشابهتان في الشكل تمامًا، تمت العملية بسلام، وكان أبي طوال فترة إقامتي في المستشفى يتحفني بالفواكه الغضة، والحلوى الشهية، فحمدت له هذا الصنيع. بعد عودتي إلى الحياة الطبيعية بفترة وجيزة عاد الألم الممض العنيف من جديد ، فأشار الطبيب بالتخلص من العين الأخرى، وهكذا أصبحت عمياء تمامًا.

مكرمة أخرى أذكرها لأبي، وهي أنه طلب من الطبيب قبل إزالة عيني الثانية أن يرجئ موعد العملية بعض الوقت، لكي يأخذني في رحلة ترفيهية أزور فيها مختلف أرجاء البلاد، شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، قبل أن يحول الظلام بيني وبين الرؤية. وكان أبي قد استدان من المؤسسة التي يعمل بها أكثر من مرة، فما عساه أن يفعل لتمويل رحلتنا الجديدة؟ لم يتردد في اللجوء إلى الأصدقاء والجيران حتى تجمع في يده مبلغ ٨٠٠ إيوان، وكان هذا المبلغ يعد رقمًا قياسيًا في ذلك الوقت، تمت الرحلة بسلام كما خطط لها أبي. وقبل إجراء العملية بيوم واحد صمم على أن أشاهد حفلاً ساهرًا في الأوبرا. عانيت مشقة بالغة في الحياة بعد العملية، لأنه لم يكن من الممكن تجنب الاصطدام بأثاث المنزل، ولكن بمرور الزمن ألفت ما قدر لي بالتدريج.

شرع والدي في تسديد الديون التي تراكمت على أقساط، لما نجح أخيرًا في ذلك، وقع فريسة للسرطان، وانتقل إلى العالم الآخر. كم سعدت عندما نشروا في نعيه «إنه مثل يحتذى به في الرجولة والأخلاق، وكان أستاذًا عظيمًا». حاول بعض الخبراء إعادة النظر في علاج المكفوفين بوخزهم بالإبر الصينية، واقتصر هذا العلاج على من كانت أعصاب البصر لديهم سليمة. أما بالنسبة إلى من كان مثلي، وأزال مقلتيه، فلم يكن هناك أمل على الإطلاق، ولا أظن أن العلم سيتمكن من أن يقدم شيئًا في خلال الأيام المتبقية لي في هذه الدنيا.

كانت الإعانة المالية التي تقدّم لي ضئيلة جدًا، ولا تكفي ألبتة لتغطية نفقاتي العادية، ولم يكن أمامي إلا تأجير بعض حجرات بيتي، ففعلت، وتعهد الرفاق الذين استأجروها بأن يقدموا إليّ وجبات الطعام الثلاث، فرحبت بهذه الصفقة. بعد فترة وجيزة دهمتنا الشرطة، فقد ثبت أن هؤلاء الرفاق باشروا نشاطًا محظورًا بإذاعة أخبار وبيان على أمواج الأثير، فقبضت أجهزة الأمن عليّ بتهمة التعاون مع من يقوم بأعمال يجرّمها القانون، وأودعوني في زنزانة واحدة مع سيدة مشلولة، فقد كان القانون وقت ذاك لا يحرّم سجن أصحاب العاهات، لم أعرف الجريمة التي ارتكبتها السيدة المشلولة، فقد كانت أجهزة الأمن تحرم السؤال عن جرائم الآخرين.

ولما أفرجوا عني ألحقوني بهذا العمل الذي ما زلت أزاوله حتى الآن، أستمع إلى محطات الإذاعة كثيرًا، وأقرأ الكتب المطبوعة في مختلف فروع المعرفة، بطريقة برايل، وكثيرًا ما تقمصت شخصيات أبطال الروايات التي أقرؤها. أتقاضى ٤٠ إيوانًا في الشهر، وهو مبلغ لا بأس به على الإطلاق.

كان المكفوفون فيما مضى يرتزقون بالغناء والإنشاد في الطرقات وقراءة الطالع. ومن العجيب أن كثيرًا من المبصرين كانوا يصدقون التنبؤات التي يقولها المكفوفون، مع أن الآخرين لا يعرفون من أين تأتيهم وجبات الطعام التالية. لقد صدق المثل القائل: «إنك تستطيع أن تخدع الناس وتستغفلهم، ولكنك لا تستطيع أن تستغفل معدتك»، بقي لكم أنني من هواة مشاهدة أفلام السينما، وأجد متعة في تتبع أحداث الفيلم. أما الأوبرا فلست من عشاقها ولا أفهم لغتها وأغانيها، اتفق أنهم عرضوا أخيرًا فيلمًا يابانيًا ممتازًا وسرت إشاعة بأنهم سيوقفون عرضه، بعد يومين، ولم أكن قد تمكنت من شراء تذكرة، فطلبت من المحاسب الذي يعمل في مؤسستنا أن يكتب لي على لوحة صغيرة هذه الكلمة «عيد ميلادي اليوم، فهل يتكرم أحدكم بتقديم تذكرة لي؟». وقفت أمام السينما، ورفعت هذه اللوحة فتجمع كثير من الناس حولي، وبعد فترة قصيرة جدًا، وضع أحدهم في يدي تذكرة سينما.

وأحسست بدفء يده.

لا. لا. لا تبك يا رفيقي، فأنا بخير.



قراءة في كتاب إسرائيل شاحاك:

هل اليهودية التلمودية دين؟

سامي عصاصة مراجعة: قسم التحرير

يستهل المؤلف سامي عصاصة كتابه هذا بالإشارة إلى أنه أراده أن «يتحول إلى حملة وطنية تقوم ولا تقعد، تثور ولا تهدأ»، ومتمنياً أن يجد من يمول ترجمته إلى اللغة الإنجليزية، بل العبرية أيضاً، ثم يبدأ بعد ذلك في شرح ما وجده من صعوبات عند كتابته، وبخاصة تلك التي تتعلق بالعثور على المراجع التي يستند إليها في التوثيق.

وتحت عنوان «معتقدات يهودية ثلاثة»، يوضح المؤلف أن هذه المعتقدات هي:

- اليهودية الصافية والأصيلة التي شوهها مدونو التوراة على مر العصور.
- اليهودية التي تستند إلى العهد القديم من التوراة، أي الجزء الذي يعترف به معظم يهود اليوم، وهي محرفة وناقصة ومنقحة ومزيدة حسب الأهواء.
- اليهودية التي تعتمد على تفسيرات التلمود الدموية الداعية إلى الإبادات الجماعية أكثر مما تعتمد على التوراة المحرفة أصلاً، ويضيف المؤلف: «وهي لا تقتصر على الهجمات المسعورة على الأنبياء، فتصفهم بالشر والنجاسة والخبث كالثعالب، وإنما تدعو إلى احتقار كل الأغيار، أي كل ما هو غير يهودي، وسحق نخاع أفضلهم». وبعد هذا التمهيد، يبدأ المؤلف بكتابة «تمهيد» آخر، يؤكد فيه أن العقلية الصهيونية مريضة ومهتزة، وأن رغبة اليهود التلموديين هي ألا يبقى على وجه الأرض إنسان من الأغيار، مشيراً إلى أن الديانة اليهودية المحرفة من حيث المبدأ ليست مجرد إيمان بتعاليم وممارسة شعائر محددة، وإنما هي تبعية عرقية لسلالة ثابتة تنحدر من يعقوب بن إبراهيم عليهما السلام.

ويؤكد المؤلف أن كتابه مملوء «بهجمات صاعقة على خصوم الإنسانية، وخصوم السلام من حاخامات اليهود المتطرّفين الذين حددناهم بالاسم، لكن هذا الهجوم لا يستهدف تلك الشرائح الرائعة في صفوف اليهود المنتشرين في العالم أجمع، وفي فلسطين».

وينقسم الكتاب جزأين رئيسين، الأول: يعالج كتاب إسرائيل شاحاك «الديانة اليهودية وتاريخ اليهود.. وطأة ٣٠٠٠ عام»، والثاني: دراسة تحليلية ناقدة للتوراة /العهد القديم، كما يعرفه الناس اليوم.

ويشير المؤلف أنه حين وضع بالألمانية كتابه «مفتاح العالم القديم» في عام ١٩٥٨م عن القضية الفلسطينية لم يتأثر بالدعاية النازية ضد اليهود، ولكنه حين قرأ كتاب شاحاك، وجد فيه كثيراً مما قرأه في الإعلام النازي، وهو يصف شاحاك بأنه يمثل الإنسانية السمحة البعيدة عن التعقيد، والقريبة من منطق التعايش بين اليهود والعرب في فلسطين من جهة، وبين اليهود وباقي شعوب الأرض من جهة أخرى.

وعن عنوان الكتاب يقول: إنه فصل بين العنوان الأول: قراءة في كتاب إسرائيل شاحاك، والعنوان الثاني: هل اليهودية التلمودية دين؟، ليفصل بين ما هو مقتنع به، وما جاء في كتاب شاحاك.

وتعقب ذلك، سيرة ذاتية لشاحاك، تشير إلى أنه ولد في مدينة وارسو عاصمة بولندا عام ١٩٣٣م، ثم هاجر إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية، وشارك في الحرب ضد الفلسطينيين، ثم عدل بعد ذلك قناعاته، وعمل أستاذاً للكيمياء في الجامعة العبرية.

ويتألف الجزء الأول من الكتاب الذي يتناول كتاب شاحاك من فصول خمسة، هي: اليوتوبيا المغلقة ، والتحامل والمراوغة، والأرثوذكسية والتأويل، ووطأة التاريخ، والقوانين ضد غير اليهود.

ويبدأ كتاب شاحاك بقصة توضح أن يهودياً رفض أن يستخدم الهاتف في يوم سبت لطلب الإسعاف لشخص غير يهودي انهار بالقرب من بيته في إحدى ضواحي القدس، وعندما اجتمع شاحاك مع هيئة المحكمة الحاخامية لتقويم هذا التصرف، فوجئ بالحاخامات توافق اليهودي على تصرفه، مستندين إلى فقرة من مختصر معتمد للشرائع التلمودية.

ويعلق شاحاك على ذلك بأن دولة إسرائيل بعيدة عن الديمقراطية مادامت تنظر إلى غير اليهود تلك النظرة الوضيعة، ومن الآراء التي يطرحها شاحاك أن إسرائيل دولة غير ديمقراطية على عكس ما تدعي؛ لأنها تطبق أيديولوجية يهودية موجهة ضد الأغيار من جهة، وضد جميع

اليهود المعارضين لهذه الأيديولوجية من جهة أخرى، كما يورد الشروط التي تجعل الإنسان يهوديًا معترفًا به، وهذه الشروط حسب القانون الإسرائيلي هي:

«إذا كانت والدته أو أم والدته أو جدة والدته يهودية، أو إذا اعتنق الشخص الديانة اليهودية بطريقة ترضي السلطات الإسرائيلية شريطة ألا يكون هذا الشخص قد تحول في وقت من الأوقات عن اليهودية، واعتنق ديانة أخرى. ففي هذه الحالة لا تعترف إسرائيل بيهوديته بحال من الأحوال».

«ومن طرائف تعليمات الحاخامات التلمودية - وهي بعيدة كل البعد عن روح الديانة المنزلة من عند الله - عندما تريد امرأة أن تعتنق اليهودية أن تجرى لها طقوس خاصة تسمى مراسم التحول، حيث يجب أن يجري ثلاثة حاخامات معاينة لهذه المرأة وهي عارية في «حمام التطهير» وهو طقس معروف لقراء الصحف العبرية كافة. نرى ماذا سيفعل الحاخامات الثلاثة في أثناء خلوتهم بتعيسة الحظ المعجبة بالدين اليهودي والمرشحة لاعتناقه؟ وهل يتصور أي عاقل أن هذا عمل ديني منزل من عند الله؟!!!».

ومن الأمثلة التي يؤكد فيها شاحاك تحكم النظرة العنصرية في إسرائيل، هو أن ما يملكه غير اليهود من الأراضي هي أراض غير طاهرة، أما ما يقع تحت سيادة اليهود هي أرض نقية، وهو يشير إلى أن التوسع الإقليمي بدافع أيديولوجي هو الخطر الرئيس الذي تشكله إسرائيل، كما أن ما يطلق عليهم الحمائم هم في الحقيقة يسعون إلى تحقيق الأهداف اليهودية نفسها، مع تقديم بعض التنازلات التي تعد مجرد خطوة مرحلية، سيتم تصحيحها عندما تزداد إسرائيل قوة، أما إسرائيل، فإنها تضع لنفسها حدودًا لا تفصح عنها، وإن كان شاحاك يرى أنها أجزاء مختلفة من الدول العربية، مؤكدًا ذلك بوجود شخصيات يهودية ترى إعادة إسرائيل شبه جزيرة سيناء إلى مصر خطأً قوميًا عاقبها الله عليه.

الفصل الثاني من الكتاب بعنوان «التحامل والمراوغة»، ويبين فيه أن الحاخامات هم الذين كانوا سببًا في إيجاد «الجيتو» حرصًا على احتجاز اليهود جسديًا وفكريًا داخل أسواره. «وكان صحيحًا حرفيًا آنذاك بأن اليهودي لم يكن باستطاعته حتى أن يشرب كوبًا من الماء في بيت شخص غير يهودي. وكانت القوانين الأساسية نفسها الخاصة بالسلوك تجاه الأغيار سارية المفعول في كل مكان من العالم من اليمن حتى نيويورك».

ويخشى هؤلاء الحاخامات التاريخ اليهودي أكثر من خوفهم من التاريخ العام، ولا أدل على ذلك أن أول كتاب عن التاريخ اليهودي من تأليف عزار يادي روسي من فيرارا بإيطاليا عام ١٥٧٤م كان قد منع بأمر السلطات الحاخامية العليا، بل الحاخامات كانوا يحاولون دائمًا إخفاء التعابير التلمودية البشعة ضد المسيحية والأغيار باستخدام سلاح الرشوة والوسائل الخاصة المستخدمة وراء الستار، وقد حذفت الفقرات العدوانية من الطبعات الصادرة في أوربا بعد أواسط القرن السادس عشر الميلادي، واستبدلت عبارات الأغيار (جوييم GOYIM) وغير اليهود (EINO YEHUDI) و(الغريب NOKHRI) الوارد في المخطوطات والمطبوعات القديمة بعبارات مثل عابد

الحاخامات أوجدوا «الجيتو» لاحتجاز اليهود جسديًا وفكريًا داخل أسواره



قراءة في كتاب إسرائيل شاحاك:

هل اليهودية التلمودية دين ؟

سامي عصاصة

ألمانيا: Hubert Hopf Street 1 a
82031 Grunwald
Germany



تيودور هرتزل

الأوثان والكافر والكنعاني والسامري، وأكدوا هذا المعنى قبل كل فصل من فصول أدبيات التلمود، والأدهى أن هذه العبارات عادت مرة أخرى بعد تأسيس دولة إسرائيل بكل ما تحمله من عنصرية وعدوانية، بل نشر كل ما حذف من التلمود في طبعة رخيصة بعنوان (حيسرونوت شاس HESRONOT SHAS).

وقد تضمن التلمود والأدب التلمودي أقوالاً وقواعد سلوكية منفرة عن المسيح والمسيحية. ويذكر شاحاك أن ابن ميمون، بالإضافة إلى معاداته للأغيار، والنصارى بصفة خاصة، فإنه معاد للسود أيضًا، ويورد نصًا للدلالة على ما ذهبه إليه: «بعض الأتراك مثل العنصر المغولي، والبدو إلى الشمال، والسود، والبدو إلى الجنوب، ومن يشبههم.. فطبيعتهم تشبه طبيعة الحيوانات البكماء، وهم في رأيي لم يبلغوا مستوى الكائنات البشرية».

وقد حرف هذا النص والنصوص المشابهة عند ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، ويذكر المؤلف وقائع تؤكد احتقار اليهود للسود، ومن بينهم يهود، مثل يهود الفلاشا، ومن ذلك طرد جندي من يهود أثيوبيا من عيادة وحدة عسكرية بدافع أن السود لا يحق لهم العلاج.

وعن التناقض في مواقف بعض اليهود، يقول شاحاك: إن «موسى هيس، أحد أصدقاء ماركس الأوائل الذي كان معروفًا ومحترمًا على نطاق واسع كأحد أوائل الاشتراكيين في ألمانيا كشف عن نفسه فيما بعد كعنصري يهودي متطرف. وكانت آراؤه حول العرق اليهودي النقي التي نشرت عام ١٨٥٨م لا تختلف في حقدها وتطرفها عن اللغو حول العرق الآري النقي».

ومن مظاهر تزييف الحقائق عند ترجمة الكتب العبرية إلى اللغات الأخرى أن الحركة الحسيدية التي تمثل استمرارًا بل انحطاطًا للصوفية اليهودية تتمتع اليوم بنفوذ واسع بين قيادات الأحزاب وفي أوساط قادة الجيش الإسرائيلي.

الأرثوذكسية والتأويل

هذا هو عنوان الفصل الثالث الذي عالج فيه شاحاك ثلاث نقاط رئيسة حول الديانة اليهودية التلمودية، فالنقطة الأولى ينفي فيها شاحاك الوحدانية في الدين اليهودي، وفي الثانية يقول: إن هناك فكرة مضللة، وهي أن اليهودية ديانة توراتية، أما النقطة الثالثة فتتعلق بما يمارسه اليهود من خدع للتحايل والحصول على المال من دون حق، وأن هذا التحايل لا يكون إثمًا إذا كان في حق الأغيار.

ويورد شاحاك فقرة عن أسس اليهودية التلمودية للدلالة على عدم إيمانها بالوحدانية، تقول: «انبثق أو وُلد من العلة الأولى إله ذكر أولاً يدعى الحكمة أو الأب، ثم إلهة أنثى تدعى المعرفة أو الأم. وقد ولد من اقتران هذين الاثنين زوج من الآلهة الأصغر، الابن ويطلق عليه أسماء عديدة من بينها: الوجه الصغير أو المقدس والمبارك، والابنة وتسمى أيضًا السيدة أو ماترونيت..».

ويعلق على ذلك مؤلف الكتاب بأنه لم يستطع فهم الفقرة أو إدراك مضمونها بمنطق مقبول يتفق مع العقل المجرد، ثم يركز على نقطتين رئيستين، وهما: اقتناع اليهود بأن إلههم الأمثل والأقوى، واستخدام الأحزاب المعتقدات الغيبية عن جمع الإلهين الشابين في المعركة السياسية.

وعن أن اليهودية ليست ديانة توراتية يذكر شاحاك أن الآيات التوراتية تفهمها اليهودية الكلاسيكية بمعنى مغاير تمامًا لمعناها الحرفي، وأن اليهود الأرثوذكس قلبوا كثيرًا من شرائع التوراة إلى عكس أحكامها، ثم يأتي شاحاك بأمثلة على المناقشات العقيمة التي يقوم بها الحاخامات، وما يمارسونه من خداع بدعوى الفتوى. كما هو في تحليل الربا، كأن يأخذ القرض مسمى الاستثمار، أو أن يشار إلى الفائدة على أنها جزء من الأرباح.

ويأتي شاحاك بأمثلة ساخرة واقعية على تحايل اليهود الأرثوذكس على التعاليم التلمودية، ومن ذلك استخدام الأغيار في أداء الأعمال في أيام السبت؛ ويورد شاحاك هذه القصة الطريفة: « وإليكم الآن ما يجري عمله في الواقع، يذهب أحد المستوطنين الأتقياء صباح يوم السبت إلى حظيرة البقر، ويضع أوعية تحت الأبقار، لأنه لا يوجد حظر على هذا النوع من العمل في الأدب التلمودي كله. ومن ثم يذهب اليهودي التقي إلى الكنيس ليصلي، فيأتي رفيقه بعده إلى الحظيرة مدفوعًا بنية صادقة تهدف إلى تخفيف آلام البقر، بجعل حليبها يسيل على الأرض، ولكنه يفاجأ بوجود أوعية تحت ضروع البقر، فهل يصبح هذا الرفيق مجبرًا على استبعادها؟ بالطبع لا! ولذلك نجده يتجاهل الأوعية ويؤدي مهمة الرحمة التي جاء من أجلها، ثم يذهب إلى الكنيس، ويأتي أخيرًا رفيق ثالث من الأتقياء إلى حظيرة البقر ويكتشف لدهشته العظيمة الأوعية المليئة بالحليب، فيحملها إلى البراد، ثم يلحق برفاقه إلى الكنيس».

قادة الصهيونية رفضوا مبادرة أمريكية لإنقاذ اليهود من الاضطهاد النازي طلبًا لتبرع أثريائهم بالمال وتهجيرهم إلى فلسطين

وطأة التاريخ

في الفصل الرابع الذي يحمل هذا العنوان يقسم شاحاك تاريخ اليهود أربع مراحل،. فالمرحلة الأولى هي مرحلة الممالك القديمة، مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا، ومواد التلمود عن هذه الفترة غزيرة جدًا، والمرحلة الثانية هي مرحلة ازدواج التمركز اليهودي في فلسطين، وفي ما بين النهرين ابتداء من العودة الأولى من بابل عام ٥٣٧ ق.م إلى عام ٥٠٠م، وعاش فيها اليهود تحت السيطرة الفارسية، ثم يذكر المرحلة الرابعة قبل الثالثة، وهي المرحلة الحديثة التي تميزت بانهيار المجتمع الاستبدادي اليهودي وسلطته، ومحاولات إعادة فرضه. وتبدأ هذه المرحلة في هولندا في القرن السابع عشر الميلادي.

أما الفترة الكلاسيكية فتميزت بتسلط الحاخامات المتزمتين وتعرض رافضي التلمود للجلد حتى الموت، كما حدث للقرائين.

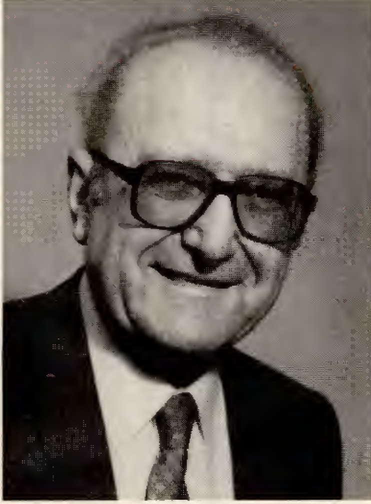
ويشير شاحاك إلى ما تمتع به اليهود من تسامح في ظل الممالك والإمارات الإسلامية، إلا أن قادة اليهود لا تنتعش إلا مع الحكام غير القريبين من الشعب، «وأفضل أمثلة على ذلك إسبانيا المسلمة، حيث تلاحظ أن العصر اليهودي النبطي للشعر العبري وقواعد اللغة والفلسفة إلخ، يبدأ بالضبط مع سقوط الخلافة الأموية.. وإنشاء ممالك الطوائف المتعددة التي كانت تقوم جميعًا على القوة البحتة». ثم يوضح شاحاك أن الاضطهادات التي تعرض لها اليهود في أوربا تختلف عما تعرض له اليهود من اضطهاد في ظل النازية، فمذابح اليهود الكبرى في أوربا المسيحية خلال الحملة الصليبية الأولى تمت على يد الجماهير الشعبية المؤلفة من الفلاحين والمعدمين الذين كرهوا السوط الذي كان يهوي على ظهورهم من جباة اليهود.

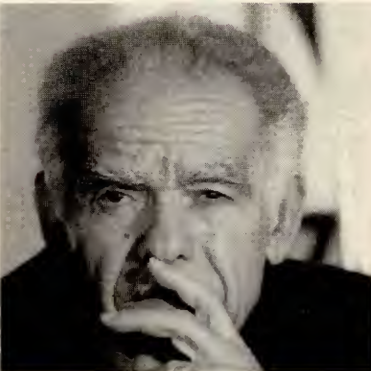
ويستعرض المؤلف بعض الأعمال الإجرامية التي قام بها اليهود ضد أنفسهم، لتوظيفها لتحقيق أهدافهم، مستشهدًا بآراء هرتزل، وإسحق شامير، ثم يتناول بعد ذلك استهتار زعماء اليهود بيني جلدتهم ودينهم في ظل النازية، مع توثيق ما كان من علاقة بين الصهاينة والنازية على حساب أرواح ملايين اليهود وثرواتهم. وقد أثبت شاحاك علاقة اليهود الصهاينة: هرتزل وجابوتنسكي وبن جوريون وشامير وكاستنر مع الحركات اليمينية الأوربية المتطرفة، وترحيب اليهود بصعود هتلر إلى السلطة، وقد وضع الدكتور يوآخيم برنز JOACHIM PRINZ - الحاخام الصهيوني الذي هاجر فيما بعد إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأصبح نائبًا لرئيس المؤتمر اليهودي العالمي ومرشدًا اقتصاديًا في المنظمة الصهيونية العالمية كتابًا بعنوان: «نحن اليهود» WIR JUDEN احتفالاً بثورة هتلر بمنع الزيجات المختلطة بين اليهود والألمان، وطالب باستصدار قانون ألماني يطالب اليهود بإعلان الانتماء إلى الأمة اليهودية والعرق اليهودي.

ويؤكد كتاب «ثمن إسرائيل» لليهودي الأمريكي ألفريد لينتال أن قادة اليهود رفضوا مبادرة أمريكية لإنقاذ اليهود من الاضطهاد بتهجيرهم إلى عدد من الدول، وذلك لأنهم رأوا أن مثل هذا العمل لن يجعل أثرياء اليهود يتبرعون بأموالهم، بينما سيفعلون ذلك إذا أرسل أولئك اليهود إلى فلسطين، وأوقف مثل هذا الرأي عملية إنقاذ نحو نصف مليون يهودي التهمتهم غرف الغاز السام والمحارق والقبور الجماعية، ويورد جارودي في كتابه «الأساطير المؤسسة للسياسة الصهيونية» تصريحًا لبن جوريون يقول فيه: «لو خيرت بين إمكانية إنقاذ كل أطفالنا في ألمانيا بنقلهم إلى إنجلترا، أو إنقاذ نصفهم بنقلهم إلى إسرائيل، لاخترت الحل الثاني. علينا ألا نأخذ بعين الاعتبار حياة هؤلاء الأطفال، ولكن أيضًا تاريخ الشعب الإسرائيلي».

القوانين ضد غير اليهود

يحدد شاحاك في مستهل الفصل الخامس مصادر التلمود التي تعالج موقف


روجيه جارودي


اسحق شامير

اليهود من الأغيار، ثم يبين الأحكام التي تحددها اليهودية التلمودية، ومن ذلك:

- إذا قتل يهودي يهوديًا فهو يرتكب جريمة عقوبتها الإعدام.

- إذا تسبب يهودي بمقتل يهودي آخر بصورة غير مباشرة، لا يعاقب، وإنما عقابه مرتبط بشرائع السماء.

- إذا قتل يهودي رجلاً غير يهودي يكون مذنبًا فقط بارتكاب معصية ضد شرائع السماء. وهي معصية غير قابلة لعقوبة صادرة عن محكمة، أما التسبب بصورة غير مباشرة بمقتل أحد الأغيار فهذا ليس معصية على الإطلاق.

ويقتبس شاحاك من كتيب أصدره الكولونيل الحاخام أفيدان زيميل ما يوضح أن على اليهود ألا يثقوا في عربي، فيقول: «عندما تصادف قواتنا مدنيين خلال الحرب أو أثناء عملية مطاردة أو في غارة

تسابق اليهود إلى تأييد هتلر عندما تولى السلطة لاتفاقه معهم في مبدأ النقاء العرقي

من الغارات، وما دام هناك عدم يقين حول ما إذا كان هؤلاء المدنيون غير قادرين على إيذاء قواتنا فيمكن قتلهم».

كتب المؤلف الجزء الثاني من الكتاب تحت عنوان «هل يمكن لهذا العهد القديم أن يكون من عند الله؟» ويستهله باقتباس من بحث عنوانه «استيلاء قبائل بني إسرائيل على الأرض» وهو رسالة ماجستير للبروفيسور مانفريد فايبرت، الذي يشكك في وجود الأسباط الإسرائيلية، أو يرى أن هؤلاء ليسوا إلا أسرًا من الرعاة، ثم يفند المؤلف إدعاءات الحاخامات لجعل بني إسرائيل مركز الكون، في محاولة لترسيخ ما يرونه حقوقًا لهم في أقاليم جغرافية واسعة.

ومن القرائن العلمية المجردة التي يسوقها، بعض آراء سيجموند فرويد عن تزييف التوراة، ثم يشير إلى ظاهرة طول أعمار بني إسرائيل - كما ورد في التلمود - حيث يبلغ مئات السنين، بل إنها في بعض الحالات تصل إلى ما يقارب ألف سنة».

ويذكر المؤلف بعض القرائن الأثرية التي تؤكد ما جرى من تحريف للتوراة، ويقتبس من كتاب «وثائق إيبلا» للدكتور عفيف البهنسي، يثبت أن اليهود كتبوا التوراة خلال فترة طويلة لكي يثبتوا فيها مطامعهم ومقاصدهم العنصرية، وكان همّ مدوني التوراة أن يجعلوا أحداثها هي أحداث الإنسان في بداية التاريخ، فجعلوا إبراهيم الخليل أبا الأمم، ويرى جارودي أن هناك في التوراة سردًا لحوادث تاريخية تفتقر إلى الدليل على حدوثها فعلاً.

ويأتي المؤلف باستشهادات على اقتباس اليهود من النصوص الفرعونية، بل من البابلية، ومن إيبلا، ومن غيرها؛ فهم يسطون على فلسفات الشعوب العريقة وأساطيرها، وينسبونها إليهم؛ ولذلك، فإن التوراة المحرفة اشتملت على الكثير من التناقضات.

وينفي المؤلف مبدأ التوحيد في اليهودية التلمودية التي تتضمن نصوصًا تتناقض مع وحدانية الله سبحانه وتعالى، فتتحدث التوراة المحرفة عن وجود أكثر من إله، وأن هناك إلهًا خاصًا لبني إسرائيل، ينتابه الغضب ويسامح، ويهدد، ويجهل مكان وجود مخلوقاته، ويندم، ويبرّر ارتكاب الأخطاء والجرائم، ويصارع يعقوب في مخاضه، ويرتكب مئات الأخطاء في تعامله مع الإنسان المخلوق، ومع شعبه المختار، بل مع أنبياء شعبه المختار.

وتحت عنوان «سلسلة المتناقضات» أورد المؤلف بعض النصوص التي تفضح مزاعم اليهود، ويبدأ بنص لمارتن لوثر يناقش فيه الحجج التي يتخذها اليهود لإبراز أنفسهم كشعب الله المختار، وهو يناشد الحكومات تنفيذ بعض القرارات منها إضرام النيران في كنسهم ومدارسهم، وطمر ما لا يحترق بالتراب.

ويقول مارتن لوثر: «لا يظن أحد أني أبالغ، لأن ما أقوله أقل من الواقع. فأنا أقرأ في كتاباتهم كيف يلعنوننا نحن الأغيار، ويتمنون لنا في صلواتهم وفي مدارسهم كل الشر؟!».

أما الحاخام إبراهام كوهين فقد قسم العالم في كتاب صدر له في عام ١٩٩٥م قسمين، هما شعب إسرائيل في جهة، وشعوب العالم كلها في جهة أخرى؛ أما الحاخام إسحق جينزبورج، فيقول: «إننا نضحك على أنفسنا حين ندعي بأن الرجل الذي يطلق الرصاص على مصلين مؤمنين في مسجد قد ارتكب جريمة»، أما رافائيل ميرون المشرف على المستعمرة التي يعيش فيها تلامذة جينزبورج، فقال: «أنا والعرب، كلانا أصولي. وما يفصلنا عن بعض هو أمر أساسي جدًا، فعلى أحد النقيضين يقف الإنسان المقدس [اليهودي] بينما يقف على الطرف الثاني الإنسان النجس»، وأكد الحاخام إيدو إيلبا جواز قتل الأغيار سواء أكانوا رجالاً أم نساء أم أطفالاً، أما نتنياهو فيدعي أن الدعاية العربية استطاعت اختراق اليسار الإسرائيلي، ويرد المؤلف على ذلك بأن اليهود الذين قبلوا مبدأ التعايش فعلوا ذلك، لعدالة القضية الفلسطينية.

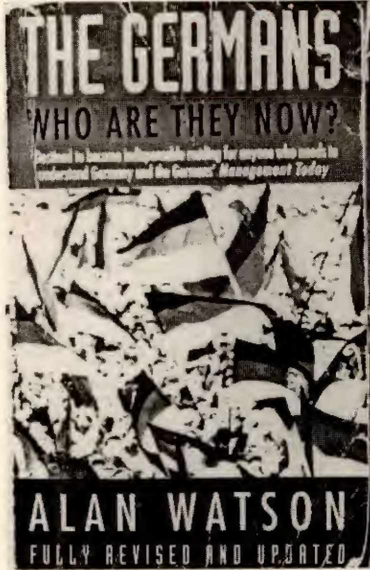
ويورد المؤلف بعد ذلك آراء مستنيرة لبعض اليهود، ويسأل في نهاية كتابه: ما الحل؟، وهو لا يضع إجابة لهذا السؤال إلا بعد عرض بعض النصوص من كتاب شاحاك، ليقول تعليقًا عليها: «لن نحتاج في الحقيقة إلى خاتمة لكتابنا أفضل مما كتبه شاحاك الإنسان. إنه يرفض العدوانية، ويطالب باجتثاثها من جذورها، ويؤكد أنه لا حل ممكن إلا إذا قام اليهود بتحرير أنفسهم من طغيان الماضي المستمر.

إن شاحاك فيما رأينا ينادي بثورة اليهود على انحراف ضمن التوراة، ويعلن حربًا شعواء ضد وحشية التلمود الذي لا يمكن لرب أن يوافق على ما تضمّنه من تفاسير».

من هم الألمان؟

آلان واتسن   مراجعة: جيهان محمد الشناوي

يعد كتاب آلان واتسون «من هم الألمان» من أهم الكتب المقروءة وأكثرها مبيعًا في ألمانيا، تلك الدولة التي تعرضت لهزيمتين ساحقتين في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما خلف ذلك من دمار وتدهور وتضخم مالي رهيب إلى الحد الذي ألزم الحكومة طبعَ أوراق مالية لا قيمة لها لدفع أجور العمال والموظفين. ولكن بفضل إصرار الشعب الألماني وعزيمته، وما عرف عنه من حبه للعمل، استطاعت ألمانيا أن تحقق ما سمي بالمعجزة الألمانية.



الألمان .. من هم الآن ؟
THE GERMANS
WHO ARE THEY NOW?
آلان واتسون
ALAN WATSON

لقد استطاع آلان واتسون بأسلوبه السلس، وأفكاره المرتبة أن يصور حياة الألمان في الماضي والحاضر خير تصوير، فهو من أكثر المعلّقين حنكة وثقافة، وتلاقي أراؤه استحسان الكثيرين من النقاد. ممّا حدا بهم إلى احتساب كتابه هذا بمنزلة الإنجيل للمهتمين بدراسة التاريخ، كما أنه زميل جمعية المذيعين الملكية، ورئيس حزب الأحرار السابق؛ ويعد برنامجه الوثائقي الذي يقدّمه في القناة الرابعة من أكثر البرامج التي تلاقي نجاحًا منقطع النظير، كما أنه حائز على وسام الاستحقاق الألماني عام ١٩٩٥م.

الألمان في التاريخ

يعود تاريخ الألمان إلى سنة ١٠٠٠ق.م عندما بدأت بعض القبائل المحاربة في الهجرة من شمال أوروبا إلى ما هو معروف الآن بألمانيا، فقد أطلق على هذه القبائل لفظ الجرمان، وأطلقوا على الأراضي التي استقروا فيها جرمانية. ويذكر فيما بعد أن الألمان كانوا يعيشون ولايات متعددة مستقلة أقواها بروسيا، ولكن بسمارك قام بتوحيد هذه الولايات تحت قيادة بروسيا. وقد حاول الزعماء الذين وصلوا إلى كرسي الحكم بعده أن يوسعوا نفوذهم إلى أوروبا ممّا أدّى إلى إشعال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ - ١٩١٨م التي انتهت بهزيمة ألمانيا، وبموجب معاهدة فرساي خسرت ألمانيا كل مستعمراتها، ومنعت من تكوين سلاح جوي لها، وحدد جيشها بمئة ألف جندي فقط. وتحوّل الشعب الألماني إثر هذه الهزيمة من شعب محب للعمل إلى شعب يكره العمل، مما أدى إلى انخفاض هائل في قيمة المارك.

وبانتهاء جمهورية الويمر قامت النازية، وظل الحزب النازي ممسكا بتقاليد الحكم حتى هزيمة ألمانيا في عام ١٩٤٥م.

كان حكم هتلر كما هو معروف استبداديًا، وأطلق على دولته اسم الرايخ الثالث، أي الإمبراطورية الثالثة بعد الإمبراطورية الرومانية والألمانية. كما عمل هتلر على انسحاب ألمانيا من مؤتمر تخفيض السلاح، وعلى الخروج من عصبة الأمم، وأخذ يتسلح علانية، وبدأ في الاستيلاء على الدول المجاورة إلى أن أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا، وتبعتها فرنسا، وهكذا اندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية التي كانت نتيجتها هزيمة ألمانيا، وانتحار هتلر في ٣٠ أبريل/نيسان ١٩٤٥م.

هزيمة أخرى لحقت بألمانيا وهي لم تكد تفيق من هزيمتها الأولى، فحل الدمار بالمصانع والطرق والمزارع، وأصيب الاقتصاد الألماني بالشلل التام. وعلى أنقاض المدن التي دمرتها الحرب بدأت معجزة التقدم الألماني، واعتمدت النهضة الاقتصادية في ذلك الوقت على النساء أكثر من الرجال؛ لأنه قتل في الحرب ما يقرب من ٥ ملايين شاب ألماني.

وقد بدأت النهضة الاقتصادية في ألمانيا الغربية، حيث إن الجزء الشرقي خضع للسيطرة الروسية، وقامت روسيا بفرض ديكتاتورية شيوعية على هذه المنطقة من البلاد.

وظلت الأمور كذلك إلى عام ١٩٨٩م حيث انتشرت حركة الإصلاح في البلاد الشيوعية، وبدأ التقدم السياسي في ألمانيا الشرقية، وبدأت الهجرات الجماعية الكبرى، مما أدّى إلى توحيد ألمانيا الشرقية والغربية في عام ١٩٩٠م.


غوته

المعجزة الألمانية

وقد بدأت المعجزة الألمانية أولى خطواتها في ٢٠ يونيو/حزيران، حيث ألغيت العملات الورقية التي كانت تتداول في السابق، واستبدل بها المارك الألماني الذي كان بمنزلة تذكرة دخول إلى عالم جديد، فقد تم خلق سوق جديدة، واختفت السوق السوداء من الحياة الاقتصادية، وامتلأت المحلات بالبضائع، وفتحت المطاعم أبوابها، وتحررت السوق من معظم القيود، وقامت الحكومة الألمانية بإصدار قانون العمل واللوائح التي من شأنها أن تساعد على تنمية رأس المال. وكان أول ما واجه الحكومة في آخر الأربعينيات هو إعادة تسكين المواطنين الذين لا يمكن تركهم للسوق الحرة فقط؛ ففي مارس/آذار ١٩٥٠م تم تأسيس أول مجلس نيابي (برلمان) ألماني، وقد قام بإصدار قانون لبناء المساكن العامة.

ولتحقيق مزيد من التقدم في إنجاز المعجزة الاقتصادية، استفادت ألمانيا من مشروع مارشال لتنمية أوروبا الذي نظمته الدول بعد الحرب العالمية الثانية. كما تمّ تطوير الصناعات التقليدية إلى صناعات ثقيلة، وتم التغلب على مشكلة البطالة، وقامت الصناعات الكبيرة الحديثة التي اعتمدت على التقدم التقاني في كثير من أنحاء ألمانيا، حيث قامت شركة سيمنس في إنشاء مصانعها في ميونخ وبافاريا، بينما قامت شركتا السيارات الرائدتان (بي إم دبليو ومرسيدس) بإنشاء مصانعها في كل من ميونخ وشتوتجارت التي أصبحت مركزًا رئيسًا للصناعات، ومنطقة جذب للعمالة من ألمانيا وخارجها.

أما المرحلة الثانية من المعجزة الألمانية فتحققت خلال السبعينيات، وأصبحت علامة «صُنع في ألمانيا» علامة جذب وضمان لكثير من المنتجات، كما فُتحت أسواق كبيرة أمام المنتجات الألمانية في أوروبا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة، حتى إن الحظر النفطي الذي نتج من الحرب العربية الإسرائيلية من ٧٣ - ٧٤م لم يؤثر مطلقًا في انطلاق اقتصاد ألمانيا الغربية بينما كان أثره واضحًا في ألمانيا الشرقية، وفي الثمانينيات أصبحت ألمانيا الاتحادية أكبر مصدر تجاري في السوق العالمية، وتفوقت صادراتها على وارداتها. إلا أن حكومة هيلموت شميت قد عانت بعض المشكلات الاقتصادية، ولكن ألمانيا ظلت قوية اقتصاديًا. ثم تحققت المرحلة الثالثة في المعجزة الألمانية في التسعينيات حيث ارتفع الناتج القومي في ألمانيا الاتحادية بمعدلات كبيرة، وارتفعت الصادرات بمعدل ١٨٪.

عوامل القوة في الاقتصاد الألماني

وقد دأب المحللون على تحليل عوامل القوة في الاقتصاد الألماني، وقدرته على تصحيح مساره، وأثره في حياة الألمان

على أنقاض المدن التي دمرتها الحرب بدأت معجزة التقدم الألماني، واعتمدت النهضة الاقتصادية على النساء أكثر من الرجال

بصفة عامة، وفي مدى تمتعهم بالديمقراطية بصفة خاصة، ويرى المحللون أن هناك عدة عوامل رئيسة أدت إلى تحقيق هذه المعجزة، وساهمت في تطويرها ودعمها، مما جعل ألمانيا أكبر دولة مصدرة في أوربا. ويأتي على قمة هذه العوامل السياسة القانونية، فقد ساهم إصدار القوانين على تطوير الصناعة، حيث نظمت حل المنازعات والإدارة، والاتحادات التجارية والبيئية، ومحاربة الصراعات الطبقية، وإنشاء مجالس إدارة الشركات، وكيفية إدارتها؛ بمعنى آخر استطاعت ألمانيا أن تنشئ قاعدة قانونية لمزيد من التطور على الرغم من تنبؤ لينين بأنه لا يمكن لألمانيا أن تتعلم وتنهض كالدول الأخرى، فقد استطاعت ألمانيا بالموازنة القانونية بين مجالات الأنشطة المختلفة أن تحرز هذا التقدم عن جدارة.

أما العامل الثاني فهو جودة المنتج الألماني، حيث إن عبارة «صُنع في ألمانيا» بما ترمز إليه من جودة كانت كالسحر في جذب الأنظار، وقد عبر عن ذلك بيتر سيمنس بقوله: «إننا ملتزمون اتباع نظام دقيق لإنتاج بضائع من الدرجة الأولى، وإننا نلتزم تحقيق سياسة ما بعد البيع بكل دقة، وقد كان هذا الالتزام عاملاً قويًا في سعينا نحو التجديد والابتكار «وإذا كان هذا النهج العقلاني الذي اعتمد على العقل الألماني لتطوير صناعته وجذب أسواق جديدة، فإن العامل الثالث هو نظام التدريب الجيد الذي اتبعته ألمانيا، وجعلته نهجًا لحياتها، فقد عملت على تدريب أكبر عدد من مواطنيها إذ بلغت نسبة الذين حصلوا على تدريب مهني من إجمالي القوة العاملة ٧٠٪، وهذا النظام ليس بجديد، فقد اتبع في ألمانيا، منذ وقت سحيق، وقد اتسم النظام الاقتصادي الألماني بتقديم فرص تدريب كبيرة، فلم يكن يسمح لأي عامل بالالتحاق بعمل ما لم يكن مدربًا عليه؛ وبجانب التدريب كان المتدربون يدرسون بعض المواد العليا (الأكاديمية)، والمهارات الخاصة، والحاسوب (الكمبيوتر)، والتقدم التقاني (التكنولوجي). وقد قام المجلس الوطني للتقدم الاقتصادي في المملكة المتحدة عام ١٩٩١م بإصدار تقرير عنوانه «دروس من الإنجازات في ألمانيا واليابان». وقد ورد في التقرير أن نظام التدريب في ألمانيا قد أدى إلى زيادة إنتاجية على مستويات كبيرة، وأن التدريب المهني يدخله نحو ٦٤٪ من خريجي المدارس والجامعات، وذلك مكّنهم من تحقيق رواتب جيدة من الشركات التي يعملون بها، بالإضافة إلى كمية المعلومات والمهارات التي يمكنهم اكتسابها من التدريب.

أما العامل الذي يلي ذلك فهو إحساس المواطن الألماني بأنه مواطن ذو طبيعة خاصة، فلم يتعود الألمان أن ينظروا إلى من يعملون في المصانع نظرة دنيا، بل كانوا يرون ذلك مصدر اعتزاز، ويفتخرون بأن لديهم إحساسًا بالمسؤولية، والقدرة على القيادة، والفهم التقني، أي: إنهم شعب ذو مواصفات عقلية، وقدرات تدريبية، ومعلومات تقنية تمكنهم من تحقيق أي طموحات أو إنجازات يسعون لتحقيقها. العامل الآخر يتمثل في اتباعهم للأساليب التقنية، وسعيهم الدائم لتحقيق تقدم (تكنولوجي) يمكنهم من تحقيق أهدافهم. فقد اهتمت الشركات الألمانية بتقديم سلع منافسة من منظور أن (التكنولوجيا) لا يمكن فصلها عن التجارة، فدمجوا (التكنولوجيا) والتدريب والاستراتيجية في عملية واحدة، إيمانًا منهم بأن التنسيق بين (التكنولوجيا) ومتطلبات الأسواق والعملاء، وخلق نظام تكنولوجي قوي، والسعي بصفة دائمة لتحسين الإنتاجية تؤدي إلى تحقيق تطور كبير وملموس في المنتج، وزيادة الطلب عليه.

وقد سعت التكنولوجيا لتحقيق رضا العملاء. أما البحث من أجل البحث فلم يجذب أحدا في ألمانيا، بل كان البحث

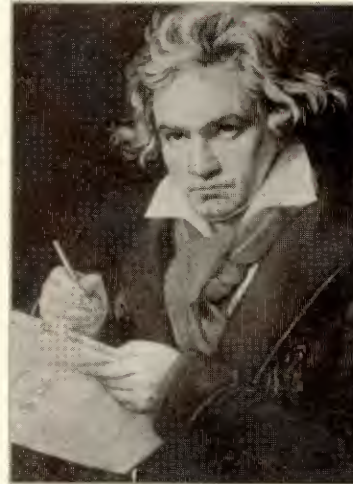


هتلر

سعت التكنولوجيا في ألمانيا لتحقيق رضا العملاء، أما البحث من أجل البحث فلم يجذب أحدًا فيها

في كل المراكز يسعى بالدرجة الأولى لخلق نمط صناعي قوي في ألمانيا، وقد سعت الجامعات إلى الارتباط والتنسيق مع مراكز البحث، لخلق قاعدة اقتصادية صناعية تهتم بتطوير الصناعات المختلفة. وهكذا استطاعت ألمانيا، وهي دولة ليست ذات مصادر طبيعية كبيرة، أن تخلق قائمة اقتصادية عظيمة، وتحقق تقدمًا في حياة الطبقة العاملة. وقد اتبعت ألمانيا عدة طرائق لتحقيق المزج بين البحث العلمي والدراسة الجامعية، فتم إنشاء فرق من الجامعات تعمل مع إدارة المصانع، وتتصل بالشركات لتطوير المنتج الألماني.

عامل آخر ساهم في تحقيق النمو الاقتصادي في ألمانيا هو الارتباط الوثيق بين المصارف (البنوك) والشركات، فلا يوجد في أي مكان، سواء في أمريكا أو المملكة المتحدة، علاقة مماثلة لتلك العلاقة بين المصارف الألمانية والشركات الصناعية. وقد أجرى مستر ديفد مارشي مراسل الفاينينشال تيمز في بون بحثًا سنة ١٩٨٧م أظهرت نتائجه أن ٦٠٪ من سكان ألمانيا مساهمون في أسهم المصارف مقابل ٢٠٪ في الولايات المتحدة، و١٦٪ في اليابان، و١٥٪ في بريطانيا، و١١٪ في فرنسا. وهذا يعني أن أغلبية الألمان يستثمرون أموالهم في الصناعة من خلال المصارف. كما أن المصارف تدير كل المحافظ الاستثمارية. كما تقوم بحماية الشركات، وتقديم الدعم لها، كما تمكنها من تطوير إنتاجها. وكما تعلمت الصناعات الألمانية كيفية التعامل مع عملائها، فإن المصارف الألمانية تعلمت كيفية الاستجابة والتعامل مع أي تحد خارجي حتى لا تتأثر الشركات، مما يمكنها من استيعاب هذا التحدي والتغلب عليه، ولعل أكبر مثال على ذلك عندما تأثرت في الستينيات والسبعينيات نتيجة لقلة طلب الصناعات الألمانية، فقد قامت المصارف بمعالجة هذا الموقف، ومكنت الشركات من التغلب على هذه المحنة بأقل خسائر ممكنة. هذا وتؤدي المصارف الإقليمية دورًا مهمًا في تشجيع الصناعات في كل إقليم داخل البلاد، فقد استطاعت مساعدة الاتحادات التجارية على تدعيم التقدم الاقتصادي، كما قامت بتطوير ميناء هامبورغ. وبصفة عامة فإن الحكومة الألمانية وحكومات الأقاليم قدمت بالتنسيق مع المصارف، مساعدات لا يمكن حصرها في المجال الاقتصادي. ومن الأوضاع التي تدفع الصناعة في ألمانية إلى الأمام ارتباطها بأوربا، وحرصها على أن تكون ذات مركز مرموق اقتصاديا داخل المجموعة الأوربية، إذ يحرص الألمان على أن يكونوا دائمًا في قلب السوق الأوربية. وقد ذكرنا سابقًا أن المصارف تؤدي دورًا كبيرًا في دفع عجلة الاقتصاد، وتأتي على رأسها المصارف المركزية، فالمصرف المركزي يعمل بصفة رئيسة في تنظيم النقد، ويجنّب الصناعة الألمانية أي تحدٍّ أو تدهور. وعلى الرغم من كل هذا الدعم المصرفي والحكومي، وتميُّز الصناعة الألمانية فإنها تواجه تحديات خارجية، وهذه التحديات تتعلق بالمنتج الياباني خاصة في صناعة السيارات، ممّا يؤثر في صادرات ألمانيا في هذا المجال. أما التحدي الآخر فهو نتيجة توحيد الألمانيتين واختلاف النظم الاقتصادية في كل منهما. وعلى الرغم من أن ألمانيا تعدّ من البلاد المستقلة سياسيًا، إلا أنها تواجه بعض عناصر الإرهاب الناتج عن تدني مستوى المعيشة لبعض الأفراد، وعدم الرضا بين بعض الفئات، ممّا يهدد التقدم الاقتصادي. ولكنّ رجال الاقتصاد على هذا كله، متفائلون، ويعتقدون بأن كل الأمور سوف تسير وفقًا لمصلحتهم ومصلحة ألمانيا بفضل (التكنولوجيا)، وحسن الإدارة، والتدريب العملي وثقتهم البالغة في المصارف الألمانية، بالإضافة إلى العلاقة البناءة بين كل من المصارف والمموّلين وعلاقتهم مع الاتحادات الألمانية.



بيتهوفن

في الوقت الذي فقدت فيه ألمانيا هويتها السياسية، كانت ثقافتها الوحيدة القادرة على الإجابة عن سؤال: «من نحن؟»

دور الثقافة واللغة في المعجزة الألمانية

أدّت ثقافة الشعب الألماني في ميادينها المختلفة من أدب ورسم وسينما وتلفاز دورًا مهمًا في تذكية الحس القومي لدى الألمان، ففي الوقت الذي فقدت فيه هويتها السياسية، كانت ثقافتهم الوحيدة القادرة على الإجابة عن سؤالهم: من نحن؟ فبلدهم موطن الكتّاب والمثقفين والفنانين، وفوق كل هذا الموسيقيون.

يرى الكاتب أن ترجمة مارتن لوثر للإنجيل كان لها عظيم الأثر في تحديد المفهوم الأساسي للغة، حيث ركز كل

جهوده على حقيقة غاية في الأهمية وهي: لننال عفو الرب، ونحظى بنعمه علينا، يجب أن نعي ونستوعب جيدا كلمات الرب، لذا قام بترجمة الإنجيل إلى الألمانية في عام ١٥٢١م ممّا ساعد على توحيد اللهجات العامية إلى حد كبير، كما ساعد على إمداد الألمان بالقوى الروحانية التي كانوا في أمس الحاجة إليها. بعد مارتن لوثر جاء الإخوة جريم الذين استفادوا من لغة لوثر، فاستخدموا مفرداتها في قاموس قومي تضمن الكثير من القصص المستوحاة من الفلكلور وموروثات الماضي، حتى إن قاموسهم هذا أصبح من أهم الكتب المقروءة بعد الإنجيل.

ولا ينسى الكاتب أن يذكر جوزيف بويه الرسام والنحات المعروف، وقد كانت معظم لوحاته تدور في فلك أن ما حدث للألمان هو جرح كبير، وليبرأ هذا الجرح لابد من تعريته وكشفه ليندمل. ويذكر الكاتب المسلسل التلفزيوني هيمات HEIMAT أي: الوطن، والذي كانت تدور أحداثه بعد الحرب العالمية الأولى، ومن خلال حياة بعض الأسر يلقي الضوء على التغيّرات التي طرأت على حياتهم في أثناء حكومة الويمر، الرايخ الثالث، وانتصار الحلفاء، والمعجزة الاقتصادية في الخمسينيات والستينيات. فكان بمنزلة حلقة وصل بين الماضي والحاضر. لأن استيعاب الماضي جزء من تقبل الواقع والحاضر.

وتعدّ أعظم حقبة للأدب الألماني ما بين عامي ١٧٥٠ و ١٨٣٠م، فقد ظهر فيها فلفانج، وجوته، وشيلر. في أوائل القرن التاسع عشر كتب هيجل فلسفة التاريخ التي كان لها عظيم الأثر في الفكر الغربي، كما وضع باخ وهاندل أسس الموسيقى الألمانية، ومن بعدهما بيتهوفن الذي وصل بالموسيقى إلى أعلى درجات عبقريتها. أما في مجال العلوم فيكفي أن نذكر أن عدد العلماء الألمان الذين نالوا جائزة نوبل يفوق علماء أي دولة أخرى.

موقف الألمان تجاه تاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم:

وفي باب آخر من الكتاب يسرد المؤلف آراء نماذج مختلفة من الشعب الألماني الذين التقاهم من طلاب الجامعة، وضباط من القوات المسلحة، ومواطنين عاديين أي من مختلفة فئات الشعب، وكانت أسئلته تدور حول مفهوم الألمانيين لوطنهم وتطلعاتهم وانطباعهم عن حقبة هتلر والنازية، ومدى تحيزهم لقوميتهم وبلادهم، وآرائهم حول الانضمام إلى المجموعة الأوروبية.. إلى آخره. على سبيل المثال أفادت طالبة تدرس اللغات أنها ليست فخورة فقط بكونها ألمانية؛ لأن هذا ليس مدعاة الفخر، إنما هي تفخر بألمانيا بلدًا ديمقراطيًا، ومتقدمًا، ونظيفًا، يتبع نظمًا عليّة في الإدارة والتدريب، كما أنها فخورة بما أنجزته ألمانيا بعد دمار الحرب العالمية الثانية. كما أثبتت أن اتحاد الألمانيتين سيخلق دولة غنية قوية منظمة. كما التقى الكاتب ضابطًا يدرس التاريخ أخبره أنه يشعر بالأسى عندما يدرس النازية، ويعتقد أن ضمير الشعب الألماني قد ارتاح نوعًا ما خاصة بعد سفره إلى فرنسا وتخوفه نفسيًا وقت ذلك من عدم قبوله بوصفه ألمانيًا؛ لأن ألمانيا شنت عليهم في السابق حربين، ولكن بعد برهة من الزمن شعر بأنه لا وجود تمامًا لمثل هذه المخاوف، فالمجموعة الأوروبية تتقبل الألمان بسهولة الآن. وخلص الكاتب من مجموعة اللقاءات هذه إلى «أن الألمان فخورون بما تتمتع به بلادهم من ديمقراطية، وأنهم يتطلعون بكل تفاؤل إلى اندماجهم في المجموعة الأوروبية. كما يؤكدون عدم تحيزهم إلى جنس الألماني بقدر تحيزهم إلى التفوق الألماني، ويفخرون بأنهم الآن مقبولون عالميا، ويتأثرون بما يحدث في العالم من حولهم حيث قامت مظاهرة في أثناء حرب الخليج تندد بالغزو ممّا يعطي انطباعًا أن الألمان أصبحوا منفتحين على العالم، وليسوا منغلقين على ألمانيا فقط.



لينين

حي الدرع بدُومَة الجندل:
دراسة معمارية أثرية

حصة بنت عبيد بن صويان الشمري
مراجعة: قسم التحرير

يتناول هذا الكتاب حي الدرع الذي يقع في وسط دومة الجندل، إحدى مدن شمال الجزيرة العربية، وتشير المؤلفة إلى أنها أعدّت هذه الدراسة لندرة ما كتب عن تخطيط المدن القديمة في شمال الجزيرة.



حي الدرع الملاصق لمسجد عمر من الجانب الشمالي

قدمت المؤلفة في الفصل الأول دراسة تمهيدية تضمنت تحديداً للإطار التاريخي والجغرافي للمنطقة، وقد بدأته بتوضيح أصل تسمية دومة الجندل، ومما ذكرته أنه: «لما كثر ولد إسماعيل - عليه السلام - بتهامة خرج دوماء بن إسماعيل حتى نزل موضع دومة، وبنى به حصنا، فقيل دوماء، ونسب إليه الحصن. وأيضاً قيل سميت بدومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل».

الموقع الجغرافي

وتقع دومة الجندل شمال الدهناء على بعد ٧٤٠ كم من العُلا، وهي في الوقت الحالي تمثل «المحافظة الواقعة شمال غرب المملكة العربية السعودية، جنوب غرب سكاكا، قرب الحافة الشمالية للنفوذ الكبرى. وقرب الطرف الجنوبي لوادي السرحان، ويحدها من الشمال الشرقي إمارة الحدود الشمالية «عرعر»، ومن الشمال الغربي الأردن، ومن الغرب تبوك، ومن الجنوب الشرقي إمارة حائل».

أما أهم المدن والقرى التابعة لها، حسب ما أوردتْهُ، فهي: الأضارع، وأم كهف، والمغتبية، والمرير ، وأجربا، والمندسة، وأميسن، والوادي، والبحيرات، وصفان، والمروت، وميقوع، وطبرجل، والعسافية، والرديفة، وأبو عجرم، والشقيق، وأبيط.

وتذكر المؤلفة أن دومة الجندل أدت دوراً كبيراً في تاريخ الجزيرة العربية حضارياً وسياسياً، لكونها كانت ملتقى كثير من القبائل والممالك العربية، ولوقوعها في منتصف طرق القوافل القديمة.

وكانت ممرًا تجاريًا مهمًا، وخاصة تجارة البخور، وكانت من مجامع أسواق العرب في الجاهلية، وهذه الأسواق كانت أماكن مقدسة لها أصنام تأتي إليها القبائل في مواسم حجها للتقرب إليها، ثم تتحول تلك المواسم إلى أسواق للبيع والشراء، وكانت تعقد فيها الاتفاقيات والمعاهدات، وتلقى فيها الخطب والأشعار.

وتنتشر في دومة الجندل زراعة النخيل، وأشجار التين والرمان والمشمش والعنب والبرتقال وغيرها، وتزرع فيها الذرة والقمح.

وتورد المؤلفة بعض مرئيات الرحالة الغربيين وإشاراتهم إلى الطبيعة الزراعية في المنطقة، ومن بين هؤلاء: فالين، وكانت رحلته إليها في عام ١٢٦١هـ/١٨٤٥م، ووليم جريف الذي زار المنطقة عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م، والليدي آن بلنت التي كانت رحلتها إلى المنطقة في عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م، ولويس موسيل الذي زارها عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.

وعرفت دومة الجندل بعض الصناعات التقليدية، فكان سكانها يصنعون الهواوين (النجر) والعباءات، وسروج الخيل والسجاد، وأغطية الرأس.

لمحة عن تاريخ دومة الجندل

وتتبعت المؤلفة تاريخ دومة الجندل من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر الإسلامي، فأشارت إلى

أن المواقع الأثرية التي تعود إلى العصور الحجرية أثبتت أن الاستيطان بها قديم من قبل إنسان ما قبل التاريخ، ومن أهم المناطق الأثرية التي أوردتها: قرية الشويحطية التي عثر فيها على مواقع أثرية ترجع إلى العصر الحجري القديم، وجنوب سكاكا، وفيه بعض الآثار من العصر الحجري الوسيط، وعثر في موقع الرجاجيل على آثار تعود إلى عصر الكالكوليثي (النحاسي)، وأظهرت المدونات الآشورية أن دومة الجندل كانت عاصمة لعدد من ملكات العرب مثل الملكة زيبي، والملكة تلخونو. وعثر في موقع لقطة الطوير على آثار فارسية.

وتضم دومة الجندل نقوشًا نبطية، وأثبتت النقوش الثمودية أنها كانت قلعة الجزيرة العربية الشمالية؛ ومركزًا رئيسًا للقبائل العربية، وتورد المؤلفة استنادًا إلى سيرة ابن هشام أن الرسول صلى الله عليه وسلم غزا دومة الجندل في السنة الخامسة للهجرة، وفي السنة السادسة بعث عبدالرحمن بن عوف على رأس جيش إلى دومة الجندل ، ومكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وتزوج عبدالرحمن بن عوف ابنته تُماضِر، وأدى الجزية من لم يسلم من أهلها؛ وفي السنة التاسعة قاد خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي جيشًا فتحها، والتزم أكيدر بن عبدالملك الكندي ملكها دفع الجزية، وعندما نقض العهد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، سار خالد بن الوليد إلى دُومَة الجندل، واستطاع إخضاعها، وقتل ملكها الأكيدر(١٢هـ).

وتشير المؤلفة إلى أن بعض الرواة ذكروا أن التحكيم بين علي ومعاوية - رضي الله عنهما - حدث بدومة الجندل.

وتختم المؤلفة هذا العرض التاريخي بذكر ما جاء في كتابات الرحالة الغربيين من وصف لدومة الجندل، ومن أحيائها التي ذكرها الرحالة فالين، وهي تعرف بالأسواق: سوق الغرب، وسوق الدرع، وسوق السعيديين أو السراح، والرحيبيين، وسوق العلاج، وسوق خذما، وسوق الدلهمية، وسوق القراطين، وسوق الوادي، وسوق الغطي، وسوق السعيدان، وسوق الجرعاوي.

وتستخلص المؤلفة من كتابات الرحالة أن أحياء دومة الجندل القديمة كانت على هيئة قرى متجاورة ومنفصلة بعضها عن بعض، وشمل وصف هؤلاء الرحالة المنازل والمواد المستخدمة في بنائها، فذكروا أنها كانت مبنية من الطين، وترتفع إلى ثلاثة طوابق، ولكل بيت باب رئيس يؤدي إلى الخارج، وأكثر المنازل فيها غرفة لاستقبال الضيوف تسمى «القهوة»، وهي أكثر أجزاء المنزل ارتفاعًا.

وتشير المؤلفة إلى أن الرحالة فلبي أوضح أن حي الدرع اختلفت مادة بنائه عن بقية أحياء دومة الجندل، إذ كان يستخدم الحجر في البناء.

العوامل المؤثرة في العمارة

وبعد هذه التوطئة، تأتي المؤلفة إلى موضوع الكتاب، وتبدأ بذكر العوامل المؤثرة في عمارة حي الدرع، وأهمها المؤثرات المناخية والطبوغرافية والتربة، والمؤثرات الدينية والاجتماعية والحضارية الخارجية.

تقول المؤلفة عن المؤثرات المناخية: إن مناخ دومة الجندل قاري جاف، ترتفع فيه درجة الحرارة صيفًا إلى ما يزيد على ٤٢°، وتنخفض درجة الحرارة شتاءً إلى ما يقرب من سبع درجات تحت الصفر مع سقوط الأمطار الشتوية، ومن انعكاسات هذا المناخ على عمارة الدرع، أن الفناء الداخلي في منازله يعمل على تلطيف درجة الحرارة في الحجرات الداخلية؛ لأن الهواء يتجمع في أثناء الليل في الفناء، فيكون باردًا، ويحتفظ ببرودته في النهار، كما أنه يعمل على تهوية الحجرات التي تحيط به وإضاءتها.

كما أن المنازل بالحي متلاصقة ومتلاحمة، وتفصل بينها الأزقة الضيقة والمتعرجة المسقوفة، مع وجود ساحة للتجمعات والنشاطات الجماعية ذات عقود مسقوفة أيضًا، وهذا النمط من البناء يجعل أسقف المنازل الخارجية لا تتعرض لأشعة الشمس، كما أنه يوفر الظل للمشاة، ويحميهم من أشعة الشمس، تحتفظ الشوارع المتعرجة بالهواء البارد فترة طويلة بعد تجمعه في الليل، وأدى التلاحم العمراني لمنازل حي الدرع إلى التلاحم الأسري والاجتماعي بين سكانه، وتسهيل الاتصال بينهم، مع توفير الحماية الأمنية لهم.



حي الدرع بدومة الجندل
دراسة معمارية أثرية
حصة بنت عبيد بن صويان الشمري
الجوف:
مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية،
١٤١٨هـ، ٢٣٧ص.



المدخل الجنوبي المعقود ويبدو خلفه مسجد عمر وأمامه جزء من دكاكين السوق

وتميزت فتحات المنازل والنوافذ بالصغر لتقليل نسبة تسرب الحرارة إلى داخل المنزل، وحماية السكان من الأتربة والرمال، مع توفير الخصوصية والأمن لهم، أما الحوائط والأسقف فهي أكثر الأجزاء تعرضًا لأشعة الشمس، لذلك، فإن الأسقف صممت لتكون مرتفعة، وبنيت الحوائط من الأحجار والطين، واستخدم الطين، والأخشاب، وسَعَف النخيل في الأسقف، وهي مواد عازلة للحرارة، فضلاً عن تميز الحوائط بالسُّمك لعزل الحرارة العالية عن داخل المنازل، وأوجدت مجار لتصريف الأمطار، وساعد تلاحم المنازل على الحد من سرعة الرياح، وتقليل آثارها.

ويتضح مما سبق أن مواد البناء كانت من البيئة المحلية، إذ تتوافر فيها الأحجار الصالحة للبناء.

ومن المؤثرات الدينية والاجتماعية وجود الحوش الداخلي الذي يضمن الخصوصية للساكنين، والفصل بين الأجزاء الخاصة



عقد المدخل الجنوبي من الداخل الجانب الشمالي

بالرجال والأجزاء الخاصة بالنساء، وعدم التقابل بين أبواب المنازل الخارجية، وكون أغلب المنازل طابقين مما يضمن عدم التعدي على خصوصيات المنازل المجاورة.

وأتاح موقع دومة الجندل تعرضها لمؤثرات حضارية، انعكست على التخطيط العمراني فيها.

وفي الفصل الثاني الذي جاء بعنوان «الوصف العام لحي الدرع، تبدأ المؤلفة بالحديث عن موقع الحي، مشيرة إلى أنه يقع في وسط دومة الجندل القديمة، وأنه من أقدم أحيائها، وبه بناء عتيق من الحجر المنحوت حوَّله الخليفة عمر، رضي الله عنه، إلى مسجد، وترجع أصل اسم الحي إلى سكانه آل درع.

ويعد مسجد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من أهم الآثار التاريخية في دومة الجندل، وهو يقع جنوب منازل حي الدرع، وإلى الشمال من قلعة مارد، وهو يشابه في تخطيطه القديم المسجد النبوي بالمدينة المنورة، ومساجد البصرة والكوفة.

وتتجه جميع شوارع حي الدرع وممراته نحو المسجد، وهذا من المظاهر التي ميزت المدن الإسلامية، وتفتح مداخل المنازل الخارجية الملاصقة للمسجد على شوارع الحي وممراته المتعرجة بحيث لا تقابل مدخل المسجد.

قلعة مارد

تقع هذه القلعة جنوب غرب مسجد عمر، وكانت تستخدم مقرًا لحاكم دومة الجندل، ومكانًا لسكن الجنود، ومعقلاً محصنًا للدفاع عنها.

وبنيت القلعة على هضبة تشرف على كل أجزاء دومة الجندل.

السوق

أما سوق المسحب فيقع جنوب غرب حي الدرع، بالقرب من المسجد، وتتقدمه ساحة واسعة تستخدم للتجارة، ولقاءات الناس. وكانت دكاكين السوق صغيرة متراصة بعضها بجانب بعض، ومبنية بالحجارة، وعليها أبواب خشبية.

وتحيط بساتين النخيل وأشجار الأثْل بمنازل حي الدرع من الجهتين الشرقية والشمالية، وكل بستان محاط بسور مرتفع من اللبن يفصله عن البساتين الأخرى.

وكان للحي خمسة مداخل لتسهيل حركة دخول السكان إليه، وخروجهم منه.

ويعدّ الميدان الأوسط القلبَ النابض للحي، ونقطة تفرع جميع شوارع الحي وممراته، وتعلوه ثلاثة عقود متوازية بالاتجاه الشمالي، وتحمل هذه العقود فوقها سقفًا مستويًا يتكون من أعمدة طويلة من جذوع النخل، وأخشاب الأثْل يعلوها سَعَف النخيل المتراص بشكل عرضيّ ومغطّى بطبقة من الطين المخلوط باللبن.

وأفردت المؤلفة الفصل الثالث لأنماط المنازل؛ إذ قدمت نماذج لأنماط مختلفة من المنازل، وسوغت اختيارها لهذه المجموعة من المنازل بأنها شبه متكاملة، ولأن تخطيطها يمثل أنواع النماذج السائدة في الحي، وعدد هذه المجموعة اثنا عشر منزلاً؛ أربعة منها تتكون من طابقين، وثمانية منازل تتكون من طابق واحد.

وأعقبت ذلك بدراسة تحليلية لتلك الأنماط، وأوضحت فيها أن منازل حي الدرع متميزة بالبساطة، وعدم التكلف والتعقيد، لذلك، فإن الواجهات المعمارية تخلو من الزخارف والنقوش.

وعن العناصر المعمارية ومواد البناء جاء الفصل الرابع، وبدأته بتوضيح أن التمسك بالأصالة في العمل المعماري لا يعني العودة إلى القديم وترك الحاضر.. فالعمارة الحية والأسس العمرانية الجديدة هي التي تستمد أصالتها من بيئتها.

وأهم مواد البناء المستخدمة في عمارة حي الدرع هي الأحجار، واللبن، والطين، والجص، وأخشاب النخيل والأثْل.

والمداخل الخارجية تفتح على الشوارع والممرات الضيقة والمتعرجة، وتعلوها أعتاب حجرية محمولة على طُنُف حجرية، أو تعلوها أفاريز خشبية من جذوع النخيل وأخشاب الأثْل.

أما الأبواب فكانت تصنع من الأخشاب المحلية، وكانت مزودة بمزالج (ترابيس)، وكان يوجد على جانبي بعض مداخل المنازل ما يسمى بالدكة، وهي مصطبة حجرية أو ترابية ثابتة تستخدم للجلوس.

وبينت المؤلفة من خلال ملحق الصور والمخططات التوضيحية معالم الحي، ومقاطع أنماط منازله، وعلاقته بالمواقع الأثرية المجاورة له.

الأدب المقارن بين التجربتين الأمريكية والعربية

علي شلش   مراجعة: أحمد رامز قطرية

هذا الكتاب هو آخر أعمال د. علي شلش، وكان قد انتهى من إعداده قبل وفاته، رحمه الله. وقد صدر الكتاب في آذار / مارس ١٩٩٦م، ويمثل إضافة جديدة إلى تاريخ حركة المقارنة في العالم العربي، فهو الكتاب التاسع والأربعون من الكتب المؤلفة حول الأدب المقارن في العربية. ويأتي بعد ثلاث سنوات من صدور كتاب د. حسام الخطيب «آفاق الأدب المقارن عربيًا وعالميًا» (بيروت ١٩٩٢م) الذي كان آخر كتاب نظري حول الأدب المقارن قبل كتاب د.علي شلش، وبسبب الفارق الزمني البسيط بين الإصدارين، يبقى كتاب د. الخطيب في الذهن عند قراءة كتاب د. شلش، وهذا ما كان في ذهن د. شلش نفسه الذي كان على اطلاع واع ودقيق على كتاب الخطيب، وأفرد له حيزًا طيبًا في الجزء الثالث من كتابه الذي يتحدث فيه عن التجربة العربية في الأدب المقارن.



الأدب المقارن بين التجربتين الأمريكية والعربية

علي شلش

الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ١٩٢ص

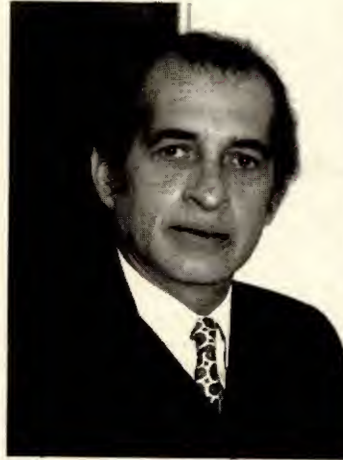
يشتمل الجزء الأول من الكتاب على تقديم ومقدمة. أما الجزء الثاني فيبحث في التجربة الأمريكية، بينما يبحث الجزء الثالث في التجربة العربية، أما في الجزء الرابع فيلخص د.شلش ويوازن بين التجربتين، ويعطي رأيه الواضح فيهما. ثم يلي ذلك ملحق يحتوي على قائمة بالتأليف والترجمة في العربية حول الأدب المقارن، ثم قائمة مختارة بالمؤلفات والدوريات الإنجليزية والفرنسية وهوامش الكتاب.

في المقدمة يعطي د. شلش ما يجب أن يعرفه كل دارس للأدب المقارن من أن المصطلح تعبير فرنسي المنشأ واللغة، وأن الفرنسيين قصدوا بمصطلحهم أشياء معينة أكثر مما يخطر في البال من المقارنة والموازنة والمقابلة؛ فقد اشترط الفرنسيون أن تجري المقارنة بين آداب مختلفة اللغة، وأن تكون هناك صلة تاريخية فعلية بين الأدبين موضوع المقارنة، بحيث يكون هناك أثر للواحد في الآخر، وتكون الدراسة المقارنة بذلك دراسة لتطور الصلات التاريخية بين الأدبين، ومدى تأثير النصوص الأدبية في نصوص مماثلة من أدب آخر. لكن المشكلة تكمن في أن المصطلح بقي ملتبسًا منذ ظهوره، ولم يختف الغموض عندما انتقل المصطلح إلى بلاد غربية أخرى غير فرنسا. ويؤرخ الدكتور شلش لتاريخ الغموض الذي بدا واضحًا عند اجتماع الرابطة الدولية للأدب المقارن في عام ١٩٥٨م، حيث ألقى رينيه ولك محاضرة أثارت الشك حول المفاهيم التي كانت تبدو مستقرة عند المشتغلين بالأدب المقارن. ويعرض د. شلش في كتابه آراء ولك، ونتائج طروحاته وآثارها؛ بالإضافة إلى استعراض للتجربة العربية التي بدأت على المستوى الأكاديمي قبل عقد واحد من محاضرة ولك. ويحاول د. شلش خلال

عرضه أن يجيب عن أسئلة منها: لماذا تأخرنا في معرفة مصطلح الأدب المقارن؟ وكيف كانت المقارنات الأولى؟ ومتى ظهر المصطلح بالعربية؟ ومن صاحبه؟ وكيف تطورت الدراسات المقارنة؟ وما دور الجامعات في هذا التطور؟ كما يتكلم د. شلش على تجربة فخري أبو السعود الذي قارن بين الأدب العربي والأدب الإنجليزي، ويقوّم هذه التجربة.

بدأت التجربة الفرنسية في الإطار الجامعي عندما أنشأت كلية السوربون كرسيًا للأدب المقارن عام ١٨٢٨م. وجاءت بعد فرنسا إيطاليا وألمانيا. أما في أمريكا فبدأت جامعة هارفارد بإنشاء كرسي لهذا الأدب عام ١٨٩٧م، ثم تلتها جامعة كولومبيا عام ١٩٠٣م، ثم كورنيل عام ١٩٢٧م. ويقدم د. شلش بعد ذلك عرضًا لأشهر أساتذة الأدب المقارن في أمريكا أوائل القرن العشرين، وبعض آرائهم. من بين هؤلاء


نازك الملائكة


علي شلش

فرنر فريدريش (ورنر فريدريك) الذي أصر على أن الدراسة الصحيحة للأدب هي الأدب نفسه، مهما كانت الفروع التي يدرس فيها الأدب، وأكد ضرورة التمسك بالتقويم الجمالي للشعر والشعراء.

الجديد في هذا الجزء من كتاب د. شلش ما يسميه انقلاب رينيه ولك على المفهوم الفرنسي السائد للأدب المقارن عام ١٩٥٨م. وليوضح هذا التغيير الجذري في المفاهيم السابقة، خصص د. شلش قسمًا وافيًا من كتابه لبحث إنتاج رينيه ولك الذي توافرت له عُدَّة المقارن من إجادة لغات كثيرة منها الإنجليزية والألمانية والتشيكية (لغته الأم) مع الإلمام بالإيطالية والروسية. وتنقل ولك بين بلدان وجامعات كثيرة مما أغنى معرفته واطلاعه على تاريخ آداب اللغات التي عرفها، ومعرفة التاريخ العام لهذه الآداب، مما أكسبه اتساع أفق، وأعطاه عدة الباحث في الأدب المقارن. بالإضافة إلى ذلك، فقد قوّى ذلك حسه بالقيم الجمالية، وقدرته على التفكير في الأدب بوضوح وتحديد.

يعرض د. شلش بعد ذلك قصة كتاب «نظرية الأدب» ١٩٤٩م الذي ألفه ولك مع أوستن وارن حين كانا في جامعة أيوا، وهو كتاب تُرجم إلى أكثر من عشرين لغة، ومنها العربية. ويركز هذا الكتاب على العمل الأدبي ومشكلاته، وحلول الأديب لهذه المشكلات.

ويصر الكتاب على أن واجب النقد الأساسي هو تحديد الأدب وتعريفه ووصف طبيعته، وجعل هذا أوسع من دراسة مسألة اللغة أو الأسلوب.

بعد ذلك يستعرض د. شلش كتاب ولك المهم: «تاريخ النقد الحديث» الذي ظهر المجلّد الأول منه عام ١٩٥٥. ثم صدرت المجلدات التالية على مدى سنين طويلة حتى ظهر المجلّد الثامن عام ١٩٩٢م. ويبين د. شلش أن كتب ولك كلها تنصب على ثلاثية نظرية للأدب والنقد وتاريخ الأدب. ويقول ولك في إحدى مقالاته: إنه لا يوجد أدب يمكن دراسته دون التجاوز المستمر لحدود أرضه، ومن هنا كان شغله الشاغل الأدب المقارن.

يبحث ولك في الأدب العام والمقارن، ويذكر أن دراسة الأدب الشفاهي، وموضوعات الحكايات الشعبية وهجرتها كانت المفهوم الأول للأدب المقارن، أما المفهوم الثاني فيكمن في دراسة العلاقات بين أدبين أو أكثر. المشكلة في هذا المفهوم الذي تبناه الفرنسيون تنجم عن أن هذا النوع من الدراسة يعزل الدارسين عن الاهتمام بالآداب القومية، فتركز على المشكلات الخارجية للمصادر والتأثيرات، ولا يبقى هناك مجال لدراسة عمل مفرد فنيًا، ويبقى التركيز على المصادر والتأثيرات الخارجية للأدب.

يدور المفهوم الثالث للأدب المقارن حول دراسة الأدب العالمي والعام أو الدولي. فأمنية الأدب العالمي اتحاد آداب العالم، أما الأدب العام فيدور حول نظرية الأدب ومبادئه وحركاته. لكن ولك عادى تضييق مفهوم الأدب المقارن، وأعلن آراءه في بحث قدمه عام ١٩٥٨م تحت عنوان «أزمة الأدب المقارن» قال فيه: إن مؤسسي المدرسة الفرنسية أثقلوا الأدب المقارن بمنهجية عتيقة؛ لأنها تقيم أسوارًا مصطنعة بين الأدب المقارن والأدب العام، بينما يجب أن يكون موضوع أي دراسة أدبية أيًا كان نوعها الأدب نفسه. أما الاهتمام بالتجارة الخارجية للأدب في دراسة الأدب المقارن، فيجعلها مجرد دراسات للمعلومات المتعلقة بالمصادر وشهرة الأدباء.

يتابع بعد ذلك د. علي شلش عرض أهم أفكار رينيه ولك في مقالات عن اسم الأدب المقارن ووظيفته، ورسمه لمعالمه الأساسية في الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والسلافية، ويتابع كذلك المراحل الست التي مر بها الأدب المقارن، والتي قادت ولك إلى الحكم على المفهوم الفرنسي بالعقم. لكن لا يعني موقف ولك وإسهامه في إنشاء المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن أنه رفض المدرسة الفرنسية كليا، ولكنه رفض حصر جهدها في مفهوم ضيق.

يستعرض د. علي شلش بعد ذلك ما حدث بعد مقال ولك في كل من فرنسا وأمريكا كما يتحدث عن كتاب كلود بيشوا وأندريه روسو في فرنسا، وعمل هنري ريمالك في أمريكا.

في الجزء الثاني من الكتاب، يستعرض د. شلش التجربة العربية والمحاولات الأولى في المقارنة، ويبدأ بالسؤال: لماذا تأخرنا في الخوض في الأدب المقارن؟ وجوابه يكمن في عدم دراسة الكثير من المبتعثين لهذا العلم الجديد نسبيًا، ومن الممكن أنهم لم يصادفوا هذا المصطلح في أثناء دراستهم، أو أنه لم يكن يقع داخل دائرة اختصاصاتهم العلمية، فلم يتطوعوا لمعرفة أكثر من اختصاصهم، وتدور هذه العوامل في الاهتمام الشخصي، أو الحاجة إلى المعرفة التي لم نعتدْها. ويذكر د. شلش تعليل الطاهر مكي الذي أرجع السبب إلى الظروف الصعبة التي واجهت دارسي الأدب في الغرب. وظل الأمر كذلك حتى نشر فخري أبو السعود مقالاته في المقارنة عام ١٩٣٦م. وأول من أشار إلى عمل هذا المقارن كان عطية عامر عام ١٩٨٣م، كما استعرض د. شلش عمل رفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك، وأحمد ضيف.

يستعرض د. شلش أعمالاً أخرى قبل أن يخصص جزءًا وافيًا لمحاولة فخري أبو السعود (١٩١٠-١٩٤٠م) التي خدمت الأدب المقارن بإقامة جسر بين الثقافتين العربية والأوربية في العصر الحديث. وقد كتب فخري أبو السعود في موضوعات عامة في الأدب المقارن، وخصَّ بالبحث موضوعًا محددًا هو المقارنة بين الأدبين العربي والإنجليزي. فهو يبحث في «الأدب العربي والأدب الغربي على ذكر رواية خسرو وشيرين»، وهي مسرحية بالشعر المرسل من تأليف فريد أبو حديد. وفي مقالته الثانية يبحث «الأثر اليوناني في الأدب العربي» حيث يرى أن العرب اتصلوا بالثقافة اليونانية متأخرين في وقت كان الأدب العربي قد نضج. ومقالة بعنوان «الشرق في أدب الغرب» يرى أبو السعود أن الشرق يوظف كمكان ينظر إليه بعين يغذّيها الخيال ببعده وقصصه وأساطيره.

أما في الموضوعات المقارنة بين الأدبين العربي والإنجليزي فأثبت في سبع وأربعين مقالة يتحدث فيها أبو السعود عن عنصر التشابه والاختلاف دون تركيز على عنصر التأثير والتأثر. ومن هذه العناصر التشابه في تاريخ الأدبين، وأطوار الثقافة والفنون وشخصيات الأدباء، والأشكال الأدبية والتأثير الذي قامت به عناصر مثل الدين والبيئة ونظام الحكم والترف والمجتمع والأخلاق وهكذا.

والمقالات هذه حسب رأي د. شلش جاءت دون تصميم محكم سابق يحدد تسلسلها، لكنها تكشف عن غزارة اطلاع وذكاء وحساسية نحو ما ينقص أدب العربية، وهي تجربة رائدة في الدراسات المقارنة. على أن د. حسام الخطيب وجد أن خليل هنداوي كان أول من استعمل مصطلح الأدب المقارن على صفحات مجلة الرسالة المصرية بتاريخ ٨ حزيران/يونية ١٩٣٦م، أي قبل فخري أبو السعود بثلاثة أشهر في مقالة تحمل عنوان «ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي - اشتغال العرب - بالأدب المقارن أو ما يدعوه الفرنجة LITERATURE COMPAREE في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر للفيلسوف العربي أبي الوليد بن رشد، ويعترف د. شلش للهنداوي بأنه أول من أشار إلى الموضوع إشارة الواعي العارف إلى حد كبير، لكنه يوضح أنه كانت لمقالات أبو السعود أصداء واسعة، فظهرت بعد مقالاته مقالات تقارن بين الأدب العربي والآداب الأخرى، كمقال شفيق جبري الذي قارن بين بخلاء الجاحظ وبخيل موليير، ومقالات حسين مؤنس التي قارنت بين الشعر الأندلسي والشعر الأوروبي، ومقالات أخرى.

بعد ذلك بدأت الجامعات العربية في إدخال اللغات الأجنبية وآدابها في مناهجها، ودعا هذا إلى المقارنة بين هذه اللغات والآداب من جهة واللغة العربية وآدابها من جهة أخرى. وكانت كلية دار العلوم السباقة إلى هذا حين أخذت بتدريس الآداب الأجنبية عام ١٩٣٨م، وأدخلت مادة الأدب العربي المقارن. وشاع تدريس الأدب المقارن بعد عام ١٩٦٣.

في الجزء الثاني من الكتاب، يستقصي د. شلش الأعمال المقارنة المؤلفة والمترجمة إلى العربية، ويقول: إن عددها ثمانية وأربعون كتابًا مؤلفًا وخمسة كتب مترجمة، وهو أمر يثير الدهشة حيث يظن أن كتب الترجمة كانت من الأفضل أن تفوق التأليف عددا. ويعد عام ١٩٤٨م عامًا مهمًا بالنسبة للأدب المقارن حيث



رفاعة الطهطاوي

يلخص علي شلش التجربة العربية بأنها ما زالت واقعة تحت سيطرة التجربة الفرنسية، وفي حاجة إلى مزيد من التأمل في ماضي التجربة المقارنة وحاضرها



موليير

ظهرت أربعة كتب منها المُتَرْجَم والمؤلَّفْ. كما يذكر د. شلش أن هناك ثلاثة كتب مترجمة عن المدرسة الفرنسية وواحدًا عن المدرسة الأمريكية. ويعمل كل المقارنين العرب في الجامعات سوى واحد منهم، ومنهم أحد عشر رجلاً تخصصوا في دراساتهم العليا في الأدب المقارن، أما البقية فاعتمدت في تدريس المادة على الممارسة، ومن المقارنين العرب من لا يعرف لغة أجنبية. ويراجع د. شلش هذه الكتب، ويجد أن أكثرها لا يعكس التطورات الجديدة، وأن أهم ما فيها هو التطبيقات التي قامت عليها هذه الكتب، ككتاب الطاهر مكي «في الأدب المقارن - دراسات نظرية وتطبيقية» الذي قدم اثنتي عشرة مقالة في تاريخ الأدب وظواهره. والتعريف ببعض التأثيرات العربية في أوروبا وأمريكا. ويعدّ د. شلش أفضل ما في كتاب مكي مقالة مقارنة بين لوركا ونازك الملائكة.

خليل هنداوي أول من استعمل مصطلح الأدب المقارن، ومقالات فخري أبو السعود كانت لها أصداء واسعة

ويتوقف د. شلش عند كتابين ظهرا عام ١٩٨٧م، الأول للطاهر مكي بعنوان «الأدب المقارن - أصوله وتطوره ومناهجه»، والثاني لسعيد علوش بعنوان «مكونات الأدب المقارن في العالم العربي». وكلا الكتابين غيوران على الأدب المقارن كعلم قابل للرسوخ والتطور.

يبقى كتاب المكي محافظًا ميالاً للمفهوم الفرنسي، ويخاطب جمهورًا عريضًا بلغة سردية، ويحاول أن يقدم صورة تاريخية منهجية للأدب المقارن في العالم بأكمله، وفيه إسهاب، ينتقده د. شلش، وتركيز يعجبه في بعض الفصول. فهو يحصر دراسته لتطور الأدب المقارن في مصر، ويلتفت إلى الجزائر؛ لأنها عربت دراستها بعد الاستقلال، ولهذا كانت مادة الكتاب عن الأدب المقارن في العالم العربي ضعيفة.

أما كتاب سعيد علوش فيتأمل، ويخاطب الخاصة بلغة مثقلة بالمصطلحات، لكنه كتاب نواجه فيه التأليف حول الموضوع بطريقة نقدية من بدايته إلى نهايته. فهو يرصد الدرس المقارن عندنا، ويقسم مرحلة التطور عندنا إلى أربع مراحل: الأولى: مرحلة التأسيس (١٩٤٨- ١٩٦٠) والثانية: مرحلة الترويج (١٩٦٠- ١٩٧٠) والثالثة: مرحلة عقد الرشد (١٩٧٠- ١٩٨٤) ثم المرحلة الرابعة وهي المرحلة التعليمية.

يخصص د. علي شلش ثلاث عشرة صفحة لكتاب د. حسام الخطيب آفاق الأدب المقارن١٩٨٣، وهو آخر كتاب عن الأدب المقارن قبل كتاب د. علي شلش. ويعرض كتاب د. الخطيب أول مرة محاولات خليل هنداوي في وضع مصطلح الأدب المقارن في العربية، وهي محاولات لم تكن معروفة من قبل، كما تعرض كتاب د. الخطيب لتطورات التأليف والتدريس في العالم العربي، وتوثيق نشاط المقارنين العرب.

يقول د. شلش:

إن د. الخطيب توقف عند هنري ريماك أكثر من توقفه عند الآخرين وخاصة ولك، ويقول: إن التوقف عند ريماك فقط يقلل من العرض الكامل لتنوع التجربة الأمريكية، بالإضافة إلى أن فهم تجربة ريماك نفسه غير ممكنة دون الإحاطة بجهود ولك.

يتوقف كتاب د. الخطيب عند محمد روحي الخالدي وكتابه «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب»، وفيكتور هيجو، ويصف الخالدي بأنه رائد البحث المقارن التطبيقي ورائد البحث العربي المقارن. ويعترض د. شلش على هذا؛ لأن الخالدي لم يكن واعيًا المعرفة الدقيقة والمنظمة بالموضوع، لكنه يعطينا كلامًا عموميًا تعوزه أدوات العلم الصحيحة. كما يعطي د. شلش كتاب الخطيب الفضل في عرض التطورات التي لحقت بالأدب المقارن، ويقسم هذه التطورات مرحلتين: مرحلة البدايات حتى عام ١٩٥٣م ثم مرحلة التأسيس.

يلخص د. شلش التجربة العربية بأنها مازالت واقعة تحت سيطرة التجربة الفرنسية. وأن المقارنين العرب بحاجة ماسة إلى مزيد من الترجمة، والكثير من التأمل في ماضي التجربة المقارنة وحاضرها، وتَذَكّر أن جوهر هذا العلم هو المقارنة.

في الجزء الأخير من الكتاب «بين التجربتين» يرى د. شلش أن العرب لم يتجهوا نحو التجربة الأمريكية، إلا بسبب الاهتمام الشخصي. ويبين ذلك باستعراضه بعض المقالات التي تعرضت للتجربة الأمريكية في العالم العربي، ومنها مقالة شوقي السكري «مناهج البحث في الأدب المقارن» (١٩٨٠عالم الفكر الصادرة في الكويت)، وهي مقالة قدمت خلاصة وافية عن التجربة الأمريكية واختلاف مفهومها عن المفهوم الفرنسي. ثم هناك العدد الخاص لمجلة فصول عام ١٩٨٣م عن الأدب المقارن، وفيها مقالات عن المفهوم الأمريكي، مثل مقالة عبدالحكيم حسان، ومقالة سمير سرحان عن مفهوم التأثير، وكمال أبو ديب عن إشكالية الأدب المقارن.

ويتحدث د. شلش بعد ذلك عن دور النقد والإنسانيات، ويرى أن أزمة الأدب المقارن ستظل قائمة بعد الحل الأمريكي، الذي فتح باب المقارنة على مصراعيه، وربط الأدب بالنقد وبالإنسانيات، بسبب التعقيد الفرنسي، والصمت العربي تجاه الأزمة. لكن المقارنة ستظل قائمة على الطريقتين الفرنسية والأمريكية معا؛ لأن الموضوعات هي التي تحدد الطريقة، ولن تختفي موضوعات التأثر والتأثير، ولا موضوعات العلاقات بين الأدب وألوان التعبير والنشاط الذهني والعقدي الأخرى.

في الكتاب ملحق يحتوي على قائمة بالكتب المؤلفة والمترجمة في العربية عن الأدب المقارن، وقائمة مختارة بالمؤلفات والدوريات الإنجليزية والفرنسية وهوامش للمتن.

يبقى القول: إنّ هذا الكتاب في عرضه للتجربتين الأمريكية والعربية سيكون نقطة انطلاق جيدة لكل من يريد أن يشتغل في المقارنة، فهو يعطي الدارس فكرة طيبة في عرضها ونقدها، عن الجهود التي قامت في البحث المقارن، التي ستمكنه من استقصاء المهم منها بنفسه.

إفريقيا المسلمة
الهوية الضائعة

الخليل النحوي   مراجعة: مجدي محمد محمود عيسى

يتناول الكتاب أهم حدثين شهدتهما القارة، وتركا آثارهما في شتى مناحي الحياة في هذه القارة من سياسية واقتصادية وفكرية واجتماعية. الحدث الأول هو دخول الإسلام إلى القارة، الذي كان إيذانًا ببدء فترة الإيناع الحضاري، فقد أثر الإسلام في شعوب هذه القارة وصاغ لهم هوية متميزة، ونشر بينهم العلم والمعرفة، ولمت اللغة العربية شتات الأعراق والقبائل الإفريقية بما يسرت من سبل التخاطب المباشر. وعلى الصعيد الاقتصادي، نشطت حركة التبادل التجاري بين البلدان الإفريقية والبلدان العربية عبر تجارة القوافل. وعلى الصعيد السياسي شهدت إفريقية، في ظل الإسلام، نشوء دول وممالك كبيرة مزدهرة.

وأمّا الحدث الثاني، الذي تعود بدايته إلى خمسة قرون فهو الزحف الاستعماري النصراني الذي أدى إلى تخلف القارة، وإضعاف صلاتها بالعرب والمسلمين. ومن خلال استعراض هذين الحدثين، يجتهد المؤلف في تأصيل الشخصية الإفريقية، واستكشاف هويتها الضائعة، ثم يقف بنا على أسباب ضعف التضامن العربي الإفريقي.



إفريقيا المسلمة
الهوية الضائعة

الخليل النحوي

بيروت: دار الغرب الإسلامي
١٩٩٣م، ١٩٢ص

حلت اللغة العربية مشكلة التعدد اللغوي في إفريقية وساعدت على تنمية اللغات الإفريقية وتكوين لغات جديدة

يتألف الكتاب من أربعة فصول وخاتمة.

انتشار الإسلام في إفريقية

يتناول الفصل الأول: ظاهرة المد الإسلامي في إفريقية التي بدأت منذ عهد النبوة الأول عندما أرسل ـ النبي صلى الله عليه وسلم ـ جماعة من أصحابه إلى الحبشة التي كان يحكمها النجاشي، والتي كانت ملاذًا لهم من جور كفار قريش. وفي السنة الخامسة للهجرة أرسل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم القبط في مصر يدعوه إلى الإسلام؛ فكانت هذه سفارة ثانية تمهد لفتوح لاحقة تنشر الإسلام في ربوع القارة، فقد تم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فتح مصر سنة ٢٠هـ، والإسكندرية وبرقة سنة ٢١هـ، وطرابلس الغرب سنة ٢٢هـ. وفي عهد عثمان بن عفان تم فتح قرطاجة سنة ٢٧هـ وسائر شمال إفريقية بما في ذلك شرق موريتانيا. وفي عهد هشام بن عبدالملك، تم إرسال حملة إلى إفريقية والمغرب لنشر الإسلام وحفر الآبار تمهيدًا للطرق في السوس الأقصى وبلاد مسوفة. ثم توالت على مر القرون التالية حركة المد الإسلامي في إفريقية عبر قنوات عدة من أهمها التجارة، فبفضل اتصال موانئ إفريقية الشرقية بالجزيرة العربية، كانت حركة التجارة نشيطة بين الطرفين، وكانت سواحل الصومال وكينيا وتنجانيقا مراكز للتجارة، ثم لم تلبث أن تحولت مع الإسلام إلى مراكز إشعاع ديني تنطلق منها الدعوة إلى الله. وكانت طرق القوافل ما بين طرابلس الغرب وتشاد مسالك للإسلام، وقد نشر التجار العرب الإسلام في جزر القمر وبقية جزر المحيط الهندي. وتعدّ أودغاست وغانة(*) نموذجًا للحواضر التي دخلها الإسلام في وقت مبكر، ونعمت في ظله برخاء اقتصادي كبير. فلقد انساب الإسلام إلى هاتين المدينتين، وإلى حواضر أخرى عتيقة مثل مقديشو وتمبكتو وجنة وكانو وكشنة، وغيرها من الحواضر الإفريقية التي أدت في نشر الإسلام، وبثّ العلم أدوارًا مكملة لأدوار القيروان وتونس (الزيتونة) وفاس (القرويين) والقاهرة (الأزهر).

ويرى المؤلف ـ استنادًا إلى آراء بعض المؤرخين والباحثين الأفارقة ـ أن عملية انتشار الإسلام في إفريقية قد تميزت بطابعها السلمي، واستجابة الناس طواعية للدعوة الإسلامية، وهذا بعكس الاستعمار الذي تتسم حركته بالإكراه والعنف. ويرى أن هذا لا يتعارض مع ما

فرضه الإسلام من الجهاد بالأنفس والأموال، فالجهاد لم يشرع لإكراه الناس على اعتناق الإسلام، بل لدفع الظلم والعدوان عن المجتمع المسلم، ولإعلاء كلمة الله، ولتأمين نشر الدعوة، ولتأمين حرية الاعتقاد، حتى إن أهل الذمة حقوقهم مصونة في كنف الدولة الإسلامية.

ثم ينتقل المؤلف إلى الحديث عن جهاد الأفارقة دولاً وحركات، فقد ذكر أن الأفارقة كان لهم باع في الجهاد فأسّسوا به دولاً، ووطّدوا به أركان ممالك قائمة، وواجهوا به أعداء مختلفين في مراحل مختلفة (وثنيين، وصليبيين، ونصارى...). ويسوق المؤلف أمثلة للدول الإسلامية التي ظهرت في إفريقية، ومنها دولة المرابطين على شواطئ الأطلس، ومملكة «التكرور»، ودولة غانة، ودولة مالي التي أسست في القرن السادس الهجري، ودولة الفونج الإسلامية في السودان في القرن العاشر الهجري.

الاستعراب في إفريقية

هذا عنوان الفصل الثاني: الذي يتناول المضامين الحضارية للفتح العربي الإسلامي لإفريقية. فوفقًا للمؤلف، إن هذا الفتح قد اقترن به اتساع دائرة العروبة فلم تعد قاصرة على جزيرة العرب، حيث امتد سلطان العربية في بلاد إفريقية وخاصة في غربها، فاستعربت أقوام نسباً من خلال المصاهرة، وآخرون استعربوا بتعلم العربية. وفي مقابل الاستعراب، ظهر التأفرق حيث انصهرت جموع من العرب الفاتحين في المجتمعات الإفريقية مندمجين كليًا في البيئة الثقافية والاجتماعية الإفريقية، أو مكونين معها سلالة جديدة، ذات خصائص مميزة، فمثلاً، ذاب عرب بني كنز في نوبيي شمال السودان، وكان السواديليون والفلان والهوسة واليوربيون مزيجًا من العرب والأفارقة.

ويرى المؤلف أن ظاهرتي «الاستعراب» و«التأفرق» تؤكدان حقيقة الدور الفاعل للإسلام في صياغة هوية أفريقية متميزة ذات جذور اجتماعية وسلالية تضرب في الأرض والتاريخ. ووفقًا للمؤلف، فإن للاستعراب مدخلين: أحدهما ثقافي لغوي، وهو المدخل الأهم. والثاني سلالي اجتماعي.

ويذكر أن مجموعات أفريقية كثيرة تميل إلى الاستعراب الذي يقوم عادة على الانتساب إلى الأصل. ويرى أنه سواء صحَّ هذا النسب العرقي العربي أم لم يصح، فإن العروبة ليست عرقًا، إنها ذات مضمون ثقافي حضاري وهذا هو الأهم.

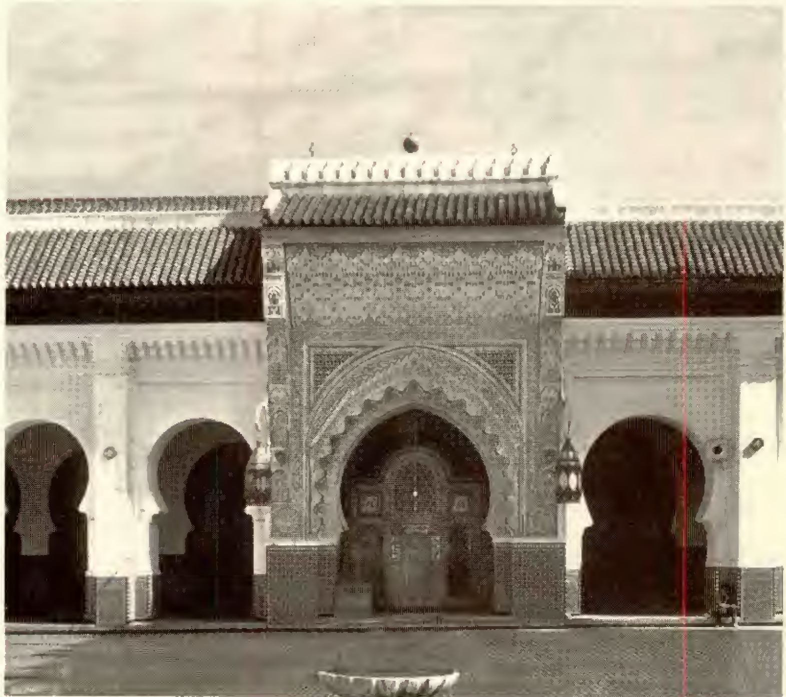
وحاصل القول: إن ظاهرتي استعراب الأفارقة وتأفرق العرب تدلان على سماحة الإسلام الذي لا يميز بين العرب والأعاجم، ويراهم جميعًا إخوانًا في العقيدة، ويساوي بينهم في الحقوق والالتزامات. ويرى المؤلف أن أهم مظهر لحركة الاستعراب في إفريقية يتجلى بوضوح في مسألة اللغة العربية، فقد تميزت اللغة العربية بالعالمية، فهي ليست لغة محلية، وقد اختارها الله أداة لمخاطبة الناس أجمعين، ورفع من شأنها لتكون لغة إنسانية تحمل دعوة التوحيد، والكلمة الطيبة، والحكمة النافعة، والقيم الحضارية السامية. ويرجع سر انتشار العربية وسيادتها على لغات الأمم الأخرى إلى ما تتسم به مفرداتها من سلاسة، وجزالة لفظ، وغنى واكتمال، ودقة في المعاني، وبلاغة في الكلام. ويعترف المستشرق أرنست رينان بأنه لم يكد يمضي على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى. وبالنسبة إلى تأثير اللغة العربية في اللغات الإفريقية، يرى المؤلف أنها أفادت شعوب إفريقية في ناحيتين:

الأولى: حل مشكلة التعدد اللغوي الذي كان يحول دون التواصل الثقافي، وتبادل المنافع الاقتصادية بين أبناء هذه القارة. فهناك أكثر من ٦٠٠ لغة يتكلمها سكان القارة فضلاً عن آلاف اللهجات. وبصفتها لغة جامعة، فإن العربية قامت بدور قناة الاتصال بين المجموعات العرقية واللغوية المختلفة في تلك القارة، حتى صارت العربية - وفقًا لما يقوله توماس آرنولد - لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة. كما صارت أداة الربط الإفريقي بماضيه وتراث آبائه وأجداده.

الثانية: تنمية اللغات الإفريقية وتكوين لغات جديدة، فقد اقتبست بعض اللغات الإفريقية الكثير من مفردات اللغة العربية. ومثال لذلك اللغة الملغاشية التي تأثرت بالعربية في عدة مجالات منها: مصطلحات التجارة، وأسماء أيام الأسبوع.

وفي كنف اللغة العربية، تكونت وتنامت مجموعة من اللغات الإفريقية الجامعة، التي ضرب المؤلف مثلاً لها بست لغات كبرى هي: السواحلية والهوسية والفلانية واليوروبية والماندنكية والولفية، وذكر عددًا كبيراً من مفردات هذه اللغات مقتبسة من العربية، ويرى أن هذه المفردات تدل على أثر الإسلام في بناء قيم حضارية جديدة، وإغناء حياة شعوب القارة بما يتجاوز حدود ممارسة الشعائر الدينية. فمن خلال مفردات زمنية تواترت في هذه اللغات (أسماء أيام الأسبوع، وقت، زمان، ساعة... إلخ). عمّق الإسلام إحساس الإنسان الإفريقي بالزمن وأهمية الوقت. ومن خلال مفردات متواترة مثل: حق، حقيقة، عقل، سبب، عيب، أرسى الإسلام قيمًا خلقية وحضارية واجتماعية جديدة. كما أن لغة القرآن تضمنت الكلمات التي تُسمَّى بها الأشياء المكونة للشق المادي للحضارة (سكر، بصل، لؤلؤ، حرير، ذهب... إلخ).

وأخيراً، فإن تعريب اللغات الإفريقية قد خلصها من الشفوية، وحولها إلى لغات مكتوبة، وقد دعم التعريب شخصية هذه اللغات، ومكنها من أن تنمو وتشع، كما تشهد بذلك كتب الأدب الإسلامي المدون باللغات الإفريقية.



صحن جامع القرويين بفاس

ويختم المؤلف هذا الفصل بالحديث عن الصراع بين الحرف اللاتيني والحرف العربي في إفريقية، فذكر أن الحرف العربي قد انتشر مع توسع رقعة الدولة الإسلامية، وذلك ليؤدي وظيفة التبليغ في عدد كبير من لغات المسلمين في آسيا وإفريقية، فبلغت جملة اللغات غير العربية التي كتبت بالحرف العربي نحو ٨٠ لغة، من بينها أكثر من ٣٠ لغة إفريقية، بينها اللغات الكبرى التي تنتشر في عدة دول: السواحلية، والهوسا، والفلانية، والماندنكية. وقد أدركت القوى الاستعمارية، والبعثات التنصيرية في القارة قوة ارتباط المسلمين باللغة العربية وبالحرف العربي، فاضطرت إلى التعامل مع هذا الواقع حينًا من الدهر في انتظار التمكن من تغييره، حيث استخدم الحرف العربي من قبل المستعمر الفرنسي في الثلاثينيات في التعامل في بعض مستعمراتهم الإفريقية، كما استفادت الإرساليات التنصيرية من الحرف العربي في سعيها لنشر دعوتها في إفريقية، فترجمت الإنجيل إلى عدد من اللغات الإفريقية مكتوبة بالحرف العربي. وكان استخدام الحرف العربي في مثل هذه الأعمال، وفي بعض نشاط الإدارة الاستعمارية حيلة مؤقتة لتيسير التواصل مع السكان في فترة كانت لغات المستعمرين تواجه فيها مقاومة صلبة، وكانت الكفة الراجحة في كفة اللغة العربية وحروفها.

ويذكر المؤلف أن توطيد أركان السيطرة الاستعمارية في القارة الإفريقية قد اقترن به تعزيز مواقع اللغات الغربية في إفريقية كلها، وانتشار الحرف اللاتيني وأفول نجم الحرف العربي، وأن الحملة الاستعمارية ضد الحرف العربي تأتي في سياق المواجهة بين نظم التعليم الأصلية ـ العربية الإسلامية في إفريقية ونظام التعليم الوافد الذي حمله الغزاة الجدد معهم، وحمّلوه رسالتهم: لغة وفكراً ومناهج وبرامج. وكان هدف المستعمر من محاربة الحرف العربي هو طمس الهوية الثقافية الإسلامية للأفارقة، وقطع صلة الأفارقة بتراثهم الذي كتب خارج دائرة الهيمنة الاستعمارية. وقد عرض المؤلف للإجراءات التي اتخذها الاستعمار للقضاء على الحرف العربي، ومن ذلك:

ـ تحريم استخدام الحرف العربي في المؤسسات التعليمية والدوائر الرسمية، والوثائق الحكومية في شمال إفريقية وغربها، وفرض الكتابة بالحروف اللاتينية.

ـ الدعوة إلى «تنمية اللغات الإفريقية» وتدوينها باستخدام أبجدية واحدة، ولكن مع التركيز على الحرف اللاتيني دون غيره. وقد حمل لواء هذه الدعوة مجموعات من أبناء الشعوب الإفريقية ذاتها انبهاراً بالتقنيات التي وضعها الغرب في خدمة لغاته.

وقد وصل هذا إلى حد أن دولة مثل الصومال التي لم تلبث أن طلبت الانضمام إلى جامعة الدول العربية قررت كتابة اللغة الصومالية بالحرف اللاتيني عام ١٩٧٢م. ويفند المؤلف حجة بعض المثقفين الأفارقة الذين لجؤوا إلى كتابة اللغات الإفريقية بالحروف اللاتينية، واقترح أن يتم تدوين هذه اللغات بالحروف العربية وفق منهجية مصطلح عليها، وأن يستفاد في ذلك من خبرة أولي المعرفة. وذكر أنه كان لبعض الأفارقة تجارب ناجحة في هذا الميدان، ومن ذلك ما قام به الكاتب الكبير المرحوم أمادو آمباتي الذي وضع أبجدية عربية اقترحها لكتابة اللغات الإفريقية.

ـ إقامة عدد من مؤسسات الطباعة والنشر في بلاد إفريقية، تقوم بإصدار المنشورات والكتب الإفريقية لغة، اللاتينية حرفًا، مثل مؤسسة الحق المهتمة بلغات غرب إفريقية، ومكتب شرق إفريقية للنشر، وهو مؤسسة تهتم بالسواحلية بالدرجة الأولى.

ـ إصدار عدد من المعاجم لربط اللغات الإفريقية باللغات الأوربية. ثم استعرض المؤلف بعض الهيئات الدولية في مجال النهوض بالحرف العربي، والدفاع عنه، والعمل على تعزيز مكانته بما يمكنه من منافسة الحرف اللاتيني؛ ومن هذه الهيئات: منظمة اليونسكو، والبنك الإسلامي للتنمية، ومعهد دراسات وأبحاث التعريب بالرباط، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ومع ذلك، فإن هذه المجهودات جاءت متأخرة، وأنه لولا ما يتمتع به الحرف العربي من قوة ذاتية، ومن قبول وألفة لدى القبائل الإفريقية، لهزم في ساحة المواجهة مع الحرف اللاتيني؛ فالمعركة كانت غير متكافئة، حيث إن الغربيين، بعد أن سيطروا على الأرض في إفريقية، حشدوا من الوسائل والإمكانات لإحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي ما لم تحشده مؤسسة عربية أو إسلامية لمصلحة الحرف العربي. ويرى المؤلف ضرورة أن تستكمل المجهودات العربية ـ الإسلامية المذكورة؛ وذلك استناداً إلى الجهود الشعبية، وليس إلى قرارات سياسية. ويدخل في ذلك وجوب المبادرة إلى نشر ذخائر المخطوطات الإفريقية المكتوبة بالحرف العربي لتكون في متناول أبناء القارة بحيث يتسنى لهم الاتصال بتاريخهم وثقافتهم وحضارتهم الإسلامية.

الاستعمار في إفريقية

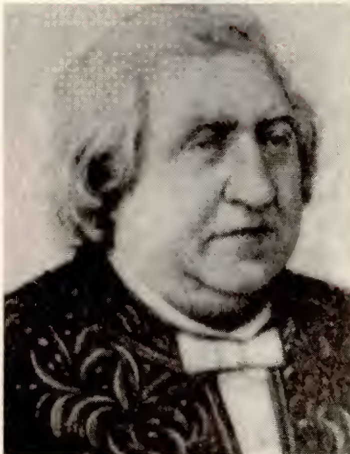
يتناول الفصل الثالث: ظاهرة التغلغل الاستعماري الغربي في القارة الإفريقية منذ القرن الخامس عشر الميلادي. وقد عالجها المؤلف في ثلاثة مباحث، الأول عن تجارة الرقيق عبر المحيطات، والثاني عن حقبة الاحتلال، والثالث عن روافد الاستعمار.

المبحث الأول: تجارة الرقيق

استعرض المؤلف هنا تجارة الرقيق التي قام بها


هيلاسيلاسي

كان العرب من أول ضحايا الرق الذي مارسته الدول الاستعمارية، وكلفت تجارة الرقيق إفريقية ٢٠٠ مليون فرد


أرنست رينان

الأوربيون في إفريقية في عصر الاستعمار الأول. وكانت البداية عند وصول البرتغاليين إلى الشواطئ الموريتانية سنة ١٤٣٤م، حيث بدؤوا يسعون إلى ربط علاقات تجارية مع السكان. وفي سنة ١٤٤٢م دشنوا عصر النخاسة الجديدة باختطاف بياضين (عرب ما يعرف اليوم بموريتانيا)، فكان العرب من أول ضحايا الرق في الحملة البرتغالية. ثم توالت بعد ذلك حملات البرتغاليين والإنجليز لاستجلاب الرقيق من إفريقية ونقلهم إلى الدول الأوربية في السفن في ظروف سيئة جداً، وكانوا في أثناء الرحلة وبعد وصولهم يتعرضون لمعاملة مذلّة مهينة وحشية. ويذكر المؤلف أن تجارة الرقيق قد كلفت إفريقية ٢٠٠ مليون فرد. وقد تركت هذه التجارة آثاراً سيئة جداً في إفريقية منها: حرمان هذه القارة من الكفاءات الثقافية والمهنية النادرة، واستنزاف القوى النشيطة في القارة، فإن معظم من تم استرقاقهم كانوا من الشبان، وإثارة العنف والعداوات بين القبائل الإفريقية، بل داخل القبيلة الواحدة. ثم عرض المؤلف شهادات بعض الباحثين عن عدالة الخبرة الإسلامية في الرق بالموازنة بالخبرة الأوربية، وخلاصتها أن الرق الذي كان في جزيرة العرب لم يكن قائماً على أسس عرقية كالذي عرفه السود على يد الأوربيين البيض، كما أن وضعية الرق لم تكن في الإسلام حائلاً دون ترقي الإنسان في السلم الاجتماعي، وكان الاسترقاق في المجتمعات الإسلامية عملاً فردياً لا تمارسه الجماعة كلها، ولا تشرعه، ولا تزكيه. ويعقب المؤلف على هذه الشهادات بملاحظتين رئيسيتين، أولاهما: أن الرق لم يكن ظاهرة صرفاً، فقد عرفته مجتمعات أخرى بما في ذلك المجتمعات الإفريقية ذاتها، فقد حدث أن الأفارقة في مرحلة معينة، وبتحريض من النخاسين الأوربيين، كانوا يسترقُّ بعضُهم بعضاً، وأن الرق الأفريقي عربياً كان أو غير عربي أخف وطأة من الرق الأوربي الذي قامت عليه الدول، وأنشئت له المؤسسات. وسخّرت له أحدث وسائل النقل، وأعتى أدوات الإذلال.

الثانية: أن الإسلام مهد منذ البعثة المحمدية طريق الانعتاق أمام الأرقاء، وذلك بالحث على إعتاق الرقيق، وجعل ذلك تكفيراً لذنوب الإنسان أو تقرباً إلى الله. وسدّ الإسلام منافذ الرق ما عدا منفذاً واحداً هو الجهاد، وما قد يترتب عليه من وقوع غير المسلمين في الأسر. وعلى الرغم من ذلك، فتح الإسلام لهؤلاء الأسرى أبواب الانعتاق التي من بينها الفداء بمبلغ مالي.

ثم عقد المؤلف موازنة بين وضع الأرقاء في المجتمع الإسلامي ووضعهم في المجتمعات الأوربية والأمريكية. ففي المجتمعات الإسلامية نعم الأرقاء بمعاملة إنسانية راقية، وفتح الباب أمامهم ليرتقوا في السلم الاجتماعي الجديد الذي رتبه الدين الحنيف، على نحو ما حدث مع بلال بن رباح، وأسامة بن زيد، وزيد بن حارثة. وبالموازنة فإن أوربا والأمريكيين - وبمشاركة الكنيسة - أخضعت الأفارقة لأبشع نظام استرقاق تقوم عليه الدول والمؤسسات، وتسن التشريعات لإحكامه، استناداً إلى دعاوى عرقية تجزم بتفوق الإنسان الأبيض على الإنسان الأسود، أو دينية بحجة أن التوراة «أمرت العبرانيين باستعباد جميع الشعوب المجاورة لهم، وأن الاسترقاق في نظر بعض رجال الدين المسيحيين كان مؤسسة يقضي الواجب الديني ببقائها».

ويذكر المؤلف أن المسلمين الأفارقة الذين سقطوا في أيدي قراصنة النخاسة قد ظلوا أوفياء لروح الإسلام متمسكين بالحرية، ولذلك فإنهم قادوا ثورتين للأرقاء خلال القرن الثامن عشر الميلادي في سان دومينيك، كما ثارت مجموعة أخرى من الأرقاء المسلمين الذين كانوا يقرؤون العربية ويكتبونها، فأسست سنة ١٨٣٥م جمهورية بالماريس شمال شرق البرازيل، واتخذت باهية عاصمة لها.

المبحث الثاني: «عصر الاحتلال.. غزو العقول»

في هذا المبحث تناول المؤلف تطور الظاهرة الاستعمارية في إفريقية من كونها نشاطاً تجارياً يركز على شراء العبيد واختطافهم والاتجار بهم، وينحصر في بعض المراكز الساحلية لا يكاد يتعداها إلا قليلاً، إلى احتلال عسكري يسيطر على الأرض، ويستنزف خيراتها، فتصبح القارة بالنسبة إلى المستعمرين مصدراً للمواد الخام، وسوقاً لتصريف فائض إنتاجهم.

وقد تم تقاسم القارة بين القوى الاستعمارية: إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وألمانيا. وقد اصطبغت الحملات الاستعمارية - وفقاً للمؤلف - بصبغة واضحة، فكانت بمنزلة حملة صليبية جديدة، حيث كانت جيوش الغزاة مصحوبة بدعاة التنصير الكاثوليك والبروتستانت، وعمل الاثنان على مسخ الهوية الإسلامية لإفريقية واستلابها حضارياً، وغزوها فكرياً. كما عملت الإدارة الاستعمارية على محاربة الإسلام في إفريقية خصوصاً أنه كان يمثل وقود حركة المقاومة الاستعمارية ضد المستعمر، ويذكر المؤلف أن النشاط التنصيري قد استند إلى ثلاث أدوات رئيسة هي:

- **المؤسسات التعليمية.**
- **العمل الإنساني.**
- الكتاب. هذا بالإضافة إلى مجموعة من الإذاعات الموجهة من وإلى إفريقية بلغات مختلفة (من بينها اللغة العربية) التي وصل عددها إلى ١٨٥٠ محطة إذاعة وتلفاز.

فقد أنشئ في البلدان الإفريقية عدد من المدارس الكاثوليكية والبروتستانية. وكانت المدارس النظامية تخضع لإشراف رجال الدين المسيحي. وبالإضافة إلى المؤسسات التعليمية، أنشئت المؤسسات الأكاديمية المعنية بالتنصير مثل «معهد صموئيل زويمر» الذي أسس في شمال كاليفورنيا.

وفي تقويمه لنظام التعليم الاستعماري، يرى المؤلف أن هذا النظام لم ينشر المعرفة في إفريقية، ولم يقض حتى على الأمية، وإنما قام بتنشئة جيل من أبناء القارة، وهيأ لهم ظروف الحكم والسيادة في مجالات السياسة والثقافة، فأدوا خدمات جليلة للمستعمر بعد رحيله.

وقد كان دور الكتاب مكملاً لرسالة المؤسسات التعليمية، فقد قامت الإرساليات التنصيرية بترجمة الإنجيل والتوراة إلى عدة لغات أفريقية عديدة، هذا



مئذنة وساحة جامع الزيتونة في تونس

بالإضافة إلى طباعة كتب أخرى تدعو إلى اعتناق النصرانية.

وبالنسبة إلى العمل الإنساني، فقد استغلت الجمعيات والهيئات الكنسية الفاقة الشديدة، والمجاعات التي اجتاحت مناطق واسعة من القارة الإفريقية، للدعوة إلى النصرانية، حيث انتشرت هذه الهيئات في مناطق الفاقة، والمناطق المنكوبة توزع المساعدات الغذائية والدواء والكساء، وتتعهد المرضى والمحتاجين بالرعاية الإنسانية، كما تقوم بزيارات للمسجونين، وتقدم لهم المساعدات، وتوزع عليهم الأناجيل.

ويذكر المؤلف أن الإدارة الاستعمارية قبل رحيلها قد مهدت السبيل أمام الحركات التنصيرية لكي تواصل مهمتها، حيث استخلف المستعمرون أنظمة قدمت المزيد من الخدمات والتسهيلات لتلك الهيئات، حتى إن بعض الحكام الأفارقة كان أكثر تعصبًا ضد الإسلام ومعاداة للإسلام من النظام الاستعماري السابق، ومن هؤلاء الإمبراطور هيلاسيلاسي حاكم إثيوبيا الأسبق. واستمر النشاط التنصيري الذي تفرغ للدعاية له ثلاثة ملايين ونصف المليون من القسس، ويتستر هذا النشاط في ثوب أعمال إنسانية كإغاثة المنكوبين، ورعاية الأطفال والمعوقين وذوي العاهات. ووفقًا للمؤلف، فقد أثمر هذا النشاط في تحويل أكثر من مليون مسلم إفريقي إلى النصرانية، وفقًا لما أوردته نشرة صادرة عن منظمة الدعوة الإسلامية بالخرطوم.

ووفقًا للمؤلف، فإن الكنيسة ترفع في إفريقية حاليًا شعار «اخلع عنك دينك، نخلع عنك الجوع والعطش والمرض والعري». لقد أثمرت السياسة الاستعمارية تخريج نخبة من الساسة والمثقفين الأفارقة الذين تربوا في كنف الإدارة الاستعمارية، وتأثروا بها، وعندما تولوا مواقع المسؤولية في بلادهم بعد الاستقلال أثروا في شعوبهم على نحو جعلها تابعة ومقلدة للدول التي كانت تستعمرها بالأمس، فلم يتبلور في القارة مشروع حضاري مستقل. ويعبّر المؤلف عن هذه الوضعية بكلمة «الاستلاب»، ويرى أن هذا الاستلاب إنما هو نوع من الانهزام الحضاري يفوق توقيع اليابان على صك الهزيمة في الحرب العالمية الثانية. ثم أوضح بعد ذلك الكيفية التي أنتج بها الاستلاب آثاره في عقول الساسة والمثقفين وعامة الناس.

فبالنسبة إلى الساسة والدولة، فإن الدولة الحديثة قامت على أسس ومبادئ غربية، فقد ورثت عن الاستعمار الحدود المصطنعة التي رسمها، والتي صارت سببًا لتفجر النزاعات، وذريعة لتدخله. كما ورثت فكرة العلمانية «الفصل بين الدين والدولة» وهي فكرة لا مسوّغ للأخذ بها في الدول الإسلامية، لأن العلمانية ظهرت في الغرب، حيث كانت الكنيسة تقف عائقًا أمام تقدم المجتمعات، وكانت متسلطة على العباد، أما في الإسلام فالدين ليس عائقًا أمام التنمية والتقدم، بل إنه يحث على طلب العلم. كما أن التشبه بالغرب ظهر في تقاليد اجتماعية أخرى كاعتماد التقويم الميلادي بدلاً من الهجري.

وبالنسبة إلى المثقفين، فقد نجحت الإدارة الاستعمارية في تكوين جيل من المثقفين الأفارقة الذين تشبعوا بثقافة المستعمر وقيمه الحضارية، وتأهلوا لخلافته بما يرضيه، وهؤلاء هم دعاة الاغتراب الذين حاربوا الإسلام في بلادهم وزعموا أنه السبب الرئيس لتأخر المسلمين. وللاستلاب وجه آخر، وهو الهجرة المعاكسة للأدمغة أي ذوي الكفاءات الذين هجروا أوطانهم، واتجهوا إلى الغرب أملاً في حياة أفضل، ويمثل هذا استنزافًا للموارد البشرية الإفريقية. ويتعرض هؤلاء في الدول المضيفة لأساليب الترغيب والترهيب لكي لا يعودوا إلى بلادهم ثانية، ويصل الترهيب أحيانًا إلى حد التصفية الجسدية، كما حدث لبعض المهندسين الباكستانيين والعراقيين، الذين اغتالتهم أيدي المخابرات الإسرائيلية والغربية لتقليل حظوظ الدول الإسلامية من العلم والتقنية والنمو.

المبحث الثالث: «روافد الاستعمار»

في هذا المبحث يستعرض المؤلف مجموعة الروافد التي استخدمها الاستعمار لتنفيذ مخططه في القارة الإفريقية، الذي يسعى إلى استنزاف ثروات القارة، وطمس هويتها الحضارية، والحؤول دون انتشار الإسلام فيها. وتتمثل هذه الروافد - وفقًا للمؤلف - في ثلاثة هي: القاديانية، والماركسية، والعصبيات الضيقة.

بالنسبة إلى القاديانية، فهي ديانة مبتدعة انتشرت في القارة الإفريقية متلفعة بثوب الإسلام، وقد خدمت المخطط الاستعماري للقارة من حيث قيام أقطاب هذه الديانة بالدعوة إلى وجوب طاعة الإنجليز، وتحريم الجهاد ضدهم. وقد استفادت القاديانية في دعوتها من انتشار الجهل في القارة، ووظفت أموالاً طائلة، ووسائل مؤثرة جدًا كالصحف والمجلات والمدارس والمكتبات وطباعة المصحف باللاتينية.

أما الماركسية، فإنها - وفقًا للمؤلف - ظهرت في إفريقية اتجاهات فكرية (أيديولوجية) تحث على مقاومة الاستعمار، وتدعم حركات التحرر الوطني، ولكنها عضدت المشروع الاستعماري في محاربته للإسلام، وذلك في فلسفتها الإلحادية. ويرى المؤلف أن الشيوعية تلتقي مع الحركة الاستعمارية فيما تسعى إليه من فرض نموذج حضاري على المجتمعات الإفريقية.

وبالنسبة إلى العصبيات الضيقة، يرى المؤلف أن



مئذنة جامع القيروان في تونس

عملت الإدارة الاستعمارية على محاربة الإسلام في إفريقية؛ لأنه كان وقود حركة المقاومة ضدها

الاستعمار سعى إلى إثارة النعرات العنصرية كوسيلة لإحداث الفرقة والانقسامات في صفوف الأفارقة، بحيث تسهل السيطرة عليهم. ومن ذلك مثلاً ظهور فكرة «القومية العربية» كرد فعل على ظهور «القومية الطورانية» التي نادت بمجد الأتراك، وهضمت مكانة العرب. ويرى الكاتب أن فكرة القومية العربية فكرة محمودة إذا كانت ستقود إلى قيام وحدة عربية جامعة قد تكون خطوة نحو قيام الوحدة الإسلامية المنشودة، إلا أن الاستعمار أثار هذا الشعار، وولد له أطروحات مضادة إمعانًا منه في توهين الصف الإسلامي. ولذلك فإن الشعار قد تحطم على صخرة الدولة القطرية المنيعة التي ترفض التنازل عن أي قدر من سيادتها لصالح تكتل عربي.

كذلك عمل الاستعمار على إذكاء عصبية «الزنوجة» لتكون نقيضًا لـ «العروبة»، ثم تتبع المؤلف تطور الزنوجة في إفريقية، التي استخدمها الاستعمار



التعليم الاستعماري لم ينشر المعرفة في إفريقية، بقدر ما أنشأ جيلاً أدى خدمات جليلة للمستعمر بعد رحيله

أداةً لتمزيق القارة، وتقسيمها قسمين: إفريقية بيضاء وإفريقية سوداء، وذكر أن دعاة الزنوجة يتنكرون لتراث آبائهم وأجدادهم وعطائهم الحضاري، ويوالون الاستعمار، ويقتفون تقاليده وفنونه وثقافته، وهم يؤمنون أنه لا تناقض بين دعوتهم وبين الاستعمار. وبالمقارنة فإن الإسلام دين المساواة لا يتفاضل الناس في ظله بأشكالهم وألوانهم، وإنما بالتقوى والعمل الصالح.

ولاء للذات.. وولاء للصهيونية

الفصل الرابع: «إفريقية بين الولاء للذات والولاء للصهيونية». يتضمن مبحثين يدور أولهما حول التغلغل الصهيوني في إفريقية، والثاني حول تقويم مسيرة التعاون العربي الأفريقي.

بالنسبة إلى النشاط الصهيوني في إفريقية، فقد تتبع المؤلف نشأة الحركة الصهيونية، وحلل أسسها الفكرية استنادًا إلى ما ورد في بروتوكولات حكماء صهيون، ووصفها بأنها حركة تخريبية عنصرية جامدة تسعى إلى إفساد البشر، وتوهين قواهم. وذكر أن هذه الحركة ناصبت إفريقية العداء منذ وقت طويل، وذلك في ضوء مقترحات بعض مؤسسي الحركة الصهيونية بأن يكون لليهود وطن قومي في أجزاء من إفريقية مثل أوغندا وزائير. ومع أن إسرائيل عدلت عن مشاريع استيطان الدول الإفريقية، إلا أنها بذلت قصارى جهدها لغزو القارة بوسائل أخرى ثقافية وتجارية.

ففي أوائل القرن العشرين، نجح اليهود في كسب ود الأفارقة من خلال تظاهر الصهيونية بالتضامن مع الشعوب الإفريقية في مواجهة الاستعمار، ومن خلال تركيب نماذج ومُثل للأفارقة مستوحاة من التراث اليهودي دخلت الخطاب السياسي الإفريقي الداعي إلى التحرر. وقد أثمرت هذه المساعي فيما بعد في قيام علاقات وطيدة بين إسرائيل والدول الإفريقية. وكان فيض المهاجرين اليهود من إفريقية إلى الدولة الصهيونية منذ تأسيسها ضربًا من ضروب الإسهام في تدعيم وجود الدولة العبرية. وقد تم تعزيز الوجود السكاني اليهودي في فلسطين بمدد آخر من اليهود الأفارقة من خلال عملية تهجير اليهود الفلاشا من إثيوبيا إلى فلسطين، التي كانت «عملية سليمان» في مايو سنة ١٩٩١م هي أكثر مراحلها كثافة».

ويرى المؤلف أن الحركة الصهيونية قد خرجت من رحم الاستعمار الذي مهد لها السبيل في القارة قبل رحيله، ولذلك فإن الحركة الصهيونية كانت القابلة والحاضنة والمربية لعدد من الحكومات الإفريقية مثل كينيا وليبيريا غداة الاستقلال. وقبل نشوب حرب ١٩٦٧م، كانت إسرائيل قد نجحت في إقامة علاقات دبلوماسية مع ٣١ دولة أفريقية، وتوقيع اتفاقيات تعاون مع ٢٠ دولة. وفي السنوات التالية للحرب التي احتلت فيها إسرائيل أراضي إفريقية وعربية، لم ينخفض عدد البعثات الدبلوماسية الإسرائيلية في القارة، بل وصل هذا العدد سنة ١٩٧٢م إلى ٢٣ بعثة.

ويذكر المؤلف أن الدولة العبرية كانت تعزز نشاطها الرسمي في إفريقية بنشاطات المنظمات الإسرائيلية غير الحكومية كالهستدروت، ونوادي الروتاري، والليونزالماسونية. أما النشاط الثقافي الإسرائيلي، فإنه اتجه إلى محاولة غزو عقول الأفارقة، وتكوين مجموعات ضغط ومراكز نفوذ تابعة لإسرائيل في إفريقية. وفي هذا الشأن عنيت إسرائيل بشكل خاص ببرامج التدريب والتنشئة حتى يتسنى لها تشكيل العقلية الإفريقية بما يتفق مع مصالحها. ولهذا الغرض أنشأت لديها مراكز خاصة لتأهيل الطلبة الأفارقة، وإعدادهم لتسلم مهام قيادية في بلادهم.

كذلك قامت إسرائيل بتنظيم دراسات في البلدان الإفريقية لتعلم اللغة العبرية، واقتضى ذلك تكثيف الحضور البشري الصهيوني هناك من خلال جيش من الخبراء والمعلمين ورجال الأعمال.

أما النشاط الاقتصادي الذي ازدهر بعد استقلال الدول الإفريقية، فقد أريد به تعزيز مخطط الغزو الثقافي، وذلك من خلال شراء الذمم وتشكيل «مصالح مادية» تضمن بها إسرائيل حضورها السياسي في إفريقية فضلاً عما تجنيه من أرباح وافرة باستغلال خيرات القارة، واتخاذ القارة سوقًا لتصريف منتجاتها. ولقد نشطت إسرائيل في تأسيس عدد كبير من الشركات المختلطة مع الأقطار الإفريقية، كما استثمرت مبالغ طائلة هنا. وهنا يذكر المؤلف أن الروابط الاقتصادية الإسرائيلية الإفريقية ظلت قائمة حتى في مرحلة القطيعة الدبلوماسية التي أعقبت حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣م.

وفيما يتعلق بالنشاط العسكري الإسرائيلي في إفريقية، فقد كان - وفقًا للمؤلف - أكثر النشاطات فضحًا لمطامع إسرائيل في هذه القارة. ويذكر المؤلف أن التعاون العسكري بين الطرفين قد نشأ منذ استقلال إفريقية حتى الآن، وتتلخص أوجه هذا التعاون في:

- تدريب العسكريين الأفارقة سواء في إسرائيل أو في بلادهم، وقد نشطت إسرائيل كثيرًا في هذه الناحية في الفترة من ١٩٦١م حتى ١٩٧٣م، وأقامت لهذا الغرض المدارس والمعاهد والأكاديميات العسكرية.
- توفير الحماية لنظم حكم إفريقية في مواجهة الخصوم السياسيين. ومن أمثلة هذه النظم، نظام بول بيا في الكميرون سنة ١٩٨٤م، ونظام هوفوت بونييه في ساحل العاج.
- التعاون في مجال التصنيع الحربي، وتطوير بعض منظومات الأسلحة. والمثال الصارخ لذلك هو التعاون الذي كان قائمًا بين إسرائيل وحكومة جنوب إفريقية العنصرية السابقة، والذي شمل تزويد جنوب إفريقية بأسلحة إسرائيلية، وتبادل الخدمات الاستخبارية، وإجراء تجارب مشتركة على بعض الأسلحة، والتعاون في مجال تطوير أسلحة نووية.

ولقد فنّد المؤلف الأباطيل التي بنت عليها إسرائيل «تعاونها» مع الدول الإفريقية، حيث قدمت إسرائيل نفسها للأفارقة على أنها بلد ينتمي إلى مجموعة البلدان النامية مثل بلادهم، وأنها نصير لقضايا التحرر في القارة، وأنها تتمتع بنموذج فريد يقتدى به في مجال التنمية الاقتصادية. وفي المقابل،

قدمت الدعاية الصهيونية العرب على أنهم تجار رقيق، وأصحاب إمبريالية نفطية. ويرد المؤلف بأن ممارسات إسرائيل في إفريقية تدحض هذه المزاعم، حيث إنها اعتدت على دول عربية إفريقية (مصر ـ تونس ـ حمام الشط)، وما كان نشاطها الاقتصادي في القارة إلا غطاء لنشاطاتها السياسية والاستخبارية هناك. وفي التبادل التجاري مع القارة، فإن إسرائيل هي الطرف الرابح، خصوصاً أن التجارة الإسرائيلية تقوم على التهريب، وعلى التهرب من الضرائب.

وبالإضافة إلى التخريب الاقتصادي، فإن إسرائيل كانت ضالعة في كثير من الفتن التي شهدتها القارة مثل حرب بيافرا (١٩٧٠ - ١٩٧٦م) في نيجيريا، وتمرد الجيش الشعبي لتحرير السودان ضد الحكومة، والنزاع السنغالي ـ الموريتاني في نيسان/أبريل ١٩٨٩م.

ويخلص المؤلف إلى أن إسرائيل تسعى إلى استعباد الأفارقة لا تحريرهم، وأنها تعمل على إيقاد نار الفتنة بينهم وبين العرب على الرغم من أنها تكره الطرفين، وتكيد لهما. فحتى يهود الفلاشا الذين هاجروا من الحبشة إلى إسرائيل وضعوا في أدنى مراتب السلم الاجتماعي هناك، فإسرائيل دولة عنصرية، وإن الأمم المتحدة قد أخطأت حين قررت إلغاء قرارها السابق الذي يساوي بين الصهيونية والعنصرية.

في المبحث الثاني «العون العربي لإفريقية»، يحلل المؤلف أسباب عدم توفق العرب في إثبات حضورهم في إفريقية بالموازنة بما حققته إسرائيل من نجاح في إقامة علاقات وطيدة ومتنوعة مع دول هذه القارة. وتتلخص هذه الأسباب ـ في رأي المؤلف ـ بالآتي:

ـ تحول أنماط التجارة ومسالكها، فمنذ القرن الخامس عشر الميلادي حلَّ التبادل التجاري الاستعماري الإفريقي عبر المحيطات محل القوافل التجارية العربية ـ الإفريقية، وجاءت السيطرة الاستعمارية على إفريقية عاملاً فاصلاً، إذ انضافت بالاستعمار شبكة متكاملة من الأسس الثقافية ـ العقدية والسياسية، لتكون مع العامل الاقتصادي حاجزاً جديداً بين العرب والأفارقة.

ـ وجود خلل في الأسس التي بنى عليها العرب علاقاتهم بإفريقية، حيث إن الأقطار العربية ركزت كل مجهوداتها في التعاون الاقتصادي، وأهملت الجوانب الثقافية والإعلامية والتربوية، في الوقت ذاته الذي عني فيه الغرب والصهيونية بهذه الجوانب، فدخل العرب بذلك معركة حضارية في إفريقية وهم غير مستعدين لها. وعلى سبيل المثال، فإن العرب عاجزون حتى الآن عن إنشاء مؤسسة ثقافية عربية ـ إفريقية مشتركة.

ـ إن الدول العربية حصرت علاقاتها بإفريقية في القنوات الرسمية (الحكومية)، وأهملت القنوات الشعبية التي كان من شأنها أن تحرك نوازع الأخوة العميقة وتوظفها.

ونصل مع المؤلف إلى خاتمة الكتاب، التي قدم فيها تصوره لكيفية إصلاح العلاقات العربية ـ الإفريقية على نحو تستعيد معه هذه القارة ذاتها الحضارية الإسلامية التي مسخت بفعل مجهودات الاستعمار والتبشير والصهيونية. ويرى أن تعريب إفريقية ليس حلما بعيد المنال، وأنه من الممكن تحقيقه، وذلك بأن يبدأ العرب بإصلاح أنفسهم، وفضّ منازعاتهم، وتوثيق صلتهم بخالقهم، وأن يجعلوا القرآن دستورهم، فبذلك يقدمون للأفارقة القدوة الحسنة، والأسوة الطيبة التي يستطيعون بها إنقاذهم من المخططات الشريرة التي تدبر لهم من قبل اليهود والنصارى والماركسيين والبهائيين والقاديانيين.

وبعد، فإن المؤلف قد وفّق في أن يجلّي الهوية الحضارية الإسلامية الضائعة للقارة الإفريقية، وفي توضيح دور الاستعمار والتبشير والصهيونية في طمس هذه الهوية. كما نجح المؤلف في إبراز أسباب ضعف التضامن العربي الإفريقي وسبل استعادة هذا التضامن في وقت نجحت إسرائيل فيه في تعزيز حضورها في القارة، وخصوصاً في البحر الأحمر، والقرن الإفريقي، مما يشكل تهديداً استراتيجياً للوطن العربي. والكتاب يستثير لدينا الهمم لكي نتحرك، ونستعيد ما فقدناه من مواقع في هذه القارة. والشيء بالشيء يذكر، فإن المسلمين أهملوا أيضاً الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز التي خرجت حديثاً من رحم الاتحاد السوفييتي المنهار في الوقت ذاته الذي حرصت فيه إسرائيل والعالم الغربي على استقطاب هذه الجمهوريات، والحيلولة دون حدوث أي التحام حقيقي بينها وبين أمتها الإسلامية، وبالتالي فإن الصحوة الإسلامية التي تشهدها تلك الجمهوريات مهددة من تلك القوى الخارجية، ومن النظم العلمانية في الداخل.

ومجمل القول في الكتاب: أنه إنجاز بحثي رائع معزز بالإحصاءات الموثوقة، ونحن ننصح باقتنائه وقراءته.

الهوامش:

(*) مدينتان كانتا جزءاً من موريتانيا الحالية.



المجاعة مشكلة تواجهها إفريقية على الرغم من ثرواتها الطبيعية الوافرة

مع أن إسرائيل عدلت عن مشاريع استيطان الدول الإفريقية، إلا أنها بذلت قصارى جهدها لغزو القارة بوسائل ثقافية وتجارية

أدباء الإنترنت.. أدباء المستقبل

أحمد فضل شبلول   مراجعة: حسين علي محمد

اهتم الأديب الشاعر أحمد فضل شبلول بالحاسوب، واتخذه صديقًا له يكتب عنه وفيه أبحاثه ومقالاته وقصائده، وغنَّى له ديوانًا شعريا كاملاً هو ديوانه الأخير: «تغريد الطائر الآلي»، وفي هذا الديوان نرى إشكالات التعامل الأدبي والفني مع «الحاسوب».



علاقة حميمة نشأت بين الأطفال والكمبيوتر في هذا العصر

يقول في القصيدة الأولى التي عنوانها: «الشاعر والحاسوب»:
دخل الشاعر صندوق الحاسوب، وقال:

افتحْ خانات الأسرار
واجمعْ كلِ بنات البحر الهدار
وتحسسْ أنباء القلبِ المُبحرِ في الظُّلماتْ
فعدوِّي الآن يُقاتلني
بالمعلومات(١).

ويخاطبه الحاسوب في القصيدة نفسها بقوله: «يا صديقي»(٢)، وهذا يُبين لنا مدى العلاقة الحميمة التي نشأت بين الشاعر و«الحاسوب»، وفي قصيدة أخرى عنوانها «مطايا للحواسيب» يقول الشاعر:

أقيموا من صدوركمو
مطايا للحواسيب
فإني يا بني أُمي،
أخافُ عليكمو
الجلاءَ
والدَّهْرا(٣)

ولن تعدم أن تجد في قصائد الديوان الأخرى تجارب شعرية راقية تستوحي العلاقة الحميمة - بين الشاعر وحاسوبه - التي أخذت من عمرهما معا عدة سنوات.

وفي كتابه الجديد «أدباء الإنترنت.. أدباء المستقبل» «يحاول أن يعقد زواجًا سعيدًا بين العلم والأدب، بكل عوالمه ووقائعه، هو الترجمان الصادق لحياة الإنسان في لحظات سعادته وهنائه، أو في لحظات حزنه وشقائه على السواء، والإنترنت بكل آفاته واكتشافاته هو أهم مظهر من مظاهر العلم الحديث حتى الآن بكل ما يحمله من أفكار وتطلُّعات بلا حدود»(٤).

لقد حاول المؤلف أن يفهم عالم الحاسوب عندما رأى طفله - وهو دون السابعة - يجلس أكثر من ست ساعات متصلة يوميًا إلى ألعاب الحاسوب، ويُحاول أن يستقطب أخته الصغيرة - التي هي دون الرابعة - دون أن يكلّ، لتلعب معه!

وشغلت الشاعر عدة أسئلة ملحة في زمن الحاسوب والإنترنت، مثل: «كيف يكون الأدب في ظل وجود الكمبيوتر بشكل عام وشبكة الإنترنت العالمية بوجه خاص؟ وإلى أي حد يسهم العلم في كسر احتكار عملية النشر، أو قيودها وسطوة النقد، أو مجاملاته، بله منع بعض المطبوعات من تداولها أو وصولها إلى هذا القارئ أو ذاك؟»(٥).

وحاول المؤلف أن يجيب عن هذه الأسئلة وغيرها من خلال أحد عشر فصلاً احتواها الكتاب - أو إحدى عشرة مقالة - وهي:

- أدباؤنا والإنترنت (ص٢١ - ٥٣).
- النقد الأدبي الإلكتروني (ص٥٧ - ٧٨).
- الناقد الإلكتروني (ص٨١ - ٨٧).
- الإنترنت وأدب الأطفال (ص٩١ - ١٠٣)
- شبكة المعلومات الأدبية (ص١٠٧ - ١١٧).
- المعجمية العربية والمعاجم الإلكترونية (ص١٢١ - ١٣٦).
- الموسوعة العربية العالمية في صفحة

واحدة (ص ١٣٩ - ١٤٥).
- حاسب آلي يكشف لحظات الإبداع قبل حدوثها (ص ١٤٩ - ١٥٢).
- الشعر والمنجز الآلي والإلكتروني (ص١٥٥ - ١٥٦).
- فيروس الشعر (ص١٥٩ - ١٦١).
- اعتزال الترجمة (ص١٦٥ - ١٦٦).

وينتهي الكتاب بثلاثة فهارس أو كشافات، هي:
- كشاف الأعلام (ص١٧٣ - ١٨٢).
- كشاف المطبوعات (ص١٨٥ - ١٩١).
- كشاف المصطلحات (ص١٩٥ - ٢٠٤).

وسنتوقف أمام أربع قضايا يثيرها هذا الكتاب الجدير بالقراءة، الذي يقدم حلولا علمية وعملية لقضايا أدبية مزمنة:

قضية النشر

يعاني الأدباء منذ وُجدت المطبعة والصحيفة من مشكلة النشر، يستوي في ذلك الأدباء الكبار والشباب. يقول الأستاذ وديع فلسطين (عضو مجمع اللغة العربية بدمشق وعمّان) في حوار معه(٦)، يقول حين سئل: لماذا لا يجمع مئات المقالات التي نشرها منذ الأربعينيات في صحف ومجلات مثل «المقتطف»، و«المقطم»، و«الأديب»، و«الآداب»، و«العلوم».. وغيرها: «الأدب قد صارت تسري عليه نواميس التجارة، بل إن هذه النواميس هي وحدها التي تتحكم في الأدب أيا كانت قيمته. فإذا أردت نشر كتاب، فلن تجد ناشرًا يُغامر بهذه المهمة إلا إذا اطمأن سلفًا أن الكتاب مربح من الناحية التجارية المجرَّدة. وأنت مطالب بأن تكون لك «سمعة محلّ»، أي شُهرة، أي استمالة جماهيرية تكتب لكتابك الرواج المؤكد. فإن خرج الناشر من حسابات الضرب والطرح بأن كتابك غير رائج في سوق العرض والطلب، اعتذر لك بعشرات من الأسباب. فإن رغبت في طبع كتابك على نفقتك الخاصة، نهاك عن ذلك ارتفاع أسعار الورق، وبهاظة تكاليف الطباعة، وزهد موزعي الكتب في القيام عنك بأعباء التوزيع، وانعدام أبواب النقد الأدبي في الصحف التي تنبه الناس لصدور كتابك، وتضخّم أسعار الإعلانات في الصحف وما إليها من وسائل الإعلام.

وصفوة القول: أنه يتعيّن عليك قبل أن تؤلف كتابًا أن تُطبِّق عليه المقاييس التجارية المألوفة في أسواق البصل، وأنا جاهلها».

لكن مؤلف «أدباء الإنترنت.. أدباء المستقبل» يتناول هذه القضية المهمة - التي يثيرها دائما الكتّاب الشبان والكهول - ويبشرنا بأنه «سيكون في استطاعة أي أديب شاب.

[ولماذا الشباب فقط والكهول - كما قدمنا - يعانون من فرص النشر الضيقة الأشبه بثقب الإبرة؟]. أن يرسل إنتاجه الأدبي ليقرأه المهتم بالأدب العربي في أرجاء المعمورة.. فالعالم يعيش الآن ما يسمى بعصر انفجار المعلومات، أو كما يسميه بعضهم عصر المعلوماتية التي أتاحتها على نطاق واسع أجهزة الكمبيوتر الشخصي، أو الحاسبات الآلية الشخصية التي تستوعب آلاف الكتب، وملايين الصفحات، وأنهارا لا تنتهي من المعلومات، بل يستطيع مستخدمها أو مشغلها الاتصال بأي شخص في العالم لديه جهاز كمبيوتر مماثل عن طريق ما يسمى بالشبكات، شريطة أن يمتلك الشخصان ما يسمى بجهاز «المودم»، وهو الجهاز اللازم لتسهيل التواصل بين جهاز الكمبيوتر الشخصي مع الخط الهاتفي الدولي»(٧).

موسوعة في صفحة واحدة

صدرت أخيرًا في الرياض «الموسوعة العربية العالمية» في ثلاثين مجلدًا، تضم ١٦٢٠٠ صفحة، ويمكن جمع المواد التي تحتويها في ثلاثة أقراص مرنة، لا يزيد طول القرص الواحد منها على ١٠سم، وعرضه على ٩سم، أي إن الأقراص الثلاثة إذا وضعت متجاورة، فإنها لن تزيد على مقاس صفحة فولسكاب واحدة (ومعنى هذا أنه يمكن جمع أو حفظ أو ضغط هذه الموسوعة بأجزائها الثلاثين فيما يعادل مقاس



أدباء الإنترنت .. أدباء المستقبل

أحمد فضل شبلول

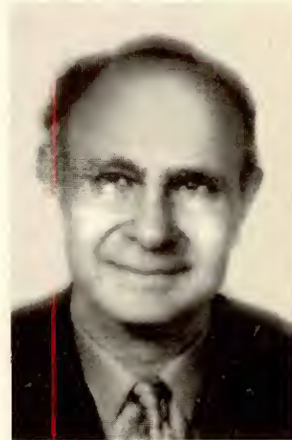
الرياض: دار المعراج الدولية للنشر، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، ٢٠٨ ص

الإنترنت يفتح المجال للأدباء الشباب لنشر إنتاجهم ليقرأه كل مهتم بالأدب العربي في أرجاء المعمورة

صفحة واحدة من كتاب)، بل من الممكن أن تكون أصغر من ذلك إذا صدرت على شكل أسطوانة مليزرة واحدة»(٨).

قضية أدب الأطفال

مازال كتّابنا مشغولين بالكتابة لأدب الطفولة ذي الوسائط التقليدية، المحصور في النشيد والأغنية والقصيدة الغنائية، والحكاية والقصة القصيرة المصورة، والمسرحية، والكتاب الثقافي العام، والمجلة، لكن مؤلف «أدباء الإنترنت.. أدباء المستقبل» ينبهنا لأنه «قد ظهرت في السنوات الأخيرة أشكال جديدة من الممكن أن تضاف إلى عالم أدب الأطفال، بمفهومه الواسع، مثل ألعاب الكمبيوتر، وما يعرف باسم الأتاري أو ألعاب «الفيديو جم» التي تستغرق الطفل استغراقًا تامًا عند الجلوس أمامها، والإمساك بالأذرع الخاصة بها، أو الضغط على مفاتيحها»(٩)، ومن ثم فإن من الواجب أن يتناقش المهتمون بأدب الطفل وتربيته في وجوب اهتمام دور النشر العربية بالتقنيات الحديثة - في الفيديو والحاسوب - وإنتاج أفلام تقدم للأطفال ما هو جديد وجاد مع الحفاظ على ثوابتنا حتى لا يتخلف الطفل العربي - وهو عدة المستقبل - عن ركب الإبداع والتعليم، وحتى نضمن له التفوق في عالم لا يرحم المتخلفين والغافلين.



وديع فلسطين

إن المؤلف يتوقع أن يغرقنا الإنترنت معنويًا وحسيا - ويغرق أطفالنا معنا - بسيول من المعرفة الإلكترونية، ومن هنا يأتي «دورالآباء والأمهات والمدرسين والمدرسات والمربين والمربيات الذين لابد أن تكون لديهم فكرة متكاملة عن التعامل مع أجهزة الحاسب الآلي الشخصية، ثم مع شبكة الإنترنت العالمية، حتى يكونوا على استعداد للإجابة عن أي سؤال يوجهه إليهم طفل المستقبل، طفل الإنترنت، وليس من طبيعة الأشياء أن يعرف الطفل أكثر مما يعرف الأب أو الأم أو المدرس أو المدرسة، وبخاصة في مجال المعارف العامة التي يجلبها التطور المستمر، إذ إن موضوع الحاسبات الآلية أو شبكة الإنترنت سيكون في غضون السنوات القليلة القادمة من الموضوعات أو المعارف العامة، وليس المتخصصة. بعد ذلك يأتي دور الحماية الثقافية والمعرفية لمواجهة التدفق المتوقع، والسيول التي سوف تتدافع أمام أنظار أطفالنا، وهم جالسون إلى أجهزتهم سواء في منازلهم، أو مدارسهم التي لابد أن تتطور لتساير الانفجار المعرفي والثقافي والأدبي الآتي من خلال الأجهزة الإلكترونية، وتواجه أي انحراف فيه»(١٠).

الترجمة الإلكترونية

يعالج الكتاب قضايا أخرى شائكة مثل قضية الترجمة الإلكترونية، فينقل خبرًا عن مجلة «القافلة» (العدد الثاني من المجلد التاسع والثلاثين) يقول:

«ابتكرت إحدى الشركات الأمريكية جهازًا للترجمة الفورية يعمل بالحاسب الآلي، وهو مصمم بحيث يحمل يدويًا ليكون عونا للمسافر على التحدث إلى الناس ومخاطبتهم في لغتهم الأصلية، فإذا أراد التعبير عن شيء نطق به في لغته هو، فيتولى الجهاز ترجمة هذا الكلام، وإعادته إلى مسامع الطرف الآخر بلغة يفهمها، وجرى برمجتها فيه مقدما، ويتم ذلك بفضل برنامج خاص موجود في الجهاز يستطيع تمييز اللغة المنطوق بها، وإعطاء الترجمة الصحيحة لها من حيث المفردات والتركيب اللغوي. وهذا البرنامج مقصور حتى الآن على الترجمة من الإنجليزية إلى الأسبانية»(١١).

ويعقب المؤلف على هذا الخبر بقوله:

«وحتى يخرج علينا جهاز يعمل باللغة العربية (يقصد يترجم من العربية وإليها) فإن على مترجمينا الفوريين مواصلة عملهم، واضعين في الحسبان عامل السرعة الذي يختصر الزمان والمكان، ولعل البرنامج العربي/الأجنبي الذي نتحدث عنه يكون متوافرًا بين أيدينا خلال سنوات قلائل.. ولكن.. دعنا نسأل الجهاز: هل لديك المقدرة على ترجمة روائع الأدب العربي والعالمي من العربية وإليها بطريقة سهلة ومبسطة وعذبة مثلما يفعل مترجمو الأدب (أحيانا)؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب، فإن على مترجمي الأدب التفكير أيضا في اختيار بديل آخر غير الترجمة ليتكسبوا منه لقمة عيشهم»(١٢).

وبعد،

فهذا كتاب كانت المكتبة العربية في حاجة ماسة إليه؛ فالمنجز الآلي والإلكتروني يتسلل يومًا فيوما إلى حياتنا اليومية، ويتحكم في إيقاعها، ويختصر مدارج الزمن؛ ومن ثم فنحن في حاجة إلى تأديب المنجز الآلي أو تعرّفه ومعرفة مدى إمكاناته في خدمة الأدب العربي قديمه وحديثه، فقد أصبح ذلك ضرورة من ضرورات حياتنا.

الهوامش:

١- أحمد فضل شبلول: تغريد الطائر الآلي، سلسلة «أصوات معاصرة»، (الزقازيق)، العدد (٣٣)، أبريل ١٩٩٧م، ص٩.
٢- السابق، ص١٢.
٣- السابق، ص٢٦.
٤- أحمد فضل شبلول: أدباء الإنترنت.. أدباء المستقبل، ط١، دار المعراج الدولية للنشر بالرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص١١.
٥- السابق، ص١٥.
٦- مجلة «صوت الشرق» القاهرة عدد أبريل/نيسان، ومايو/آيار ١٩٧٦م.
٧- أحمد فضل شبلول: أدباء الإنترنت.. أدباء المستقبل، ص ٢١.
٨- السابق، ص١٤١.
٩- السابق، ص٩١.
١٠- السابق، ص٩٩.
١١- السابق، ١٦٥.
١٢- السابق، ص١٦٥، ١٦٦.

أدباء الإنترنت.. أدباء المستقبل
أحمد فضل شبلول
الرياض: دار المعراج الدولية للنشر، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ٢٠٨ص.

سيرة النبي محمد ﷺ
شهادة موضوعية منصفة

كارين آرمسترونغ مراجعة: **محمد بن نذير منصور**

ضمن سلسلة «كتاب سطور» التي تصدرها مجلة «سطور» الثقافية الشهرية، وبترجمة كل من د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، صدرت الترجمة الكاملة لكتاب «سيرة النبي محمد» للكاتبة كارين آرمسترونغ الباحثة البريطانية في تاريخ الأديان، التي يصفها المترجمان بأنها: «كرست جهودها في سبيل النضال عن طريق الكلمة لمقاومة الشر السائد، ويمثل الجزء الأكبر من الشر السّائد الآن، ممارسات الغرب المستنير المهيمن ضد الشعوب والأفراد، وما ينجم عن ذلك من معاناة وفرقة وانكسار وسيادة الأحقاد والكراهية والعنف».



محمد

كارين آرمسترونـج

ترجمة: **فاطمة نصر ـ محمد عناني**

القاهرة: العدد الأول من سلسلة كتاب «سطور»، ١٩٩٨م

نموذج للإقناع والاقتناع!!

ويوضح المترجمان في مقدمتهما حول هذا الكتاب وأهميته أن كتاب «سيرة النبي محمد» هو دراسة قامت بها الكاتبة، ونشرتها إبان موجة الكراهية والعداء للمسلمين والإسلام التي انفجرت في الغرب بعد نشر كتاب «آيات شيطانية» لمؤلفه سلمان رشدي. ويضيفان: «أما حافزنا على ترجمة هذا الكتاب فليس هو الزهو بذلك الصوت المسيحي الغربي الذي حاول إنصاف محمدﷺ، وقدّم شهادة موضوعية عنه وعن الإسلام. فمحمدﷺ، والإسلام عقيدة ورؤية لن يُضارا، أو ينصفا بعداوة أو صداقة أحد. كما أن الكتاب لا يقدم معلومات جديدة عن حياة محمدﷺ، فالكاتبة تعتمد بشكل أساسي على المعلومات التي تستقيها من ترجمات وسير النبي الأولى، كما أن الكتاب موّجه بصفة رئيسية إلى القارئ الغربي وليس إلى القارئ العربي المسلم.. لكن من وجهة نظرنا، فإن الكتاب مثال لأسلوب الخطاب والتخاطب وسبل الإقناع، وذلك لأن الكاتبة تضع في بؤرة شعورها نفسية ووجدان وأسلوب تفكير المتلقي وإحساسه بذاته، كما أن رؤية الكاتبة تبرهن على أن الكاتب، لكي يقنع، فعليه أولاً أن يقتنع، والإنسان لن يقتنع، ولن تواتيه فرصة الرؤية الموضوعية، إلا إذا خلّص نفسه من المسلّمات والتحيّزات والأفكار المسبقة، وجرّد نفسه من رواسب التنشئة، وعوائق اللا وعي الفردي والجماعي، كي يصل لما يمكن أن يصل إليه من رؤية موضوعية.. والكاتبة، بعرضها لحياة محمدﷺ، تبيّن للغربيين أن كراهيتهم وعداءهم لمحمدﷺ وللإسلام والمسلمين، ومرادفتهم لهم بالعنف والهمجية والتخلف والشهوانية، يناقض ما يدّعيه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكري وعقائدي، وهي بوضعها يدها على هذا التناقض تهدم دفاعات القارئ الغربي، وتصيب زهوه بهويته العقلانية في مقتل».

أما المؤلفة كارين آرمسترونغ فتعترف في تقديمها للكتاب بأن الإسلام الذي يعدّ أحد أكبر الأديان في العالم منذ قرون، والذي يمت بصلات حميمة إلى تراث الأديان السماوية الأخرى، لا يزال خارج دائرة النوايا الطيّبة،

بعد أن رسم الغرب له صورة سلبية تصف ملامحها بالقول: «..لدينا في الغرب تاريخ طويل من العداء للإسلام، ويبدو أنه راسخ الجذور مثل عدائنا للسامية، وهو العداء الذي شهد صحوة تدعو للقلق في أوربا على مدى السنوات الأخيرة. ورغم ذلك كله، فلقد بدأ الكثيرون يشعرون ـ على الأقل ـ بالخوف من هذا التعصب القديم منذ وقوع المحرقة النازية. ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصل ازدهارها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد يمنع الناس أي وازع عن مهاجمة ذلك الدين، حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلا أقل القليل».

تاريخ من العداء للإسلام

وتبدو فكرة العداء الراسخ الجذور للإسلام، التي أشارت إليها المؤلفة في مقدمتها الآنفة الذكر، خير مدخل لهذا الكتاب الذي يحاول أن يخلّص القارئ الغربي من سطوة الأفكار المسبقة، المتوارثة، والقائمة على الجهل الفاضح بتعاليم الإسلام كما نرى في الفصل الأول من الكتاب، الذي حمل عنوان «العدو محمد»، إذ تشير الكاتبة، على سبيل المثال لا الحصر، إلى أن: «ملحمة «أنشودة رولان» التي ألفت في زمن الحرب الصليبية الأولى تفصح عن جهل فاضح بالطبيعة الأساسية للعقيدة الإسلامية، إذ تصوّر المسلمين من أعداء شارلمان ورولان في صور عابدي الأصنام، وهم يركعون أمام ثلاثة آلهة هي «أبولو» و«تيرفاجان» و«محمد» وإن كانوا على ذلك جنوداً شجعاناً يسعد المقاتل بمنابذتهم!!»

فكرة العداء الغربي للإسلام راسخة الجذور، وملحمة «أنشودة رولان» تفصح عن الجهل الفاضح بعقيدة الإسلام الصحيحة

وتشير الكاتبة إلى أن النبي محمداً الذي يعرف في الغرب باسم «ماهاوند» قد أضحى منذ عام ١١٢٠م ـ أي مطلع القرن الثاني عشر الميلادي ـ أسطورة شائعة في أوربا.. ففي الوقت الذي كانت تنتشر فيه أساطير شارلمان وآرثر وروبين هود، أصبحت «أسطورة ماهاوند» عدو الممالك المسيحية وقرينها راسخة في مخيلة أبناء الغرب! ولعل أسوأ ما في الأمر أن هذه الأسطورة القائمة على الجهل الفاضح بالآخر المسلم كما رأينا، قد اتخذت بعد كتابتها طابعاً أدبياً وهبها حياتها الخاصة منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، على الرغم من المحاولات العلمية الجادة التي بُذلت من قبل بعض الباحثين الموضوعيين في العصر الحديث.. وتؤكد الكاتبة في أكثر من موضع أنه: «ما يزال من الشائع عند أبناء الغرب أن يسلّموا دون نقاش بأن محمداً ليس سوى رجل «استغل» الدين في تحقيق الفتوحات وسيادة العالم. وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف، وذلك على الرغم من وجود دراسات علمية وموضوعية عن الإسلام ونبي الإسلام، تثبت خطل هذه الأسطورة المرتبطة بـ (ماهاوند)».

وإذا أردنا أن نستعرض جذور الموقف التاريخي لهذا العداء، وصولاً إلى امتداداته المعاصرة أمكن لنا تلخيص ذلك في الفكرتين التاليتين اللتين تطرحهما الكاتبة من خلال منهج استقراء تاريخي ـ تحليلي معمق؛ إذ تشير إلى أنه: «في الوقت الذي كان الإسلام قوة عالمية كبرى، كانت أوربا التي اكتسحتها القبائل الهمجية، قد أصبحت بركة ثقافية آسنة. وعلى مرّ الأيام بدا أن العالم كله قد أصبح إسلامياً، مثلما يبدو لنا اليوم وقد اكتسى الطابع الغربي، وظل الإسلام يمثّل تحدياً لايتوقف للغرب حتى القرن الثامن عشر، أما الآن فيبدو أن حرباً باردة ضد الإسلام توشك أن تحل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي!!»

وتتابع الكاتبة في موضع آخر فتقول موضحةً ملامح الصورة الجديدة التي رسمها الغرب للإسلام: «لقد دأبنا على وضع أنماط وقوالب جديدة للتعبير عن كراهيتنا «للإسلام» التي يبدو أنها راسخة في وجداننا.. ففي السبعينيات تملكتنا صور أثرياء النفط، وفي الثمانينيات كانت الصورة «آية الله» المتعصب، أما منذ مسألة سلمان رشدي فقد أصبحت صورة «الإسلام» هي صورة الدين الذي يهدر دم الإبداع وحرية الفنان. ولكن الواقع لا تمثله أي صورة من هذه الصور، بل يتضمن عناصر أخرى لا حصر لها. ولكن ذلك لا يمنع الناس من إصدار الأحكام العامة التي تفتقر إلى الدقة».

وهكذا تضع الكاتبة الغرب في مواجهة معتقداته الراسخة، الخاطئة، المتعصبة ضد الإسلام منذ الفصل الأول للكتاب. إنها تضعه في مواجهة ذاته لا لتنبري للدفاع عن الإسلام المساء إليه فحسب؛ بل لتكشف الازدواجية القائمة في الغرب حقيقة، تجاه ما يسمى بـ «العقلانية». هذه العقلانية التي يطالب فيها الغرب كأساس للتفكير.. لكنه يضرب بها عرض الحائط حين يتعلق الأمر بالإسلام ونبيّه، وما علق بها من أفكار مسبقة وأوهام مختلفة!

معارك الدعوة والإصلاح

وعبر تسعة فصول أخرى هي: محمد رجل الله، والجاهلية، والوحي، والنذير، وافتراق الطرق، وقبلة جديدة، والحرب المقدسة، والسلم المقدس، ووفاة الرسول تبسط الكاتبة بأسلوب سردي شائق وقائع سيرة النبي محمد صلىّ الله عليه وسلم مبينة أن الإله الذي دعا محمدٌ إلى عبادته هو الإله الذي عبده إبراهيم، ودعا إليه موسى وعيسى، أي إن الله ليس اسماً لكيان اخترعه محمد، لكن معنى اللفظ الإله الواحد. وبعد ذلك تعدّد الكاتبة، معتمدة على الموروثات وكتب السيرة، صفات محمد صلى الله عليه وسلم الشخصية التي عرفت عنه قبل البعثة، وما كان عليه من صدق وأمانة ودماثة خلق وتعاطف مع المهمشين من اليتامى والفقراء والعبيد والنساء، وأيضاً ما كان عليه من روحانية وورع، فضلاً عن موهبته السياسية التي مكنته من توحيد العرب، ولَمّ شمل القبائل المتناحرة، ومما قالته في الفصل الثاني من الكتاب:

«كان محمد يتمتع بموهبة سياسية رفيعة القدر إذ تمكّن من تغيير أحوال أمته تغييرًا شاملاً، وأنقذهم من العنف غير المجدي، ومن التحلل ، ومنحهم هوية جديدة يزهون بها؛ وبهذا أصبحوا على استعداد لتأسيس حضارتهم المتفردة. ولقد أطلقت تعاليم محمد مخزون قوة العرب لدرجة أنهم، وخلال مئة عام، امتدت إمبراطوريتهم من جبل طارق إلى الهملايا». وتلفت الكاتبة أنظار القارئ الغربي في هذا السياق إلى عظمة هذا الإنجاز السياسي ـ الحضاري الذي حققه محمد صلى الله عليه وسلم... فتقول:

«وعلى هذا، فإن كان النصر السياسي هو الإنجاز الوحيد لمحمد، فمن حقه علينا أن يحوز إعجابنا»، لكنها تستدرك لتؤكد رسالته السماوية في الآن ذاته فتشير: «لكن نجاح محمد اعتمد على الرؤية الدينية التي نقلها للعرب، والتي اعتنقتها بدورها الرعية من شعوب الإمبراطورية، وذلك لأنها لبّت حاجة روحانية لديهم».

ومن الأفكار المهمة التي تؤكدها الكاتبة كارين أرمسترونغ في سياق الحديث عن سيرة النبي محمد ﷺ، وعن أسلوبه في الدعوة، وبناء المجتمع الجديد من ثم، أن محمداً ﷺ والمسلمين الأوائل لم يحققوا انتصاراتهم بسهولة كما يحلو للبعض أن يتخيّل، ولكنهم اشتبكوا في معارك شرسة يائسة.. وتضيف:

«.. ولولا أن الاعتبار الأول للنبي ورفاقه المقربين كان للدين، ما كتب لهم البقاء، وخلال تلك السنوات الخطيرة، كان محمد مؤمنًا بالوحي المباشر الآتي من الله. لكنه كان عليه أيضًا أن يوظف كل ملكاته الطبيعية. أما المسلمون فقد كانوا يدركون القدرات غير العادية لمحمد، ويعون أيضًا أنه قد غيّر مجرى التاريخ».

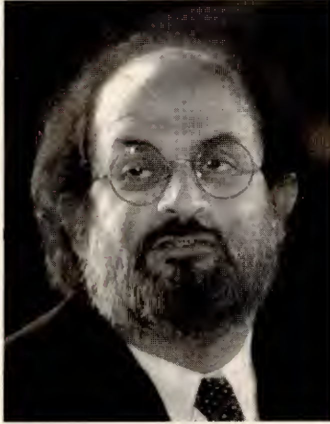
هذه الفكرة التي ترد في الفصل الثاني من الكتاب بوصفها تمهيداً أوليًا للولوج إلى شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم تعود الكاتبة لتؤكدها في الفصل الأخير من الكتاب، وذلك من خلال موازنة هادئة بين أسلوبين في الدعوة، إذ تقول: «وبدلاً من أن يتحول بطريقة لا دنيوية بين تلال الجليل مبشرًا وشافيًا، كما فعل المسيح في تصوير الكتاب المقدس له، كان على محمد أن يشتبك في جهد سياسي ضار لإصلاح المجتمع، كما كانَ على تابعيه أنّ يتعهدوا بمواصلة النضال. وبدلاً من تكريس الجميع جهودهم لإعادة بناء حياتهم الشخصية الخاصة في سياق «السلم الروماني القائم» كما فعل المسيحيون الأوائل، اضطلع محمد وصحابته بمهمة تجديد مجتمعهم، الأمر الذي بدونه لم يكن ليتحقق أي تقدم أخلاقي وروحي».

وبهذا تدافع الكاتبة، عبر اقتناع ذاتي أولاً، عن مفهوم الجهاد الذي تبناه الإسلام، والذي يختلف كل الاختلاف عن مفهوم الدعاية الغربية المسمومة؛ فقد خاض النبي ﷺ معارك إيجابية، واعترك مع الواقع ليردع الظلم والعدوان، ولفرض «السلام الإسلامي» الذي يقيم مجتمعًا عادلاً على أساس من القيم الرفيعة التي تنبع من عقيدة السلم والتسامح.

ما الذي يعنيه محمد ﷺ؟!

وفي الفصل الأخير من كتابها «وفاة الرسول» تعرض الكاتبة لحادثة وفاة محمد صلى الله عليه وسلم، وردود الفعل التي رافقتها وتبعتها، وترى الكاتبة في هذا السياق أن صدمة وفاة محمد كانت أحد أخطر المآزق التي تعرضت لها الأمة الإسلامية على الإطلاق، كما تشير إلى حروب الردة التي نبّهت لخطر ارتداد العرب إلى فرقتهم العربية القديمة.. لكن الكاتبة تؤكد بعد ذلك وحسب وقائع التاريخ:

«.. وفاة محمد كان النجاح المستمر للمشروع الإسلامي مبررًا للجهد السياسي، وغدا برهانًا على الاعتقاد في أن إعادة تنظيم المجتمع وفقًا لمشيئة الله تؤدي إلى سيادته. فما لبثت الجيوش العربية أن أسست إمبراطورية امتدت من جبال الهملايا إلى جبال البرانس».



سلمان رشدي

مَنَح الإسلام العرب هوية جديدة يزهون بها، فأصبح لديهم الاستعداد لتأسيس حضارة متفردة

وتتابع الكاتبة، لتحلل وتشرح تلك المكانة السامية التي يحتلها النبي محمد في وجدانات المسلمين، وذلك الأثر المتجدد الذي تركه في نفوسهم عبر آلاف السنين من دون أن يكون ذلك على حساب انتمائه الأرضي لنبي البشر:

«وكان ولع المسلمين بمحمد هو أحد الطرق الرئيسة التي أسس بها المسلمون ذلك التكامل، وهذا الحس الأخوي. فمازال المسلمون يؤكدون أن محمداً ما هو إلا رجل عادي مثلهم، لكنهم حددوا ذلك المعنى على مر السنين. فقد أصبحوا يرونه رجلاً مثل كل الرجال، لكنه مثل «جوهرة نفيسة بين الحجارة» فبينما تكون الحجارة العادية معتمة وثقيلة، فإن الجوهرة شفافة يخترقها عنصر ضوئي يغيّر من طبيعتها. وبذلك أصبحت حياة محمد «آية» مثل الآيات الأخرى في العالم الطبيعي التي يحث القرآن المسلمين على تأويلها. فإن رسالته النبوية «رمز» أو «تجلٍ» لا يبين فقط النشاط الإلهي في العالم، بل إنها تعكس الاستسلام التام لله، ويمكن النظر إلى تطور مبدأ «قداسة» محمد على أنه محاولة تخيلية لتأمل مغزى حياته وتطبيقها على مستوى الظروف اليومية لحياة الأفراد». وعبر هذه الرؤية التحليلية الدقيقة توضح الكاتبة للعالم العربي، سر الغضب العارم الذي اجتاح العالم الإسلامي إزاء كتاب سلمان رشدي «آيات شيطانية» انطلاقا من هذا الحضور الوجداني الذي يشكله الرسول الكريم ﷺ في وجداناتهم، وفي هذا تقول بإنصاف يستحق الإعجاب والاحترام لما ينطوي عليه من تفهم لمشاعر الآخرين ومعتقداتهم وحقهم في الدفاع عنها:

إن كان على المسلمين فهم الموروثات والمؤسسات الغربية، فإن على الغرب أن يتخلص من أحقاده القديمة

«غير أن حادثة سلمان رشدي قد برهنت على أن ما اعتبره المسلمون هجوماً على الرسول قد انتهك حرمة منطقة مقدسة في نفوس المسلمين في جميع أنحاء الأرض. فقد كان أي تقليل من قدر النبي أو من شأن دينه يُنظر إليه على أنه إثم كبير. أما الآن، وبوجه خاص، فإن ذلك له من القوة ما يجرح مشاعر المسلمين، وذلك لما جرى من امتهان للأمة الإسلامية على يد العالم الغربي».

تجليات الأزمة المعاصرة!

ولعل أهم ما يميز هذا الكتاب أن مؤلفته لا تكتفي بدراسة التاريخ والوقائع وتحليلها، وهي لا تكتفي أيضًا بالغوص عميقًا في جوهر الرسالة المحمدية، وشخص نبيّها ﷺ من أجل تسليط الضوء على ذلك الماضي المجيد، وإعادة الاعتبار إليه في أذهان الغرب، بل إنها - إلى ذلك كله - تنفذ إلى الحاضر الراهن في محاولة لوضع اليد على جوهر الأزمة المعاصرة التي يعيشها المسلمون في هذا العصر، وهي تقول في هذا السياق:

«.. إن المسلمين لم يشعروا فقط بالامتهان والازدراء من قبل القوى الغربية الخارجية، لكنهم شعروا أيضا بالاغتراب والضياع في الداخل؛ لطغيان الحضارة الغربية على موروثاتهم، فلقد بزغت العلمانية - التي نمّيناها بعناية في الغرب - من تقاليدنا الخاصة، لكنها في البلاد الإسلامية تبدو غربية وأجنبية، وذات أثر سلبي أكثر من كونه إيجابيًا.

وهناك جيل من الناس شبّ في العالم الإسلامي لا يشعر بالانتماء.. ووجد هؤلاء الإجابة في الرجوع إلى جذورهم الإسلامية؛ وكما سعى محمد إلى غرس دينه في التقاليد الدينية العربية المقدسة حينما عرّف الحج تعريفًا جديدًا؛ فإن المسلمين الراديكاليين يسعون إلى إيجاد جذور لهم أكثر أمنًا في ماضيهم الإسلامي».

وتنفذ الكاتبة من خلال الفكرة الأخيرة عن ظاهرة الأصولية الإسلامية التي تصفها بأنها «مركبة ومعقدة»، والتي ترى أنها: «انبثقت من الألم الكبير، كما أنها لا تغلّف حاجة يائسة لدى كثير من المسلمين لأخذ زمام مقاديرهم في أيديهم مرة أخرى بالطريقة التي كرّس لها التاريخ».

ولعل أجمل ما تختم به كارين آرمسترونغ كتابها المهم هذا، الدعوة إلى أن يتخلّص الغرب من أحقاده القديمة وأن يتخذ من شخص النبي محمد ﷺ مناسبة للبدء في رسالة المحبة والوفاق التي طالما دعا إليها في رسالته السماوية.. وهي تقول:

«.. أصبح شخص النبي مركزيًا في أحدث التصادمات بين الإسلام والغرب إبان مشكلة سلمان رشدي . وإن كان المسلمون اليوم في حاجة إلى فهم الموروثات والمؤسسات الغربية بدقة أكبر، فإننا في الغرب بحاجة إلى أن نخلص أنفسنا من أحقادنا القديمة. ولعل شخص محمد يكون مناسبًا للبدء، فقد كان رجلاً متدفق المشاعر ذا شخصية مركبّة، وقد أتى ببعض الأفعال التي نجد صعوبة في تقبلّها، لكنه كان ذا عبقرية تستعصي على الإدراك. وقد أسس دينًا وموروثًا حضاريًا لم يكن السيفُ دعامته - برغم الأسطورة الغربية - ودينًا اسمه الإسلام، ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق».

إن ترجمة كتاب «محمد» لكارين آرمسترونغ يمثّل برأينا خدمة ثقافية وحضارية للقارئ العربي.. فهذا الكتاب الموجه إلى القارئ الغربي أساسًا، ينطوي على فهم عميق للإشكالات التاريخية والمعاصرة التي واجهتها وتواجهها الشخصية العربية، وهو يتخذ من سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم محورًا لتأمل تلك المسيرة الصعبة والشائكة التي قطعتها الحضارة العربية في عصورها المختلفة.

إنه كتاب تتبدّى فيه صورة الإسلام ونبيّه والمسلمين في مرآة الآخر.. لكنها تلك المرآة الصافية، النقية، الخالية من التشوهات والأخيلة السوداء.